nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





معالم مارمخ الإنسانية

الألفاكتابالثاني

الإمشداف العلم و .سمس پرسپرحسان رئیسس مجلست ابلدارة

دشيس التعويو

لمشعى المطعيعي

مسديرالتصرير

أحسمدصليت

الإشواف الغني

محسمد قطب

الإخراج الضنى

محسنةعطية

ه ج ولز مَعالِم ارمح الانسَانية

رب عبَدالعزيزتونين جَاويْر

المجلد الشالث في المسليحية والاستلام والعصور الوستطى وعصت والنهضية

الطبعة الرابعة



هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being a Plain History of Life and Mankind

By

H. G. WELLS.

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

١ -- راجع الطبعة الأولى المرحوم الأستاذ محمد مأمون نجا والأستاذ
 الدكتور عبد الحميد يونس ، وراجع المترجم الطبعة الثانية .

۲ - وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة ونقحها على أحدث الطبعات الانجليزية للكتاب١٩٦٣ التي أشرف عليها الاستاذ رايموند پوستجيت الكاتب والصحفى الانجليزي المعروف

محتويات الكتاب

عنف	,						-				*		
۵			•••			• • •	•••	• •••	***	• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •	٠ د	، الكتاب	محتويات
7			***							ئط	والخرا	الصور	فهو س
5	· · ·											لمترجم	
			-,,								→ tit	رات جم	سما و
Ü			•••	•••	• • • •	* * *	•••	• •••	•••	الثانية	للطبعه	المترجم	کلمه
س	•••		•••		•••	•••	•••	• • • •	•••	• •••	الثالثة	الطبعة	تصدير
					U	سادس	ب الس	كتار	ال				
						إسلا	ة وال	سيحيا	11				
		• • •	نر بية نر بية	ورية ال	مراط	ط الإ	ا وسقو	لسيحية	قيام ا.	رن :	والعشرو	الثامن و	الفصل
٠٨,	•••				• •				ة المسيح				1
7 / 4	• • •				•••								۲
799	• • •	• • •											۳
7 + 4	• • •	•••											£ , '
7 + 7	•••												٥
11	• • •								واضطهاد				٦
/ 1	•••			•••									٧
۰۲۷	•••	•••											٨
440	•••	•••	• • •						,				٩
٧٣.			•••	•••			•••	ية .	د المسيح				١.
٥٣٧	***		•••		•••	•••						 الفن 	
	نطية	والبيز	ربية	ريتينالغ	ر اطو	الإما	انحلال	بيا آثناء	ريخ آس	ن: تا	العشرو	لتاسع وا	الفصل
٧٣٧					•••	•••		• •••			نيان الك		1
18 *	•••		•••	••• •••	•••				ئية في فا				Y
731	•••	*(0.8	• • •		***		••		عهد الس				۳
/ £ A	• • •		•••	•••		••••			لام				4
				•• •••									٥
				•• •••									٦
				•• •••									٧
				••,					-				٨
				••••									4
/ Y Z									انج ١٠٠٠	ں بشو	لات يو،	۱ رحا	. •

	(و)
	4
منح	,
محمد عَلِيِّ والإسلام	' الفصل الثلاثون :
ب قبل محمد (ص) ب قبل محمد (ص	١ - بلاد العرد
(ص) حتى الهجرة المجرة	٢ - حياة محمد
ر) يصبح نبياً منافحاً و بياً منافحاً	۳ - محمد (صر
سلام	 عاليم الإ
سلام	ه – الحليفتان
ة بني أمية ٨١١	۴ – أيام عظم
ية الإسلام في ظل العباسيين ٨٢٢	
مربية	
بى	
شلائون : عالم المسيحية والحروب الصليبية	الفصل الحادي وا
ربي في أشد دركات تدهوره ٨٣٥	
قطاع قطاع	٧ - نظام الا
ير وڤنجيين الفرنجية ٨٤٢	٣ ــ مملكة الم
البر إبرة الغربيين بي من من من من من بي من من ٢٠٠٠	<u> ۲</u> تنصبر
يصبح إميراطوراً على الغرب من	ه سشملان
شرلمان ۸۰۸	
مارة الرومانسكيان مارة الرومانسكيان ٨٦١	**
رن والألمان يتم انفصالهم من	- •
والحبريون والأتراك السلجوتيون ٨٦٩	» - النورمان
شغاثت القسطنطينية بروما ٨٧٧ ٠٠٠ ٠٠٠	. ١ - كـف اس
المالية	
الصليبية اختبار للمسيحية ٨٩٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	۱۱ - الحروب ۱۷ - الحدوب
ور فردریك الثانی میمانی میمانی میمانی میمانی میمانی میمانی میمانی میمانی	٣١ - الامراط
ت تعدیداتها ۹۰۱ ماه ۹۰۱ ماه ماه ماه ماه ۹۰۱ ماه ۹۰۱ ماه	ا بایب ا
ماء البابوات العظام ماء البابوات العظام	٥١ ــ قائمة بأ
والفن القوطيان ٩١٦	١٦ - العارة
العصور الوسطى ١٠٠ ٠٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠	

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

سفحة	•																
	رية)	ر قال	رالط	(عص	ظيمة	ہم العا	وريتم	براط	ه و إم	حلفاو	انو∸	كيزخ	: چذ	لائون	و الثا	الثاني	الفصل
177	•••	•••	•••	•••	•••		•••	•••		ر	نی عشہ	ِن ا لنا	بة القر	ند نهای	آسيارء	_	5
477	٠				•••	•••	• • •	• • •	•••	•••	•••	باداتهم	وانتص	لغول	قيام الم	-	۲
												لو					
48.			•••	•••		•••	•••	• • •	•••	ä	اخطيني	والقسه	ئيون	المثها	الأتراا	-	4
4 8 9	•••						• • •	•••			حية	ل المسي	المغو	يعتنق	لماذا لم	_	٥
4 8 A	•••	•••			•••	***	•••		• • •	•••	ماين	في الص	ومنبج	يوان	أسرتا	-	٦
404	•••	•••	• • •	•••	•••	• • •		• • •	•••	لية	م القبا	، الرو.	ون إلى	، يرتد	المغول	_	٧
401	•••	•••	•••	•••		• • •	ىيا)	الروس	رڤيا (وسكو	صر م	اق وقيہ	القيي	لورية	إمبر اء	-	٨
407	***	***	•••	•••	•••	•••		• • •			•••		• • •	لنك	تيمور	-	4
900	•••	•••	• • •		• • •	***		• • •		•••	;	المغو ليا	الجند	لورية	إمبراه	- 1	•
177	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	• • •	•••	•••	•••	ور)	(الن	الغجر	- 1	١
	برية	ق ال	الطر	مكان	نحتل	ئرية .	حبال	لطر ق	بية؛ا	الغر	لمدئية	بضة ا	ن: ن	لثلاثو	ث وا	الثان	الفصل
470	••	•••							•••	•••		الشعيى	لتعليم	ىية واا	المسيد	-	١
471	•••	•••		•••	•••	•••	•••			4	لنفسه	لتفكير	ع في اا	تشرخ	أوربا	_	۲
												بزوع					۴
444	•••	***	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	بان	الإنـ	ق عقل	الورا	. حر ر	کیف		٤
449	•••	•••	***		•••	•••	•••	ب	الشعود	ä _n ti (وتست	اء وبر	الأمر	ــتالتية	بروت	-	•
447	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	***	•••	•••	***	سبأته	لا من	يستية	العلم		٦
٠١٠	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••		•••	***	ä	الأورب	لمدن	لحديد ا	الغوأ		٧
• 1 Y	•••	•••		•••	•••		•••					•••	ä,	الأدب	النهضا	level 1 to 1	٨
. 41	•••	•••	•••	•••		•••	•••		•••	•••	•••			الفئيا	النهضا	_	٩
. 44	•••	•••	***		•••	•••	•••	•••			•••	اريخ	مل التا	کا تد۔	أمرية	- i	•
• ٣٧	•••	•••	•••	•••	•••	• • •						المالم	للي في	ماكياة	رأي.	- \	١
13.	•••	•••	••/	•••	•••	•••	٠,٠	•••	,	•••	•••		و پسر ا	ية س	جهو	٦ ١	۲
		• • •							1.	ri i	34.	بر اطب	. SIL 21	- 1	1.		

مفخ
الله على المروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك المروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك
(ح) التيار السفلي الذهني المضاد التيار السفلي الذهني المضاد
تصويب الأخطاء الأخطاء
فهرست أبجدي الكتاب الكتاب
التعريف بالمترجم التعريف بالمترجم
فهرس الصور والخرائط
١٢٠ – خريطة منطقة الحليل والولايات المحيطة بها ١٢٠
۱۲۱ - خويطة أوربا حوالي ٠٠٠ م ١٢١
١٢٢ - صورة بالفسيفساء لِحستنيان وبلاطه ١٠٠٠ - ١٠٠٠ - ١٠٠٠ - ١٠٠٠ - ١٠٠٠ - ١٠٠٠ - ١٠٠٠ -
۱۲۳ – خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسانيين ٥٠٠ ٧٤٠ ١٢٤ – خريطة المدن في آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بين المهرين (في القرن الأول المسيحي) ٧٤٧
١٢٥ - صورة لعبلة إفثالية ١٢٥ - ١٢٥ المرين (بي المرك الول المسيحي) ٧٤٧
١٢٦ – خويطة الإمبراطورية الصينية ومقارنة مساحتها بالإمبراطورية الرومانية
۱۲۷ - « تبين طريق يوآن تشوانج من الصين إلى الهند ۲۹ - ۹۶ ٧٧٠
١٢٨ – « بلاد العرب والبلاد المتاخمة لحما ٧٨٤
× ١٢٩ − « بدايات الدولة الإسلامية « بدايات الدولة الإسلامية
١٣٠ – « نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عاماً « نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عاماً
۱۳۱ – « الإمبر اطورية الإسلامية عام ٥٥٠ م ٨١٨
۱۳۲ - « أوربا حوالي سينة ١٠٠ م ١٠٠ ٨٤٠
۱۳۳ – « حدود نملتكات الفرنجة في عهد شارل مارتل
۱۳۶ – « انجلترة سنة ۱۶۰ میلادیة ۵۶۸ – ۱۳۰ سنة ۱۳۸ ۵۶۸ – ۱۳۰ سنة ۱۳۸ ۵۶۸
۱۳۱ - « أوريا عند وقاة شارلمان سنة ۱۸۶ م مه ۸۷۸
١٣٧ – صورة رسم بارز من قبر شارلمان في إيكس لاشاپل وهو يكرس كنيسة للعدراء ٢٠٨
١٣٨ - خريطة فرنسا في نهاية القرن العاشر ١٣٨
۱۳۹ – « إمبر اطورية أوتو الكبير ٨٦٧
٠١٤٠ ﴿ طَهُورُ السَّلَاجَقَةُ ١٩٠٠ ١٩٠٠ ١٩٠٠ ١٩٠٠ ١٩٠٠ ١٩٠٠
۱٤١ « الحرب الصليبية الأولى « ١٠٠٠ « ١٠٠٠ م
١٤٢ صورة قبر صلاح الدين ١٤٢
۱٤٣ - « كنيسة القديس مارك بالبندقية « كنيسة القديس مارك بالبندقية
۱٤٤ - « الصليبي المثالي
١٤٥ ــ خريطة أوريا وآسيا حوالي ١٢٠٠ م

صفحة																		وقم
44.	•••		•••	•••	•••	()	444	ـنة (ته ســ	. وقا	ان عنا	کیز خا	بة جذ	اطورا	إمبر	خريطة		127
947		•••		•••	پواو	اركو	دت ما	ورحلا	(11	۲۸۰	رالى (لية حو	المغو	لايات	ااوا	"	-	1 2 4
٩٣٨																		
4 2 2																		
960															*			
487																		
405																		
707																		
478																		
484																		
441																		
498																		104
444	• • •	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	ولا	لوي	"		101
	***	•••	•••	•••	•••	•••	•••	• • •	•••	(رائس	~ں (بة ريم	تدراث	5	1)	-	109
۸۰۰۸																		17.
1.14																خريطة	$\overline{}$	171
																1)		177
1.42	***		•••	•••		•••	•••	•••	•••	•••	•••	پر و	ے وا	كسيا	KII.	1)	-	177
73.1		***	• • • •	•••	•••	•••	•••	ć	لمرات	ق وا.	۾ الطر	سح أه	توض	ريسر ة	لسو))		178
73.1	•••	***	•••	• • •	•••	***	•••	•••	•••	U	'الحامیـ	شارل	عهد	ريا في	آو. 	1)		170
1 • • •	***	•••	***	***	***	***	•••	•••	•••	•••	امس	رل الح	ر شار سع	ار اطو	الإم	صورة		
1.54																		177
1													إمرار	ي الذ	n.a	n	Second	111



كلمة المترجم

نال الزمان بعد الأغريق من صولة الرومان ، ومالت شمس قيصر ، وولتُ الأيام العظيمة والأيام دُول

وانقضت خس عشرة مئة من السنين . . . تلقت فيها البشرية من الدروس ما تلقت ، وقاست من العذاب والآلام ألواناً .

خمس عشرة مئة سنة أو تريد . . مرت هزالا عجافاً حتى لإخال التاريخ شديد الرغبة فى تخليص ذاكرته من شوائها ؛ لما حطمت من نظم ، وشتت من جموع ، ولما قوضت من خلق ولما اجترحته فى الوحدة العالمية العامة التى كانت الشيء الوحيد الذى أفادته الدنيا من الرومان والى لا تبرح هدفنا الأعلى الذى نسعد بدلوفنا إليه .

خس عشرة مئة من السنن . . توقف فيها موكب الحضارة ، وأخذ الناس يتلمسون طريقهم فلا يجدونه ؛ وكأنى بهم يطلبون القديم فلا يستطيعون إليه وصولا ، ويجنحون إلى إصلاح الحاضر والحاضر خرائب وأنقاض ، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه بارقة تحيى نفوسهم . وكان الناس فى قديم العصور فى همجية فآلت بهم الحال إلى نظام ، وها هم أولاء فى حال لا هى بالهمجية ولا هى بالمدنية ، حال من الانتكاس الموئس الموحش .

خس عشرة مئة من السنين أو تريد . . أطبقت فيها عن العالم المعروف سدفة محلولكة ، فقد فيها الإنسان كل أمل فى هذا الوجود ؛ وارتد إلى الكون قانون الغاب الذى قوامه الظفر والناب ، والذى يغتال فيه القوى الضعيف ، وترجح فيه القوة كل حق .

ظلام حالك وفوضى شاملة ، وتفتت لكل شيء إلى جزيئاته بل ذراته الأولى . . . وذوو الضائر يسائلون أنفسهم أهكذا نهاية البشرية ؟ أهكذا تتحطم كل الأمال التي عقدها الناس على مستقبل مشرق سعيد ؟

ليل عبوس عصيب رهق حتى تقطعت نياط الآمال وطال ما جثم حتى بلغت النفوس الحناجر ، فما يستطيع أحد أن يفيق مما غشيه من هم وحرز ن .

ولولا أن يد القدر امتدت إلى تلك الحقية الطويلة المديدة من الليل الأكدر ، فأومضت فيها ثلاث ومضات خطفت الأبصار بادئ الرأى ، ثم استردت الأمور بعض وعيها ، وأخذت تتلمس بعدهن طريقها نحو نور ابتدأ شعاعاً في دقة الخيط ، وما زال يقوى وينبسط حتى أصبح في القرن العشرين فيضاً منهمراً من باهر الضياء وساطع الإشراق ، لولا هذا لقضى على المدنية في غارها وحاضرها ، ولأديل من الإنسانية إلى أبد الآبدين .

فأما الومضة الأولى التى شق نورها غياهب تلك الظلمة الفاحمة ، فذلك الوليد الذى انتبذت به أمه مكاناً قصياً ، والذى كان كلمة من الله شاءت بها إرادته القدسية ، أن تعيد إلى النفوس شيئاً من الأمل ، وأن تلقى فى روع الإنسانية ألا تقنط من رحمة الله . وإذا هو يُعملم القوى الرحمة بالضعيف ويدعو إلى التفانى فى خدمة الغير تفانياً يُد خل الإنسان فى ملكوت السهاوات وهو ، بعد فى هذه الأرض ، ويجرده من عرض الدنيا ويتوج مفرقه بحب من يحيطون به إذ يمنحهم كل ما تملكه يداه من ممال وقوة ونشب .

وكانت الومضة التى أوراها ذلك النبى الرحيم خاطفة وضاءة أطاشت صواب الإنسانية فمدت يديها توارى العينين قبل أن يخطف البرق ضياءهما . وما هى إلا هنيهة حتى كان ستار الظلام قد أسدل من جديد كثيفاً فاحاً مدلها

وهوت البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد

ثم دار الزمان دورته ، وآن للعناية أن تلحظ الدنيا برحمة من لدنها ، تعيد إليها شيئاً من الثقة والطمأنينة . وجاءت النفحات القدسية في البوادي العربية على يد ذلك اليتم العائل ، الذي آواه ربه وأغنى . إذ يقول له الملك : « اقرأ » وما هو بقارىء ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتاباً مطهراً ، يدعوهم فيه إلى عبادة الأحد الصمد ، وإلى إخاء شامل ومساواة بين القرشي والحبشي . ويأمرهم بالتسامح والعدل والإحسان و يحضهم على العمل الشريف في هذه الدنيا والتزود للآخرة بالصلاح

والتقوى. لقد أشرق ضياء الطاهر الصادق ، وهبت لنصرته البوادى وأقبـــل عليــه الناس رجالا وعلى كل ضامر ، وسعدت البشرية هنيهة بالإيمان والمساواة والتضحية فى سبيل الحق والحسر.

ثم غلبت على الإنسانية شقوتها ، ففقدت إيمانها بالحق ، وحرمت التعلق بالمُثُلُلُ وَتَجَانَفْت عن كُلّ تضحية .

وانطبق الستار كرة أخرى مرخياً دياجيره ، وران على الناس سبات عميق طال في الشرق حبى لتحسبه نعاس الأبد .

ثم خفق سراج القدر في القرون الوسطى بالومضة الثالثة التي ، أرسلت شرارة بارقة اتصلت بهشيم الحيوات الأولى ، ووجدت من المسيحية والإسلام ذخراً لا ينضب له معين ؛ فأوقدت ناراً بدأت بإحياء العلوم خافتة تسرى ولا ترى ، وانتهت بنهضسة القرون الوسطى مشبوبة حارة ، حتى ترامت إلى ما ترى حولك من مشاعل وهاجة ونبران فياضة الضياء مشرقة السطوع

تلك هي الومضات الثلاث التي يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية وبشيرها الناصرى الكريم ؛ وإلى الإسلام ورسوله المصطنى الهادى الأمين ، وإلى ذلك النهوض الذي دفع بدولاب المعرفة والحياة في القرون الوسطى دفعة توثب أدارته إلى ما يحيط بك من حال الشئون في القرن العشرين .

ولن أزيد القارئ بياناً بالجذل الطروب الذى يستعرض به المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفهن صوى عظمى فى تاريخ الإنسانية وركائز ترتكز عليها فى دلوفها نحو الأمام ولا بالتعقيبات الفلسفية العميقة التى يعقب بها عليها ولا بالنظرات الناقدة الدقيقة والتوجيهات التى مهما يكن رأى بعض الناس فيها فإنها صادرة من قلب مخلص مؤمن بما يدعو إليه .

وبحسب القارئ أن يقلب صفحيات الكتاب ليستمتع وينزكي .

كلة المترجم للطبعة الثانية

أحمد الله كثيراً إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة . وقد بذلت فى تنقيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطبعات الإنحليزية للكتاب نفس ما بذلت من جهد فى محلديه الأول والثانى . وأضفت إليه كدأبى فى سالفيه الشروح والفهارس الأبجدية . وبسطت عبارته لتكون فى متناول كل فهم رغبة منى فى إبلاغ ثقافة المؤلف الرفيعة وعلمه الغزير وبصائره النفاذة إلى كل ذى عقل مستطلع يطلب النور .

غ . ت. ج

مصر الجديدة في ١٤ مايو ١٩٦١

تصدير الطبعة الثالثة

كان من الطبيعي أن تنفد طبعتا الكتاب الأولى والثانية . ولا غرو فإنه يما حوى من ثقافة عميقة وفلسفة عقلانية ونظرة علمية حديثة ودعوة مخلصة إلى خير البشرية تكاد تتم الرسالات العليا التي قام بها أفذاذ الرجال ، قد أصبح من الأركان العقلية التي لا يستغنى عنها مثقف في هذا العصر .

وقد تصادف ، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع ، أن وقعت فى يدى طبعة إنجليزية حديثة جداً نقحها المستر رايموند پوستجيت فضبطه عليها ، وفعلت ذلك أيضاً بالمجلدين الأول والثانى من الطبعة الثالثة . وكذلك نقحت عليها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا .

وقد راجعت ترجمته مراجعة دقيقة . وأعدت النظر في الأعلام فجائت مطابقة لما ورد بالكتاب المقدس وغيره من المظان والمراجع وبذا أقدمه إلى القراء راجياً أن ينتفعوا به باعتباره موسوعة ضخمة من العلم والثقافة والتاريخ أن يقبل علمها شبابنا إطلاعاً وانتهالا ؟

مصر الجديدة في أول يناير ١٩٧٢

ع . ت . جاو پر



ا*لكِمائيائيائي* المسيحية والإسلام

الفصِّال مِنْ العِيْرِنُ

قيام المسيحية وسقوط الامبراطورية الغربية

١ - اليهودية إبان الحقبة المسيحية . ٢ - تعاليم يسوع (عيسى) الناصرى .

٨ - تأسيس المسيحية الرسمية .

٣ - الديانات العامة الجديدة . ٤ - صلب يسوع الناصرى .

ه – مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع . ٢ – كفاحات المسيحية واضطهاداتها .

٧ – قسطنطين الأكبر .

٩ - خريطة أوربيا في ٥٠٠ م .
 ١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية .

١١ – الفن البنزنطي .

١ _ المودية (١) إبان الحقبة المسيحية

لن يتهيأ لنا فهم خصائص المسيحية التى عليها الآن أن تلعب دوراً كبيراً فى تاويخنا ، والتى فتحت أعين الناس على نواح جديدة تبشر بإمكان قيام عالم موحد ، حتى نرجع البصر بضع قرون ونحدثك عن الأحداث التى جرت فى فلسطين وسوريا ، وهما القطران اللذان نشأت فيهما المسيحية . ولقد أسلفنا إليك من قبل أهم الحقائق المتعلقة بأصل الشعب اليهودى وتقاليده ، وتحدثنا عن يهود التشتت (Diaspora) وعما فطرت عليه اليهودية من حيث جوهرها من تشتت وتشرد حتى وهى فى مهد بدايتها ، وعن التطور التدريجي لفكرة إله أحد عادل يحكم فى الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه : أن يحفظ الشعب اليهودى ويرفعه مكاناً عليا . والفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً عجيباً من رحابة أفق لاهوتية ووطنية عنصرية حادة ضيقة . وكان

⁽١) أرض أو بملاد يهوديا أو يهودية أواليهودية هي ترجمة للفظة (Judea) الأجنبية . كما ورد في المجلد الثاني من المعالم . وتسميها الموسوعة العربية الميسرة باسم جودايا . (المترجم)

اليهود يترقبون مخلّصاً معيناً: مسيحاً يخلص البشرية بطريقة محببة إليهم ، تنطوى على " استرجاع ماكان لداود وسليمان من مجد أسطورى ، ووضع العالم آخر الأمرتحت أقدام اليهودية الخيّرة والحازمة أيضاً . حتى إذا انحطت القوى السياسية للشعوب السامية ، وإذ أفل نجم قرطاچه من بعد صور وهوتا فى غياهب الظلمات، وأصبحت أسپانيا ولاية رومانية ، فقد ترعرغ ذلك الحلم وشاع . وليس ثمة شك أن الفينيقيين المتناثرين في أسپانيا وإفريقية وفى كل أرجاء البحر المتوسط ، وهم قوم يتكلمون لغة شديدة القربى بالعبرانية ، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحقة ، ــ قد تحولوا إلى أتباع لدين اليهودية . ذلك أنه مرت في التاريخ اليهودي أدوار قوية من الدعوة واسمالة الأنصار إلى اليهودية كما تقلبت عليه أدوار أخرى من شامل الغيرة والاعتزال. إذ حدث يوماً أن اليهود قهروا الإدومايين (Idumeans) وأجبروهم أجمعين أن يصبحوا هودا(١). وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية فى زمان محمد (صلعم) ، وثمة شعب تركى فى جنوب الروسيا كان فى معظمه يهو دياً فى القرن التاسع . والواقع أن اليهودية هى المثل الأعلى السياسي المعاد تشكيله لكثير من الشعوب المحطمة وهي في غالب أمرها سامية الأصل . ولا مراء أن ما لليهود من التقاليد المالية والتجارية إنما يعود إلى الفئة الفينيقية منهم وإلى دخول الآراميين ملة اليهود في بابل . على أن هذه الائتلافات والاندماجات وألوان التمثل ، التي كانت تقوم تقريباً بكل مدينة من مدن الإميراطورية الرومانية ، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقاً ؛ قد ترتب عليها أن الجتمعات البهودية كانت تتجر وتزدهروتثرى وتتصل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية . ولم يحدث في يوم من الأيام أن الشطر الرئيسي من الشعب المهودي كان يقطن الهودية ، كما أنه لم ينبعث إلى العالم من ذلك القطر أبدا .

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المهودة كانت تنعم بتسهيلات وفرص عظيمة جداً من الناحيتين المالية والسياسية . فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيديهم ، وكانوا يستطيعون أن يستثير وا وأن يهدئوا و مابلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حتى آنذاك أوسع مهم انتشاراً ،

⁽۱) تارىخ يوسيفوس .

ولكن كان للم تراث قديم امتاز بهاسك أقوى مماكان لدى الإغريق. فكان الإغريقى عدوا للإغريقى ؛ أما اليهودى فكان لليهودى أخاً ونصيراً. فحيها حل يهودى ، وجد رجالا لهم عقل مثل عقليته وتقاليد مثل تقاليده. فكان في وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون القانوني . من أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لهوئلاء القوم حساباً في كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم أو منهلا للقروض أو مبعثا للمتاعب . وهكذا حدث أن اليهود ظلوا محتفظين بكيانهم كشعب ، على حين أصبحت « الهلينية » نوراً عاماً يضيء للجنس البشرى كافة .

معقد الحليل والولايات الحيطاة بها انظامات المعالمة بها انظامات المعالمة الم

(شكل ١٢٠) منطقة الجليل والولايات المحيطة بها

ولسنا بمستطيعين أن نسرد هنا على سببل التفصيل تاريخ ذلك القسم الأصغر منالشعبالبهو دى الذىعاش فى بلاد الهودية (Judea) نفسها . عاد هوًلاء الهورد إلى مركزهم القديم المحفوف بالمخاطر؛ عادوا يلتمسون السلام مرة ثانية في وسط طريق كبير مطروق إن صحح هذا التعبير . لقدكانوا فىالزمان القديم ينزلونبين سوريا وآشور إلى الشيال ومصر إلى الجنوب. وها هم الآن بىنالسلوقىين شهالا و البطالمة جنوباً ، فلما أنذهبت ريح السلوقيين، هوت على رأسهم قوة الرومان. ونتيجة لهذا كله كان استقلال « بلاد اليهو دية » على الدوام الطف النبيية أمرآ مقيداً غىرمستقى. ولابد للقارئ أن رجع إلى كتابى « الأخبار العتيقة »

(Antiquities) و « حروب البهود » لفلا ڤيوس يوسيفوس ــ (وهو كاتب مطنب ممل

ذو نرعة وطنية جامحة تبعث في الرأس الجنون) — إذا هو شاء أن يعرف من تقلب عليهم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعلين ، والمكابيين والهيروديين ومن شاكلهم . كانت غالبية هؤلاء الحكام من الطراز الشرقي المعتاد ، ماكرين ، غادرين وملطخي الأيدى بالدماء . وقد أخذت منهم أورشليم ثلاث مرات ودمر لهم المعيد مرتين . ولم ينقذ هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد المحوالتام إلا معونة يهود التشتت الأقوى نفوذا ، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح المدينة تيتوس الابن المتبنى للإمبر اطور فسبازيان وجليفته ، ودمرها هي والمعبد على السواء بعد حصار يضارع في العنف والمرارة والهول حصار صور وقرطاچة . وقد فعل تيتوس ذلك محاولا أن يقضى على الشعب اليهودى القضاء المبرم إلا أنه في الواقع زاد الشعب اليهودى قوة بتدميره النقطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه .

مرت بين العودة من الأسر وبين تدمير أورشليم قرون خمسة انقضت في حروب واضطرابات أهلية داخلية ، ولكن ظل اليهود أثناءها محتفظين بصفات معينة ثابتة ، فاليهودي لم يفتأ يؤمن بوحدانية الإله إيماناً راسخاً ؛ وهو لا يقبل أي إله آخر إلا الإله الواحد الحق . وإنه ليقف في روما كما يقف في أورشكم رافضاً في رجولة عبادة أي قيصر رب . كما أنه استمسك جهد طاقته بمواثيقه مع ربه . فلم يكن يسمح بدخول أية تماثيل منحوتة إلى أورشليم ؛ بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة ،

وإنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود اتجاهين فكرين متباعدين أثناء تلك المئات الحمس من السنين . فأنت واجد إلى اليمين ، إن جاز لنا مثل هذا التعير ، فئة اليهود العليا المتشددة ، وهم الفريسيون الذين يستمسكون بعقيدة السلف أبلغ استمساك ويحافظون تماماً حتى على أدق تفاصيل الشريعة ، وهم شديدو الوطنية قويو النزعة الانعزالية . وحدث ذات مرة أن سقطت أورشليم في يد الملك السلوقي أنطيو خوس الرابع ، لأن استمساكهم بعقيدتهم أبي عايهم أن يدافعوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل . وكذلك ترتب على امتناع اليهود فيا بعد عن بذل أي جهد يوم السبت عليهم العمل . وكذلك ترتب على امتناع اليهود فيا بعد عن بذل أي جهد يوم السبت

لتدمير أدوات الحصار الذى ألقاه پومپى العظيم على أورشليم ، أنه اســــتطاع أن يستولىعلمها .

ولكن كان يوجد لقاء هؤلاء اليهود المتشددين ، يهود أخر واسعو الأفق ، هم يهود اليسار ، الذين كانوا يؤمنون بالمذاهب الهلينية ، ويمكن أن يضم إليهم الصدوقيون (Sadducees) – الذين لم يكونوا يعتقدون في الخلود . وكان هؤلاء اليهود الأخيرون وهم اليهود الواسعو الأفق ، يميلون جميعاً – وإن بدرجات متفاوتة – إلى الامتزاج والاندماج في الإغريق والشعوب « المهلنة » المحيطة بهم . وكانوا على أتم الأهبة أن يقبلوا في مذهبهم أتباعاً جدداً ، وبذلك يتقاسمون ربوبية الرب ووعده مع البشرية كافة . بيد أن ما كسبوه من السهاحة وسعة الأفق خسروه في ناجية الاستقامة وحسن السمعة . فهم في « بلاد اليهودية » يعتبرون العلمانيين المتكالبين على الأمور الدنيوية . ولقد ذكرنا من قبل كيف أن يهود مصر المهلنين فقدوا لغتهم العبرية واضطروا إلى نقل توراتهم إلى الإغريقية .

وظهر فى «بلاد اليهودية» فى أيام طيبريوس قيصر، معلم عظيم قدُدَّر له أن يحررالإدراك العميق لبر الله ووحدانيته التي لا تقبل تحدياً ولا جدلا، والتزامات الإنسان المعنوية نحوالله ، وهي التي كانت دعامة لقوة العقيدة اليهودية السلفية ، — يحررها من ذلك التشدد الضيق الاعتزالي الجشع ، الذي كان يخالطها في الذهن اليهودي على أبلغ صورة خارقة . كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسي) الناصري ، الذي هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسسها .

٢ ــ تعاليم يسوع (عيسى) الناصرى

إن الجمهور الذى سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم ، سيكون معظمه من المسيحيين، وربما يكون فيه بعض قراء متناثرين من اليهود ، والأولون على أقل تقدير ، يعدون يسوع الناصرى شيئاً أعظم كثيراً من مجرد معلم من البشر ، كما يعدون ظهوره فى العالم لاحدثاً طبيعياً فى التاريخ بل شيئاً إعجازياً خارقاً ، يعترض ويغير ماللحياة من ناموس ثابت للتطور يهدف إلى « وعى مشترك وإرادة مشتركة » وبحوله عن سبيله

- الأمر الذى ما برحنا حتى الآن نقفو أثره فى هذا الكتاب . بيد أن هذه المعتقدات على ذيوعها فى أوربا وأمريكا ، ليست مع ذلك معتقدات الناس كافة ولا الغالبية العظمى من الجنس البشرى ، ونحن إنما نكتب هذه « المعالم » فى تاريخ الحياة ، مجانبين بأقصى مستطاعنا كل ما من شأنه أن يثير منازعة أو جدلا . كما أننا نحاول أن نفتر ض ونحن نكتب أن من سيقر أون هذا الكتاب من الهندوك أو المسلمين أو البوذيين يعدلون فى عددهم من يقرأونه من الأمريكيين والأوربيين الغربين . لذلك سنستمسك بالحقائق الظاهرة استمساكاً دقيقاً ونجانب - دون أية منازعة أو إنكار - كل الشروح اللاهوتية التي فرضت علمها فرضاً .

وسنخبرك بما اعتقده الناس فى يسوع الناصرى ، أما هو فإنّا سننظر إليه كما بدا ، أى بوصفه بشراً على نحو ما يفعل المصور تماماً حيث يلتزم حين يصوره إظهاره فى صورة البشر. وسنعالج الوثائق التى تدون أعماله وتعاليمه على أنها وثائق بشرية عادية . فإذا سطع ضياء الألوهية من خلال تلاوتنا لها ، فلن نعينه ولن نحجبه . وهذا هو ما فعلناه آنها في حالة بوذا ، وهو ما سننهجه قريباً مع محمد (صلى الله عليه وسلم) . فليست مهمتنا أن نكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية يل من وجهة التاريخ . فليست عنايتنا موجهة إلى أهمية حياته الروحية واللاهوتية ، بل إلى تأثير اتها على حياة الناس السياسية واليومية .

ويكاد يكون المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن شخصية يسوع (عليه السلام) محصوراً في الأناجيل الأربعة (Gospels) ، وكلها كانت بالتأكيد موجودة بعد وفاته ببضع عشرات من السنين، ومن الإشارات إلى حياته في رسائل (Epistles) الدعاة المسيحيين الأوائل، ويظن الكثيرون أن الأناجيل الثلاثة الأولى، متى ومرقص ولوقا، مستمدة من بعض وثائق أقدم منها ؛ ولكن إنجيل القديس يوحنا يتصف بطابع أخص وأبرز ؛ كما أنه يصطبغ بصبغة لاهوتية ذات طابع هليني قوى . ويميل النقاد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقص أصبح ماكتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة . بيد أن الأناجيل أميح ماكتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة . بيد أن الأناجيل الأربعة جميعاً تتفق في إعطائنا صورة لشخصية واضمحة الحدود تماماً . وهي تحمل من الإقتناع بصحتها نفس ذلك الإقتناع للذي تحمله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن بوذا .

وبالرغم مما أضيف إلى القصة من إضافات معجزية وأمور لا تصدق ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول « إن هذا القسم من المكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الحيال والاختراع » .

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطمست وراء تلك الصور الجامدة المتربعة التي عليها وثن البوذية المتأخرة المُندَهِ ، فكذلك يشعر المرء أن شخص يسوع النحيل المكدود قد أضر به كثيراً ذلك الجو الوهمي وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته في الفن المسيحي الجديث تبجيل خاطئ من رسام تقى قانت . كان يسوع معلماً ذا خصاصة ، يتجول في « بلاد اليهودية » المتربة اللافحة الشمس ، ويعيش على هبات عرضية من الطعام ؛ ومع ذلك فإنه يصور على الدوام نظيفاً ممشط الشعر مرجله صقيل الإهاب ، نقى الثياب مستقيم العود ، ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق في الهواء . وهذا وحده قد جعله وهماً لا يؤمن به الكثير من الناس ، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضافات التحسين والتحلية غير الموفقة التي يضيفها بعض المتبتلين بغباء .

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز . فإن المعجزات المتصلة بمولد يسوع : ذلك النجم العظيم الذى جلب الحكماء من الشرق ليعبدوا الله عاكفين عند مهده بالميذ ود ، ومذبحة الأطفال الذكور في بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنذر ، والحرب إلى مصر ، إنمنا هي أمور يظنها كلها كثير من الثقات من أمثال تلك المواد المضافة . وهي في خير أحوالها حوادث لاضرورة لها للتعاليم ، وهي تسلمها الشيء الكثير مما لها من قوة وسلطان عندما تجرد من مثل تلك الإضافات وكذلك الشأن في مسألة النسب المتناقضة التي أوردها متى ولوقا ، والتي يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود ، كأنما كان شرفاً ليسوع أو لأى إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه . وإدخال هذه الأنساب ليسوع أو لأى إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه . وإدخال هذه الأنساب ليوسف بتاتاً ، إذ قد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية .

فإذا نحن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات العسيرة ، وجدنا أنفسنا إزاء كائن مكتمل الإنسانية موفور الجد مرهف العاطفة والحساسية ، عرضة للغضب

السريع ، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عيقة : هي أبوة الرب العامة المحبة و ججيء مملكة السياء . وغني عن البيان أنه كان شخصاً – إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا اللفظ العادى – ذا جاذبية شخصية بالغة القوة . فكان يجتذب إليه الأتباع ويملؤهم بالحب والشجاعة . وكان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحضرته ويبرأون مما بهم ، ومع ذلك فإنه كان على الأرجح ذا بنية ضعيفة ، استنتاجاً منا من السرعة التي مات بها من آلام الصلب . وهناك خبر متواتر يقول بأنه أغمى عليه عندما كلف بأن يخمل صليبه لى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف . وكان يناهز الثلاثين من عمره عندما شرع لأول مرة يعلم الناس . وظل يجوب البلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه ، ثم هبط أورشليم ، واتهم بأنه يحاول أن يقيم مملكة عجيبة في « بلاد اليهودية » ، وحوكم جهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان بز مان طويل كانت آلامه قد انتهت .

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التي تؤلف المبادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند محدود جداً . إذ لا يوجد فى هذه الكتب كما قد يرى القارئ بنفسه ، ما يدعم ويؤيد كثيراً من تلك المبادئ التي برى معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عام للخلاص . فإن سندها من الأناجيل غالباً ما يكون سنداً غير مباشر ومعتمداً على الإشارة . ولا بد إذن من تصيد ذلك السند تصيدا وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة . وفيها عدا بعض فقرات ندور حولها المنازعات ، يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلا إلى يسوع فسر فها مبادئ الكفارة والفداء أو حض فيها أتباعه على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس (۱) فيها مبادئ الكفارة والفداء أو حض فيها أتباعه على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس الشقاق حول مسألة الثالوث فيها بعد ، العالم المسيحي بأسره . وليس هناك من دليل واضح على أن حوار في المسيح اعتنقوا ذلك المباحداً . كذلك لا يبرز هو دعواه أنه لا المسيح الإ يكن ليفوته أن يضفيه لو أنه كان براه أمراً في الدرجة الأولى من الأهمية . ومن أشد ما يحير اللب قوله (إنجيل متى : الإصحاح ١٢ - ٢٠) : « حينان ومن أشد ما يحير اللب قوله (إنجيل متى : الإصحاح ٢١ - ٢٠) : « حينانه

⁽۱) على أن السيد المسبح عليه السلام: « أخذ خبزا وشكر وكسر وأعطاهم قائلا هذا هو جسدى الذي يبذل عنكم : اصنعوا هذا لذكرى ، (لوقا ۲۲ : ۱۹). (المترجم)

أوصى تلاميذه أن لايقولوا لأحد إنه يسوع المسيح»! فن العسير أن يفهم الإنسان السر في هذا المنع (٣)، إذا فرضنا أنه كان بعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص.

أم إن مراعاة طقس السبت اليهودى ، وهو الذى استبداو ا به الأحد الميثر ائى (٢) ، ظاهرة هامة عند كثير من النحل المسيحية ، على أن يسوع لم يرع السبت متعمداً وقال إنه خلق لأجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان لأجل السبت . وهو لم يفه بكلمة واحدة عن عبادة أمه مريم في صورة إيزيس مليكة السماء ، كيا أن الكثير نما هو من أخص خصائص المسحية في العبادة والطقوس لتي منه إغضاءاً تاماً . ولقد بلغ من جرأة الكتاب المتشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحياً على الإطلاق . ويجب على كل قارى أن يلجأ إلى مرشديه الدينيين ليستضىء بهديهم في هذه الثغرات الحارقة في تعاليمه . ونحن هاهنا ملزمون بأن تذكر تلك الثغرات لما تولد عنها من صعوبات ومنازعات ، كما أننا مضطرون أيضاً ألا نتوسع فها .

ومما يسترعى الأنظار أيضاً ، تلك الأهمية الهائلة التي يضفيها يسوع على الفكرة لتعليمية التي أسماها و مملكة السماء » ، وعدم أهميتها النسبية في إجراءات وتعاليم غالب الكنائس المسيحية .

إن هذا المبدأ ، مبدأ مملكة السهاء ، الذي كان رأس تعاليم يسوع ، والذي يلعب دوراً ضثيلا جداً في العقائد المسيحية ، إنما هو ولامراء من أشد المبادئ الثورية ، التي قلم لها – أبد الدهركله – أن تحرك الفكر الإنساني وتغيره . فلا غروإذن أن عالم ذلك الزمان فاته أن يدرك مغزاها الكامل – وتراجع يائساً مرتاعاً ناكصاً عن أية درجة من الفهم لتحدياتها الهائلة لعادات الجلس البشرى ونظمه الراسخة . ولا عجب أن المسيحي الحديث والتلاميذ الجدد المترددين ينقلبون من فورهم إلى الفكر ات المألوفة القديمة : فكرات المعبد والهيكل والآلهة الشرسة ، ومرعيات الاسترضاء والكاهن المتكرس والبركات السحرية . ولم تلبث رعاية القوم لهذه الأمور ، أن انتكست بهم ثانية إلى الحياة القديمة المألوفة الأثيرة ، حياة الأحقاد والأرباح والمنافسة والاستكبار . ذلك أن الحياة الشماء ، كما يلوح أن يسوع كان يبشربه ، لم يكن ليقل عن طلب جرىء لا هوادة فيه ينادى بإدخال تغيير و تطهير كاملين على حياة جنسنا المناضل ، أي إحداث

٠.

⁽١) كان المنع لحكمة ، لأن الجهر بأنه المسيح كما تقول الدوائر المسيحية المطلعة كان يؤدى إلى يقاف الصلب ، والصلب وسيلة الحلاص . (المترجم)

⁽٢) أنظر المعالم ج ٢ ط ٣ ص ٥٤٥ ، ٦٣٣ . (المترجم)

تطهير شامل مطلق فى جوانية الناس ويرانيتهم (١). وعلى القارى أن يرجع إلى الآناجيل ملتمساً كل ما تبقى من هذه التعليمة الهائلة. فلسنا هنا بمعنيين إلا بالزلزلة القوية التى أحدثتها فى الفكرات الوطيدة القائمة.

كان اليهود على اقتناع تام بأن الله ، الرب الآوحد للعالم بأسره ــ رب بر وهدى ، بيد أنهم زعموه كذلك ربًّا متسَّجراً ، أتم مع أبيهم أبراهام (إبراهيم) صفقة هم قوامها ، وهي لاجرم صفقة طيبة جداً لمم ، هي أن يرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة في الأرض. ولشد ما كان ارتباعهم وغضهم عند ما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات ، إذ يعلم الناس أن الله ليس من المساومين. وأن ليس هناك شعب مختار ، ولا أحظياء في ملكوُّت السياوات. وأن الله هوالأتب المحب لكل الأحياء ، وأنه لا يستطيع اختصاص البعص بالرعايات عدم استطاعة الشمس ذلك سواء بسواء . وأن الناس جميعاً إخوة كلهم خاطئ آثم وكلهم أبناء محبوبون لذلك الأب القدوس . وإن يسوع فى ضربه للناس مثـَل ذلك السامرى الطيب ، قد ازدرى ذلك الميل الطبيعي الذي تخضع له نفوسنا جميعاً ، والذي ننزع به إلى تمجيد شعبنا نحن وإلى الحط من شأن ما لدى النحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وبر . وإنه في المثل الذي ضربه عن العال قد اطَّرح تلك الدعوى العنيدة التي يدعى بها اليهود بأن لهم ضرباً من حق المرهن الأول على الله جل جلاله . فالله ـــ كما علم السيد المسيح ـــ يخدم على السواء كل أولئك الذين يتلقاهم في الملكوت. فليس هناك تمييز في معاملته إذ ليس لفضله وطيبته من حدود. وهو فضلاعن ذلك يطالب الناس جميعاً ببذل أقصى ما فى مستطاعهم ــكما يشهد المثل الذى ضربه عن « الوزنة المدفونة » وكما تعززه حادثة فكأس الأرملة . وليس هناك أية امتيازات ولاخصم في الأسعار ولا معاذير في مملكة السهاء.

بيد أنيسوع لم يقتصر فقط على از دراء وطنية اليهود القبلية الحادة وحدها : فإنهم كانوا أيضاً شعباً ذا ولاء عائلي شديد ، وذلك بيناكان يسوع يبتغى أن يكتسح طوفان جارف من حب الله كل العواطف العائلية المتشددة الحافلة بالقيود الضيقة . فلم يكن بد لمملك السهاء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه . ويحدثنا الإنجيل أنه « وفيا هو يكلم الحموع إذا أمه و إخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه : فقال له واحد : هو ذا أمك

⁽١) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأصلح جوانيتك يصلح الله برانيتك » . (المترجم)

ولم يقتصر يسوع على كيل المضربات للوطنية ولروابط الولاء العائلي باسم أبوّة الله العامة وأخوّة الجنس البشرى أجمع ، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستنكر كل ما ركب عليه النظام الاقتصادى من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية . فالناس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ؛ وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت ؛ والحياة الصالحة البرة لكل الناس ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما هي في خدمة إرادة الله بكل ما لدينا من عدة وبكل ما نملك من كيان . ولطالما شهير بالثروة الحاصة مرة بعد مرة كما ذم مدخرات الأفراد وعمل الاحتياطات في حياتهم الحاصة .

« وفيا هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجنا له ، وسأله أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية . فقال له يسوع لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا ، لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظها منذ حداثتى . فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد ، إذهب بع كل مالك وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز في السهاء وتعال اتبعني حاملا الصليب . فاغتم على القول ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة

« فنظر يسوع حوله وقال تلاميذه ما أعسر دخول ذوى المال إلى ملكوت الله ! فتحير التلاميذ من كلامه . فاجاب يسوع أيضا وقال لهم يا بنى ، ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » (إنجيل مرقس . الإصحاح العاشر ١٧ – ٢٥) .

وفضلا عن ذلك فإن يسوع فى نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذى يجمع الناس كالهم ويجعلهم فرداً واحداً فى الله ، كان يضيق صدراً بما فى الديانة الرسمية من بروصلاح يقوم على المساومة .

وهناك أيضاً جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لقواعد التقوى وحيلة التي . « واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم . ولما رأوا بعضا من تلاميذه يأكلون خبراً بأيد دنسة أى غير مغسولة لاموا . لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ . ومن السوق إن لم يغسلوا لا يأكلون . وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرة . تم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبراً بأيد غير مغسولة . فأجاب وقال لهم حسنا تنبأ إشعباء عنكم أنتم المراثين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمني بشفتيه ، أما قلبه فبتعد عني بعيداً . وباطلا يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليدالناس . غسل الأباريق والكؤوس وأموراً أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم » (إنجيل مرقس . الإصحاح السابع ١ – ٩) .

كذلك أيضاً ، نستطيع أن نلحظ عشرات المواضع التي ازدرى فيها تلك الفضيلة الأثبرة لدى المستمسكين بالشكليات ، وأعنى بها رعاية السبت .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية . فإن من الواضح من عشرات الدلائل ، أن تعاليمه كان لها طابع سياسي من أبسط الأنواع وحقا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم ولمكنها موجودة في قلوب الحلق ، وليست فوق عرش ؛ ولكن يضارع هذا في الوضوح أنه حيثما أقيمت مملكته وأيا كان المدى الذي تقوم به في قلوب الحلق ، فإن العالم الحارجي يتجدد و يحدث له انقلاب ثورى بنفس ذلك المدى بالضبط .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أشياء أخرى من أقواله بسبب صممهم وعمايتهم ، فإن من الواضح أنهم لم يخف عليهم اعتزامه إحداث انقلاب ثورى فى العالم . وبعض الأسئلة التي كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التي أدلى بها ، تمكننا من أن نحدس نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة . فإن نزعته الصريحة فى مهاجمته السياسية تتجلى فى حادثة كحادثة العملة .

« ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسيين والهيروديسيين لكى يصطادوه بكلمة . فلما جاءوا قالوا له ، يا معلم ، نعلم أنك صادق ولا تبالى بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس ، بل بالحق تعلم طريق الله . أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ نعطى أم لا نعطى ؟ فعلم رياءهم وقال لهم : لما ذا تجربونني ؟ إيتوتى بدينار لأنظره . فأتوا به . فقال لحم : إعطوا لمن همانه الصورة والكتابة ؟ فقالوا له لقيصر . فأجاب يسوع وقال لحم : إعطوا ما لقيصر .لقيصر وما لله للله » (إنجيل موقس . الإصحاح الثاني عشر ٢٣ – ١٧) . وهي قصة لو نظرنا إليها على ضوء سائر ما عليه ، لم تبق لقيصر إلا الشيء القليل من ففوس الناس أو مما يمتلكون . .

وإن الجوالذي يتكنف خصومه ومعارضيه وظروف محاكمته وإعدامه ، لتظهر بأجلى بيان أنه كان يلوح لعين معاصريه في صورة من يقترح صراحة – بل من قد اقترح فعلا صراحة – تغيير الحياة الإنسانية برمتها وصهرها وتوسيع جنباتها . ولكن حتى تلاميذه أنفسهم لم يدوكوا المغزى العميق الشامل الذي ينطوى عليه ذلك الاقتراخ . إذ كان لا يزال يغشى على عقولهم الحلم اليهودي القديم بملك أي مسيح يقضي على سلطان أسرة هرودس المهلنين والسيد الأعلى الروماني ، ويسترجع أمجاد داود الأسطوريه . ولعمري لقد أغفاوا مادة تعاليمه ، على ماكان بها من وضوح وقصد إلى الغاية به وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طربقته الحفية الفذة للبدء في المغامرة التي ترفعه آخر الأمر إلى عرش أورشليم . فزعموه مجرد ملك جديد في سلسلة الملوك التي لا نهاية لها ، ولكن من طراز شبه سحري ينطق بتصريحات شبه سحرية عن فضيلة مستحيلة .

« وتقدم إليه يعقوب ويوحنا إبنا زبدى قائلين : يا معلم نريد أن تفعل لناكل ما طلبنا . فقال لها : ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقالا له : أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك . فقال لها يسوع لسما تعلمان ما تطلبان ، أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا ؟ فقالا له نستطيع ، فقال لهما يسوع : أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها و بالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان . وأما الجلوس عن يميني وعن يسارى فليس لي أن أعطيه

إلا للذين أعيد للم . ولما سمعوا العشرة ابتدأوا يغناظون من أجل يعقوب ويوحنا . فدعاهم يسوع وقال لهم أنتم تعلمون أن الذين يُحسبُون رؤساء الأمم يسودونهم وأن عظاءهم يتسلطون عليهم . فلا يكون هكذا فيكم . بل من أراد أن يصير فيكم عظيا يكون لكم خادماً ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبداً . لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليُخد م بل ليتخدُهُ م . وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (إنجيل مرقس . الإصحاح العاشر ٣٥ – ٤٥) .

كان هذا أسوأ عزاء لأولئك الذين كانوا يبحثون عن جزاء مناسب لحدماتهم ومتاعهم التي يلاقونها في اتباعهم إياه . فلم يستطيعوا أن يصدقوا هذا المبدأ الشديد القائل بمملكة قوامها الحدمة كانت في حد ذاتها هي جزاءها العظيم الأوفى . ومع ذلك فإنهم حتى بعد وفاته على الصليب ، استطاعت عقولهم أن تقبل بعد انقشاع ذعرهم الأول ، الانكفاء إلى الاعتقاد بأنه كان مع ذلك ينزع منازع العالم القديم عالم الأبهات والامتيازات . وأنه سوف يبعث حياً من فوره بإحدى عجيبات المعجزات ، ويعود ويقيم عرشه بالأبهة العظيمة والسهاحة الفياضة في أورشليم . لقد طنوا أن حياته خطة محكمة وأن مماته أحبولة مدبرة .

كان أعظم من آن يصل إليه فهم تلاميذه . وهل يعجب القارى وأن يحسوا ما قاله صراحاً أن يشعركل الأغنياء والموسرين برعب من أشياء غريبة ، وأن يحسوا بأن عالمهم يميد ويدور من حولهم بسبب تعاليمه ؟ ولعل الكهنة والحكام والأغنياء فهموه أكثر وأحسن ممافهمه أتباعه . ذلك بأنه كان يستخرج دفين مدخر اتهم الصغيرة الحاصة التي كونوها من الحدمة في مجتمعهم ويكشفها للأنظار في ضوء حياة دينية عامة . كان أشه شيء بصياد أخلاق رهيب يحفر عن الإنسانية ويخرجها من جحرها الدفيء الذي عاشت فيه حتى ذلك الحين . وتحت أنوار السراج الوهاج لمملكته هذه ، لم يكن يجوز وجود أية ممتلكات ولا امتيازات ولا استكبار ولا أفضلية (أسبقية) . ولعمر الحق ماكان فيها من حافز ولا جزاء إلا المحبة . أفن العجيب إذن أن انبهر منه القوم وعميت عيونهم فتصايحوا كلهم عليه ؟ بل إن تلاميذه أنفسهم تصايحوا به عندما رفض أن

يعنى أعينهم من ساطع الضياء . أفن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه لم يكن بن هذا الرجل و بين أنفسهم خيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهانة ؟ أعجيب إذن أن الجنود الرومانيين ، وقد واجههم وأذلم شيء يعلو على أفهامهم ويهدد كل أنظمهم ، يلوذون بالضحك الضارى ، ويتوجون هامته بالشوك ويضعون عليه ثوباً أرجوانياً ليتخذوا منه قيصراً سخرياً ؟ ذلك أن أخذهم إياه أخذ الجلد ، كان معناه الدخول في عمار حياة عجيبة وهيبة ، وترك مألوف العادات وضبط هائج الغرائز والدوافع ، ومحاولة درك سعادة لا يصدقها عقل .

أفن العجبب أنه حتى هذا اليوم ، ما يفتأ هذا الحليلي أكبر مما تتسع له قلوبنا الصغيرة ؟

٣ _ الديانات العامة الجديدة

ومع هذا فمما يجب ملاحظته أنه بينها كانت تعاليم يسوع الحقيقية تضم كثيرا من الأشياء التي لا يستطيع أن يقبلها غنى أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبر اطورى أو أى مدنى عادى محترم إلا وألم بطرائق حياته انقلاب هائل يقلها رأسا على عقب ، فلم يكن منها شيء لا ببادر إلى تقبله بقبول حسن رجل ممن يتبعون تعاليم جوتاما ساكيا الحقة ، إذ ليس ثمة شيء يحول بين بوذى بدائى وبين أن يكون نصرانيا ، وكذلك ما من شيء يمنع أحد التلاميذ المباشرين ليسوع من اعتناق تعاليم جوتاما بوذا المسجلة .

وإليك الآن هذه القطعة المقتبسة من كتابات رجل صيني هو «موتى »(١) ، الذي كان يعيش في زمان ما في القرن الرابع ق . م ، وقت ما كانت تعالم كنفوشيوس ولاهوتزه منتشرة في الصن ، قبل هبوط البوذية إلى تلك البلاد ، فتأمل نغمتها وانظر كم هي نصرانية الروح .

« إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة و دولة ، والاغتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى ؛ والسرقات المتبادلة بين الإنسان و أخيه الإنسان ؛ وافتقار الملك إلى الرفق والوزير إلى الولاء ؛

⁽١) عن «موتى » انظر للمترجم كتاب «الناريخ وكيف يفسرونه ، للهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر . (المترجم)

والحاجة إلى الحنان والواجب البنوى بين الوالد وولده حده وأمثال هذه أمور ضارة بالإمر اطورية . وكل هذا راجع إلى انتفاء الحب المتبادل . فلو أمكن فقط أن تعمم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة ، فلن يصبح للأمراء وقد أحب أحدهم الآخر أى ميادين للقتال ؛ ولن يحاول روساء العائلات أن يأخذوا أى شيء غصبا ؛ ولن يرتك الرجال أية سرقة ؛ ولاتصف الحكام والوزراء بالساحة والولاء ؛ ولاصبح الآباء رحماء والأبناء بررة ؛ ولصار الإخوة منسجمين وأمسى التراضى بيتهم هينا . ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا ، لما انقض قويهم على ضعيفهم ؛ ولما نهبت كثرتهم قلتهم ، ولما أهان غنيهم فقيرهم ، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضيعهم ولما غش خبهم (١) بسيطهم (٢) » .

لا شك أن فى هذا مشابهة عجيبة لتعاليم يسوع الناصرى ، وإن صب فى قالب سياسى . وهكذا اقتربت أفكار « موتى » من ملكوت السهاء .

وهذا التطابق الجوهرى هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسياب هاتين الديانتين العالميتين . فإن بداياتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمذبح والمعبد ، وهي تلك النحل المقامة لعبادة آلحة محدودة المعالم معروفة الحدود واللاعبة في مواحل تطور الإنسانية الأولى بين ، ، ر ١٥ ق . م و ، ٢٠ ق . م دورا عظياكل العظم هاماكل الأهمية . أما هـذه الديانات العالمية الجديدة ، من ، ٢٠ ق . م فصاعدا ، فهي بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوى الشامل . وهي التي جرفت أمامها كل تلك الأرياب المتنوعة المحدودة التي خدمت حاجة الإنسانية ، منذ أن تلاحمت المجتمعات الإنسانية بعضها في بعض بعاملي الحوف والرجاء . وسنرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام بعضها في بعض بعاملي الخوف والرجاء . وسنرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام أنه حدث للمرة الثالثة ، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسي الجديد ، ميدأ الحاجة إلى الخلاص عام من جميع الناس « لإرادة » واحدة . على أن محمداً اتعظ يما مر بالمسيحية من تجاريب ، فكان حاسما باتا في إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا بشراً كغيره من الناس ، وبذا وقي تعاليمه شركثير من الفساد والتصحيف .

ونحن حين نتحدث عن ديانات الإنسانية العظيمة هذه ، التي نشأت فيها بين غزو

⁽١) الحب : بكسر الحاء هو النشاش الخادع . (المترجم)

⁽٢) نقلا عن هيراث (The Ancient History of China) الفصل الثامن

الفرس لبابل وتصدع الإمبراطورية الرومانية ، ــ إنما نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة . على أن مرد ذلك التنافس هو نقائصها وما تكدس فمها من إضافات وما زاد عليها من نمو طفيلي ، واختلافها في اللغات وطريقة التعبير . وما ينبغي أن نشخص بأبصارنا إلى غلبة واحدة منها على الأخرى ، أو قيام أى بديل جديد يحل محلها جميعاً ، بل إلى الصدق الصراح في كل منها ، بعد إذ يصهر تماماً ويخرج نقيا من كل الشوائب و الأدران ويغدو فيهن جميعاً هو نفس الصدق الواضح المبين : – وأعنى بذلك أن قلوب الناس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعاً ، يجب أن تخضع « لإرادة » عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعاً . ويقول نائب الأسقف إنج في إحدى مقالاته الصريحة الجريئة : « إن القديس بولس قد فهم ما لم يدركه معظم المسيحين ، وأعنى بذلك أن « بشارة المسيح» ليست « إحدى ، الديانات ولكنها الدين نفسه في أشد معانيه شمولا وعمقاً » . ومع أن الحاقة دفعت الناس إلى كتابة الشيء الكثير عن التضارب بن العلم والدين ، فالحقأن ذلك التضارب شيء لا وجود له ، فكل ما تصرح به كل هذه الديانات العالمية يطريق الوحي والاستبصار ، إنما هوشيء يكشف فيه التاريخ معا زدياد وضوحه ، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه ـ حقيقة معقولة يمكن إثباتها : هي أن الناس جميعاً يكوّنون أخوَّة واحدة عامة ، وأنهم يرجعون إلى أصلواحد مشترك ، وأن حياتهم الفرديةوأممهم و أجناسهم ، تنداخلنسباً وتمنزج دماً ولا تبرح في امتزاج حتى تنغمر من جديد آخر الأمر في مصر إنساني و احدمشتر له على هدا الكوكب الصغير السابح بين النجوم ، وان العالم النفساني ليستطيع اليوم أن يقف إلى جانب الواعظويؤكد لنا أنه ليس هناك سلام للقلب معقول ولاتوازن ولاأمان للروح، ما لم يجد الإنسان حياته بفقده إياها ، وما لم يدرب غرائزه وعواطفه الضيقة المحدودة وينظمها . ولا يخنى أن جنسنا وتجاربنا الديثية الشخصية يسيران جنبا إلى جنب في تحاذ وثيق يخيل معه للمشاهد العصرى كأنما هما شيء واحد تقريبًا فكلاهما يتحدث عن كائن كان فى بادئة أمره مشتنًا نحجب العماية عينيه ويكتنفه جو من مطلق الحيرة والارتباك . وهو يتحسس طريقه في بطء سائراً نحو صفاء وخلاص يجمعهما هدف منظم مهاسك ۽ ولعلكم ترون معىأن هذه هي معالم التاريخ في أبسط (٢-معالم)

صورها ؛ وسواء كان للمرء هدف دبنى ، أم كان ينكر كل هدف دينى إنكاراً باتاً ، فإن خطوط المعالم. تظل كما هي .

٤ ـ صلب يسوع الناصري

ف ٣٠ م حين كان طيريوس الثانى إمبراطوراً على روما ، وبيلاطس البنطى والياً على بلاد اليهودية ، وقبل عيد الفصح بقليل ، هبط يسوع الناصرى إلى أورشليم توالراجع أنه هبطها عند ذاك لأول مرة فى حياته . إذ كان حتى ذلك الحين يعظ الناس أكثر ما يعظهم فى الجليل ، ويعظهم فى كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها . يعظهم هناك فى معبد الهود .

كان دحوله مدينة أورشليم نصراً سلمياً . إذ اجتمع حوله في الجليل عدد عظيم من الأنباع ، وكان يضطر في بعض الأحايين أن « يعلم » الناس من زورق في بحيرة الجليل ، بسبب تزاحم الجمهور على الشاطى – وتسامع الناس به وسبقته شهرته إلى العاصمة . فخرجت جماهير غفيرة لتحيته . وواضح بين أنهم لم يفهموا منحى تعاليمه ، وأنهم كانوا يشركون من حولم في اقتناعهم العام ، بأنه سيقلب النظام القائم بضرب من سحر البر والصلاح . وقد دخل المدينة راكباً جحشاً استعاره له تلاميذه ، والجمهور يرافقه رافعاً صوته بالهليل والتكبير هاتفاً بكلمة (أوصناً ! ! Hosanna) وهي لفظة تعبر عن الفرح .

فذهب إلى الهيكل. وكانت أفنيته الخارجية غاصة بمناضد الصيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكى يحرره زوار المعبد الاتقياء!!! وانبعث هو وأتباعه يطردون هؤلاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم. وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيجابية الوحيدة.

ثم استمريعلم الناس في أورشليم أسبوعاً يحيط به جمهور من الأتباع جعلوا اعتقال السلطات له أمراً عسيراً. ثم جمعت الهيئة الرسمية أمرها ضد ذلك المقتحم الرائع. ذلك أن يهوذا (Judas) أحد تلاميذه ملأ الجزع واليأس قلبه لما شهده في استيلاء معلمه على أورشليم من قلة غناء وجدوى ، فتقدم إلى الكهنة اليهود ليقدم إليهم نصيحته ومعونته في

القبض على يسوع . فكوفئ على تلك الجدمة بثلاثين قطعة من الفضة . وكان لكبير الكهنة ولليهود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك العصيان الوادع الذي كان يملأ الشوارع بالجهاهير المنفعلة ، فمن الجائز مثلا أن يسىء الرومان فهم الأمر ، أو أن ينتهزوه فرصة لإيقاع الآذى بالشعب اليهودى كافة . ومن ثم كان الحبر الأكبر قيافا (Caiaphas) — فى بالغ قلقه على إظهار ولائه للحاكم الرومانى الأعلى — على رأس من قاموا بالإجراءات التى اتخذت ضد ذلك المسيح (Messiah) الأعزل ، وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السلفية أكبر المتهمين ليسوع .

وتحدثنا الأناجيل فى جلال ليس عليه من مزيد كيف قبض عليه فى ضيعة جشسيائى (Gethsemane) ، وكيف حوكم وأدين على يد بيلاطس البنطى الوالى الرومانى ، وكيف نكل به الجنود الرومان وسخروا منه ، وصلبوه على التل المسمى بتل جلجثة (Golgotha) .

بذلك انهارت الثورة انهياراً تاماً وتخلى عنه تلاميذه على بكرة أبيهم ، ولما انهم بطرس بأنه واحد منهم قال « إنى لا أعرف الرجل » . إد لم تكن هذه هى النهاية التي كانوا يرجونها من قدومهم العظيم إلى أورشليم . ولم يشهده في ساعاته الأخيرة وهو على الصليب يعانى مرارة الألم المبرّح والظمأ الشديد ، سوى بضع نفر من النساء والأصدقاء الأدنين . حتى إذا قارب هذا يوم العذاب نهايته ، استجمع ذلك الزعيم الذى تخلى عنه الناس جميعاً كل قواه باذلا آخر جهد لديه وصاح بصوت جهير « إلمى ! لماذا تركتنى ؟ » ثم أسلم الروح مخلفاً هذه العبارة ترجعها العصور ، أحجية أبدية للمؤمنين .

ولم يكن بد من أن يحاول بسطاء المؤمنين أن يهولوا من عنف الذعر الرهيب المتولد عن هذه المأساة ، بإذاعتهم أقاصيص سخيفة عن حدوث اضطرابات في الطبيعة تشابه تلك التي اختلقت لتوكيد اهتداء جوتاما إلى الصراط السوى . فإنهم يخبر وننا أن ظلمة قد غشيت الأرض . . . وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل . وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقا ، فهي لم نحدث أقل تأثير في أذهان الناس في أورشليم في ذلك الزمان . ومن العسير علينا في هذه الأيام أن نصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانغاس في مثل هاته التعليقات الجوفاء على الأحداث . ولكن الشيء الأشد

هولا من هذا بكثير أن يفترض المرء وجود عالم لا يهتم فيا يظهر بهسذه الصلبان الثلاثة القائمة تحت شفق المساء القانى ، ولا يأبه بتلك الجهاعة الصغيرة من النظارة المرتبكين المستوحشين . وأرخى الظلام على التل سدوله . وشرعت المدينة البعيدة في القيام باستعداداتها لعيد الفصح ؛ وما من أحسد سوى ذلك النفر القليل من المحزونين العسائدين إلى منازلهم يمنعنى بأمر يسوع الناصرى هل هو لا يزال يعانى سكرات الموت أو هو قد قضى وانتهى بالفعل

أما الحواريون فقد غمرت أرواحهم إلى حين غاشية من الظلمات الدامسة . ثم ما لبثوا أن دب بينهم مهامس ثم أقاصيص متناقضة أو تكاد . . . بأن جسم يسوع ليس في القبر الذي وضع فيه ، وأن واحدا منهم ثم آخر قد رآه حياً . وسرعان ما أخذوا يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل القبور ، وأنه أظهر نفسه للكثيرين ، ثم صعد على مرأى من الناس إلى السهاء . وجيء بشهود أعلنو بلهجة التأكيد القاطع أنهم رأوه يصعد بجسمه ظاهرا للعيان . لقد ذهب يطوى طباق السموات الزرقاء – أنهم رأوه يصعد بجسمه ظاهرا للعيان . لقد ذهب يطوى طباق السموات الزرقاء – إلى الرب . وسرعان ما ألقوا في روع أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره ، في قوة ومجد ليحكم البشرية كافة . وقالوا إنه يعود إليهم بعد برهة وجيزة ؛ على أنهم – وهم ينعمون بإحياء حلمهم القديم الراق بمجد دنيوى يحقق ذواتهم غاب عنهم ذلك ينعمون بإحياء حلمهم القديم الراق بمجد دنيوى يحقق ذواتهم غاب عنهم ذلك النصيب الأعظم ، النصيب الهائل الجبار الذي خولهم إياه يسوع من ملكوت الله .

٥ ـ مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هي قصة الكفاح بين التعاليم الحقة والروح المحض ليسوع الناصري وبين التحديدات التي فرضها ، والإطنابات والزيادت التي أضافها ، والمسائل التي أساء فهمها ، أو لئك الرجال البسطاء الذين أحبوه وساروا في إثره من الجليل ، والذين غدوا يومئذ حماة رسالته وحملتها إلى البشرية . وتقدم إلينا الأناجيل وأعمال الرسل سجلا مرقعاً غير متوازن ، ولكن لا مجال للشك في أنه في جملته سجل تام الأمانة في تصوير تلك الأيام الأولى .

والناصريون الأول وهوالاسم الذيكان يطلق على أتباع يسوع ، يتخبطونمنذ البداية

ق غمرات الحرة العظيمة إذ يتنازعهم أمران: تعاليمه من ناحية وما استحدثه التلامية من ناحية أخرى من صنوف الشروح والتفاسر. وقد أقاموا من بعده زماناً عاملين بسنته فى قهر النفس التام؛ فجعلوا بضاعهم مشاعاً بيهم، ولم يتخذوا وابطة تربطهم إلا الحب. ومع ذلك فإنهم أسسوا عقيدتهم على الأقاصيص الى كانت تدور حول قيامته وصعوده السحرى الحلاب، وحول عودته الموعودة. وقل مهم من كان يفهم أن التبرو من النفس ونبذها هو جزاؤها بعينه، وأنه هو نفسه مملكة السهاء؛ وكانوا يعدون ذلك التبرو قرباناً يخولهم جزاء من القوة والسيادة، عند ما تحدث الغودة الثانية علما التبرو أصبحوا جميعاً يرون أن يسوع هو المسيح الموعود، ذلك المسياً الذي طالما انتظره الشعب الهودى. واكتشفوا في أقوال الأنبياء تنبؤات بالصلب ويشدد المجلل منى بصغة خاصة في تأكيد هسذه التنبؤات. وأنعشت هذه الآمال المبادئ النصرانية ، وشدت أزرها بفضل الحياة الحلوة النقية التي كان يجاها كثير من المؤمنين ، فأخذت تنتشر انتشاراً بالغ السرعة في أرجاء بلاد المهودية وسوريا .

وظهر الموقت معلم آخر عظم ، يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيق المسيحية — وهو شاءول الطرسوسي أو بولس . ويظهر أن شاءول هو اسمه الهودى وأن بولس هو اسمه الروماني . كان مواطناً رومانياً ، ورجلا أوتي علماً أوسع كثيراً وعقلية أضيق كثيراً مما يبدو أن قد أوتي يسوع . والراجح أنه كان بهودى المولد ، وإن كان يعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك . ولامراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود . بيد أنه كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية (١) وكانت لغته الإغريقية . ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القديم أن لغته الإغريقية غير مرضية ، ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القديم أن لغته الإغريقية غير مرضية ، وطلاقة . وينعها البروفسور جلبرت موراي بأنها وبالغة الجودة » . . « وهو معلماً متأثر بطرائق التعبير الفلسي للمدارس الهلينستية وبأساليب الرواقيين (Stoicism) .

⁽١) يفرق المؤرخون بين العصر الهيليني السابق على الإسكندر والهيلينستي الذي يجيء في تاريخ الإغريق بمد وفاة الإسكندر إلى ظهور أوغسطوس قيصر . (المترجم)

يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل ، وهو فى رواية العهد الحديد يبدو بادى ذى بدء فى إهاب الناقد المرير ، والخصم العنيد والمضطهد الناشط للناصريين (النصارى) جميعاً .

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أى بحث في آراء بولس الدينية قبل أن يصبح من أتناع يسوع. ولا بد أنها كانت أساساً لآرائه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها ، كما أن أسلوب تعبيرها وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادثه الجديدة لُوناً خاصاً . وإنا نكاد نتخبط في نفس الظلمات حول تعاليم نحمالائيل ، الذي يقولون إنه هو المعلم اليهودى الذي كان بولس يجلس عند قدميه . كذلك لسنا ندرى ما هي التعاليم غير اليهودية التي درسها . ومن الراجح جداً أنه تأثر بالمرائية . إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المتراثية . ويتضبح لكل من يقرأ « رسائله » المتنوعة ، جنباً إلى جنب مع الأناجيل ، أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فها نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قرباناً لله كفارة عن الحطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الإنسانية ؛ أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الإله . كان يسوع في نظره حمل عيد الفصح ، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من كل عيب ودنس التي تتعقب في إصرار ديانات الشعوب البيضاء الداكنة (١) . أمد بولس المناصريين بقوة جارفة لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تماماً لكارثة الصلب . وكان تفسيره ذاك نوراً ساطعاً سلط على دياجير الحيرة المطلقة التي رانت على عقول الناس.

ولم ير بولس يسوع قط . ولا بد أنه استى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعاً عن التلاميذ الأصليين . ومن الجلى أنه أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدئه الخاص بالميلاد الجديد ، بيد أنه أدخل هذه الفكرة في صرح نظام لاهوتي ، نظام يتسم بشديد البراعة والحفاء ، لا تبرح فتنته إلى اليوم تسهوى العقول « فكرياً » بصفة رئيسية . ومن الواضح أن عقيدة الناصريين التي وجدها على صورة مبدأ للحفز والإثارة وأسلوب للعيش ، قد تحولت على يديه إلى مذهب « إيمان » . ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح للعيش ، قد تحولت على يديه إلى مذهب « إيمان » . ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح المعيش المؤلف بهذا إلى الشعوب البيضاء الداكنة الأعين والشعر والساكنة أصولها حول البحر المتوسط (انظر المعالم ج ١ ، ص ١٧٧ ، ط ٣) (المترجم)

ورجاء ؛ وتركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة .

بيد أننا يجب أن نرجع القارئ إلى « أعمال الرسل » و « رسائل بولس » ، ليتحصل على بيان واضح عن رسالة بولس وتعاليمه . كان رجلا هائل الطاقة والنشاط، وقد علم الناس في أورشليم وأنطاكية وأثينا وكورنثوس وإفيسوس وروما .

ويحتمل أيضاً أنه انحدر إلى أسپانيا . وليست طريقة وفاته بمعروفة على وجه المتحقيق ، ولكن يقال إنه قتل في روما إبان حكم نيرون . فقد شب حريق عظيم أتى على قسم كبير من روما ، فاتهمت الطائفة الجديدة بأنها تسببت في ذلك الحريق. و لا شك أن انتشار المسيحية السريع مدين لبولس أكثر منه لأى رجل آخر بمفرده . فلم تكد تمضى على صلب المسيح عشرون سنة ، حتى استرعت هذه الديانة نظر الولاة الرومان في ولايات عديدة . ولئن حصلت من يد القديس بولس على لاهوتها ، فلقد ظلت محتفظة بالكثير مما لتعاليم يسوع من السمة الثورية والبدائية . وقد أصبحت أكثر تسامحا نوعا مامع الملكية الخاصة ، وأصبح في وسعها أن تقبل نصمارى أغنياء دون الإصرار على جعل ثرواتهم مشاعا ، واغتفر القديس بولس منظام الرق عند ما قال : « أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم »(١) ،ومع ذلك فقد صمدت كالصخر لا تلين إزاء بعض النظم الجوهرية في العالم الروماني . فإنها لم تجز البتة ربوبية قيصر . فلم يقبل المسيحيون قط أن تعسبدوا الإمبراطور ، حتى ولا بإيماءة صامتة عند المذبح ، رغم ما في ذلك من تعريض حباتهم للخطر . وإمها لتستنكر حفلات المجالدين(٢). وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء إلا قوى هائلة من المقاومة السلبية ، بدت منذ مستهلها في ثوب ثورة صريحة ، تكيل الضربات للأسس الجوهرية للنظام الإمبراطوري السياسي إن لم يكن الاقتصادي. وأول ما نجد في الأدب (: الكتابات) غير المسيحي من الشواهد على وجود المسيحية ، يبدو عند ما أخذ الموظفون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويتبادلون الآراء في المشكلة الغريبة الماثلة بين

⁽١) كانت روح يسوع ، الروح الباعثة للحيّاة فى المسيحية ، والتى تسرى فى الأناجيل ، تتعارض تعارض تمارضما تاما مع كل من الملكية الحاصة والرق ، إلا أن اتجاه المسيحيين ، لم يتعين إطلاقا بمثل هذا التحديد . وكانوا فى الغالمب أميل إلى التخفيف منهم إلى الإلغاء . (المؤلف)

⁽٢) المجالد Gladiator ، شخص وبخاصة عبد أو أسير ، يقاتل حتى الموت (في المجتلد) أو إنقاذ الحياة ، لإمتاع الجماهير بروما القديمة . (المترجم)

أيديهم ، مشكلة ذيوع عدوى ذلك العصيان الصادر من قوم لا شر يخشى منهم فيا عدا ذلك من شئون الدنيا .

ويغشى الغموض التام شطراً كبيراً من تاريخ المسيحيين فى القرنين الأولين من الحقبة المسيحية . فع أنهم انتشروا فى كل أرجاء العالم ، فإنا لا نعرف إلا القليل النادر من فكراتهم أو طقوسهم وطرائقهم أثناء ذلك الزمان . ولم تكن لهم حتى حينذاك عقائد مستقرة ، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافات علية كبيرة فى معتقداتهم ونظمهم غير المتكيفة إبان ذلك العصر . ولكن مهما يبلغ ما بيهم من فوارق علية ، فيلوح أنهم كانوا فى كل مكان يحملون الشيء الكثير من روح يسوع . ومع أنهم كانوا حيها حلوا أثاروا ضدهم عداء مريرا ودعاية مضادة قوية ، فإن نفس النهم الموجهة إليهم تشهد بما هم عليه من خير وصلاح عام .

وفى أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيا يبدو قدر جسم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلقة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المبراثية التى تكاد تضارعها فى سعة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس(١) . ويبدو أن المسيحين اقتبسوا من الأولى يوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلا من يوم السبت اليهودى ، كما استعاروا فكرة الإكثار من استعال الشموع فى الحفلات الدينية ، وأسطورة أداء العبادة بواسطة الرعاة (أعنى القسس) ، كما اقتبسوا أيضاً فيا يرجح ، تلك الفكرات أو العبارات التي لا تزال تمتاز بها إلى يومنا هذا بعض الشيع والتى تتكلم عن والاغتسال فى دم » المسيح وعن كون المسيح تضحية بالدم . ذلك أنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلبا ، لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق ؛ فتصوير يسوع فى صورة المريق دمه من أجل البشرية ، إنما هو فى الحقيقة من أشد العبارات بعدا عن الاقة ، وأن المريق دمه من أجل البشرية ، إنما هو فى الحقيقة من أشد العبارات بعدا عن الاقواك ، وأن جنبه قد طعن بحربة ، فإنا لانزال أبعد ما نكون عن « نبع يفيض دما » . بيد أن المراثية ،

⁽¹⁾ سيرابيس كان مركبا من أوزيريس وأبيس (انظرج ٢ ص ٣٨٨ من الممالم). (المترجم)

وكانت تتركز حول بعض الحفايا التى عنى عليها اليوم النسيان ، تتخيل مثرا وهو يضحى بعجل مقدس خير . ويلوح أن جميع المقاصير المقدسة المثرائية تزدان بصورة لمثرا وهو يذبح ذلك العجل ، الذى ينزف دمه نزفاً عظيماً من جرح فى جنبه ، ومن ذلك المدم نشأت حياة جديدة . وكان المريد المتعبد الميثرائي يستحم بالفعل فى دم عجل التضحية ، وبذلك ويولد من جديد » . وكان عند انخراطه فى النحلة لأول مرة بدخل تحت سقالة يذبح العجل عليها ، فيسيل عليه دمه . ويخيل إلينا أنا نعالج هاهنا استمراراً لسفك الدماء البدائي للتضحية عند وقت البذار ، وهى فيا يحتمل الفكرة الدينية الأولى لاقدم مدنيات المعابد .

على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدرآ أو يكاد . إذكان طبيعياً أن يجد المسيحيون في شخصية حورس ، (الذي كان ابنا لسير اپيس و هو سير اپيس في نفس الوقت) ، شبيها مرشداً لم فيما يبدلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا . وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس . ثم السموبها مرتبة شبه قدسية ـ بالرغم مما سبق أن اقتبسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته ـ خطوة طبيعية جداً كذلك. وكان طبيعياً كذلك للمسيحية أن تقتبس وهي لا تكاد تعي ، الطرائق العملية للديانات الشائعة في ذلك الزمان . فاتخذ قساوستها طريقة الرووس الحليقة والزى الحاص بالكهنة لمصريين ، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلي للمييز القسس . وتتابعت البدع واحدة في إثر الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك « الإضافات المألوفة » . ولقد حاولنا من قبل أن ننصور عودة جوتاما بوذا إلى التبت ، وانذهاله لعبادة تمثاله في لهاسا (Lhassa) . ولوأن أحد الناصريين (النصارى) المخلصين ممن عرف واتبع معلمه الأشعث الضاوى من السفر فى وهبج الشمس اللافح بالجليك ، أعيد فجأة إلى هذا العالم ثم زار مثلا قداساً في كنيسة القديس بطرس بروما ، فلسنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى مماثلة عتدمًا يعملم أن تلك الخشكنانة (القربان) الموجودة على المذبح إن هي ... إلا معلمه المصلوب.

والدين في مجتمع عالمي ليس أشياء عديدة وإنما هو شيء واحد ، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية في عالم ذلك الزمان ، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر ديني ، من أن تتحاسب وتتبادل العبارات والفكرات والطقوس . وكانت آمال الناصريين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح . ولكن ذكاء بولس المتوقد أحاط سيرته بالأهمية المستيقية . وكان بسوع دعا الناس رجالا ونساء إلى أداء واجب جبار : هو إنكار الذات والميلاد الجديد في مملكة المحبة . وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمان المستجد في ديانته أن يفر بعيداً عن هذا المبدأ البسيط الصريح ، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة ، ـ إلى الغوص في مسائل ذهنية بحتة قوامها نظريات ومراسم معقدة لا تمس جوهر نفسه بأى حال فما أسهل أن ينضح الإنسان ذاته بالدم ومن أن يطهرنفسه من الحقد والمنافسة ؛ وأن يأكل الخبز ويشرب النبيذ مدعياً أنه قد امتص الألوهية ؛ وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب ، وأن يحلق الرأس ويستبني النفس الأمارة بالسوء المستقرة في داخله!! كان العالم غاصاً بأمثال هذه الفلسفة التهربية والمادة اللاهوتية في القرون الاستهلالية الأولى للحقبة المسيحية . وليس يعنينا هنا أن نتوسع في تفصيل الظواهر الممزة للأفلاطونية الحديثة (Neoplatonism) والأدرية (Cnosticism) والفيلونيسة (Philonism) وما إليها من تعاليم كانت كثيرة في العالم الإسكندراني . بيد أن الواقع أنه كان كله عالماً واحداً ، ذلك العالم الذي جمع بين هؤلاء وبين المسيحيين الأول. وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجين (Origen) وأفلوطين (Plotinus) وأوغسطين

⁽١) الأفلاطونية الحديثة : مزيج من الفلسفة الشرقية والأفلاطونية ، وهي فلسفة أفلوطين ، الذي عاش بالإسكندرية في القرن الثالث . (المترجم)

⁽٢) الأدرية أو الأغنسطية حركة دينية نشأت والمسيحية ناشئة يراها بعض الناس زندقة ولكنها محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة الإغريقية وعناصر مأخوذة من النحل السرية بعالم البحر المتوسط. ويرى الأغنسطيون أن لهم علما باطنيا بالمعنى الداخلي للديانة. وهو المعرفة التي يستطيعون أن يستطيعون أ

⁽٣) الفيلونية : نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إهريق من أصل يهودى وله بالإسكندرية قرابة وابت در المترجم) ٢٠ ق. م اوفلسفته تخلط بين أفلاطون والكتاب المقدس ولها بعض الأثر في المؤلفات المسيحية . (المترجم)

(Augustine) - بحركة الأخذ والعطاء التي لم يكن منها مفر في ذلك الزمان .

وقد سمى يسوع نفسه ابن الله وابن الإنسان أيضاً ؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الاهمام بشخصه : من هو؟ أو ما هو؟ ، وإن اشتد تركيزه كثيراً على التعاليم المتعلقة بالملكوت. وعند ما صرح بولس وأتباعه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله ، فإنهم -- أخطأوا أم أصابوا -- قد فتحوا ميداناً هائلا من الجدل . فهل كان يسوع رباً ؟ أم أن الرب خلقه ؟ هل هو والرب سواء أو هو منفصل عن الرب ؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هاته الأسئلة ، بيد أنه مضطر أن يدونها وأن يلحظ كم هي أسئلة لم يكن منها بد ، بسبب ذلك السلطان الهائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة يكن منها بد ، بسبب ذلك السلطان الهائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة البشرية في بلاد الغرب . حتى إذا وافي القرن الرابع من الحقبة المسيحية وجدنا المجتمعات المسيحية بأسرها في حالة من الهياج والسخط بسبب الحدل الملتوى الحداء حول طبيعة الله - بحيث أهملت بدرجة كبيرة التعاليم الأكثر بساطة ، تعاليم الإحسان والأخوة والخدمة التي طبعها يسوع في العقول مراراً وتكراراً .

وأهم الآراء التي ينبغي أن يلحظها المؤرخ هي آراء الآريوسية (Arians) والسابيلية (المحلفا المؤرخ هي آراء الآريوسية تتبع آريوس الذي كان (Sabellians) وكان السابيلية يعلمون أنه حالة أو أقنوم للإله يعلم أن المسيح كان أقل من إله ، وكان السابيلية يعلمون أنه حالة أو أقنوم للإله فالإله هو الحالق والمخلص والمواسي ، كما يكون الرجل الواحد أباً وقيماً وضيفاً ؛ أما الثالوثية الذين كان إثناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس ، أقانيم ثلاثة مميزة ، بيد أنها إله واحد . وإنا لنرجع القارئ إلى حقيدة إثناسيوس يطلب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير ، ويطلب فيها النتائج المزعجة التي ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها ! ! . ويجب عليه أن يرجع إلى حيبون (٢)إن شاء بياناً عن هذه الحصومات ملؤه السخرية والنهكم . على أن الكاتب الحالي حيبون (٢)إن شاء بياناً عن هذه الحصومات ملؤه السخرية والنهكم . على أن الكاتب الحالي

⁽١) السابيلية هم أتباع سابيليوس (القرن الثالث م) الذيكان يرى أن الله لا ينطوى إلا على شخص واحد وأن الثالوث لم يكن إلا ثالوثا من الوظيفة والإظهار . (المترجم)

⁽٢) أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة وللنشر (في ١٩٦٩ – ١٩٧٠) ترجمة عربية لجيبون بإشراف الأستاذ أحمد نجيب هاشم . فليرجع اليها القارئ . (المترجم)

لا يسعه إلاأن يعالجها دون أدنى رهبة ولاسخرية . وهو يرى من واجبه أن يعترف أنها تبدو له كأنما هي غليان مدمر تهدر مراجله في العقل البشرى وتفيض منه الكوارث الوبيلة وأنها لانتسق بتاتاً مع تعاليم يسوع البسيطة الصريحة المحفوظة لنا في الأناجيل . ولم يعسد اعتناق المذهب التقليدي السليم (الأرثوذكسي) شرطاً لازما للحصول على الوظيفة المسيحية فحسب ، بل لمزاولة التجارة بين المسيحيين والحصول على المعونة المسيحية كذلك . فإن التمسك بنقطة صغيرة من نقاط المبادى الدينية أو التزحزح عنها قد يكون معناه ثراء رجل أو إدقاعه . ومن العسير أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية من ذلك الزمان ، دون أن يشعر شعوراً قوياً بتحكم الانجاه الاعتقادى (Dogmatism) وباستبداد الأحقاد والمنافسات والتفهقات بالرجال الذين مزقوا المسيحية إرباً من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة . ومعظم المجادلين الثالوثيين _ إذ أن أهم ما تبقى من الوثائق هو وثائق الثالوثية - ينهمون خصومهم (وبحق ما ينهمونهم فى الغالب) يأن لهم دوافع دنيثة أخرى خفية . بيد أنهم يفعلون ذلك بطريقة تفضح روحهم الوضيعة في جلاء تام . مثال ذلك أنهم يتهمون أريوس مثلابأنه يعتنق الإلحاد (الهرطقة) ، لأنه لم يعين أسقفاً على الإسكندرية . وكانت الفين والحرمانات (من عضوية الكنيسة) والنبي تلازم على الدوام هذه الخصومات ، ثم جاء دور الاضطهاد الرسمي آخر الأمر . إذ اختلطت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين الإله ، بالسياسة والمنازعات الدولية . وكان الرجال الذين يتنازعون حول أشغالهم ، والزوجات اللائي يرغن في مضايقة أزواجهن ، يعتنقون في هذا الموضوع الرفيع آراء متضادة . وكان معظم البرابرة غزاة الإمبراطورية الرومانية من الآريوسين ؛ والراجح أن مرد ذلك هو أن عقولهم البسيطة لم تكن لتفهم العقيدة « الثالوثية » .

ومن أيسر الأمور على المتشكك أن يهزأ من هذه المنازعات. ولكن حتى لوكنا نرى أن هذه المنازعات. ولكن حتى لوكنا نرى أن هذه المحاولات التي ترمى على وجه الدقة إلى تبين مقدار ارتباط الله بنفسه ، فيها من الغرور والجرأة فضلاعن الفظاعة من الناحية الذهنية ما فيها ، فإناعلى ذلك مضطرون إلى الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقة المخالفة لكل معقول ، تفصيلات الاعتقاديات (Dogmas) المستحيلة ، كثيراً ماكانت تكمن وراءها عاطفة صادقة تهدف نحو الحق ،

وإن أساء القوم تصور ذلك الحق وفهمه . وكان لكل من الجانبين شهداء صادقو الشهادة . والحياسة التي تجلت في هذه المنازعات وإن تكن حماسة وضيعة في غالب الأحيان ، إلا أنها جعلت الشيع المسيحية على كل حال نشيطة جداً في ناحيتي الدعاية والتعليم . ومع ذلك فينبغي ألا يخدعنا تاريخ الجاعة المسيحية في القرنين الرابع والحامس من حيث هو في معظمه سجل لهذه المنازعات التعسة ، إذ الواقع أن روح يسوع كانت تعيش فعلا وتتسامي بأرواح كثيرة بين المسيحيين . وفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل ، وإن جرى على المراجح التلاعب بها أثناء تلك المدة ، إلا أنها لم يقض عليها تماما ، وظل يسوع الناصري في جلال عظمته الوضاحة التي لا تجارى ، يعلم الناس من خلال نصوصها . كذلك لم يمنع هذا الشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ بجبة موحدة ضد حفلات المجالدين وضد العبادة المشينة عبادة الأوثان والقيصر الرب .

٦ ـ كفاحات المسيحية واضطهاداتها

كان طبيعيا أن تعد المسيحية حركة عصيان الدولة وتفكيك لعراها ، ما تحد ت ربوبية قيصر والنظم التي تتمز بها الإمراطورية ، والواقع أنها كانت تعد كذلك في نظر معظم الأباطرة قبل قسطنطن الأكبر . فلقيت عداء جسيا ، انهى آخر الأمر المورطور إلى بذل محاولات منظمة المقضاء عليها . وكان ديكيوس (Decius) أول إمراطور أزل بها اضطهاداً رسمياً ، كما أن عهد دقلديانوس (٣٠٣ وما أعقبها من السنن) هو حقبة الشهداء العظيمة . والواقع أن اضطهادات دقلديانوس هي النزاع النهائي بين فكرة الإمراطور الرب القديمة وبين الهيئة العظيمة البالغة بالفعل حد القوة والتي كانت تنكر ربوبيته . وكان دقلديانوس أعاد تنظيم شئون الملك والمملكة على أسس متطرفة من الحكم المطلق ؛ وألغى آخر ما تبقى من آثار النظم الجمهورية ؛ وهو أول أمير اطور يحيط نفسه إحاطة تامة بكل ما للملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة . أمير اطور يحيط نفسه إحاطة تامة بكل ما للملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة . فاضطره منطق مدعياته أن يحاول القضاء التام على ذلك النظام الذي كان ينكرها إلى الإمراطور قربانا .

« ومع أن دقلديانوس الذي لم يبرح نافرا من سفك الدماء ، قد خفف من غلواء جاليريوس الذي اقترح أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيا ، إلا أن العقوبات التي وقعت على المسيحيين المعاندين ، بمكن أن تعد من النكال الصارم ذى الأثر البالغ . فصدرت مراسيم تقضى بأن كنائسهم في أنحاء الإمر اطورية بجب أن تهدم من أساسها ؛ ثم أنذر بعقوبة الإعدام كل من يجرو على عقد أية اجماعات سرية بقصد العبادة الدينية . واتخذ الفلاسفة في ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية ، هي توجيه الحماسة العمياء للدولة في ذلك الاضطهاد ؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة المسيحية وعبقريتها دراسة كد" وتوفر ؛ ولما كانوا لا يجهلون أن من المفروضأن المبادئ النظرية للعقيدة تحتويها كتابات الأنبياء والإنجيليين والرسل ، فأرجح الظن أنهم هم الذين اقترحوا إصدار الأمر بأن يسلم الأساقفة والقساوسة كلكتبهم المقدسة إلى الحكام، الذين صدرت لهم الأوامر بأن يحرقوها في هيئة علنية رهيبة ، وإلا نالهم شر الجزاء. وقد تضمن نفس المرسوم مصادرة أملاك الكنيسة على الفور ؛ وكانت الأجزاء المختلفة التي تتكون منها ، إما أن تباع لمن يدفع فيها أغلى ثمن أو تضم إلى الأملاك الإمبر اطوية أو توهب للمدن أو الهيئات أو تمنح تلبية لطلب الطامعين من رجال البلاط. وبعد اتخاذ مثل هذه التدبيرات الفعالة لإلغاء العبادة ، وللقضاء على رئاسة المسيحية ، روْىمنالضرورى تعريض أولئك الأفراد المنحرفين الذين بواصلون رفض عقيدة الطبيعة ، عقيدة روما وعقيدة أسلافهم ، لما لا يكاد يطاق من العنت والشقاء . وكان الأفراد المستنيرون من أبناء البيوتات يعدون غير أكنَّفاء لحيازة الرتب أو تولى المناسب ؛ فأما الأرقاء فيحرمون حرماناً أبدياً من التطلع إلى الحرية ؛ كما أن الجاعة المسيحية بأجمعها حرمت حماية القانون . فقد خول للقضاة الحق في أن ينظروا وأن يقضوا في كل قضية ترفع أمامهم ضد أي مسيحي ؛ بيد أنه لم يكن مسموحا للمسيحيين أن يشتكوا من جور يصيبهم ؛ وهكذا كانت هذه الطائفة المتعسة هدفا لكل ظلم وعنت ، على حين يحال بينهم وبين الانتفاع بالعدالة العامة . ولم يكد هذا المرسوم يعرض على الملأ في أبرز المواضع بنيقوميديا ، حتى امتدت إليه يدا مسيحي بالتمزيق المصحوب بأقذع التنديد والسباب تعبيراً عن المقت والاحتقار لمثل هوالاء الحكام الفسقة الطغاة . وكانت جريمته

طبقاً لأخف القوانين وطأة ، توضع بمنزلة الحيانة العظمى وتجازى بالإعدام و فإن صح أنه كان رجلا ذا مرتبة وعلم ، فإن تلك الظروف ماكانت إلا لنزيد فى جرمه : وإذا هو يحرق أو قل يشوى على نار بطيئة . وإذا بجلاديه وقد امتلأواحماسة للانتقام للإهانة الشخصية التى لحقت بالأباطرة ، يفتنون فى إنزال العذاب ألواناً بالمسكين دون أن يستطيعوا لصره قهراً ، وأن يغيروا من ابتسامة الثبات والزراية التى ظل محتفظاً بها على محياه وهو فى آلام نزعه الأخير . »(۱) .

وهكذا افتتحت الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم بموت ذلك الشهيد المجهول . ولكن ما وصلنا من معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشدته إنما هو ــ كما يلاحظ جيبون ــ موضع الشك الكثير . وهو يقدر مجموع الضحايا الكلي بما يقارب الألفين ، ويقارن هذا بالثابت المؤكد من عدد جماهبر المسيحيين الحاشدة الذين استشهدوا على أيدى زملائهم في الدين أثناء فترة الإصلاح الديني . ومن المعلوم أن جيبون شديد التحامل على المسيحية ، وهو هاهنا يبدو كأنما ينزع إلى النهوين من شأن تجلد المسيحيين وما عانوه من الآلام . ولا مراء أن كثيراً من المقاطعات أبدت نفوراً عظيماً في تنفيذ المرسوم. بيد أن السلطات بذلت جُهداً كبيراً في تصيد نسخ الكتب المقدسة ، كما حدث أيضاً في أماكن كثيرة هدم معظم الكنائس المسيحية . وعذبوأعدم كثير ، كما ملئت السجون بالأساقفة والقساوسة المسيحيين . ولزام علينا أن نتذكر أن المجتمع المسيحي كان يؤلف عنصراً ضخماً جداً بن السَّكان ، وأن نسبة كبرة من الموظفين المكلفين بتنفيذ المرسوم كانوا هم أنفسهم يدينون بالعقيدة المحرمة . وكان جاليريوس صاحب الأمر في الولايات الشرفية من أشد أنصار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة ، ييد أنه أدرك آخر الأمر وهو على فراش الموت (٣١١) أن لا فائدة ترجى من اعتداءاته على هذا المجتمع الضخم ، فأصدر مرسوماً بالتسامح ، يترجم جيبون خلاصته على الوجه التالي : ن

«كان من بين الأمور الجوهرية التي أهمتنا لمنفعة الإمبراطورية والمحافظة عليها ، اعترامنا أن نصلحونقيم من جديد كل شيء وفقاً للقوانين القديمة ونظام الرومان العام ، وقد رغبنا رغبة خاصة في أن نهدى إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحيين

⁽١) انظر جيبون في "Decline & Fall of the Roman Empire" الفصل السادس عشر . وبإشراف أحمد نجيب هاشم وترجمة محمد على أبو درة وآخرين ، أصدرت المؤسسة المصربة للطباعة والنشر طبعة عربية لطبعة مختصرة من جيبون أصدرها الاستاذ د . م . لو . (المترجم)

المخدوعين الذين تركوا الديانة والطقوس التي استها آباؤهم ؛ واحتقروا في جرأة وغرور شريعة الأقدمين ، واخترعوا قوانين وآراء هوجاء وفقاً لما تمليه عليم أهواؤهم ، وجمعوا من حولهم مجتمعاً مخلطاً من مختلف ولايات إمبراطوريتنا . وإذ أن المراسيم التي أصدرناها لدعم عبادة الآلهة ، قد عرضت كثيراً من المسيحيين للأخطار والمحن ، فلتي الكثيرون منهم حتفه ، وترك الأكثرون عمن لا يزالون يصرون على ضلالهم الأحمق محرومين من أي ممارسة عمومية للديانة ، فإنا نميل إلى أن نشمل هولاء التعساء بآثار رحمتنا المعتادة . لذلك فنحن نسمح لهم بأن يعبروا بحرية من آرائهم الحاصة وأن يجتمعوا في اجتماعاتهم الدينية دون خوف أو مضايقة ، على شريطة دائمة هي أن يحافظوا على الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة . وسنوضح شريطة دائمة هي أن يحافظوا على الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة . وسنوضح في أمر آخر مقاصدنا للقضاة والحكام ؛ ونأمل أن يطوع تسامحنا للمسيحيين بأن يقدموا صلواتهم للرب الذي يعبدون ، من أجل سلامتنا ورخائنا ومن أجل سلامتهم ورخائهم ومن أجل سلامة الجمهورية ورخائها » .

وفى بضع سنن كان قسطنطن الأكبر فى دست الملك ، يحكم فى مبدأ الأمر بالاشتراك مع آخر (٣١٢) ثم بحكم منفرداً بالسلطان (٣٢٤) ، فانهت على يديه أقسى محن المسيحية . ولئن كانت المسيحية قوة عصيانية مدمرة حيال روما الوثنية ، فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة فى داخل مجالها رمجتمعاتها هى . وأدرك قسطنطين بعبقريته هدفه الحقيقة . فإن روح يسوع بالرغم من الحلافات النظرية التي سادت المسيحين جعلت مهم جماعة متعاطفة كبيرة فى كل أرجاء الإمبراطورية بل فى خارج حدودها . وأخذت العقيدة فى الانتشار من وراء الحدود من البرايرة ، كما امتدت الى فارس وآسيا الوسطى . وكانت مصدر الأمل الوحيد للهاسك الحلقي الذى استطاع قسطنطين أن يدركه في حمأة الآراء الضيقة والأثرة التي كان لزاماً عليه أن يحكم من فوقها . فهى ، وهى وحدها ، كانت صاحبة الوسائل المهيئة لتكوين فوقها . فهى ، وهى وحدها ، كانت صاحبة الوسائل المهيئة لتكوين تتناثر أشلاء تناثر قطعة باليسة من القاش . وفى (٣١٢) اضطر قسطنطين أن يحارب دفاعاً عن روما وعن مركزه ضد مكسينتيوس (Mxentius) قوضع طغراء (١)

⁽١) الطغراء : علامة ترمز إلى شخص أو جماعة ما تتألف من أحرف الاسم الأولى مرقومة على نحو متشابك . (المترج

اسم المسيحية على تروس جيشه ورايانه ، وادعى أن رب المسيحيين قاتل ذياداً عنه فى نُصره المبين فى معركة جسر ميلڤيان (Milvian) خارج روما بالضبط. وبهذا العمل تنازل عن كُل ادعاء له بالربوبية التي أدخلها غرور الإسكندر الأكبر لأولُّ مرة إلى العالم الغربي . وبموافقة المسيحيين ومعونتهم نصب نفسه ملكا ، له من الحكم المطلق نصيب أعظم مما أتبح لدقلديانوس نفسه . ولم تنقض بضع سنوات حتى أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية ، وفي (٣٣٧ م) مُحمَّدَ قسطنطين مسيحياً و هو على فراش موته .

٧ _ قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهري في التاريخ ويعـــدل في جوهريته على أقل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو أوغسوس قيصر . ولسنا نعرف إلا أقل القليل عن شخصيته أو حياته الحاصة ؛ إذ لم تهيئ لنا المقادير في زمانه مؤرخاً مثل پلوتارك(١) أو سويتونيوس^(٢) (Suetonius) يبقى لنا على تفاصيل زاهية التلوين تتصل اتصالا وثيقاً يمعيشته الداخلية . أجل لدينا الآن مطاعن مما كتب أعداؤه ، كما أن لدينا في مقابل ذلك من الثناء عليه ما هو ظاهر الغلظ والسهاجة . بيد أن واحداً من هوالاء الكتاب لم يعطنا صورة له حية زاهية الألوان ، فإنه ليس بالنسبة إليهم إلارمز ٱلطائفتهم ، أو راية حزبية لهم . ويذكر خصمه زوسيموس (Zosimus) أنه كسر جون الأول ، كان غير شرعى المولد أ إذكان أبوه قائداً شهيرا ، على حين كانت أمه هيلالة ابنة صاحب خان فى نيش ببلاد الصرب. على أن جيبون يرى مع ذلك أنه ثمرة زواج شرعى . ومهما يكن الأمر فإنه كان زواجا وضيعاً ؛ وقد طَّفت عبقرية قسطنطن الشخصية على فقائص خطيرة تكنفته . فإنه كان من الأمين أو يكاد ، وكان يعرف القليل الذي لايكاد يذكر من الإغريقية . ويبدو أنه نني حقًّا ابنه الأكبر كريسپوس ، وأمر به فأعدم بتحريض من فاوستا امرأة أبى الفتى ؛ كذلك تحمل إلينا السجلات أنه اقتنع فيما بعد بيراءة كريسپوس ، وأمر بفاوستا فأعدمت ، بأن أُغلى عليها ماء حمامها حتى ماتت ــ على قول إحدى الروايات ؛ وبأن ألقيت للضوارى (في رواية أخرى) عارية الجسم (١) بلوتارك : (ح ١٤ - ١٢٠) كاتب تراجم يونان حاضر في الفلسفة بروما . وعينه هادريان

واليا على اليونان . وكتابه « التراجم المتوازية » فيه موازنة بين كل اثنين من كبراء الإغريق (المترجم) والرومان .

⁽ ٢) سويتونيوس : مورخ لاتيني (إزدهر بالقرن الثاني الميلادي) ويعطينا كتابه « حياة القياصرة » معلومات شخصية كثيرة عنهم . (المترجم)

على بجبل موحش ؛ على حين توجد كذلك وثائق مقنعة جداً تدل على أنها عاشت من بعده . فإن كانت أعدمت فعلا ، فإن ذلك لا يوثر فى الحقيقة القائلة بأن أولادها الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها ، أصبحوا ورثة قسطنطن «بالتعين» . وواضح أنه لا يمكن الحصول على شيء يعتمد عليه فى هذه المعقدات الغامضة ، وعلى القارئ المتطلع أن يطلب أخبار هذه « الحبيصة » القائمة على مادة بالغة الندرة عند جيبون الذي دبجها بمهارة فائقة (الفصل ١٨) .

ومعروف أن جيبون كاتب ذو ميول مضادة للمسيحية ، فهو من ثم خصم معاد لقسطنطين ؛ بيد أنه يعترف أنه كان معتدلا عفيقاً . وهو يتهمه بالإسراف بسبب مبانيه العامة العظيمة ، كذلك يتهمه بالغرور والحلاعة ! لأنه لبس وقد تقدمت به السن شعراً مستعاراً (ولا يخي أن جيبون نفسه كان يلبس شعره المستعار ويربطه برباط أسود مناسب) وتاجاً ملكيا وثياباً فاخرة . على أن جميع الأباطرة المتأخرين يعد دقلديانوس لبسوا التيجان والثياب الفاخرة .

ومع ذلك فلئن ظلت شخصية قسطنطين الكبير أشبه شيء بالأطياف ، ولأن لم تتكشف تفاصيل حياته الحاصة إلا عن مأساة يغشاها الإبهام ، فإنا مع ذلك نستطيع أن نتخيل كثيرا مما كان يجول في ذهنه . ولا بد أنه كان ذهنا يشعر بالوحشة الأليمة وهو في خاتمة سنى حياته . كان أكثر استبداداً من أي إمير اطور سابق — أعنى أنه كان أقل استشارة واستعانة بغيره ، إذ لم يبق لديه أحسد من أهل الثقة ذوى الروح الغيرية العامة (۱) ، ولم يكن هناك مجلس شيوخ (سناتو) ، ولا أي مجلس أيا كان يشاركه وضع الحطط وتطويرها . فإلى أي مدى أدرك ذلك الرجل ضعف إمير اطوريته وإلى أي حد كان يرى الكارثة الشاملة التي كانت عند ذاك وشيكة الحدوث ؟ ذلك ما لا نسستطيع أن نعتمد فيه إلا على الحدس والتخمين . ومهما يكن الأمر فإنه جعل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية بيثنيا . وقد مات والقسطنطينية عبر البسفور ما تزال تبني . ويلوح أنه — شأن دقلديانوس — قد أدرك انقصام (۲) ظهر معالم ممتلكاته وشكلها العام .

⁽١) يقصدالمؤلف بهؤلاء كل شخص يعي بالشئون العامة وخدمة الحمهور . (المترجم)

⁽٢) انقصم الظهر بمعنى انكسر . (المترجم)

وركز اهمامه على الشئون الحارجية ، وعلى الأحص إلى شئون بلاد المجر وجنوب الروسيا والبحر الأسود . وقد أعاد تنظيم أداة الحكم في الإمبراطورية ، وأعطاها دستوراً جديداً وسعى في أن يكون أسرة مالكة . وكان مجدداً لا مهداً له بال ؛ فحاول أن يعالج الفوضى الاجتماعية بمساعدته نظام الطوائف على التطور . وهو في هذا يترسم خطى سلفه العظيم دقلديانوس . فحاول أن يجعل من الفلاحين وصغار الزراع طائفة ، وأن يحظر عليهم الانفصال عما في حوزتهم من أرض ، وهو في الحقيقة قد سعى أن يجعلهم موالي أرض (Serfs) . ذلك بأن الوارد من الأرقاء العال قد نضب معينه ، إذ أن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو ، فانقلب يتلمس العلاج في نظام موالي الأرض ، واقتضت جهوده الحلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق العلاج في نظام موالي الأرض ، واقتضت جهوده الحلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق العلاج في نظام موالي الأمور إلى عقل قوى يشعر بالوحدة الموحشة . وتتجلي قوة ابتكاره الأصيلة في فهمه البيس للحاجة إلى بعض القوى الأخلاقية الموحدة التي لا بد

ويبدو أنه لم يدرك الاختلافات العنيفة القائمة بين رجال اللاهوت إلا بعد أن تحول بوجهه صوب المسيحية . فأنفق جهداً عظيماً التوفيق بين هذه الفروق لكى يتسبى له أن يبث في المجتمع تعاليم تتصف بالتناسق والانسجام ، وبناء على مشورته عقد مجمع عام للكنيسة (٣٢٥) في نيقيا ، وهي مدينة تقع قرب نيقوميديا في مواجهة القسطنطينية . ويقدم إلينا بوسبيوس (Eusebius) (الم بياناً عجيباً عن هذا الإجماع الغريب ، الذي كان يترأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحياً معمداً . لم يكن أول مجلس عقده من أجل الكنيسة ، لأنه سبق له أن رأس في (٣١٤) مجلسا في آدل (Arles) . جلس الإمبراطور في مهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب ، وإذ أنه كان رقيق الزاد من الإغريقية ، وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة ملامح وسحنة وإيماءات المتناظرين وسماع نغات أصواتهم . وكان المجلس عاصفاً . ولما قام آريوس (Arius) المسن ليتكلم ، لطمه على وجهه شخص هو نيقولاس الميرى واصابعم في آذانهم في رعب مفتعل من هرطقات الرجل الشيخ . وإن المرء ليلذ له أن

⁽١) يوسبيوس (ح ٢٦٠ – ٣٤٠ م.) هو أبو التاريخ الكنسي . ويعتقد أنه ولد بفلسطين . عين أسقفا لقيصرية ح ٣١٣ ولعب دوراهاما في مجمع نيقيا . (المترجم)*

يتصور الإمبراطور العظم ، وهو فى أشد القلق على روح إمبر اطوريته ، كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانقسامات ، منحنياً نحو مترجيه يسألهم إيضاح تلك الضجة .

وتمخض هـــذا المجمع عن « بيان العقيدة النيقية » وهو بيان « ثالوثى » دقيق ، وناصر الإمبر اطور هذه العقيدة « الثالوثية » . ولكن لما حدث فيما بعد أن أثناسيوس اشتط فى الحملة على الأربوسيين ، أمر به فنفى من الإسكندرية ، ولما رغبت كنيسة الإسكندرية فى حرمان آربوس ، أجبرها على أن تعيده إلى حظيرتها .

٨ - تأسيس المسيحية الرسمية

إن عام (٣٢٥ م) يعد من أنسب التواريخ لكتابنا هذا . إذ هو تاريخ أول مجمع عام و مسكونى Oe cumenical ، بكامل هيئته للعالم المسيحى بأسره : (فأما ذلك المجمع الذي عقد في آرل وذكرناه آ نفآ فكان اجتماعاً للنصف الغربي فقط) . وهو يسجل دخول الكنيسة المسيحية والدير المسيحي يصفة قاطعة إلى مسرح الشئون الإنسانية ، على النحو المفهوم عن ذلك الدين في العالم اليوم عامة . وهو يحدد التعريف الدقيق للتعاليم المسيحية بواسطة قرار العقيدة النيقية (Nicene Creed) .

ومن الضرورى أن نستلفت نظر القارى إلى الفروق العميقة من مسيحية نيقيا هذه التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصرى . فإن المسيحين جميعاً يعتقدون أن الأولى تنطوى على الثانية وتحتويها احتواء تاماً ، على أن هذه مسألة تخرج عن مجالنا . فمن الواضح عاماً أن تعاليم يسوع الناصرى تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذى ابتدأ بظهور الأنبياء العبر انبين . وهى لم تكن كهنوتية ، ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل . ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس . وكان قربانها و قلباً كسيراً خاشعاً م . وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة . بيد أن مسيحية الفرن الرابع الكاملة التكوين ، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجبل كنواة لها – كانت في صلبها و ديانة كهنوتية » ، من طراز مألوف للناس من قبل منذ كنواة لها – كانت في صلبها و ديانة كهنوتية » ، من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف من السنين ، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة ، والعمل الجوهرى في العبادة فيها آلاف من السنين ، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة ، والعمل الجوهرى في العبادة فيها

هو القربان بقربه قسيس متكرس للقسداس . ولها هيئة تنطور بسرعة مكونة من الشهامسة والتساوسة والأساقفة .

ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه محل سير ابيس أو آمون أو بعل مردك مشابهة غير عادية ، فلا بد لنا من تذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها . فإنها لم يكن لديها فى أى مكان أى صورة مجسدة شبه قدسية للرب . ولم يكن هناك معبد رئيسى يحوى الرب ، وذلك لأن الرب موجود فى كل مكان ولم يكن هناك قدس أقداس . وكانت مذابحها المنبئة فى كل مكان موجهة كلها إلى الثالوث العام الذى لا يرى . والمسيحية حتى فى أقدم مظاهرها كانت تحوى شيئاً جديدا .

وثمة أمر هام جدا علينا أن نلحظه ونسجله وهو الدور الذي لعبه الإمبراطور في تثبيت المسيحية . فلم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذي دعا لاجتماع مجمع نيقيا، بل إن كل المجامع العظيمة ، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١ ، ٥٥٣) وواحد بإفيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخلقدون (Chalcedon) (٤٥١) ، جمعتها كلها يد الإمبراطور.. والحلى الذي لاخفاء فيه أن قدراكبيرا من تاريخ المسيحية في ذلك العصريشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع إن لم يزد . وكان قسطنطين كما سبق أن نوهنا مستبدا (أو توقر اطياً) مطلقاً . ذلك بأن آخر آثار الروح الجمهورية الرومانية قد اختفت فى أيام أوريليان و دقلديانوس . وكان يحاول بالقدر الذى هيأته له معارفه ، أن يعيد ـ قبل أن يفوت الأوان ـ تكوين الإمر اطورية المتضعضعة ، وكان يعمل من غير مستشار أو ناصح ، أو أى رأى عام أو أى شعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من وسائل العون والضبط . فإن فكرة محق كيل خصومة وانقسام ، والقضاء على كل فكر بواسطة فرض عقيدة « اعتقادية Dogmatic » واحدة على المؤمنين جميعاً ، إنما هي فكرة استبدادية أو توقر اطية بأشمل معانى الكلمة ، وإنها لفكرة الرجل الفرد الذي يعمل بغير معين والذي يشعر أنه لكي يستطيع أن يعمل ينبغي أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد . ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره ، سلسلة من الكفاحات العنيفة التي كان لا بد من حدوثها نتيجة لمباغتته الناس بدعوته الفجة إلى الإجماع على رأى. وعنه الا بد من حدوثها نتيجة لمباغتته الناس بدعوته الفجة إلى الإجماع على رأى.

إقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية ، وإنشاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمر اطورية وإلى جوارها .

وجاء بعد ذلك مستبد, عظم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) أو ثيودوسيوس الكبر (٣٧٩ – ٣٩٥) فساهم من فوره فى فرض طابع استبدادى صريح على المسبحية الكاثوليكية . فحرم على من لم تصح عقدتهم من المسيحين عقد الاجهاعات ، وسلم كل الكنائس الثالوثين ، وقضى على معابد الوثنية فى كل أرجاء الإمبراطورية ، وفى ٣٩٠ أمر بتمثال سير إبيس العظيم بالإسكندرية فحطم . إذ لم يكن ليسمح بعد ذلك بوجود أية منافسة ولا أية مناقضة لوحدة الكنيسة المتاسكة .

ولسنا بمستطيعين أن نخبرك هنا بما عانته الكنيسة من المتاعب الداخلية الهائلة ولاعن عدم هضمها للزنادقة مثل أتباع أربوس وأتباع بولس(١) والأدريين (الأغنسطيين) والمانويين . ولو أنها كانت أقل استبداداً وأكثر تساعاً مع الأفكار المتنوعة ، فلربما أصبحت هيئة أقوى بكثير مما وصلت إليه . ولكنها على كل هذه الاضطرابات ، ظلت زماناً تحتفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فيها من التعاطف ورحابة الأفق ما لم تصل إليه الإنسانية قبل ذلك قط . ولما وافي القرن الخامس إذا المسيحية أخذت بالفعل تتبوأ منزلة أعظم وأقوى وأشد دواماً مما وصلت إليه أية إمبراطورية في الماضي ، لأنها لم تكن مجرد شيء مفروض على الناس فرضاً بل هي قطعة من نسيج عقولهم . وقد تجاوز اتساعها أقصى حدود الإمبراطورية بكثير ، حتى شملت أرميلية وفارس والحبشة وإير لندة وألمانيا وحتى تغلغلت في الهند والتركستان . « وهي وإن تألفت من مجاميع منتبرة انتثاراً متباعداً ، فإن الناس كانوا يفكرون فيها بوصفها جماعة واحدة للمسيح وشعباً واحداً لذ . واستطاعت هذه الوحدة المثالية أن تجد للتعبير عن نفسها سبلا عديدة . فإن تبادل الاتصال بن المجتمعات المسيحية المنتوعة كان قائماً على قدم

⁽١) أتباع بولس (Paulicians) : فرقة من الزنادقة نشأت بسوريا والشرق فى القرن السابع عقيدتها خليط من الأغنسطية والمانوية . واشتق اسمهم من القديس بولس الذى كانوا يولونه وكتاباته تبجيلا عظيما . (المترجم)

وساق . وكان المسيحيون الذين هم على سفر ، على يقين دائماً من استقبال حار وترحاب كريم من إخوانهم فى الدين . وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى . وكان المبشرون ودعاة الإنجيل ينتقلون على الدوام من مكان إلى مكان . وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف ، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية ، منتشرة انتشاراً واسعاً . وهكذا وجد الشعور بالوحدة طرائق منوعة للتعبير عن نفسه . حتى لكأن تطور أجزاء متباعدة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة ، طرازاً مشتركاً بينهن جميعاً ه(1) .

وقد احتفظت المسيحية على الأقل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة للروخ حتى عام ١٠٥٤ ، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية اللاتينية اللسان ، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة وهي الكنيسة والأرثوذكسية » ، انفصلتا إحداهما عن الأخرى لسبب صورى هو إضافة كلمتين على العقيدة ، فإن الملة القديمة كانت أعلنت « ان روح القدس منبثق من الأب » . وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أى ومن الإبن أيضاً) بل وأضافتها فعلا ، وبذلك أخرجوا اليونان من مجتمعهم الديني لأنهم أبوا أن يتبعوا ملتهم . على أن مسيحيي شرق سوريا وفارس وآسيًا والهندكانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل في زمن مبكر يرجع إلى القرن وسمرقند . فهوًالاء المسيحيون الآسيويون الشديدو الطرافة يعرفون في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية ، وقد امتــد سلطانهم إلى صميم بلاد الصين . كذلك فصلت الكنيستان المصرية والحبشية نفسهما في زمن مبكر جداً لمثل هذه النقاطالتي لاسبيل إلى تفسيرها . ومهما يكن الأمر ، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمي بين شطرى الكنيسة الرئيسية الناطقين باللاتينية والإغريقية بزمن كبير ، كان هناك انفصال فعلى جاء فى أعقاب انقسام الإمبراطورية . ذلك بأن أحوالهما تباعدت منذ البداية . فعلى حين كانت الإمىراطوريَّة الشرقيَّة الإغريقيَّة اللغة ميَّاسكة البنيان ، وعلى حن ظل الإمر اطور ﴿ في القسطنطينية متسلطاً على الكنيسة ، فإن النصف اللاتيني من الإمراطورية قد انهار

⁽١) الموسوعة البريطانية مادة «تاريخ الكنيسة» ص ٣٣٦.

كما سبق أن قلنا ، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمىراطورى .

وفضلا عن ذلك فإنه بينها كانت السلطة الكنسية (الإكلبروسية) في إلى المسراطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطاركة في القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس، فإن السلطة في الغرب تركزت في بطريرك أو بابا روما . وكان الجميع يعترفون على الدوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطاركة ، وتآزرت كل هذه الأمور على تعرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحق في ممارسة سلطات شبيهة بسلطات الإمبراطور . حتى إذا سقطت الإمبراطورية الغربية سقطتها النهائية ، اتخذ البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذي كان الأباطرة يتخلونه لأنفسهم ، وبذا أصبح كاهن القرابين الأعلى في قديم التقاليد الرومانية ، فأما في بلاد الغرب فقد اعترف الناس له اعترافاً كاملا بالسيادة العليا على المسيحيين هناك ، فأما في بلاد الغرب فقد اعترف الشرق ودائرة اختصاص البطاركة الأربعة الآخرين ، فقد كان من الضروري منذ البداية توخى منتهى الحذر في حث الناس على تقبل فقد كان من الضروري منذ البداية توخى منتهى الحذر في حث الناس على تقبل فقد كان من الضروري منذ البداية توخى منتهى الحذر في حث الناس على تقبل فقد كان من الضروري منذ البداية توخى منتهى الحذر في حث الناس على تقبل فقد كان من الضروري منذ البداية توخى منتهى الحذر في حث الناس على تقبل فقد كان من الضروري منذ البداية توخى منتهى الحذر في حث الناس على تقبل فقد كان من الضروري منذ البداية توخى منتهى الحذر في حث الناس على تقبل فلك السيادة .

وكان القول بتولى الكنيسة الحكم الدنيوى منتشراً بالفعل في القرن الرابع الميلادى . فإن القديس أوغسطين وهو من أهل مدينة هيبو⁽¹⁾ بشهال إفريقية ، كتب بن ٣٥٤ ، وكتاب عبراً عن تطور الفكرات السياسية للكنيسة في كتابه لا مدينة الرب » . وكتاب و مدينة الرب » ينتقل بفكر قارئه مباشرة إلى إمكان تحويل العالم إلى «مملكة سماء » لاهوتية منظمة . والمدينة كما يصورها أوغسطين إنما هي ومجتمع روحي من المؤمنين المقدور لم الإيمان منذ الأزل » ، بيد أن الانتقال من ذلك إلى التطبيق السياسي للفكرة لم يكن بالخطوة الواسعة . إذ كان ينبغي للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التي تسود الشعوب بالخرضية ، والقوة التي ترشدها العناية الربانية وتحكم من فوق عصبة عظيمة من الدول الأرضية . وتطورت هاته الفكرات فيا أعقب ذلك من أعوام فأصبحت نظرية سياسية وسياسة محددة . وبيها الشعوب المربرية تستقر وتتحول إلى المسيحية ، شرع البابا من يدعي أن له السيادة العليا على ملوكهم . ولم تنقض بضع قرون حتى أصبح البابا من

⁽۱) فى الموسوعة العربية الميسرة أنه ولد بمدينة تجسى النوميدية . ونوميديا إقليم قديم فى شمال غرب فريقيا يطابق بالتقريب الحزائر الحديثة . (المترجم)

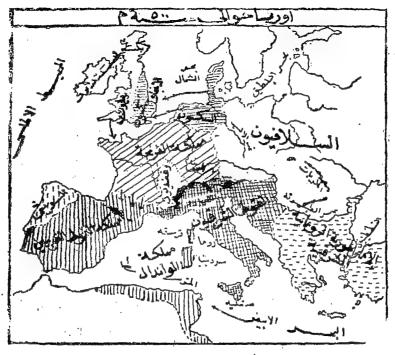
الناحية النظرية ، وإلى حد معين من الناحية العملية ــ الكاهن الأعلى والرقيب والقاضى والملك القدسى للعالم المسيحى . وامند سلطانه غرباً إلى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبر اطورية القديمة : إلى إيرلندة والسويد والنرويج وشمل كل بلاد ألمانيا . وانقضت ألف عام أو تزيد ، وأوربا تسود فيها هذه الفكرة القائلة بوحدة المسيحية ، وهى التى تتصور العالم المسيحى في صورة ضرب من حلف من الدول ، يمتنع أعضاؤه حتى في أيام الحرب عن إتيان كثير من الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوة المشتركة والولاء المشترك للكنيسة . ومن أسف أن تاريخ أوربا منذ القرن الخامس فما بعده حتى القرن الخامس عشر ظل في الأغلب تاريخاً يسجل فشل هذه الفكرة العظيمة ، خي القرن الخامس عشر ظل في الأغلب تاريخاً يسجل فشل هذه الفكرة العظيمة ،

٩ ـ خريطة أوربا في ٥٠٠ م .

آدلينا إليك في الفصل السابق ببيان عن أهم الغارات التي قامت بها الشعوب المتبربرة . وفي إمكاننا الآن أن نقوم بمساعدة إحدى الخرائط بمراجعة وجيزة لأقسام أوربا السياسية عند ختام القرن الخامس . في ذلك الحين ، لم يبق الإمبراطورية الغربية وهي الإمبراطورية الرومانية الأصلية ، أثر بوصفها قسها سياسياً متميزاً منفصلا . فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطاماً بالياً وحل محلها في عقول الناس بأجزاء كثيرة من أوربا الشرقية الهلينية التي أصبحت هي « الإمبراطورية » في عرفهم . وكان الإمبراطور في القسطنطينية لا يزال هو الإمبراطور — من الناحية النظرية على الأقل .

أما فى بريطانيا فكان الأنجل (الإنجايز) والسكسون والحوت ـ وهم أجيال من التيوتون البرابرة البالغى الهمجية قد غزوا نصف إنجلترة الشرقى . وكان البريطون (Britons) لا يزالون صامدين فى غربى الجزيرة ، بيد أنهم كانوا برغمون على التقهقر إلى الخلف رويدا نحو ويلز وكورنوال . على أن الأنجلوسكسون كانوا فيا يبدو من أشد البرابرة النزاة قساوة وتأثيراً فعالا فيمن حولم ، فحيمًا سادوا حلت لغتهم محل اللغية أو اللاتينية اللتين كان البريطانيون يستخدمون إحداها ـ ولسنا ندرى

على وجه التحقيق أيتهما كانوا يستخدمون . ولم يكن هؤلاء الأنجلوسكسون تنصروا بعد .



(شكل ١٢١) خريطة أوزيا حوالي سنة ٥٠٠ م ..

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندة وأرض الراين فكانت تحت حكم علكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدناً. بيد أن وادى الرون كان تابعاً لمملكة منفصلة هي مملكة البرجنديين. على حين كانت أسيانيا وشطر من جنوب فرنسا تحت حكم القوط الغربيين ولكن السويقي كانوا يملكون الركن الشهالي الغربي من شبه الجزيرة.

ولقد سبق أن كتبنا عن مملكة الوندال بإفريقية ؛ فأما إيطاليا ، وكمانت لا تزال رومانية السكان والعادات ، فإنها وقعت فى قبضة القوط الشرقيين . لم يبق هناك إمراطور بروما ؛ بل كان يتولى الحكم هناك ثيودوريك الأول بوصفه أول ملوك القوط . وكان حكمه يمتد عبر جبال الألب إلى بانونيا ويتحدر جنوبا فى الأدرياتي إلى دالماتيا وبلاد الصرب .

على حين كان أباطرة الفسطنطينية يحكمون إلى الشرق من مملكة الفوط حكماً ثابتاً مستقراً . وما برح البلغار حتى ذلك الوقت قبيلة مغولية من الرحل راكبة الخيول في منطقة الشولجا . أما الصربيون الآربون فقد انحدروا حديثاً نحو الجنوب إلى شواطئ البحر الأسود ، إلى المواطن الأصلية للقوط الغربيين ؛ ولم يكن المجريون ذوو الأرومة التركية الفنلندية ، وصلوا بعد إلى أوربا . وكان اللومبارد نازلين حتى ذاك الوقت في شهال الدانوب .

ويمتاز القرن السادس بدور من القوة تفيأته الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور چستنيان (٢٧٥ – ٥٦٥) . فاسترجعت الإمبراطورية مملكة الوندال عام ٥٣٤ م ؛ وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م . وما أسرع ما انحدر اللومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت چستنيان (٥٦٥) ، فاستقروا في لومبارديا ، على أنهم تركوا وافنا وروما وجنوب إيطاليا وشهال إفريقية تحت حكم الإمبراطورية الشرقية .

ذلك هو الوضع السياسي للعالم الذي تطورت فيه فكرة عالم المسيحية والحق إن الحياة اليوميسة لذلك الزمان كانت تنقلب في مستوى خفيض جداً للا جرم سمن النواحي الجثانية والذهنية والحلقية . وكثيراً ما يقال إن أوربا قد انحدرت إلى البربرية في القرنين السادس والسابع ، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال . والأصح كثيراً أن يقال إن مدنية الإمبر اطورية الرومانية قد دخلت في دور انحلال خلتي متطرف . والمربرية نظام اجتماعي ذو طراز أولى ، ولكنه منظم داخل انصلاته ؛ بيد أن أوربا من دون تمزقها السياسي كانت في حالة فوضي اجماعية . ولم تكن معنويات احدى قرى المتوحشين (Kraal) بجنوب إفريقيا بل معنويات تكن معنويات الحدى المدن . فني القرية المتوحشة ، يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع ، ويعيش ويتصرف وفقاً لهذا ، فأما في حي الفقراء ، فإن الفرد لا يعرف ولا يعترف بأي كائن أكبر منه ولا يتصرف مرتبطاً إلى ذلك الكائن .

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضعف أن تعيد ذلك الإحساس المفقود وأعنى به الإحساس بالمجتمع وأن تعلم الناس أن يلتفوا حول فكرة « عالم المسيحية » .

لقد أصبح البناء الاجتماعى والاقتصادى للإمبراطورية الرومانية حطاماً وأشلاء . فإن حضارتها حضارة ثراء وسلطان سياسى يقومان على ما ترسف فيه كتلة البشرية الكبرى من قبود واسترقاق . أجل إنها تجلت في مشهد من الفخامة الظاهرية والكماليات المترفة ، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الحارجي النبيل كل ألوان القساوة والغباء والركود ، فكان لا بد لها من أن تتحطم ، وكان لا بد من إذالتها قبل أن يستطيع أن يخلفها ما هو خبر منها .

ولقد سبق أن استرعينا الأنظار إلى موتها الذهبى . إذ أنها لم تنتج فى ثلاثة قرون علماً ولا أدباً له أية قيمة . والواقع أن الاستطلاعات المخلصة غير المغرضة والدوافع النقية الصافية لن تجد مجالا يتبح للعالم فلسفة متزنة وعلماً راقياً وفناً منظماً ، إلا حيث يوجد رجال ليسوا من الثراء والقوة بحيث يغرون على الإغراق فى الملذات . وليسوا فقراء مكدودين يحيث لا يعنون بشيء وراء الحاجة اليومية . على أن بلوتو قراطية مقراء مكدودين إوما : (حكومة الأثرياء المترفين) قد جعلت مثل هسذا الشيء أمراً مستحيلا . فعندما لا يجد الرجال والنساء أن لم حداً يلتزمونه ولا ضابطاً يكبحهم ، فإن شواهد التاريخ تدل بأجلى بيان أنهم جميعاً بلا استثناء عرضة لأن يصبحوا وحوشاً عتاة فى إمتاع النفس بالملذات ؛ فإن أضناهم العسر وأدلم الشقاء ، بحأوا إلى الأحزان الفاجعة أو إلى الفتن الهوجاء أو فزعوا إلى الدين وما فيه من تقشف و تزمت .

على أنه يخيل إلى أننا ربما جانبنا الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقياً تعساً في هذه «العصور المظلمة » ، التي وصلنا إليها الآن ؛ ويكون أقرب إلى الصدق كثيراً أن نقول إن ذلك الحداع العنيف السوق الحشن الذي ركبت عليه الإمبريالية الرومانية ، ذلك العالم من السياسيين والمغامرين وأرباب الأملاك والماليين ، قد هوى ف خضم البوس الذي كانت أمواجه تتلاطم حولهم من قبل . ولا يخني أن معلوماتنا التاريخية عن تلك الأزمان بتراء نقصة إلى أبعد حد ، فقل أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا ، وقلما كان هناك تشجيع على الكتابة إطلاقاً ؛ ولم يكن هناك ضمان يكفل لأي إنسان سلامة كتاباته أويو كد احبال قراء بها . بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدراً يتيح لنا أن نقول إنه لم يكن عجرد عصر لصوصية وحروب ، بل عصر مجاعة ووباء . إذ لم تظهر في العالم حتى عبر د عصر لصوصية وحروب ، بل عصر مجاعة ووباء . إذ لم تظهر في العالم حتى

ذلك الحين أية هيئة صحية ذات أثر فعال ، ولا بد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضى على كل إجراء صحى يتخذ . فإن تخريب آنيلا لشهال إيطاليا لم يوقفه إلا انتشار الحمى في ٢٥٦ . كما حدث وباء عظيم من الطاعون الدملى قرب نهاية حكم چستنيان (٥٦٥) ، كان له أثر كبير في إضعاف دفاع إيطاليا أمام اللومبارد . وفي ٣٤٥ مات عشرة آلاف إنسان في يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيبون « إن هذا العدد كان يموت كل يوم ») . وكانت مراجل الطاعون تغلى وتهدر في روما عام ٥٩٠ . وكان القرن السابع كذلك قرناً منكوباً بالطاعون . ويسجل بيد (١) (Bede) الإنجليزي ، وهو أحد الكتاب القليلين في زمانه ، أوبئة حدثت في إنجلترة في ٢٦٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ١٨٢ ، أي ما لا يقل عن أربعة في عشرين سنة ! ويقرن جيبون الوباء الحسنياني بالملذت العظيم الذي ظهر عام ٥٣١ ، وبما دهي به العالم أثناء حكم ذلك العاهل من بالملذت العظيم الذي ظهر عام ٥٣١ ، وبما دهي به العالم أثناء حكم ذلك العاهل من عروشها ، وذبل المحصول والعنب على الأرض في كثير من مدن الشرق خاوية على يدعي حدوث « نقص ظاهر في النوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطار يدعي حدوث « نقص ظاهر في النوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطار الدنيا » . وقد بدا المكثيرين في تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يحصل الدنيا » . وقد بدا المكثيرين في تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يحصل الميتاء مقبولة قد أوشك على الزوال .

ومن المحال علينا أن نعرف إلى أى حد كانت العامة أتعس حالا فى ظلال هذه القذارة وعدم الاطمئنان منها تحت نظام الإمبر اطورية الطاحن. أجل إنه ربما اختلفت الظروف بين مكان وآخر ، فهنا حكم أشرار عنيفين وهناك حرية معتدلة ، وقد تلقى مجاعة فى هذه السنة ووفرة خيرات فى التى تليها . فلئن كثر اللصوص ، فإن جامعى الضرائب والدائنين قد اختفوا . وإن ملوكاً من أمثال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونوا فى الواقع إلا أطيافا وحكاماً لا سلطان لهم على معظم من يسمون برعاياهم . كانت حياة كل ناحية ترزح فى مستوى خفيض ، ليس به إلاالقليل من التجارة والأسفار . وقد يسيطر بعض المقتدرين من الأشخاص على مساحات كبرت أو صغرت من الريف ؟ مدعيا على قدر من الحق والعدالة يختلف زيادة ونقصاناً ، لقب لورد أو كونت أو دوق مستقى من تقاليد الإمبر اطورية المتأخرة أو من الملك . ويقوم هؤلاء

⁽۱) بید (ح ۹۷۳ – ۷۳۰) لاهوتی ومؤرخ إنجلیزی ، سمی بید الوقور . کتب أعمالا علمیة ولاهوتیة وتاریخیة کثیرة . (المترجم)

النبلاء المحليين بجمع فرق من الأتباع وبناء معاقل حصينة لأنفسهم . وكثيراً ما كانوا يتخدون لأنفسهم مبانى قديمة يكيفونها وفق حاجتهم . مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المجتلد الذي طالما شهد حفلات المجالدين ، حول إلى قلعة ، وكذلك حول المسرح المدرج في آرل . وكذلك أيضاً حولت مقبرة هادريان العنظيمة بروما .

وكان يحدث فى المدن والبلدان المهدمة التى صارت عند ذاك غير صحية ، أن هيئات صغيرة من مهرة الصناع كانت تتضافر وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها ، مع وضع أنفسهم فى حماية بعض النبلاء المجاورين .

١٠ ـ خلاص العلوم على يد المسيحية

صلت هيئات الرهبنة: (الديرية) المسيحية التي أخذت تنشأ في العالم الغربي إبان القرنين السادس والسابع ، نصيباً بالغ الأهمية في عملية إعادة التبلور الاجتماعي الذي حدث في هذين القرنين بعد ما جرى في الرابع والخامس من التحطم والانصهار .

كانت الأديرة موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية . وفي الفترة التي ألم فيها الشقاء الاجتهاعي بالهود قبل زمان يسوع الناصرى ، كانتطاففة من النساك الإستينيين (۱) تعيش منعزلة في مجتمعات وقد وهبت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وإنكار الذات . كذلك أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا عمرة الجهود العامة والتجارة في العالم ، ليعيشوا عيش التقشف والتأمل والواقع أن قصة بوذا ، كما سردناها لك ، أبانت أن مثل هذه الفكرات لابد أنها كانت منتشرة في الهند قبل أيامه بزمن بعيد ، وأنه عاد فنبذها وراء ظهره آخر الأمر . ونشأت في زمن مبكر جداً من تاريخ المسيحية حركة مشامة لهذه ، تتنكب ما يغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية المسيحية حركة مشامة لهذه ، تتنكب ما يغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد . وفي مصر علي وجه الخصوص ، خرجت حشود كبرة من الرجال النساء إلى الصحوراء ، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات ، النساء إلى الصحوراء ، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات ، عيشون في فقر مدقع في الكهوف أو تحت الصخور على الصداقات التي تقذفها ، عيشون في فقر مدقع في الكهوف أو تحت الصخور على الصداقات التي تقذفها ، عيشون في فقر مدقع في الكهوف أو تحت الصخور على الصداقات التي تقذفها ، عيشون في فقر مدقع في الكهوف أو تحت الصخور على الصداقات التي تقذفها

ن، : خاعة إخاء دينية بين اليهود الأقدمين كانت تميش عيشة شظف انعزالية والملكية

إليهم الصدفة من أولئك الذين يتأثرون بقداسهم ، وربما لم يكن لمثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى المؤرخ – فإنها لعمرى أنفس منسحة من التاريخ بحكم طبيعتها ذاتها – لولا ذلك الاتجاه الذى اتخذته للفور تلك الزعة الديرية (Monasticism) بن الأوربين الأكثر نشاطاً والأميل إلى الناحية العملية .

ويعد القديس بندكت الذي عاش بين سنتي ١٤٠ ، ١٥٥ من أهم الشخصيات في قصة تطور الديرية في أوربا . ولد في مدينة اسپوليتو (Spoleto) بإيطاليا ، وكان شاباً كريم الأصل جم الكفاية . وقد ألقت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالها ، فمال إلى الحياة الدينية كما مال بوذا ، وأطلق لتقشفاته العنان في مبدأ الأمر . فهناك على مبعدة خسين مبلا من روما تقع سوبياكو (Subiaco) وعند نهاية خانق في نهر الأنيو (Anio) تحت أجمة من الأعشاب والشجيرات ، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمبراطور ثيرون ، يطل على بحيرة صناعية صنعت في أيام الرخاء المنصر م ذاك بحجز مياه النهر . وهناك اتخذ بندكت – وكان أهم ما في حوزته قبيص من الشعر – مقامه بكهف في صخرة عالية متجهة جنوباً تطل على النهر ، وهي في مركز يصعب الوصول إليه ، ومخرة عالية متجهة جنوباً تطل على النهر ، وهي في مركز يصعب الوصول إليه ، الى حد أن أحد المعجبين به كان يضطر أن يدني إليه طعامه بحبل وهناك أقام ثلاث سنوات ذاعت فها شهرته : مثلما ذاعت شهرة بوذا في ظروف مشامة قبل ذلك بألف سنة .

وكما حدث فى حالة بوذا ، فإن قصة بندكت أضيف إليها بفضل تلاميذ له سخفاء مسيطى العقول ، طائفة من سخيف الحكايات القائمة على المعجزات والكرامات . على أننا لا نلبث حتى نجده وقد انصرف عن تعذيب النفس ، وأخذ يدير مجموعة من اثنى عشر ديراً ، كانت ملاذ عدد كبير من الناس . ويجلب الشباب إليه ليتعلموا على يديه العلم ، وبذا تغير وجه حياته كلية .

وانتقل من سوبياكو جنوباً إلى مونتى كاسينو، وهو جبل فى منتصف المسافة بين روما ونابلى ، موحش جميل ، يقوم فى وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الرائعة ، ومن الشائق أن نلحظ أن القسديس وجد هنا فى القرن السادس الميلادى ، معبداً لأيولو وأجمة (١) مقدسة ، كما وجد أن المنطقة الريفية المجاورة ماتزال تتعبد فى ذلك

⁽١) الأجمة : الشجر الكثير الملتف . (المترجم)

المعبد. لذا لم يكن بد من أن يبدأ عمله ، بالتبشير لدين المسيح ، فاستطاع في شيء من العسر أن يقنع الوثنين البسطاء أن يهدموا معبدهم و أن يقطعوا أجمهم . وما لبثت المؤسسة المنشأة على مونى كاسينو أن بلغت حد الشهرة والقوة في حياة مؤسسها . وإنا لنستطيع أن نعرف شيئاً من روح بندكت الحقيقية وإن اختلطت بمخترعات وطرهات مسخيفة صاغها خيال رهبان مولعين بالعجائب : من أبالسة تنصاع للرقى ، وتلاميذ يمشون على الماء وأطفال موتى يعودون إلى الحياة . غير أن الأقاصيص التي تمثله ينهى عن النطرف في قمع النفس وإذلالها ، إنما هي أقاصيص لها مغزى ودلالة خاصة . فإنه أرسل رسالة لراهب منعزل اخرع درجة جديدة من الورع بربط نقسه يسلسلة إلى صخرة في غار ضيق يثبط فيها من حماسته ويدعوه فيها أن يخفف من غلواته . قال بندكت : «كستر أغلالك ، لأن خادم الله الحقيقي ، لا يغل إلى الصحور بالحديد ، وإنما يربطه المسيح إلى الهدى والبر » .

والميزة الثانية التي يمتازبها بندكت بعد مقاومته لتعديب النفس والعزلة ، إصراره على ضرورة الجد في العمل ، وتسطع في ثنايا الأساطير دلائل واضحة تشهد بالشغب الذي أحدثه تلاميذه ومريدوه النبلاء ؛ الذين وجدوا أنفسهم مضطوين إلى الكدح الشديد بدلا من أن يعيشوا عيش التقشف والبطالة معتمدين على خدمة إخوانهم من أبناء الطبقة الدنيا . والشيء الثالث العجيب حول بندكت هو تقوذه السياسي . قإنه نصب نفسه لإصلاح ذات بين القوط والطليان ، ومن المعروف أن توتيلا (Totila) ، ملك إيطاليا القوطي ، حضر إليه يطلب مشورته ، وأنه تأثر به تأثراً عظيا . ولما استرجع توتيلا نابلي من الإغريق ، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حتى الجنود المأسورين بالإنسانية . وذلك بيها حدث عندما استولى بليساريوس قائد جستنيان الجنود المأسورين بالإنسانية . وذلك بيها حدث عندما استولى بليساريوس قائد جستنيان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات ، أنه احتفل بنصره بإقامة مذيحة عامة .

والواقع أن هيئة الرهبنة التي أوجدها بندكت ، كانت بداية عظيمة جداً في العالم الغربي ، ومن بين أتباعه المبرزين البابا جريجورى الكبير (٥٤٠ – ٢٠٤) ، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠) ؛ وهو من أشد الباباوات اقتداراً وهمة وتشاطآ ؛ حيث أرسل بعثات تبشيرية تكللت جهودها بالتوفيق إلى من لم يعتنقوا الدين المسيحي وعلى

الأخص إلى الأنجلوسكسون . وحكم فى روما كأنه ملك مستقل ، ينظم الجيوش ويعقد المعاهدات . وإلى نفوذه يرجع الفضل فى فرض قواعد المذهب البندكتي وأصوله على كل الرهبنات اللاتينية تقريباً .

ويرتبط كاسيودورس (٤٩٠ ــ ٥٨٥) مهذين الاسمين ارتباطاً وثيقاً من حيث تطور الرهبنة (الديرية) من مجرد تعذيب النفس الأناني لدى النساك الأول ، إلى القيام بدورها في خدمة الحضارة . وواضح أنه كان أسن بكثير من البابا جريجوري، ويصغر بندكت بعشر سنوات ، وكان شأن هذين ــ ينتمي إلى أسرة نبيلة من البطارقة ، أسرة سورية استقرت في إيطاليا . قضي مدة كبيرة من حياته موظفاً في خدمة ملوك القوط؛ ولما حدث بين سنتي ٥٤٥ ، ٥٥٣ ، أن مهد خلع هؤلاء الملوك والوباء العظيم ، الطريق لحكم اللومبارد البربري الجديد ، راح يلتمس الملاذ في حياة الرهبانية ، فأنشأ ديراً على أرض مزارعه الخاصة ، وجعل الرهبان الذين جمعهم يشتغلون على نفس النسق البندكتي تماماً ، وإن كنا لا ندرى هل كان رهبانه يتبعون بالفعل القواعد والأصول البندكتية التي كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان في مونتي كاسينو . ولكن لا يتطرق الشك حول تأثيره على تطور هذا النظام العظيم القائم على العمل والتعليم والمراسة . ومن الجلي أنه قد راعه ما ران على التعليم من انحلال عام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد الغالم . لذا وجه إخوانه منذ البداية إلى ضرورة حفظ هذه الأشياء وإعادتها إلى نصابها . فجمع المحطوطات القديمة وأمر بها فنسخت . وقام بصنع المزاول والسماعات المائية وما شامهها من أجهزة : وهو قبس ضليل أخير للعلم التجريبي خفق هنية في تلك الظلمات المتكاثفة . وألف كتاباً في تاريخ ملوك القوط ؛ ومن أوضح الدلالات على شعوره يحاجة زمانه ، إصداره سلسلة من الكتب المدرسية عن الفنون الحرة(١) وكتاباً في الأجرومية أعنى قواعد اللغة . والراجح أن سلطانه ، يكاد يرجح سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قوية الإعادة النظام الاجتماعي في العالم الغربي إلى نصابه .

⁽١) الفنون الحرة (Liberal Arts) : هي فروع معينة منالفكر والعلوم الإنسانية تعد وسائل لا يد منها النسية الفكرية مثل النسو والمنطق والرياضيات . (المترجم)

وكان انتشار أديرة النظام أو السلك البندكتي في القرنين السابع والثامن عظيما جداً. فإنا نجدها في كل مكان مركزاً للنور يعيد مستوى التهذيب إلى نصابه ويحافظ عليه ويرفع لواءه ، ويقيم ضرباً من التعليم الأولى ، وينشر فنونا مفيدة ويكثر من عدد الكتب ويخترنها ويصونها ، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثالا لعمود فقرى اجتماعي . ومضت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوربية مكوناً من رقع وخيوط للاستنارة في عالم لولا الأديرة فيه لعمته الفوضي برمته . ومما يرتبط بأديرة البندكتيين ارتباطا وثيقاً ، تلك المدارس التي تمت للفور فأصبحت جامعات القرون الوسطى . وكانت مدارس العالم الروماني قد زالت زوالا تاما في طوفان الأمهيار الاجتماعي العام . ولقد جاء أوان كان عدد قليل جدا من القسيسين في بريطانيا وبلاد الغال يستطيع أن يقرأ الأناجيل أو كتب الصلوات . فكأن التعليم لم يرجع إلى نصابه في العالم إلا تدريجياً . بيد أنه عند ما رد إلى نصابه ، لم يعد بوصفه عملا إجبارياً يلزم بأدائه عبد عالم ، بل بوصفه الخدمة الدينية لطبقة خاصة من الرجال الذين حبسوا أنفسهم عليه .

وحدث فى شرق الإمبراطورية كذلك أن تقطع حبل التعليم ، بيد أن السبب هناك لم يكن الاضطراب الاجتماعي قدر ما كان عدم التسامح الديني ، كما أن الانقطاع لم يكن بأية حال تاما كماحدث فى الغرب. فأقفل چستنيان ما بأثينا من مدارس منكمشة ومنحلة ذهنيا وشرد رجالها (٢٩٥) . بيد أنه فعل ذلك فى معظم الأمر لكى يقضى على كل منافس للمدرسة الجديدة التي كان يقيمها فى القسطنطينية والتي كانت تحت الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى .

ولما لم تكن للعلوم اللاتينية الجديدة في الجامعات الغربية الناشئة كتب دراسية ولا أدب خاص بها ، فإنها اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتي القوى لنقيض ذلك ، أن تعتمد اعتماداً كبيراً على الأدب اللاتيني (الكلاسيكي) القديم وعلى الترجمات اللاتينية للأدب الإغريقي ، وبذلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلك الأدب الفاخر يعظم كثيرا ما كانت تود أن تحتفظ به

١١ - الفن البيزنطي

منذ أن نقلت حاضرة الإمبراطورية إلى الشرق أى إلى ببرنطة ، يظهر فى العالم طواز جديد من الفن المعارى وروح فنية جديدة ، هو الطراز البيزنطى . وبلغ ذلك للفن درجة عالية من التطور إبان حكم الإمبراطور چستنيان (٩٦٥ – ٩٦٥) وسنحدثك عنه فى الفصل التالى . ثم انحط ثانية وعاد فارتفع إلى أوج جديد فى القرن الحادى عشر . وهو لا يبرح إلى يومنا هذا تراثاً فنياً حياً فى شرق أوربا . وهو يعبر عما جاءت به المسيحية الرسمية الجديدة من قيود ودوافع . وقد أفرخت فيه على التقاليد الكلاسيكية السمات الشرقية ، وبخاصة بعض النزعات المصرية والفارسية . وتحل فيه الفخامة محل الصراحة والرشاقة .

ومن بين ما تختص به زخرفته من خصائص احتواوها على قدر معين من العملابة . وقد ذهب كل ما كان يحتويه التصوير والنحت الإغريق والرومانى من مرونة ، وظهر فى مكانها فسيفساء (١) (Mosaics) تحمل أشكالا مسطحة سيمترية التصوير منتصبة فى مواجهة تامة . ولا تكاد تجد البتة رسماً جانبياً (Profile) ولا أي أتر للتقصير (٢) . وكأنما أصبح ذلك الجسم الطبيعي الذي كان يقدسه الإغريق ، موضع الملائمة وشيئاً يخشى شره . ومن ثم بلغ ذلك الفن وقاراً عظيا رصيناً . فتبدو صور الرب الخالق والعدراء والطفل والقديسين العظام ، الضخمة المصنوعة من الفسيفساء ، ممعنة فى التفكير ، وهي تطل على المشاهدين من علياء القباب العظيمة التي هي موضوعة فيها . وتجلت نفس تلك الصلابة الوهاجة فى التصوير وتحلية الكتب بالصور ، والحط فن النحت من الناحية الأخرى ، واستبدلت الأشكال المجسدة (أي التماثيل) بنوافذ شبكية Lattices زاهية الألوان ذات حليات محفورة . وكانت أشغال الذهب بنوافذ شبكية

⁽١) وهو مَا يسمى بغصوص اللهب أو السليزلي . ﴿ المُدَّجِمِ ﴾

⁽٢) التقصير (Foreshortening): تمثيل المنظور بحيث تقصر في الظاهر الحطوط الساقطة . (المترجم)

والفضة والميناء تعمل بإتقان لم يسبق له مثيل. وغالباً ماكانت مصنوعات النسيج المستجلبة من الشرق ذات رسوم فارسية لا لبس فيها. ولم تلبث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثل الأجسام قضاء أتم وأكمل.

وكذلك أصبحت الموسيق ضخمة ولها شأنها . وكانت موسيق القرون المسيحية الأولى أقرب إلى النبتل والحاسة منها إلى الإتقان والصقل ، وهى تنهل من منابع وسامية » أكثر منها « هلينية » . فأما الموسيق الدنيوية فحظورة حظراً تاماً . فقد قال القديس جبروم « إن الفتاة المسيحية يجب ألا تعرف ما هو اللبر أو الناى » . فأما ترتيل المزامر وعزفها على الآلات ، فشىء نقله المسيحيون من الصلوات المهودية ، وقصر قصراً يتراوح زيادة ونقصاناً على الجوقات (الكورس) المنظمة . وكان الترتيل التجاوبي موسيقبة موحدة الصوت والطبقة وذلك لأن التوزيع الغنائي (Part Singing) لم يكن قد اخترع بعد . وكان إنشاد التراتيل متنفساً عظيا ينفس عن العواطف المكبوتة . فظهر قدر وفير من التراتيل في اللغتين اليونانية واللاتينية . ويقال إن بعضها لا يزال باقياً في تراتيل موجودة إلى وقتنا هذا . وقد وضع القديس جريجوري (جريجوري الكبير) ، ذلك المنظم العظيم للكنيسة ، الذي لدينا عنه مزيد من القول تحدثك به في فصل تال ، فلك المنظم العظيم للكنيسة ، الذي لدينا عنه مزيد من القول تحدثك به في فصل تال ،

الفضل لتاسع ولعيرن

تاريخ آسيا أثناء انحلال الامبراطوريتين الغربية والبيزنطية

٢ - الإمبر اطورية الساسانية في فارس .

١ - چستنيان الكبير ١٠.

أول رسالة من الإسلام .

ت اضمحلالدروريا في عهد الساسانيين.
 د - زرادشت وماني.

٣ - الشعوب الهونية في آسيا الوسطى وبلاد الهند.

٧ - أسرتا «هان وتانج» بالصين.

٨ – أغلال الصين الذهنية .

الفن الصيني القديم .

١٠ - رحلات يوان تشوانج .

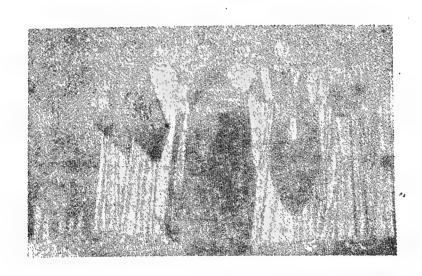
1_ چستنیان الکبر(۱)

ركزنا التفاتنا في الفصلين السابقين بصفة رئيسية على ما حدث في فترة قصيرة نسبياً قوامها أربعة قرون من انهيار النظام السياسي والاجتماعي في القسم الغربي من الإمبراطورية العطيمة : إمبراطورية قيصر وتراچان ، ولم يفتنا أن ننعم النظر ذلك الانهيار والإفاضة في بلوغه الذروة . ولا مراء أن أي فرد ذكى الفواد عمومي الروح(٢) ، يعيش في زمان القديس بندكت أوكاسيودوريس وفي نفس ظروف حياتهما ، – كان يحيل إليه أن الحضارة قد أخذ ضياؤها يخبو وآذنت شمسها بالمغيب . على أن النظرة الأرحب التي تتيحها لنا دراسة التاريخ العام ، تطوع لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه بوصفها دورا – ولعله كان دورا ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمفاهيم الاجهاعية والسياسية في انطلاقها إلى ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمفاهيم الاجهاعية والسياسية في انطلاقها إلى صدر أوربا الغربية ، فلا بد لنا من أن نتذكر في مقابل ذلك أن أجزاء عظيمة من العالم لم يلم بها أي تقهقر ولا انحطاط .

 ⁽١) من شاء استزادة في تاريخ ذلك الإمبراطور نعليه أن يقرأ للمترجم كتاب «الحضارة البيزنطية »
 تأليف استيفن رانسيمان (مجموعة الآلف كتاب ومكتبة الهضة المصرية) .

⁽۲) عمومي الروح Public spirited هو من يخدم النير بدافع من حب المصلحة العامة وهو الغيرى الروح كما أسلفنا في هامش سابق . (المترجم)

و يجنح الكتاب الأوربيون ، بسبب انشغال بالم الدائم بالدولة الرومانية الغربية وسيطرتها على أفكارهم ، إلى الإسراف في الميل إلى التقليل من شأن تماسك الإمراطورية الشرقية التي كان مركزها القسطنطينية . وغني عن البيان أن تلك الإمراطورية كانت لها تقاليد أقدم بكثير من تقاليد روما . فلو أن القارى نظر إلى الخريطة التي تبن مدى انساعها في القرن السادس ، ولو أنه تأمل أن لغتها الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية ، لأدرك أن ما نعالجة هنا ، إنما هو فرع الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية ، لأدرك أن ما نعالجة هنا ، إنما هو فرع



(شكل ١٢٢) صورة بالفسيفساء ليجستنيان وبلاطه

من الإمبراطورية الرومانية بالاسم فقط . إذ الواقع أنها هي الإمبراطورية الهلينية التي طالما حلم بها «هيرودوت» ، والتي أسسها الإسكندر الأكس . حقا إنها كانت تدعو نفسها «الرومانية» وتدعو سكانها «رومانا» (۱) ، ولا تزال اللعة اليونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romaic) . وحقاأن قسطنطين الكيير كان ضئيل الحظ من اليونانية وأن لهجة چستنيان في نطقها كانت رديئة . على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسم والشكل لا تستطيع أن تغير الواقع ، و هو أن الإمبر اطورية كانت في حقيقتها هلينية ، لها في زمن قسطنطين الكبير ماض من

⁽١) ويسميها العرب بدولة الروم. (المترجم)

ستة قرون ، وأنه على حين تقلصت الإمبراطورية الرومانية اللانينية تقلصاً كاملا في مدى أربعة قرون ، فإن هذه الإمبراطورية الرومانية الهلينية قد صمدت أكثر من أحدد عشر قرناً من ٣١٢ عند ابتداء حكم قسطنطين الكبير إلى ١٤٥٢ ، عند ما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين .

وعلى حين اضطررنا أن تحدثك عن حدوث ما يشبه الانهيار الاجماعي الكامل في الغرب ، فلم يحدث في الشرق انهيار بماثل لذاك . فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة في المناطق الريفية وتواصل رواج التجارة . وظلت القسطنطينية قروناً عديدة أعظم وأغني مدينة في العالم . ولن نشغل أنفسنا ها هنا بأسماء أباطرتها المتعاقبين وحماقاتهم وجرائمهم ومؤامراتهم . فإنهم شأن معظم ملوك الدول العظيمة ، المتعاقبين وحماقاتهم وجرائمهم ومؤامراتهم ، بل هي التي كانت تدفعهم دفعاً . ولفد سبق لم يكونوا ليوجهوا إمبراطوريتهم ، بل هي التي كانت تدفعهم دفعاً . ولفد سبق أن عالجنا في شيء من الإسهاب موضوع قسطنطين الكبر (٣١٢ – ٣٧٧) . وذكرنا ثيودوسيوس الكبر (٣٧٠ – ٣٧٥) ، الذي وحد الإمبراطورية لفترة يسيرة ، وذكرنا چستنيان الأول (٣٧٠ – ٣٥٥) . وسنذكر لك من فورنا شيئاً عن هرقل وذكرنا جستنيان الأول (٢٧٠ – ٥٦٥) . وسنذكر لك من فورنا شيئاً عن هرقل

ولعل چستنيان كان كقسطنطين يحمل فى عروقه دماً سلاڤياً .كان رجلا واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم ، ومن حسن حظه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لمقدرته إن لم تفقها ، وهى الإمبراطورة ثيودورا ، التى كانت فى صباها ممثلة ذات سمعة مغموزة . على أن محاولاته الطموحة لاسترداد عظمة الإمبراطورية القديمة ، أثقلت فيا يرجح مواردها بالضرائب (۱) . ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإفريقية من الوندال واستعاد معظم إيطاليا من القوط . كذلك استرد جنوب أسپانيا . وبنى الكنيسة العظيمة الجميلة كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية ، وأسس جامعة وجمت القوانين . بيد أننا يجب أن نضع إلى جوار هذا إقفاله مدارس أثينا .ولكن اجتاح العالم فى زمانه طاعون عظيم ، وانهارت بموته تلك الإمبراطورية الموسعة المجددة كما تنهار مثانة ففخت بالهواء إذا وخزها دبوس . فذهب القسم الأكبر من المجددة كما تنهار مثانة إلى أيدى اللومبارد ، ونذكر هنا أن إيطاليا تحولت فى ذلك الزمان إلى فتوحه الإيطالية إلى أيدى اللومبارد ، ونذكر هنا أن إيطاليا تحولت فى ذلك الزمان إلى

⁽١) عن المزيد من تــاريخ هذه الحقبة ، انظر كتاب ي ميلاد العصور الوسطى » تأليف موص وترجمة المترجم (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب) . (المترجم)

صحراء أو ما يشبه الصحراء . ذلك أن مؤرخى اللومبارديين يؤكدون أنهم نزلوا فى فطر خال من الناس . وانحدر الآفار والصقالبة (السلاف) يعيئون فساداً من أرض الدانوب إلى الأدرياني ، وأخذ أقوام من الصقالبة يستقرون فيا هو الآن صربياً وكرواتياً ودالماتيا ، فأصبحوا يوغوسلاف هذا الزمان . وفضلا عن ذلك فإن نزاعاً عظيماً مضنياً نشب بين الإمبراطورية وبين الساسانيين في فارس .

ولكن يجدر بنا قبل أن نقول شيئاً عن هـذا الكفاح ، الذى أوشك فيه الفرس ثلاث مرات أن ينزعوا القسطنطينية ، والذى كان العامل الفاصل فيه هزيمة الفرس العظيمة قرب نينوى (٦٢٧) ، يجدر بنا أن نلخص بغاية الإيجاز تاريخ بلاد الفرس منذ أيام الپارثين .

٧ ــ الإمبراطورية الساسانية في فارس

سبق أن عقدنا موازنة بين القرون الأربعة الوجيزة التى عاشها الإمهريالية الرومانية وبين الحيوية العنيسدة الإمهريالية إقليم دجلة والفرات . وألقينا نظرة عجلى على الملكيتين البلخية الباكترية (١) والسلوقية المهلستين اللتين ازدهرتا مدة ثلاثة قرون فى النصف الشرق بما غزاه الإسكندو من يلاد . وأخبرناك كيف هبط الهارثيون أرض الجزيرة فى القرن الأخسير ق . م . ووصفنا لك معركة كاراى (Carrhae) ونهاية كر سوس . ومنذ ذلك الحين فما بعده بقرنين ونصف استمرت أسرة الأوشكيين الهارثية تحكم فى الشرق بينا حكمت الدولة الرومانية فى الغرب ، على حين فصلت بينهما أرمينية وسوريا ، وكانت الحدود تنتقل شرقاً أو غرباً تبعاً لزيادة قوة أحد الطرفين على الآخر . ولحظنا أقصى امتداد بلغته الإمراطورية الرومانية شرقاً فى غهد تراجان (انظر الحريطة (١١٤) المرافقة للفصل ٢٧ القسم الأول ص ٢١١ ج ٢) ، كذلك الزمان الى كذلك الزمان الحل (الفصل ٢٧) الهند (الفصل ٢٧) القسم الخامس) .

وشبت ثورة فى ٢٢٦ ، وحلت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى منها هى الساسانية ، وهى أسرة فارسية قومية يرأسها أردشير الأول . وكانت إبر اطورية

⁽١) بلغ (بقترٌ): وهيما تسمى الآن باكتريا: كانت ملتق الحضارة الهندية وغيرها. (المترجم)

أردشير الأول ذات مشابهة عجيبة من وجهة واحدة بإمبراطورية قسطنطين الكبير يعد ذلك بمئة سنة . ذلك بأن أردشير حاول أن يقوى أواصر تماسكها بأن اهتم بالوحدة الدينية وأصر عليها واتخذ من عقيدة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية للبلاد ؟ وسنذكر المزيد عها فها بعد .

و تحولت هذه الإمبر اطورية الساسانية الجديدة من فورها إلى العدوان ، فاستولت على أنطاكية (Antioch) في حكم شابور الأول ابن أردشير وخلفه. وقد ذكرنا من قبل كيف هزم الإمبر اطور قالبريان (٢٦٠) وأخذ أسرا على أنه بينا كان شابور عائداً من حرب مظفرة في آسيا الصخرى ، إذ انقض عليه أذينة وهزمه ، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربي على مركز تجارى عظيم في الصحراء هو تدمر (Palmyra).

وقد ظلت تدمر زماناً قصيراً في عهد أذينة ، ثم في أيام أرملته الزباء (Zenobia) ، دولة ضخمة تمتد كالإسفين بين الإمبرطوريتين . ثم سقطت في يد الإمبراطور أوريليان الذي حمل الزباء مكبلة بالأصفاد لتكون في روما آلة فخار لنصره (۲۷۲) .

ولسنا بمحاولين أن نقفو تقلبات الحظ بالساسانيين أثناء القرون الثلاثة التالية . فنى طوال ذلك الزمان الهكت حروب فارس وإمبر اطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى إمهاك الحمى . وانتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً ولكما كانت موضع الاضطهاد ، إذ أنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يدعى الوبوبية غير العاهل الفارسي ، فرأى في المسيحية مجرد دعاية لمنافسه البزنطي . وأصبحت القسطنطينية حامية المسيحين ، وأضحت فارس حامية الزرادشتين ، وبمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين ٢٢٤ قبلت إحدى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مع النصرانية . وفي ٤٨٣ انفصل نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة النسطورية ، التي نشرت — كما سبق أن ذكرنا — مبشريها الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة والشرقية . ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوربا

قد حرر الأساقنة النصارى فى الشرق من سيطرة البطاركة البيزنطيين ، وبدا أزال عن كاهل الكنيسة النسطورية ما كان يحوم حول ولائها السياسي من شبهات ، فإنه أدى إلى تسامح تام مع المسيحية فى بلاد فارس .

وابنداً بحكم كسرى الأول (٣١٥ – ٥٧٥) الملقب أنوشران آخر عهود القوة الساسانية . كان معاصراً لحسنيان وعديلا مكافئاً له . فأصلح نظام الضرائب وأعاد الزرادشية السلفية الحقة ، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن) ، التي أنقذها من حكم نصارى الحبشة ، ودفع بتخومه الشهالية حتى التركستان الغربية ، وخاض سلسلة من الحروب مع چستنيان . وبلغت شهرته بوصفه حاكماً مستنيراً درجة رفيعة جعلت الفلاسفة الإغريق ينتقلون إلى بلاطه عندما أغلق چستنيان مدارس أثينا . إذ التمسوا فيه الملك الفيلسوف – ذلك السراب الذي أمعن كنفوشيوس وأفلاطون في البحث عنه في زمانهما كما سبق أن ألمعنا . ولكن الفلاسفة وجدوا جو الزرادشية السلفية أقل ملاءمة لأذواقهم من جو المسيحية السلفية . وفي ٤٩٥ ثرفق كسرى بهم بأن أدخل في هدنة عقدها مع چستيان فقرة تبيح لهم العودة الى بلاد الروم ، وتستوثق أنهم لن يضارهم أحد بسبب فلسفتهم الوثنية أو بسبب سلوكهم الذي تجلى فيه مياهم حيناً ما إلى فارس .

وإنا لنسمع فى أيام كسرى أنوشروان لأول مرة عن شعب هونى جديد فى آسيا الوسطى ، هم الأتراك الذبن دخلوا فيا نعلم فى محالفة معه أولا ثم مع القسطنطينية .

وتقلبت الحظوظ ألواناً على كُسرى الثانى أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨) حفيد كسرى الأول . فإنه فى بداية حكمه أحرز انتصارات باهرة على إمبراطورية القسطنطينية . وقد وصلت جنوده إلى خلقدون ثلاث مرات (فى ٢٠٨ ، ٦٠٥ ، ٢٢٢) وهى المدينة المواجهة للقسطنطينية ، واستولى على أنطاكية و دمشق والقدس (٢١٤) . وحمل من القدس صليباً ، قيل أنه الصليب الحقيقي الدى صلب عليه يسوع ، حمله إلى عاصمته المدائن (طيشفون) . (ولكن جزءا من هذا الصلب الحقيقي أو صليبا ما آخر حفيقيا انتقل قبل ذلك إلى روما . إذ أحضرته من القدس فيها يقال «الإمبر اطورة هيلينا» ، وهي أم قسطنطين التي جعلت مثلا أعلى ورفعت إلى مصاف القديسات ، وهي قصة

أظهر نحوها جيبون الشيء القليل من الاحترام (١) . وفي ٢١٩ فتح كسرى الثانى مصر ذلك القطر الهن اللين . وأخيراً أوقف الامبراطور هرقل (٢١٠) ، هذه الحياة المليئة بالفتوح عند حدها ، حيث شرع يسترجع قوة القسطنطينية العسكرية المحطمة . وظل ردحاً من الزمن يتجنب الدخول في معركة كبيرة أثناء جمعه قواته . ثم تقدم إلى الميدان بكل جد في ٢٢٣ . فلتى الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كللت بمعركة نينوى (٢٢٧) ، ولكن أحدا من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغاً يتيح له أن يهزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية . فلما أشرف الكفاح على نهايته ، كان هناك جيش فارسى على ضفاف البسفور لم يهزم ، وذلك رغم وجود قوات بيزنطية مظفرة في أرض الجزيرة .

وفى ٦٢٨ خلع ابن كسرى الثانى أباه وقتله . وتم صلح غير حاسم بين الإمبراطوريتين المنهكي القوى بعد ذلك بعام أو ما يقاربه ، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة ، وأعبد الصليب الحقيقي إلى هرقل ، فأرجعه إلى أورشليم محوطا بجو من الفخامة والحفاوة .

٣ ـ اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة ، نقدم إليك في إيجاز أهم الأحداث في تاريخ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية على السواء . بيد أن الشيء الذي يهمنا ويلذ لنا ويعسر مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التي توالت على حياة السكان عامة في هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان . ولا يجد كاتب هذه السطور شيئاً مقطوعاً بصحته إلا النزر اليسير في حديث تلك الأوبئة العظيمة التي نعلم أنها اجناحت العالم في القرنين الثاني والسادس من هذه الحقبة . ومن المحقق أن تلك الأوبئة أفنت السكان ، والراجح النام أنها أفسدت النظام الاجتماعي في تلك المناطق على نفس النحو الذي نعرف أنها أحدثته في الإمراطوريتين الرومانية والصينية .

وقد دبج المرحوم السير مارك سايكس (الذي جاءت وفاته في غير الأوان في

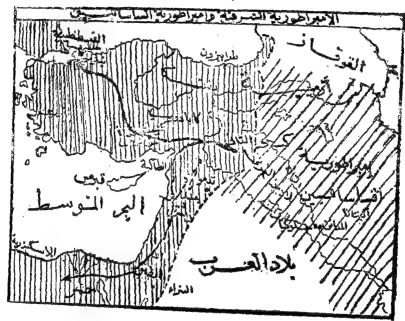
The Decline & Fall of the اضمحلال الإمبراطورية الرومانيسة وسقوطها Roman Empire

باربس أثناء وباء الأنفلونزا سنة ١٩١٩ ، خسارة لا تعوض على بريطانيا العظمى في كتابه « آخر ميراث الحلفاء » The caliph's last Heritage ، استعراضاً مشرقاً للحياة العامة وأحداث آسيا الغربية أثناء الفترة التي نحن بصددها . قال متحدثاً عن القرون الأولى التي افتتحت بها الحقبة الحالية ، « أصبح توجيه الإدارة العسكرية والمالية في الإمبراطورية منعزلا في أذهان الناس عن الناحية العملية للحكم انعزالا ناماً ؛ وبالرغم من قيام أبشع أنواع استبداد البلهاء والسكيرين والمعتوهين والطغاة والحائن والمتوحسين والنساء الحليعات ، الذين كانوا يتولون زمام الحكم من وقت إلى آخر ، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوى عددا هائلا وقت إلى آخر ، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوى عددا هائلا ازدهرت التجارة والعارة ، بالرغم من زحف الجيوش المعادية اللابهائي ذهاباً وجيئة وبالرغم من التغيير المستمر في جنسية الحاكم . وكانت مصلحة كل فلاح ممركزة في المدينة التي يتبعها ؛ كما أن اهنام كل مواطن كان موجها إلى تقدم مدينته ورغدها ؛ كما أن دخول جيش معاد ربما كان أمرا ينظر إليه في بعض الأحابين بعين الرضا والارتباح ، إذا كان نصره مضمونا وكان تسديده لما يتعاقد بعين الرضا والارتباح ، إذا كان نصره مضمونا وكان تسديده لما يتعاقد عليه محققا .

على أن حالة الحياة فى أرمينية وبلاد پنطسُس كانت مخالفة لهذه تمام المخالفة . إذ كانت تلك البلاد مناطق جبلية تعمرها قبائل شرسة على رأسها نبلاء أقوياء من الوطنيين ، تحت ملوك بيدهم مقاليد الحكم ، على حين كان المزارع المسالم فى الوديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الضرورية وكانت كيليكيا وكاپادوكيا خاضعتين

⁽١) أى الطورانيين من التركستان أو الآثار من القوقاز . (المؤلف)

تمام الحضوع لسلطان الروم ، وقد احتوتا على مدن عديدة غنية راقية الحضارة ، فضلا عن امتلاكهما لبحرية تجارية ضخمة . وإذا نحن انتقلنا من كيليكيا إلى الدردنيل ، ألفينا ساحل البحر المتوسط مزدماً بالمدن الثرية والمستعمرات اليونانية ، وهى المخلطة تماماً فكراً ولغة ، مع تجلى روح الرغبة في الاستقلال والنزعات المحلية ، تلك الروح التي تبدو قطعة من طبيعة الحلق اليوناني . وكانت المنطقة اليونانية تمتد من كاريا إلى البسفور، وتمضى بحذاء الساحل حتى سينوب على البحر الأسود ، حيث تأخذ في الانتهاء تدريجياً .



(شكل ١٢٣) خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسانيين

و تجزأت سوريا إلى أجزاء عجيبة تشبه ستاراً متعدد الرقاع من الإمارات والمدن الملكية ؛ تبدأ في الشيال بدولتي كوماچين والرها (Edessa)(1) شبه الهمجيتين . وإلى الجنوب منهاتين كانت بامبيكي (مبوج)(Bambyce) بمعابدها الفخمة وحكامها الكهنة . وإلى تاحية الساحل كان يتجمع عدد كثيف من السكان حول المدن المستقلة : أنطاكية وأباميا وحمص (Emesa) ؛ على حين كانت هناك في البرية مدينة بالمرا (تدمر) السامية التجارية العظيمة ، التي أخذت ترقى مدارج الشهرة والعظمة بوصفها أرض

⁽١) ومكانها الآن مدينة أورفه بتركيا . (المترجم)

التبادل التجارى المحايدة بن پارثيا وروما . وإنا لنجد بن جبال لبنان ولبنان الحلفية مدينة بعلبك (هليوپوليس) وهي في أوج مجدها ، وما تزال بقاياها المحطمة تأخذ حتى الآن بمجامع إعجابنا . . . فلو عرجنا نحو الجليل وجدنا المدن العجيبة جرَّش (Gerasa) وفلادلفيا (عمان) وهما متصلتان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية(١) هائلة . ولا تزال سوريا غنيــة بخرائب دلك العصر وبقاياه إلى حد لايصعب علينا معه أن نرسم لأنفسنا عن حضارتها صورة حية . ذلك أن فنون الإغريق التي أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد ، قد تطورت إلى درجة من الفخامة قاربت حد الابتذال السوق . فإن جزالة الحليات والإسراف في النفقة والمباهاة بالثراء لتدل جميعاً على أن أذواق السامين الشهويين ذوى الروح الفنية كانت آنذاك على ما هي عليه الآن . ولقد وقفت يوماً في أبهاء الأعمدة بتدمر وتغديت يوماً آخر في فندق سيسل ، ولولا أن الثاني مبني من الحديد الملطخ بالخشب والحص الزائف والمموه بالذهب الزائف والقطيفة الزائفة والحجر الزائف ، لتوهمت أن تأثير هذا هو نفس تأثير ذاك . أما سوريا فكان بها جموع وفيرة من الأرقاء تكفي لإقامة مبان حقيقية ، غير أن الروح الفنية بها بلغت من الوضاعة دركاً يماثل ما تخرجه الآلات. فأما في غير المدن ، فلا بد أن سكان القرى كانوا يتخذون مساكنهم بطريقة تدانى ما يفعلونه الآن حيث ببنون جدرانها من الطين والحجر العاري . على حين أنه في المراعي البعيدة في الحارج ، كان البدو يرعون قطعانهم بملء حريبهم تحت حكم ملوك النبط (٢) (Nabatean) من بني جلدتهم ، أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة في القوافل التجارية العظيمة .

⁽١) السقايات الماثية (Aqueducts) هي قنوات مبنية فوق عقود عالية لنقل الماء داخل المدن وهي شبيهة بمجرى العيون الموجود بمنطقة فم الحلمج بالقاهرة . (المترجم)

⁽٢) النبط ، شعب عربى كان يسكن القسم الشالى من بلاد العرب في موقع الدولة الأردنية الآن . (المترجر)



(شكل ١٢٤) خريطة المدن في آسيا الصفرى وسوريا وبلاد بين النهرين (في القرن الأول المسيحي)

توارت أسماء منشئها – حتى فى تلك الأيام – فى غيابات الماضى السحيق . وكانت بابل ونينوى قد درستا من الوجود . على حين أخلى خلفاء فارس ومقدونيا ، كانهم لبارثيا . بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتغير فهم شىء عما كان عليه الحال عند ما أخضع البلاد قورش الفاتح لأول مرة . وكانت لغة كثير من المدن الإغريقية ، حتى لربما انتقد مواطنو سلوقيا المثقفون فلسفات أثينا ومآسيها (تراچيدياتها) . على أن الملايين من السكان الزراع كانوا لا يعرفون عن هذه الأمور فيا يحتمل أكثر مما يعرفه كثير من فلاحى مقاطعة إسكس اليوم عما يجرى فى العاصمة البريطانية » .

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية في نهاية القرن السابع . « وكانت سوريا عند ذاك أرضاً فقيرة منكوبة . ولا بد أن مدنها العظيمة ، وإن كانت لا تزال آهلة بالسكان ، قد تكاثرت فيها الحرائب التي لم تكن الموارد المالية العامة كافية لإزالتها ؟ ولم تكن دمشق وأورشليم نفساهما أفاقتا مما أصابهما من ويلات الحصارات الطويلة الفظيعة . وانحطت عمان وجررش إلى مصاف القرى التعسة تحت سلطة البدو وسيادتهم . ولعل حوران كانت لا نزال على شيء من دلائل الرخاء الذى اشهرت به أيام تراچان . بيد أن مبانى ذلك الزمان التعسة وكتاباته الحشنة التي تعوزها البراعة تشير جميعاً إلى اضمحلال محزن مولم ، وهناك فى وسط رمال الصحراء ، كانت تدمر تقف خاوية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم فى قلعتها . فأما عن الشواطئ وفى لبنان فكان هناك لقديم التجارة والأعمال والتروة ظل لا يزال مشاهداً ، فأما فى الشهال فلا بد أن الحراب والدمار والإفقار والوحشة كانت الحالة التي تعم أراضها التي ظلت يغير عليها المغيرون بانتظام لا يفتر طوال مئة سنة ، كما تملكها عدو لها مدة خسة عشر عاماً . ولا بد أن قد انحطت الزراعة وقل السكان قلة ملموسة بسبب تعاقب الطاعون والمحن وصبهما العذاب علها ألونا .

« وهوت كاپادوكيا إلى درك الهمجية على درجات غير محسوسة . وسويت بسطح الأرض الكنائس العظيمة (البازيليك) والمدن الكبيرة التى لم يستطع الريقيون البسطاء أن يصلحوها ولا أن يعيدوها إلى سابق عهدها . وطفقت الجيوش الفارسية تذرع شبه جزيرة الأناضول طولا وعرضاً وتهلك الحرث والنسل ، على حين تعرضت المدن العظيمة للسلب والنهب » .

٤ ـ أولى رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مشغولا بإعادة النظام فى سوريا هذه المقفرة المنكوبة بعد وفاة كسرى الثانى أبرويز وقبل عقد الصلح النهائى مع فارس ، أن أحضرت إليه رسالة غريبة . وكان حاملها قد دفعها إلى محفر إمبراطورى أماى فى البرية الممتدة إلى الجنوب من دمشق . وكانت الرسالة بالعربية ، وهى اللغة السامية غير المعروفة ، لغة الشعوب المترحلة فى الصحراء الجنوبية . ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل الماح أضاف إليه الترجمان فيا نعتقد بعض ملحوظات تنم عن الاحتقار والاستهزاء .

كانت تحدياً غريباً بليغاً من شخص يدعونفسه باسم 1 محمد نبى الله ، وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) على ما يظهر ، يدعو هرقل أن يعترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعبادته . ولم يكن فى الوثيقة بعد هذا أى شىء آخر محدد ،

وليس هناك سجل اثبت فيه تسلم هذه الرسالة ، ويغلب على الظن أنها ذهبت دون رد . والراجح أن الإمبراطور هز كتفيه ، في شيء من التفكه(١) بهذه الحادثة .

بيد أن من فى المدائن كانوا يعرفون عن محمد قدراً أكبر . إذ قالوا عنه به إفكاً وبهتاناً به إنه نبى مقلق كذاب [كذا!!؟ . .] ، حرض اليمن ، وهى الولاية الغنية فى جنوب بلاد العرب ، على الثورة على « ملك الملوك » الفارسى . وكان الملك قباذ مثقل العاتق بالأعمال . فقد خلع أباه كسرى الثانى أبرويز وقتله ، وأخذ يحاول أن يعيد تنظيم القوات العسكرية الفارسية . وإليه كذلك جاءت رسالة تطابق تلك المرسلة الى هرقل . فأغضبه ذلك الأمر . فزق الرسالة وألتى بها فى وجه حاملها وأمره بالانصراف .

ولما أن نبى النبى (صلى الله عليه وسلم) بذلك ، وهو فى بلدته النائية الصغيرة المتواضعة « المدينة » ، غضب غضباً شديداً وصاح قائلا : ﴿ اللهم مزق ملكه شرممزق ﴾ (٦٢٨ م) .

⁽۱) ذكر ابن هشام في سيرته أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبى وصعه كتاب إلى هرقل. وأضاف ابن سعد في الطبقات الكبرى قالى : وبعث رسولى اقد صلى الله عليه وسلم دحية ابن خليفة الكلبى إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر ، فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص ، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشى حافياً من قسطنطينية إلى إيلياء (القدس) ، فقرأ الكتاب وأذن لعظاء الروم في دسكرة له بحمص . فقالى : «يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت لكم ملكم وتتبعون ما قال عيسى بن مربم ؟ » قالت الروم : « وما ذاك أيها الملك ؟ » قال « تتبعون هذا النبى العربي » قال : فحاصوا حيصة حمر الوحش ، وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وشعافهم على نفسه وملكه ، فسكنهم ثم قال «إنما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم ، فقد رأيت منكم الذي أحب ، فسجدوا له » . جزء ٢ ص ٢٣ - ٢٤ .

درادشت ومانی

على أنه يجدر بنا قبل أن نواصل الحديث فى نشأة الإسلام فى العالم ، أن نستكمل بحثنا فى حال آسيا عند فجر القرن السابع. ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها عن التطور الدينى فى المجتمع الفارسى أثناء العهد الساسانى.

تغلبت الزرادشتية منذ أيام قورش فما بعدها على آلحة نينوى وبابل الأقدمين . وكان زرواستر Zeroaster (وهو الهجاء الإغريقي لكلمة زاراثوسترا Yeroaster (وهو الهجاء الإغريقي لكلمة زاراثوسترا المثل بوذا . ولسنا ندرى شيئاً عن العصر الذي عاش فيه ، ويرجعه بعض الثقات إلى سنة ١٠٠٠ ق . م ، ويجعله آخرون معاصراً لبوذا أوكنفوشيوس . ولا يزين على علمنا هذا ، علمنا بمحل ميلاده أو جنسيته بالدقة . فأما تعاليمه فمحفوظة لنا في الزند أفيستا (Zend Avesta) . ولكن نظراً لأنها لم تعد تلعب دوراً كبيراً في شئون العالم ، فليس في طوقنا أن نعالجها هنا في أي تفصيل . وصفوة القول أن التعارض بين رب للخير وهو أهورا مزدا (هرمزد) : إله النور والصدق والصراحة والشمس ، وبن برب شرير هو أهريمان : رب الحفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل ، هو محور ديانته . ونجيدها في التاريخ محوطة آنفاً بنظام طقوسي وكهنوتي ، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد وهياكل ، تتقد عليها نار مقدسة وقام عليها الطقوس القربانية . ومن بين خصائصها المعيزة ، حظرها دفن الموتى أو إحراقهم . والفرسيس (Parsees) الهنود ، وهم آخر من بني من الزرادشتين إلى يومنا هذا ، لا يزالون يلقون موتاهم داخل أبراج معينة مفتوحة ، هي « أبراج الصمت والحشوع » لا يزالون يلقون موتاهم داخل أبراج معينة مفتوحة ، هي « أبراج الصمت والحشوع » التي بنتامها العقبان .

وكانت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أردشير فن بعده (۲۲۷ م) ، ورئيسها هو ثاني رجل في الدولة بعد الملك ، وطبقاً لأدق

⁽١) زرادشت بالعربية. (المترجم)

مقتضيات العرف التمديم ، كان الاعتقاد السائد أن الملك قدسى أو شبه قدسى وله علاقة مودة صميمة خاصة مع هرمزد .

بيد أن ما كان يجرى فى العالم من اختمار دينى لم يترك الزرادشتية السيادة المطلقة على الإمبراطورية الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقاً ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك ، بل نشأت طوائف جديدة فى فارس حاملة فكرات ذلك الزمان المستحدثة . ولقد سبق أن ذكرنا فرعاً أو نوعاً مبكراً من الزرادشتية هو المثرائية . وهى عقيدة انتشرت فى أوربا فى القرن الأول ق . م بعد حملات پومپى الكبير فى الشرق . فمال إليها الجنود والعامة ميلا هائلا ، وظلت حتى عهد قسطنطين الكبير منافسة خطيرة للنصرائية . ومثرا هو إله النور «الذى يصدر ، عن أهورا مزدا (هرمزد) ويولد ميلاداً إعجازياً بنفس الطريقة التى يصدر بها الأقنوم الثالث فى الثالوث المسيحى عن الأول . ولسنا بحاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع من الجذع الزرادشتى . على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هى المانوية ، الأورادشتى . على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هى المانوية ، وهي تستحق الآن بعض الالتفات .

ولد مانى موسس المانوية فى عائلة كريمة بمدينة إكبانانا العاصمة الميدية القديمة (٢١٦م). وتلقى تعليمه فى طيشفون. وكان أبوه ناسكا ينتمى إلى إحدى الطوائف الدينية ، فتربى فى جو من البحث والدراسات الدينية. وانهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل ، الذى هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية. ودفعته الظروف إلى إعلان مبادئه ، إذ أنه شرع يبشر بتعافيمه عند تولى شابور الأول ثانى ملوك بنى ساسان فى ٢٤٢م .

ومما يتسق و خصائص تفكير الناس فى تلك الأيام ، أن تحتوى تعاليمه على ضرب من مزج الأديان والآلهة (الثيوكر ازيا). فأعلن أنه لا يأتى بأى شىء جديد. ذلك بأن كبار مؤسسى الأديان من قبله كانوا جميعاً على صواب : فإن موسى وزرادشت وبوذا ويسوع المسيح - كانوا جميعاً أنبياء صادقين ، بيد أنه وكل إليه أن يوضج تعاليمهم الناقصة المضطربة ويتوجها ، وقد قام بهذا بروح زرادشت وأسلوبه . وهو يفسر ما فى الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بن النور والظلمة . وأهور ا مزدا (هرمزد) عنده هو الإله وأهريمان هو الشيطان ، ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سقط من عنده هو الإله وأهريمان هو الشيطان ، ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سقط من

النور إلى الظلمة ؟ وكيف يحرر من أغلاله وينقذ من الظلام ؟ ثم ما هو الدور الذي يقوم به يسوع في هذا الحليط العجيب من الديانات ؟ هذه أمور ما نحن بمستطيعين أن نفسرها هنا وإن رغبنا . فإن اهتمامنا بالموضوع تاريخي بحت وما هو باللاهوتي .

ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية أن مانى لم يكتف بالطواف فى إيران مبشراً بأفكاره الجديدة هذه التى بدت له مقنعة تمام الإقناع ، بل دخل التركستان وهبط الهند وعبر الممرات إلى الصين . ولاشك أن حرية التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة . وهي شائقة ثثير الاهتمام كذلك ، لأنها تعرض على أرنظانا أن التركستان لم يعد قطر مترحلين خطرين ، بل إقليما نزدهر فيه المدن وينال فيه الرجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتبح لهم البحث في المسائل اللاهوتية .

وقد انتشرت فكرات مانى شرقاً وغرباً فى سرعة عظيمة ، وكانت دوحة مثمرة ظلت تمــد العالم المسيحى بأسره بالزندقات (الهرطقات) طوال ما يقارب الألف سنة .

وعاد مانى إلى طيشفون فى زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم إليه أنصار كثيرون . فتمخض هذا عن احتكاكه بالدين الرسمى وبرجال الدين . وفى ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب ، وأمر بحبسه لسبب مجهول فسلخ . ومن ثم أبخذوا يصبون على أتباعه أعنف الاضطهاد . ومع ذلك فإن المانوية صمدت فى فارس بضعة قرون مع المسيحية النسطورية والزرادشتية المسلفية أعنى « المزدكية Mazdaism » .

٣ _ الشعوب الهونية في آسيا الوسطى وبلاد الهند

الآن ينجلى لنا إلى حد ما أنه فى القرنين الحامس والسادس الميلاديين ، لم تكن فارس وحدها ، بل الأقاليم التى تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان ، – على درجة من المدنية تتجاوز كثيراً فى تقدمها مرتبة الفرنسيين والإنجليز فى ذلك الزمان ، وقد رفعت غشاوة الغموض عن تاريخ هذه الأقاليم فى العشرين السنة الآخيرة ، واكتشف «أدب» (١) ضخم جداً ، لم يقتصر تدوينه على لغات من المجموعة التركية وحسب ، بل تجاوزها

⁽١) يعنى المؤلف بلفظة «أدب» لمعنى العام للكلمة الذي يدل على حميع ما سطر في اللغة من كتابات ومؤلفات . (المترجم)

إلى اللغة الصغدية (١) (Sogdian) وإلى لغة آرية أخرى . وترجع هذه المخطوطات الباقية الى اليوم إلى القرن السابع وما يتلوه من قرون . والأبجدية فيها مقتبشة من الآرامية ، وقد أدخلها المبشرون المانويون . وإن كثيراً من المخطوطات المكتشفة ليجلني علينا من آيات الجهال ما يضارع خير ما أنتجه الرهبان البندكتيون . وقد وجد بعض الرق (٢) مشدوداً في النوافذ مكان الزجاج . وفي هذه المخطوطات ترجمات لأجزاء من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية ، وجدت مختلطة بمقدار كبير جداً من الأدب المانوي . وما برح الكثير من تلك المواد في انتظار اليد التي تتولاها بالفحص الدقيق .

ويصرح السير دنيسون روس بأن هذا الإقليم الآسيوى الأوسط ، كان لا يزال إلى حد كبير آرياً لغة وثقافة ، وكان فنه لا يزال في جل أمره هندى الأرومة أو فارسي الأصول . وتدل كل الدلائل على صحة الرأى القائل بأن هذه القرون التي هي في أوربا قرون كوارث وتأخر ، كانت بالمقارنة عصر تقدم في آسيا الوسطى فما وليها شرقاً حتى بلاد الصين . ولسرف نحصل يوماً على تاريخ متصل الحلقات يسجل الأحداث التي . حدثت في ذلك الإقليم أثناء القرون الحالكة التي عمت فيها الفوضي أوربا التي . حدثت في الفوضي أوربا عادى . وفي برلين الآن مجموعة من الرسوم الحدارية المنقولة من الركستان في تلك المدة ، وكأنما هي تكهن خارق للمعتاد لما ظهر (بعد ذلك بستة قرون) بفرنسا وألمانيا في القرن الثالث عشر من ثياب ومعدات . فإن الأشكال والرموز المألوفة للملولة والملكات والغلمان في ورق اللعب مثلا ، ترى بنصها في هذه الصور الزاهية . فقد والملكات والغلمان في ورق اللعب مثلا ، ترى بنصها في هذه الصور الزاهية . فقد والمائت هناك حياة تبلغ في جذالتها وامتيازها مبلغ حياة القرون الوسطى الأوربية أزهى أحوالها وهي تشامهها مشامهة عجيبة . ويختلط الشقر والسمر في هذه المناظر ، ويكثر الأصهبون وسعم في العادة نتيجة للتخليطات العنصرية .

⁽١) الصغدية نسبة إلى صغديانا وهي ولاية من ولايات دولة الفرس القسديمة تقابل اليوم مناطق سمرقند وبخارى . (المترجم)

⁽٢) الرق (بفتح الراء) جلد رقيق يكتب فيه . (المترجم) "

⁽٣) الأصهب هو الأحمر الشِعر . (المترجم) تاريخ الإنسانية جـ٣

وكانت الشعوب الهونية التي صارت تسمى آنذاك تتارآ وأتراكاً تقوم في شمال بحر قزوين بحركة انتقال مستمرة نحو الغرب تواصلت حتى القرن السادس ، ولكن يجدر بنا أن نعدها فيضاً للفائض من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها . وكان العالم من الدانوب إلى الحدود الصينية ما يزال في معظم شأنه عالم قرحل وبداوة تنمو به بلدان ومدن على طرق التجارة الرئيسية . ولسنا في حاجة إلى تفصيل القول ها هنا عن الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب منهم ، وهو النزاع الأبدى بين الطوراني (١) والإيراني . ولسنا نسمع شيئاً عن أى زحف عظيم للفرس نحو الشمال ، ولكن كانت هناك غارات نحو الحنوب عظيمة خليقة يالتذكر قام بها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوبن والآلانيين إلى الغرب منه قبل أن بدأت مجموعة الحركات الكبيرة في القرنين الثالث والرابع نحو الغرب، وهي التي حملت الآلانيين والهون إلى صميم قلب أوربا . وانتقل المترحلون إلى شرق فارس كما اتجهوا جنوباً مخترقين أفغانستان إلى الهند ، وذلك فضلاعن هذه الحركة المتجهة نحو الشيال الغربي. فكأن هذه الأنهار الجياشة بالمترحلين كانت تفيض على كل من جانبي فارس . ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة « يويه تشي » الذين انحدروا آخر الأمر إلى الهند بوصفهم الهندوإسكيديين في القرن الثاني . على أن قسما متأخراً من هؤلاء اليويه تشي ظل مقيما على بداوته بآسيا الوسطى ، وتكاثر عدداً في سهوب التركستان ، وهم يعرفون باسم الإفثاليين أو الهون البيض . فبعد أن أقاموا ثلاثة قرون وهم مصدر. إزعاج وخطر على الفرس ، أخذوا يغيرون آخر الأمر على أرض الهند في إثر أقاربهم حوالي ٧٠٤ ، وكان هذا بعد موت أتيلا بحوالي ربع قرن . على أنهم لم يهاجروا إلى بلاد الهند ، بل ظلوا ينتهبون في البلاد ذهاباً وغدواً ، ثم يعودون بأسلابهم إلى موطنهم الأصلي ، مثلما فعل الهون فيما بعد إذ استقروا في سهل الدانوب العظيم وأخذوا ثمة يغيرون على كل أوربا .

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التي نستعرضها الآن ، يتعاقب عليه على الدوام هذان الغزوان : غزواليويه تشي أى الهندو إسكيذيين الذين أزالوا كما قلمنا تخر آثار الحكم الهليني ، ثم غزو الإفثاليين . وقد دفعت الطائفة الأولى من هؤلاء ،

⁽١) أطلقالإيرانيون ثم المرب ذلك الاسم علىسكان التركستان وآسيا الوسطى ولغاتهم. (المترجم)

أى الهندو إسكيذيين أمامها ، موجة من السكان المطرودين من أوطامهم هم الساكا (sakas) ، وبذا تكون الهند قد لقيت في الهاية ثلاث موجات من إغارات البرابرة حدثت قرابة ١٠٠ م وقرابة ١٢٠ م وقرابة ٢٧٠ م . غير أن الثانية من هذه الغزوات ، هي الوحيدة التي غدت فتحاً مستديماً واستقراراً مقيا . واتخذ الهنود الإسكيذيون مركزهم الرئيسي على الحدود الشهالية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة ، هي أسرة مركزهم الرئيسي على الحدود الشهالية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة ، هي أسرة كوشان (Kushan) وهي التي حكمت معظم شهال الهند حتى بنارس شرقاً .

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول)، وهو اللى ضم إلى شال الهند كلا من قشغر ويرقند وخوتان . وكان ــ مثله مثل أسوكا (أو أشوكا) ــ عاملا قويا على رفع شأن البوذية ، ولابد أن هذه الفتوح التى تكونت منها هذه الإمبر اطورية العظيمة على الحدود الشالية الغربية ، أقامت بين الهند والصين والتبت علاقات وثيقة مستمرة

ولن بهتم هاهنا بذكر ما ألم بعد ذلك بالقوة المسيطرة على الهند من انقسام وانحاد وتحالف، لاستعصائها على البحث هاهنا في هذا الحير الضيق بين أيدينا . فكانت الهند في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من الدول كرقعة الشطرنج ؛ وربما تغلبت إمبر اطورية كإمبر اطورية الجويتا (Gupta) على مساحات عظيمة منها . واز دهرت إمبر طورية الجويتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس . وفي ظل رعايتها قامت الهندوكية العصرية ، وظهرت فترة من النشاط الأدبي العظيم . على أن هذه الأمور لم تغير إلا قليلا طريقة الحياة العادية لدى الشعوب الهندية . وصمدت البرهمانية في وجه البوذية واز دهرت الديانتان جنباً إلى جنب . وكانت كتلة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الآن إلى حد كبير جداً ؛ فتلبس الثياب وتزرع الأرض وتبي بيوتها على نفس الشاكلة الحالية

وغارات الإفثاليين جديرة بالذكر ، لا بسبب تولد عنها من آثار مستديمة بل بسبب ما ارتكبه الغزاة من الفظائع . فقد كان هو لاء الإفثاليون أقرب الناس شها بهون أتيلا في بربريتهم ؛ كانت الغارة كل همهم ، فلم ينتجوا أسرة ملكية كأسرة كوشان ؛ واحتفظ روساوهم بمركز قيادتهم العليا في التركستان القرببة . وقد سمى ميهير اجولا (Mihiragula) أعظم زعمائهم كفاية باسم أتيلا بلاد الهند : ويروى أن إحدى تسلياته

المحبوبة كانت لعبة غالية كبيرة النفقة ، هى دحرجة الفيلة فى الهاويات للتفرج على الامها . وأثار ما ارتكبه من فظائع أمراء الهند التابعين له فثاروا عليه وحلعوه (٢٨٥) . على أن القضاء النهائى على غارات الإفثاليين على الهند لم يأت من جانب الهنود ، بل جاء نتيجة لتدمير المركز الرئيسى للإفثاليين على بهر سرداريا أو سيحون (Oxus) (٥٦٥) على يد قوة الانراك النامية ، إذ هاجموهم متحالفين مع الفرس . وما لبث الإفثاليون بعد هذه الهزيمة أن انحلوا انحلالا سريعاً تاماً وانصهروا في السكان المحيطين بهم ، مثلما فعل الهون الأوربيون بعد وفاة أتيلا قبل ذلك بمئة سنة . ذلك أن البدو المرحلين الذين ليس لديهم أرض مراع مركزية لا بد أن يتفرقوا ، إذ ليس أمامهم غير التشتت من سبيل . ويقال إن بعض عشائر الراچيوت (Raiput) الرئيسية الموجودة إلى يومنا هذا في راچيوتانا في شال الهند ، تنحدر من هولاء الهون البيض .

وإنا لمضطرون أن نمسك آسفين تماماً عن الإدلاء بأى بيان عن تطور الفروسية فى هذه الولايات الراجپوتية الصغيرة ، وهى عجيبة الماثلة لتطور الفروسية المعاصرة لها فى أوربا .

ثم إننا لا نستطيع أيضاً أن نتبع ولو في معالم إجمالية تطور الفن الهندى بين أيام الإسكندر و مجىء الإسلام ، إذلم يقم أىدارس بدراسة تلك الحقبة ولم يمهد لنا السبيل في

هذا الصدد . ولا يخنى أنالتأثير الهلينى في الفن الهندى والعارة الهندية عيقاً ، والراجح أن الفنانين وعلى الخصوص المصورين منهم كانوا لا ينفكون يغدون ويروحون بين فارس وآسيا الوسطى والهند . وذلك أن الفن البوذى تتجلى فيه روح هلينية قوية . ولما حدث في القرن الثانى



An Ephthalita Com ...
(شكل ١٢٥) عملة إنثالية

وما يتلوه من قرون ميلادية ، أن انتشرت البوذية فى الصين كما سبق أن ذكرنا ، حملت معها شيئا من رشاقة الفن الهليني وطابعه وأدخلته على الأشكال الصينية الممثلة لبوذا وعلى

الفن الدينى الصينى عامة . ولكن للهند مناخاً قتالاً يقضى على كل عمل فى قديم مهجور . فإن أسرات مالكة من التى كاد النسيان يعفنى عليها تماماً ، كانت تعيش بالهند عيشاً جميلا مترفاً ، ولكنها لم تخلف من ورائها إلا القليل مما أوتيت من ألوان الجمال .

وهناك أثر فاتن أخاذ تبقى عن هذا الزمان ، وهو يرى فى كهوف أچانتا · (Ajanta) المنقوشة جدرانها التي أخذت صورها تذوى وتتعسر رؤيتها . ومن حسن الحظ أن قد أخذت لها صور يمكن الاطلاع عليها بوساطة الجمعية الهندية . وتوجد أچانتا في حيدر آياد في ممر هام بجبال ڤندهيا ، وقد كان هناك بن القرنين الثاني والسابع الميلاديين دير بوذي به كثير من الأبهاء والدهاليز المفرغة في الصخر ، وفي هذه الفترة وفى القرنين الخامس والسادس بوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش على حساب ملوك ورجال أثرياء متنوعين ، زيمًا عدد من الفنانين المهرة الموهوبين . وإنا لننظر إلى هذه البقايا في أيامنا هذه ذاهلين ، فإنها بلغت من الفصاحة في الترجمة عن ثراء وذكاء وشهوية الحياة في البلاط كل مبلغ ، فلولا هذه الصور لزالت هذه الأمور من ذاكرة الناس تمام الزوال ، ولا تزال موضوعات اللَّكُ الصور في كثير من الحالات موضع نظر وآخذ ورد ٥ فإن بعضها مناظر تمثل حياة بوذا وأساطىر تدور حوله ؛ وبعضها تيدو خاصة بالرب إندرا (Indra) ، وبعضها لا يزيد عن صفحة من حياة البلاط اليومية. وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بعثة سياسية موفدة من عليه وسلم) يوان تشوانج ، وهو رحالة صيني سنحدثك عنه بالكثير من القول عما قليل .

٧ _ أسرتا هان وتانج بالصين

هذه القرون السبعة التي شهدت بداية ونهاية الأباطرة في روما ، ورأت حياة أوربا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، تتحطم ثم يعاد سبكها ، سشهدت كذلك تغيرات عميقة الأثر جداً في العالم الصيني . ويشيع بين المؤرخين الصينيين والاوربيين فرض مفاده أن عهدى أسرة هان التي نجد الصين تحت حكمها في

بداية هذه المدة وأسرة تانج الى بها انهت ، يعتبران من عهود الرفعة المهائلة ، وأنهما كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابهة أو تكاد ، وأن قرون الانقسام الأربعة التي مرت بين بهاية أسرة هان (٢٢٠) وبداية أسرة تانج (٢١٨) ، كانت قرون اضطراب لاقرون انتقال ضرورى . ويخال بعض الناس أن انقسامات الصين إن هي الا انقسامات سياسية ومحلية . إذ ينخدعون لأن الصين كانت في نهاية هذه القرون الأربعة كما كانت في مسهلها ، تشغل نفس المركز في آسيا ، وأنها ظلت طوال تلك القرون نفس الصين المعروفة ، إذ لم تبرح صاحبة ثقافة مشتركة وكتابة مشتركة ومجموعة مشتركة من الفكرات ـ وهم في ذلك يتجاهلون عمليتي الهدم والبناء الجوهريتين اللتين ظلتا تجريان ، كما تفوتهم أوجه الشبه الكثيرة بين ما مر علي الصين وأوربا من أحداث.

حقاً إن الانهيار الاجهاعي لم يبلغ أبداً في العالم الصيني مبلغه الكامل في العالم الأوربي . فقد بقيت هناك طوال المدة بأجمعها مساحات مترامية كان من الميسور فيها أن يتواصل المتحسين والإنقان في كل فنون الحياة . فلم يحسدت بها تقوض تام في النظافة والزخرفة والإنتاج الفي والأدبي كالذي علينا أن نسجله في الغرب . وليس هناك مثيل لما حدث في أوربا من صدوف عن التماس الرشاقة والمتعة . فإنا نلحط مثلا أن « الشاى اظهر في العالم ، وفشا استعاله في كل أرجاء الصين . وبدأت الصين تحتسى الشاى في القرن السادس الميلادي . وظهر بين الشعراء الصينيين من يكتبون كتابات بهيجة عن تأثيرات الفنجان الأول والفنجان الثاني والفنجان الثاني والفنجان الثاني والمتحدت الصين نقشت مناظر طبيعية () برية من أروع ما أبدعته يد الإنسان على مر الدهور . واطرد فهور العدد الموفور من إنتاج الزهريات والنحائت الجميلة . ولم ينقطع إنشاء المباني الرشيقة وأعمال الزخرفة . وابتدأت الطباعة عن كتل من الحشب في نفس زمان احتساء الشاى ، وظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب في الشعر .

وهناك فروق بأعيانها بين الإمبراطوريات العظيمة في الشرق والغرب ساعدت كلها على ترسيخ قدم الأولى وتثبيت أركانها . فلم يكن للصين عملة عامة . ولذا فإن

⁽١) المنظر الطبيعي البرى Landscape : منظر أرضي كنظر قرية أو غابة وُقد يكون فيها أشخاص أو حيوانات لا تشغل جزما مهما من الصورة . (المترجم)

ما كان للعالم الغربي من نظام للدفع نقداً وائتماناً (١) ، وهو النظام الذي يجمع بين الكفاية والحطر في وقت واحد ، لم يكن مما ابتليت به الصين في حياتها الاقتصادية . وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت مجهولة . فقد كانت الولايات المختلفة تستعمل في صفقاتها الصغيرة « نقداً » مثقوباً من الزنك والنحاس ، فأما في الكبرى فلم يكن هناك من شيء سوى سبائك مدموغة من الفضة . وإذن فهذه الإمبراطورية العظيمة كانت لا تزال تقوم بغالب أعمالها التجارية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذي كان منتشراً في بابل أيام التجار الآرامين (٢) . وقد استمرت على هذا الحال حتى فجر القرن العشرين .

ولقد رأينا كيف قُضى على النظام الاجتماعي والاقتصادي في الجمهورية الرومانية بسبب سيولة الملكية ، تلك السيولة الشديدة التي أوجدتها النقود . فأصبحت النقود شيئاً مجرداً قائماً بذاته ، وانقطعت صلنها بالقيم الحقيقية التي كان مفروضاً أنها تمثلها . فوقع الأفراد والمجتمعات في الدّيْن وقوعاً مخالفاً لكل معقول ، ووقع العالم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين ، وهم رجال كانوا لا يتداولون بينهم أية ثروة حقيقية ، بل كان في طوقهم أن يطالبوا بالنقود ويسحبوها . فأما الصين فلم يحدث مثل ذلك التطور المالي . بل ظلت الثروة في الصين حقيقية ومرثية ملموسة . ومن ثم لم تكن بالصين حاجة إلى أي قانون ليسيني (Licinian) ولا إلى مسعبدة في الخدمة . وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يبعن مستعبدة في الحدمة . وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يبعن مستعبدة في الخدمة . وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يبعن اللهل المنزلي . وكان شاغل الأرض والمستفيد منها هو في معضم الحالات المالك الفعلي لها ويكاد ، ولايدفع إلا ضريبة الأراضي . وكان هناك قدر معين من نظام ملكية الأراضي فإت الرقاع الصغيرة ، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من فرات هناك قدر معين من نظام ملكية الأراضي فرات الرقاع الصغيرة ، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من فرات الرقاع المون من لا أرض له من

⁽١) نظام الدنع نقداً وانتهاناً Cash & Credit System (المترجم)

⁽٢) الآراميون : قبائل رحل بشبه جزيرة العرب. رحلت إلى وادى الفرات فى ١٥٠٠ ق .م. واقتبسوا حضارة الأموريين والكنمانيين ونشروها فى سوريا . (المترجم)

⁽٣) انظر المجلد الثاني من الممالم ص ٢٨٥ ط ٣ . (المترح)

الرجال يعمل أجيراً مقابل أجر يدفع فى غالب الأمر عيناً ـ شأن ما كان يحدث فى بابل القديمة .

وكانت هذه الأشياء من عوامل الاستقرار كما أن شكل الصين الجغرافى كان من عوامل الوحدة ، ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت ، وربما يكون الترف عامل و هنها ، وعندما حدث آخر الأمر فى نهاية القرن الثانى الميلادى أن دكت ذلك النظام الكارثة العالمية كارثة الوباء العظيم ، وهو نفس الوباء الذى بدأ فى الإمبراطورية الرومانية قرناً من الارتباك والاضطراب ، انهارت أسرة هان انهيار شجرة نخرة خاوية هبت عليها ربح عاصفة . وتبدى فى الشرق والغرب على السواء نفس الاتجاه إلى الانقسام إلى عدد من الولايات المتناحرة ونفس إغارات الحكام البرابرة .

ويعزو المستر فو كثيراً من خور الصين السياسي في تلك المدة إلى انتشار النزعات الأبيقورية التي نشأت فيما يرى عن المدهب الفردي المتشكك الذي أنشأه لاوتزى. ويعرف دور الانقسام هذا باسم «عهد المالك الثلاث » . وشهد القرن الرابع أسرة مالكة من الهون متمدنة نوعاً ما ، وقد فرضوا أنفسهم حكاماً على مقاطعة شن سي (Shen-Si) . ولم تشمل هذه المملكة الهونية شمال الصين فحسب ، بل مساحات عظيمة من سيبيريا ؛ وتمثلت أسرتها المدنية الصينية ، وحمل نفوذها تجارة الصين ومعرفتها وثقافتها قدد ما حتى الدائرة القطبية . ويوازن المستر فو بين هده المملكة السيبرية وبين إمبر اطورية شرلمان في أوربا التي سنصفها لك من فورنا . فعناها عنده السيبرية وبين إمبر اطورية شرلمان في أوربا التي سنصفها لك من فورنا . فعناها عنده أن البربري أصبح ذا طابع «صيني » مثلما أن شرلمان البربري أصبح دومانيا .

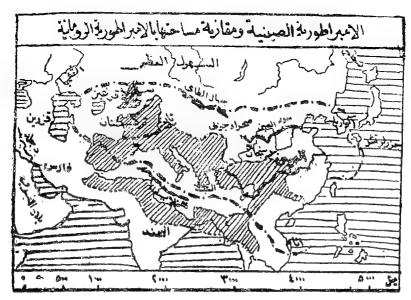
ونشأت عن امتزاج هؤلاء السيبريين والعناصر الصينية الشهالية من الأهالى ، أسرة سوى (Suy) التى فتحت الجنوب . وتؤذن أسرة سوى هذه ببداية عصر نهضة ببلاد الصين . فألحقت جزائر لوتشو (Lu-chu) بالصين أيام أحد ملوك سوى ، ومرت البلاد بدور من النشاط الأدبى العظيم : ويحدثوننا بأن عدد مجلدات المكتبة الإمبراطورية في ذلك الزمان زيد إلى ٤٥ ألف مجلد . وشهد فجر القرن السابع استهلال عهد أسرة تانج (Tang) العظيمة التى قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون .

ويصر المستر فو على أن نهضة الصين التى ابتدأت بأسرة سوى وبلغت ذروتها أيام تانج كانت ميلاداً حقيقياً جديداً للبلاد . وهو يكتب قائلا « لقد ظهرت روح جديدة ، وهي تدمغ مدنية تانج بخصائص تميزها تماماً عن كل ما عداها . إذ أن عوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها في بعض ، وهي : (١) الثقافة الصينية المتحررة (١) ، (٢) المذهب الصيني الكلاسيكي العتيق Classicism ، ثم (٤) شجاعة أهل الشهال :

« لقد ولدت صين جديدة ، فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم العسكرى عند أسرة تانيج مختلفاً تمام الاختلاف عما كان عليه الحال عند أسلافها ، وتأثرت الفنون أيما تأثر وانتعشت كثيراً بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى . ولم يكن الأدب مجرد استمرار للقديم ؛ بل كان إنتاجاً جديداً ، وكانت مدارس البودية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة ، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية ،

« وربما لذ لنا أن نقارن تكوين الصين هذا ، بما آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية في أخريات أيامها . فكما كان العالم الروماني مقسما إلى نصفين غربي وشرق ، كذلك كان العالم الصيني مقسما إلى شهالي وجنوبي . وقد قام البرابرة في حالة الصين وحالة روما بإغارات متهائلة : وأسسوا سيادات أو دولا من نوع واحد . وضارعت إمبراطورية شرلمان إمبراطورية الأسرة السيبيرية (واى Wei) التالية ؛ ويقابل استرجاع الإمبراطورية الغربية المؤقت على يد بجستنيان ، استرجاع الشهال مؤقتاً على السيرجاع الإمبراطورية الفربية المؤقت على يد بجستنيان ، استرجاع الشهال مؤقتاً على يد ليويو (Liu-yu) . ويضاهي الفرع البيزنطي الأسرات الجنوبية . على أن العالمن تفارقا من هذه النقطة . فاستعادت الصين وحدثها ؛ على حين لا يزال باقياً على أوربا أن تحذو حذوها » .

⁽١) Liberal Culture وهي ذلك الغمرب المستنير المهذب من الثقافة الحليق بالسادة المهذبين والجنتلمانية . (المترجم)



﴿ شكل ١٢٦) الإمبراطورية الصينية ومقارنة مساحها بالإمبراطورية الرومانية

حدوده الجنوبية في هذا الاتجاه تساير حدود فارس. فأما حدوده الشمالية فامتدت بمحاذاة جبال آلتاى من سهوب القرغيز في شمال صحراء جوبى . بيد أنها لم تشمل كوربا التي غزاها ابنه وضمها إلى ممتلكاته . وقد استطاعت أسرة تانج هذه أن تنشر الحضارة بين سكان الجنوب أجمعين وأدمجتهم في الجنس الصيني ، وكما أن صيني الشمال يسمون أنفسهم « رجال هان » ، يسمى صينيو الجنوب أنفسهم « رجال تانج Tang » . وتم تنسيق القوانين وجمعها في مدونات ، ونقح نظام الامتحان بإلادي ، وأصدرت طبعة كاملة مضبوطة من كل الآداب الصينية القديمة .

ووفدت على بلاط الإمبراطور تاى تسنيج بعثة سياسية من بيزنطة ، وأهم من ذلك ، أن قد أتت من فارس جماعة من المبشرين النسطوريين (٦٣٥) فاستقبلهم تاى تسنيج باحترام عظيم و واستمع منهم إلى أهم مواد عقيدتهم ، وأمر بترجمة الكتب المقدسة المسيحية إلى الصينية ليفحصها فما بعد .

وما لبث في ٦٣٨ أن أعلن أنه وجد الديانة الجديدة مرضية تماماً ، وأنه يجوز التبشر بها في الإمبراطورية . كذلك سمح ببناء كنيسة وتأسيس دير . ويوجد

في سيان فو (Sianfu) اليوم حجر منحوت يدعونه الأثر النسطوري يرجع تاريخه إلى ٧٨١م ، وقد سجلت عليه هذه الوقائع باللغة الصينية .

كذلك حضرت إلى بلاط تاى تسنج بعثة أدعى إلى العجب عام ٦٢٨ م قبل مجىء النساطرة يسبعة أعوام: وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من ينبع ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كنتون بحراً فى فلك تجارى . (ومن الشائق أن نلحظ لهذه المناسبة وجود أمثال تلك السفن التى كانت تعمل فى التجارة بين الغرب والشرق فى ذلك الزمان) . أرسل هولاء العرب محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى سبق لنا ذكره والذى نعت نفسه «نبى الله» . والرسالة التى أحضروها إلى تاى تسنج هى فيا يرجح نفس الدعوة التى أرسلت فى السنة نفسها إلى هرقل الإمبر اطور البيزنطى والى قباذ فى طيشفون(۱) .

على أن ملك الصين لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل ، ولا أهان الرسول كما فعل قباذ قاتل أبيه ، بل أحسن استقبالهم وترجم عن لذة عظيمة فى آرائهم اللاهوتية وساعدهم فيما يقال على بناء مسجد من أجل التجار العرب فى كنتون _ وهو مسجد باق إلى اليوم وهو من أقدم مساجد الدنيا .

٨ - أغلال الصن الذهنية

كان تحضر (٢) الصين وثقافتها وقوتها فى ظل حكم ملوك تانج الأوائل نقيضاً ناصعاً واضحاً للانحلال والفوضى والانقسامات فى العالم الغربى ، وهى حال قد تثير على الفور طائفة من أمتع الأسئلة فى تاريخ المدنية . فلهذا لم تحتفظ الصن بتلك الزعامة التى فازت بها بفضل عودتها السريعة إلى الوحدة والنظام ؟ فلهذا لا تتسلط إلى اليوم على العالم ثقافياً وسياسياً ؟

لقد ظلت زماناً طويلا وهي على التحقيق السباقة المتقدمة . وما نستطيع أن نقول مع

⁽١) هيمدائن كسرى : عاصمة الساسانيين وتقع . ج . ق بغداد .

⁽٢) يقصد الكاتب بالتحضر أو الحضرية دمائة الأخلاق وحسن الآداب والمهذيب وهي صفات أهل الحضر . (المترحر)

الثقة والاطمئنان إن العالم الغربى قد شرع يسبق الصين من جديد ، إلا يعد ألمف سنة ، وفي القرنين الساديس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا وانتشار الكتب المطبوعة والتعليم في الغرب وبزوغ فجر الاكتشاف العلمي العصرى . فني عهد أسرة تانج ، وهو أعظم عهودها ، وفي ظل أسرة صنج (٩٦٠ – ١٧٧٩) الفنية النزعة وإن كانت على شيء من التدهور ، ثم كذلك إبان حكم آل منج المثقفين (١٣٦٨ – ١٦٤٤) ، تتجلى الصين للعالم في مشهد من الرفاعية والسعادة والنشاط الفني المتقدم أشواطاً بعيدة على أي دولة معاصرة . فإذا راعينا أنها أحرزت ذلك القدر الكبير تساءلنا لماذا لم تحرز المزيد ؟ كانت السفن الصينية تمخر البحار ، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان(١) ، فلماذا لم يكتشف المصينيون قط أمريكا أو استراليا ؟

وهناك رسوم للبوشمن قديمة نقشت على الصخور ، ريما دلت على أن سفناً صينية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقية فى تاريخ ما غير معلوم ، كما يقال إن هناك آثاراً تدل على نزول زوار صينيين فى بلاد المكسيك ، فلنن صح هذا ، فإن واحداً من هذين الاكتشافين العرضيين لا يبدو أنه أتبع بغيره مثلا لم يتابع أحد طواف القرطاچيين حول إفريقية أو مثلا لم تتبع زيارات أهل الشهال (Northmen) لأمريكا بزيارات أخرى . ويقول المستر قوجان : إن هناك أيضاً رسوماً صينية محفورة فى الصخور فى نيوزيلندة ونيوكاليدونيا . على أن توفر العبقرية الفردية والإقدام غير المتواصل ، لا يكنى لنوطيد اكتشاف من الاكتشافات فى يد أحد المجتمعات ولا يضمن أن يؤتى ثماره

⁽۱) من المشكوك فيه أن يكون الصينيون عرفوا البوصلة البحرية . ويستخلص هيرت في كتابه «تاديخ الصين القديم» ، ص ۱۲۱ فما بعدها ، بعد فحص دقيق لكل العصور والأزمنة ، أنه ولو أن من المحتمل أن يكون شيء كالبوصلة عرف في الأزمنة السحيقة ، فإن العلم به احتواء النسيان لمدة كبيرة بعد ذلك ، حتى ظهر مرة أخرى في العصور الوسطى كالة بأيدى اللحادين (وهم الذين يوكل بهم اختيار أفضل المواقع المقبور الن) . وأول ذكر واضح لاستمالها كرشد البحارة ورد في كتاب في القرن الثاني عشر ، يشير إلى استخدامها في سفن أجنبية بين الصين وسومطرة . ويميل هيرت الى الاعتقاد بأن الرواد العرب يعتمل أن رأوها في أيدى لحادين صينين ثم طبقوا استمالها على الملاحة ، حتى إنهم استطاعوا بعد ذلك إعادتها إلى الصين في صورة البوصلة البحرية . (المؤلف)

ويصبح معرفة وطيدة قابلة للاستعمال . ولا بد أن يكون المجتمع نفسه مستعداً لتقبله والإفادة منه .

ومن المحقق أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع وإن كانت فردية منعزلة متفرقة – ما لا يقل عما في أى جزء من أجزاء العالم . وعرف الصينيون البارود في القرن السادس . واستعملوا التسخين بالفحم الحجرى والغاز استعالا محليا قبل أن تستخدم هذه الأشياء في أوربا بقرون . فأما إقامتهم للكبارى وهندستهم المائية فهدهشة جديرة بالإعجاب ؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تتبدى في الآنية المطلبة بالميناء واللا كيه (١) لعظيمة جداً . فلاذا لم ينشئوا قط طريقه التسجيل والتعاون في البحث ، تلك الطريقة التي وهبت العلم الحديث للعالم ؟ ولماذا ، بالرغم من مراتهم العام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعليم الذهني إلى كتلة السكان العام ولم يتخللها ؟ ولماذا كانت جماهير الصين اليوم ، كما كانوا على الدوام أميين بالرغم من المستوى الرفيع للذكاء الطبيعي الاستثنائي المنتشر بينهم ؟

من المألوف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات غالباً ما تكون جوفاء . فيقال لنا إن الصيني أشد المخلوقات البشرية محافظة ، وإن عقله – على نقيض الأجناس الأوربية – ملفوت نحو الماضي ، وأنه العبد الحاضع بإرادته لآداب اللياقة والتقاليد إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل الغربي : وهو يمثل كأنما له عقلية مميزة إلى حد يجعل الإنسان يتوقع غالباً أن يجد في تركيب المخ فارقا يفسر ذلك الاختلاف . والقائلون بهذه الآراء يقتبسون التماس كنفوشيوس لحكمة القدماء لدعم ذلك الزعم .

على أننا لوفحصنا هذا التعميم (الحكم العام) فحصا أدق وأضبط لتبدد فى الهواء هباء منثوراً . فإن قوة الابتكار والمبادرة الذهنية الفائقة والإقدام العقلى المتحرر والميل إلى التجريب ، تلك المزايا التى نعتقد أنها قوام خصائص الذهن الغربى ، لاتتجلى فى تاريخ

⁽١) اللاكيه lacquer دمان محلول الك وهو مادة راتنجية (قلفونية) يفرزها نبات الكوكوس لاكا Coccus Lacce الذي ينتج صباغاً أحمر زامياً . (المترجم)

هذا الذهن إلا" في أثناء أدوار معينة وتحت ظروف استثناثية . وفيما عدا ذلك ، لا يتجلى العالم الغربي إلا مضارعا للصين في النزام التقاليد والمحافظة على كل قديم . ومن الناحية الأخرى ، فإن العقل الصيني كان إذا حفزه حافز يبدى قدرة على الاختراع والابتداع وتعددا في المزاياكالأوربي سواء بسواء ، كما أن الذهن الياباني المجانس له يكاد يفوقه في هذا . فإذا اتخذت من الإغريق مثالا ، وجدت أقصى ما بلغوه من قوة ذهنية واقعاً في المدة بين القرن السادس ق ۽ م . وبين اضمحلال متحف الإسكندرية أثناء حكم البطالمة المتأخرين فى القرن الثانى ق . م . ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده ، بيد أن تاريخ ألف سنة من سنى الإمبراطورية البيزنطية أظهر أن العالم الهليني راكد الذهن كالصين سواء بسواء . ثم إننا قد سبق أن وجهنا النظر إلى عقم الذهن الإيطالي نسبياً أثناء العهد الروماني ، وإلى وفرة خصبه منذ « نهضة إحياء العلوم » . وكذلك الذهن الإنجليزى ، فقد مر به دور من التوقد في القرنين السابع والثامن ، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرن الحامس عشر . كذلك ذهن العرب كما سنخبرك من فورنا ، قد تألق تألق النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام ، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أي شيء ذي بال . ومن الناحية الأخرى كان هناك على الدوام قدر عظيم من المقدرة على الاختراع مبعثر في الصين ، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصيني من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية . وإنا لنبالغ في مدى احترام الصينيين لآبائهم ؛ فقد كان فتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شيوعاً بين الأباطرة الصينيين ، لدى حكام فارس أنفسهم . وفضلا عن ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدثث بالصين حركات تحريرية كثيرة ، وكفاحات عديدة ضد «الأساليب العتيقة » .

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم الذهنى الحقبتى فى أى مجتمع من المجتمعات تبدو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الغرض غير متحيزة العقول ، بلغت من الحرية مبلغاً يجعلهم لا يكدحون ولا يحماون هما يستنفد القوى من أجل حاجاتهم الدنيوية ، ولم يبصل فى ترائها وسعة سلطانها إلى حد يغريهم بالإسراف فى الشهوات أو المظاهر أو القساوات . و يجب أن يتوافر لهم شعور بالطمأنينة ، لا غرور بالتفوق . وأسلفنا كذلك أن هذه الطبقة يجب أن تتهيأ لها القدرة على الكلام بحرية وأن تتواصل بسهولة . و يجب ألا

تراقب لمظنة الزندقة أو تضطهد لآية آراء قد تعبر عنها . ولا مراء أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تغمر بلاد الإغريق فى أحسن أيامها . والواقع أن طبقة من القوم الأذكياء المهذبين الأحرار تنبدى على صفحات التاريخ حيثًا ظهوت فلسفة جريثة مدونة أو تقدمات علمية فعالة .

ولا بد أن الصين كانت تضم فى أيام تانج وصنج ومنج كرة من القوم المنعمين من نفس الطبقة التي كان منها معظم شبان « أكاديمية ، أثينا أو أذكياء إيطاليا النابين فى عصر النهضة أو أعضاء الجمعية الملكية اللندنية ، وهى الجمعية التي كانت بمثابة الأم من العلم الحديث ؛ ومع ذلك فإن الصين لم تنتج في عصور الفرص التي أتبحث لها شيئاً يماثل تلك البدايات العظيمة للحقائق المسجلة المحللة .

فإذا نبذنا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق العنصرية العميقة بين الصين وبين الغرب، تلك الفوارق التي تجعل المصينين محافظين بطبيعتهم، وتجعل الغرب تقدمياً بطبعه، وجب علينا إذن أن نبحث عن السبب الفعال لهذا الفارق في روح التقدم ملتمسين إياه في نواحي أخرى. ويميل كثير من الناس أن ببحثوا في اتجاه آخو عن السبب الفعال في تأخر الصين ذلك التأخر العظيم بالرغم مما لها من ميزات أصيلة أثناء القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة حوهم يرون أن تكبيل الذهن الصيني في كتابة وفي صبغ للفكر بلغت من الإحكام التفصيلي والصعوبة حداً جعل طافة البلاد العقلية مستنفدة استنفاداً عظيا في تحصيلها هو مرد ذلك كله. وعندي أن هدذا الرآي جدر بالفحص والنظر.

وقد سبق أن أعطيناك بياناً عن خاصيات الكتابة الصينية واللغة الصينية . والكتابة اليابانية مشتقة من الصينية كما هو معلوم ، وتتكون من مجموعة من الصيغ أسرع تدويناً . والعدد الكبير من هذه الصيغ « كتابة تصويرية رمزية »(۱) منقولة عن الصينية وتستخدم بالضبط بنفس الطريقة التي تستخدم بها الكتابة التصويرية الرمزية » الصينية ، على أن هناك كذلك عدداً من العلامات يستعمل المتعبر عن المقاطع ، ولليابانيين مجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة مجموعة الأحرف السومرية الممثلة للمقاطع والتي سبق أن وصفناها . ولكن الكتابة اليابانية تظل بعد ذلك طريقة سمجة كالخط المسهارى سواء بسواء ، وإن لم تصل بسهاجتها وتعقيدها إلى درجة

⁽۱) « كتابة تصويرية رمزية Ideograms أي رموز كتابية هي كما اسلفنا ج ۱ ط ۳ من الممالي ص ١٩٤ صورة أو رمز تستعمل ف-نظام الكتابة .

الصينية ؛ وقد قامت ببلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أبجدية غربية . على أن كوريا تقدمت إلى الأمام خطوة من زمان بعيد ، ونحتت أبجدية حقيقية من المصادر الصينية نفسها .

وفيا عدا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن فى العالم ، تقوم على أبجديات البحر المتوسط ، وهي أسهل حفظاً واتقانا من الصينية بشكيل لا يسمح بأية موازنة , ومعنى هذا أنه بينها الشعوب الأخرى لا تتعلم لتدوين اللغة المَّالوفة لديها إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبياً ، فإن الصيني ملزم أن يتمكن من أحشاد عظيمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة . فليس عليه أن يتعلم العلامات وكني ، بل التجميع المقرر لتلك العلامات أيضاً ، حتى يتاح له إظهار المعانى المختلفة . فيجب والحالة هذه أن يجعل نفسه ملما بعدد من المؤلفات القديمة التي تتخذ مثالا يحتذى . وبناء على هذا ، فبينا أنت واجد في الصين أعداداً عظيمة من الناس يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور ، فلن تجد إلا القليلين نمن تتسع معارفهم لإدراك معنى فقرة في إحدى الصحف ، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن يقرأوا ما قد يرمى إليه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أى ظلال ممتازة للمعانى . وهذا يصدق أيضاً على اليابان وإن يكن بدرجة أقل. ولا مراء أن القراء إلأوربيين وبخاصة أصحاب تلك اللغات التي لا تلتزم نظاما بعينه والغنية بالألفاظ مثل الإنجليزية والروسية ، يختلفون اختلافاً عظيما فيا. بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التي يستطيعون فهمها ومدى فهمهم لها ؛ قان قوتهم في اللغة تختلف باختلاف محصولهم من المفردات ؛ بيد أن ما يقابل ذلك من مستوى الفهم عند الصينيين ، يستدعي تحصيله بذلا من الجهد والوقت أعظم كثيراً . فان تعليم الموظف (الماندرين Mandrin) في الصين إنما هو فى معظم شأنه تعلم للقراءة .

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقة المتعلمة أثناء سنى قابليتها للتعلم والاستيعاب وإكبابها على الآداب القديمة الصينية يجعلها متحيزة لهذه العلوم التقليدية التي ألفقت فيها مثل هذا القدر الكبير من الزمان والطاقة . وقل من الرجال الذين كدحوا في عقولهم بعلم من العلوم ، من يطرح برضاه ذلك العلم جانباً ، مفضلا عليه شيئا آخر جديداً غير مألوف. وغنى عن البيان أن هذا الميل شيء لا ينفرد

به المشرق دون الغرب ، وهو يبدو ظاهراً ملموساً عند كبار علماء الجامعات البريطانية والأمريكية مثلما يتجلى لدى أى ماندرين صينى . وإن البريطانيين فى الزمن الخاضر ، ليرفضون أن يتزحزحوا خطوة عن طريقتهم الحمجية فى الحجاء والإملاء ، بالرغم من المرايا العظيمة الواضحة التى ستعود على التعليم الشعبى والمدعاية القومية من الانتقال إلى الأيجدية الصوتية () والهجاء الصوتي . ولابد أن خصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمي المترتب على تلك الكتابة قد قاما عصراً بعد عصر بعملية غربلة قوية تظاهر العقول المفرخة فى قوالب جامدة كما تظاهر عقلية الحذلقة العملية الجوفاء وتنصرها على المطراز الجامح الحلاق ، وتستبعد هذا الأخير من مراكز النفوذ والسلطان . وعندى أن هذا التفسير مستساغ ومقبول إلى حد كبر .

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدته إلا إبان أسرة منج الحديثة نسبياً . وكانت أسرة منج (١٣٦٨ – ١٦٤٤) أسرة و طنية النزعة محافظة على القديم ، استر دت الصين بعد حكم المغول . ويقول المستر ل . ى . تشن L V. Chen : إن أول أباطرة أسرة منج قال عندما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تدقيقاً : « لسوف يجلب هذا إلى مصيدتي كل من في العالم من ذوى العقول » . وقد سجنت « الأداب القديمة الحمسة والكتب الأربعة » عقل الصين في محبسها . فعندما يحل الزمن الذي ينتهى فيه أى رجل من شق طريقه فيها كدحاً وكداً يكون تقدير القيم لديه ، قد بلغ من الصلابة واستعصاء العلاج مبلغه عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفورد .

ولقد جرت محاولات عديدة لتبسيط الكتابة الصينية ولإقتباس طريقة أبجدية. فني أيام البوذية الأولى بالصين ، عندما ترجم قدر عظيم من المؤلفات عن السنسكريتية : أوشكت المؤثرات الهندية على بلوع تلك الغاية . وقد اخترعت في الواقع أبجديتان صينيتان ، وحظيت كل منهما بشيء يسير من الاستعال . ولكن الشيء الذي حال دون تعميم استعال هاتين الأبجديتين ، والذي لا يزال حتى اليوم يقف في سبيل أي «طريقة صوتية» للكتابة الصينية ، هو أنه على حن ترى الكتابة الأدببة وأسلوب العبارة الفصحي واحداً لا يتغير من أقصى الصين إلى أقصاها . فإن لغة العامة المتداولة تختلف في كل من طريقة نطفها وصيغها الاصطلاحية المألوفة اختلافاً يبلغ من الاتساع حداً بجعل الرجل من أبناء

⁽١) الطريقة الصوتية Phonetie في الكتابة الإفرنجية طريقة لا تتبسك بالإملاء التقليلي المعروف الكلات وإنما تمثل الكلمات أو تصور أصواتها بعلامات وحروف مميزة . (المترجم) تاريخ الإنسانية جـ٣

إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبناء ولاية أخرى . وهناك على ذلك ال لغة صينية فصحى الوهي عبارات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة عن الكتب ينطق بها المتعلمون ويفهمونها على وجه العموم ، وتتعلق آمال الكثيرين من المصلحين التربويين بالصين في الوقت الحاضر على احتمال استخدام طريقة أبجدية للكتابة في هـذه الصينية الفصحى . وقد صيغت أبجدية صينية ، وهي تعلم في المدارس العامة ، وتنشر بها الصحف والنشرات . وقضى على نظام الامتحان الجامد الذي قتل كل ابتكار فكرى خلاق .

كذلك أحدثوا تبسيطاً جسيما يتمثل فى إدخال صيغ الحديث الاصطلاحية المنطوقة إلى الصينية المكتوبة . وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى اليسر والوضوح . فإن مثل هذه الصينية وإن كتبت بالحروف القديمة أسهل قراءة وكتابة ، وهى مكيفة لحاجات النعبير الأدبى العصرى تكييفاً أوفق كثيراً من الصينية الكلاسيكية القديمة .

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز زعامة الإنسانية المحقق . فإن ما نالته الصين في المناضي من النجاح والرخاء القـــديم والقناعة العامة ، لابد وأنها عملت عملها بتلك البلاد لتبرير كل ما فطر عليـــه جنسنا البشرى من طمأنينة نفسسية وروح محافظة طبيعيين . فلو نظرنا إلى المسألة من الناحية البيولوجية ، فما من حيوان بمحتاج إلى التغير ، ما حسنت أحواله حسناً يكفل له البقاء في وقته الراهن . وما يزال الإنسان في هذا الأمر حيواناً . وقد ظلت الصين ما يربي على الألغى سنة حتى القرن التاسع عشر ، دون أن يخامرها أو يداخل تاريخها إلا أقل إحساس بأى شكوك خطيرة حول تفوق مدنيتها بوجه عام على مدنيات العــــالم كله ، ولم يكن هناك تبعاً لذلك أي سبب ظاهر يحدو بالصيني إلى إحداث أي تغيير . فقد أنتجت الصين فيضاً وفيراً من الفن الجميل وبعض الشعر الممتع وطباخة مدهشة وآلاف الملايين من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جيلا بعد جيل . وكانت وما نزال بلاد ملكيات صغيرة ؛ وكل الأيدى فها مطلوبة ، ويمكن استخدامها جميعاً أعمال زراعية عتيقة تعود إلى عهد الأجداد . هذا إلى أن هناك منافذ أمام القوتَى الجانحة إلى الاتساع . إذ لا يزال في الشهال والغرب متسع عظيم للإقامة والاستيطان وإذن فإن شيئاً ذا بال لم يحدث ، فلم يقم تو تر داخلي حاد يشتت شمل العشيرة العائلية الصينية الفائمة على نظام الأبوة.وهي العائلة التي تزوج أبناءها في سنمبكر وتحتفظ بهم في المنزل

قبل أن يحصلوا على الاستقلال الاقتصادى . هكذا سارت الصين في طريقها عصراً بعد عصر ، وما تزال تسير دون أن يداخلها أي شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك العبودية ولا المذلة ولا النعس العام التي كانت تحف بحـــكم الأغنياء الإمبراطورية الرومانية ، حتى أدت في النهاية إلى انهيارها . أجلكان هناك والحق يقال فقر كثير واستياء كبير . بيد أنه لم يكن فقراً جِمَاعياً لقوم مطرودين مِن أملاكهم ، ولم يكن استياء شعبياً لا مناص منه . فبعد كل شاءة وبعد كل كارثة ، تبرأ نفوس السكان ، وتلتئم الجراح . ولقد عمر النظام الصيني ألف سنة ، لاح فيها ممتنعاً على كل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتأوه ويترنح. أجل حدثت تغييرات في الأسرات المالكة وثورات وأدوار فوضى ومجاعات وأوبئة ؛ كما حدث غزوان عظمان نصبا أسرتين أجنبيتين على عرش « ابن السهاء » ؛ ولكن لم تحدث تلك الصدمات التي توجد انقلابا ثوريا في نظام الحياة اليومية . وقد يأتى الأباطرة والأسرات المالكة ويذهبون ؛ فأما الماندرين والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما هي . عليه . فالمدنية الصينية وإن ظلت منذ أسرة تانج هما بعدها ، تنتشر في بطء واستمرار فى أنام وكمبوديا وسيام والتبت إلى نيبال وكوريا ومنغوليا ومنشوريا ، لا تنطوى على شيء نستطيع تسجيله لها عدا ذلك التقدم الجغرافي . وكان صمينيو القرن السابع الميلادي شعبًا ممدنًا يعادل في كل من حضارته ونواحيها الجوهرية ما كانوا عليه بعد ذلك بألف سنة .

٩ - الفن الصيني القديم

ربما جاز لنا هنا أن ندنى بكلمة حول فن الصين وعمارتها فى عهد أسرتى هان وتانج وما جاء بينهما من أسرات أخرى . والصينيون ، لأسباب لا نستطيع البتة أن نحلها ، فضلوا على الدوام استعال الحشب والطوب على اسستعال الحجر فى المبانى . ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موفورة ببلاد الصين . ولا يكاد التاريخ يسجل لنا فيا قبل القرن الحادى عشر الميلادى أى خرائب وأطلال ولا أية مبان اللهم إلا السور العظيم . على أن الصور والسجلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهسد أسرة « تسيى إن » أو أبكر منها .

وأقدم أشكال المبانى تشتق اشتقاقاً مباشراً من الحيمة المغولية . وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذى قد يكون ثنائياً أو ثلاثياً وبه أشغال خشبية محفورة ومطلية باللك (الحملكة) . وربما كان السقف نفسه مغطى بقراميد صقيلة ألوانها زاهية ، والمبانى على العموم ذات طابق واحد و تنتشر انتشاراً أفقياً . وهناك ظاهرة كثيرة الحدوث فى التصميم الصينى هى الممرات التكريمية ذات العقود . وتكثر القناطو الحجرية ، والكثير منها على درجة عالية من الرونق . والهاجودا(١) المشيرة إلى السهاء طراز ثالث للبناء ، وهذه ومعها الشرفات والدرازينات تكمل الصورة العامة للمبانى الصينية . تلك هى الصورة الممثلة للفن المعمارى فى الصين فى أواثل الحقبة المسيحية ، وهي ما تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا . ويقال إن الهاجودا — وربما كان ذلك غير صحيح ترجع إلى بدايات هندية بوذية ، وأنها المعادل الصينى « للإستوبا » التذكارية الهندية .

ولهذا الاستخفاف بالمواد الطويلة الأجل القوية الاحتمال أثره في معرفتنا بفن التشكيل الصيني قبل أسرة هان. ويكاد البرونز أن يكون هو الاستثناء الوحيد. فإنا نعرف بوجود زلع (٢) وتماثيل من البرونز ترجع إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شانج. وهي من جمال الشكل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجود عالم بأكمله يعاصرها من المنتجات الماثلة التي لم يبتح منها اليوم شيء. ولسنا نصل إلا في عصر أسرة هان وبعد بداية الحقبة المسيحية ، إلى دور من أدوار الحياة الضينية ترك آثاراً كثيرة في أي مادة أخرى عدا هذه.

ويحدثنا أهل الذكر إن « التصوير »كان فن الصين الأساسي ، وكانت تصنع منه أشغال بالغة الجال والرونق في عهد أسرة هان . وينوه التاريخ باسم كوكاى تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع الميلادى) بأنه من أعظم أساتذة المرقاش (٣) الصينيين . وما ير ال بعض أعماله باقية ، ويتجلى فيها من النضج والأستاذية ما يشهد بوجود مدرسسة راسخة

⁽١) الپاجودا أو الإستويا : نصب بوذي على صورة أكمة ذات قبة . (المترجم)

⁽٢) الزلعة وعاء معروف ، وهو الجرة الكبيرة . (المترجم)

⁽٣) المرقاش هو ريشة المصور . (المترجم)

القدم في الفن فعلا. والتصوير الصيني يُعمل دائما أبدا بالألوان المائية. وإنا لنجد بدلا من التصاوير الجصية الجدارية (الفرسكوهات)(۱) الكبيرة صورا رقشت على الحرير والورق، وهي تختلف عن المنتجات الغربية فيا تظهر من كراهية إيجابية لتمثيل مظهر البروز (Relief). فهمي مسطحة (٢) هوائية رقيقة ، كما أنها تعالج المناظر الطبيعية البرية أكثر مما تعالج المثيل الدقيق للجسم البشرى . وعصر آسرة تانج يعده كثير من النقاد العصر الذهبي لفن التصوير الصيني .

فأما فن النحت الصينى فإنه لم يواكب بأية حال فن التصوير الصينى ولا يكاد يكون له شأن يذكر إلى جوار الإنتاج الأوربى ، على أن الحزف الصينى من الناحية والأخرى فائق فى امتيازه . فقد جرت عادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لنارحوارتها أشد كثيراً مما جرت به العادة فى العالم الغربى ، وأنتجوا عند نهاية حكم أسرة تانيج خزف البورسلان وما لا نظير له من أنواع النزجيج (١) واتصف حزف أسرة هان بالفعل ببالغ الصلابة والإبداع . وتوجد الآن فى المنازل والمجموعات الأوربية أعداد وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الحدم والخيل والجال وما إليها ، وكلها ترجع إلى زمن أسره تانيج . وقد استخرجت كلها من القبور ، وكان الأصل فى وضعها فى هذه القبور أن تحل محل العبد أن والحيوان التي كانت تسفك دماؤها فى ماض أكثر همجية . واستمرت مذابح القبور هذه التي يقصد بها تزويد الرئيس المغولى الراحل بالحدمة واللواب فى أرض الظلال : (القبور والموت) ، استمرت فى الصين حتى القرن السابع أو السادس ق . م . ثم استبدلت بها التماثيل . على أن الهون فى أيام التبلا ما برحوا يراعون العادة القديمة ، عادة الذبح الحقيق . على أنها كانت بادت فى مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت محلها هناك الصور والتماثيل الجنائزية .

⁽١) النصوير الجمعي أوالفرسكو Frescoe ضرب من الصور وطريقة للتصويو الثابت علي بياض الجدران الطرى كثير ا ما تخلط فيه الألوان بزلال البيض . (المترجم)

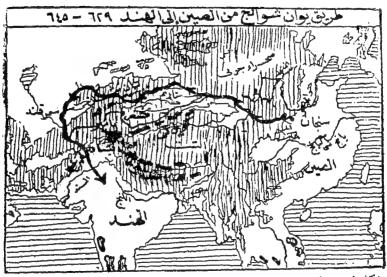
 ⁽٢) الصورة المسطحة : هي التي ليس فيها ما يوحى بالعمق والمسافة .

⁽٣) خزف الپورسلان Porcelain : صنف من الصيني أبيض ورقيق وشبه شفاف كان يصنع أولا بالمصين . (الماترجم)

⁽٤) الترجيج : وضع غشاوة شبه زجاجية على سطج الخزف . (المترجم)

۱۰ ــ رحلات يوآن تشوانج

فى عام ٦٢٩ ، وهى السنة التالية لوصول مبعوثى محمد (الله كنتون وبعد هبوط المبشرين الذين بعث بهم البابا جريجورى إلى إنجلترة بنيف وثلاثين سنة ، قام عالم بوذى متبتل يدعى يوآن شوانج أو (هيوين تسيانج) كما يفضل بعض الثقات أن يكتبوا اسمه برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو أى (سيجنان) وهي عاصمة على تسنج . غاب عن بلاده في هذه الرحلة ستة عشر عاماً ، وعاد (٦٤٥) وكتب



شكل (۱۲۷) خريطة تبين طريق يوان شوانج من الصين إلى الهند ۹۲۹ ــ ۹۲۰ ــ

عن رحلاته بياناً يعتز به الصينيون كقطعة من الآداب الكلاسيكية القديمة . وإن فيها مر به من تجربة لنقطة أو نقطتين جديرتين بالملاحظة ها هنا ، لأنهما تساهمان بقسط في استعراضنا العام لحالة العالم في القرن السابع الميلادي(١) .

كان يوآن تشوانج نظيراً لهيرودوت في غرامه بالعجائب وسرعة تصديقه إياها ، وإن أعوزه ما للكاتب الثاني من الحاسة التاريخية الممتازة ؛ فلم يكن ليطيق أن

يمر بنصب أو خرابة دون أن يعلم عنه قصة ما خرافية . وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الأدب ، هى التى منعته من إحاطتنا بتفاصيل كثيرة عن كيفية تنقله ، ومن كان برفقته ، وكيف كان يقيم ، أو ماذا كان يأكل ، وكيف كان يدفع نفقاته – وهى تفاصيل لها قيمتها البالغة لدى المؤرخ ؛ ومع ذلك ، فإنه ينفحنا مجموعة من ومضات براقة عن الصين وآسيا الوسطى والهند فى المدة التى نحن بصدد بحثها .

كانت رحلته رحلة هائلة . ذهب فيها وعاد منها بطريق هضبة الپامير . فذهب بالطريق الشالى عامراً صحراء جوبى ، مسايراً المنحدرات الجنوبية لجبال تيان شان ، مطوقاً حافة بحيرة إسيك كول (Issik kul) العظيمة العميقة الزرقاء ، وبذا وصل إلى طشقند وسمرقند ، ثم ساريترسم إلى حد ما خطى الإسكندر الأكر متجهاً جنوباً نحو ممر خبير وييشاوار . ثم عاد بالطريق الجنوبي مخترقاً الپامير من أفغانستان إلى قشغو ، وبذا يكون قد سار على امتداد خط التراجع الذى اتبعته قبيلة « يويه تشى » في اتجاه مضاد قبل ذلك بسبعة قرون ، ومر بطريق يرقند على امتداد متحدرات في اتجاه مضاد قبل ذلك بسبعة قرون ، ومر بطريق يرقند على امتداد متحدرات الكوين لن ، حتى عاد إلى طريقه القديم قرب النهاية الصحراوية للسور العظيم . وكان سلوك كل من هذين الطريقين يتضمن تسلقاً شاقاً لجبال وعرة . وليس من المستطاع اقتفاء أثره أثناء رحلاته ببلاد الهند ؛ فإنه ظل هناك أربعة عشر عاماً ، اخترق أثناءها كل شبه الجزيرة من نيبال إلى سيلان .

وكان هناك في ذلك الزمان مرسوم إمبراطورى يحرم السفر إلى الحارج ، حتى لقد انطلق يوآن تشوانج من سيان فو خفية كأنما هو مجرم هارب. وتعقبته السلطات لمنعه من تنفيذ مشروعه . وإن القارئ ليجد في كتابه « الحياة » كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصاناً هزيلا أحمر اللون يعرف طرق الصحراء ومسالكها ، وكيف تفادى مخفرا على الحدود بمساعدة « شخص أجنبي » ، صنع له على النهر جسراً من الحسك أدنى من ذلك الموضع ، وكيف أنه عبر الصحراء مسبر شداً بعظام الموتى من الرجال والماشية ، وكيف رأى سراباً ، وكيف نجا بأعجوبة مرتين من السهام عندما كان يتزود بالماء بالقرب من أبراج الحفارة في الطريق الصحراوي . وحدث ذات مرة أنه ضل الطريق في صحراء جوبي ، وظل أربع ليال و خمسة أيام ولا ماء معه ، وتجمد الطريق في صحراء جوبي ، وظل أربع ليال و خمسة أيام ولا ماء معه ، وتجمد

إثنا عشر نفراً من رفاقه ومانوا برداً وهو فوق الجبال بين أحضان الجليد . كل هذا أذ ى روينا موجود فى كتاب « الحياة » ؛ إذ أنه لا يقول عن ذلك غير القليل فى بيانه الشخصى عن أسفاره .

وهو يعرض علينا الترك – وهم التطور الحديد لمجتمع الهون ، وقد ملكوا لا ما هو الآن التركستان فحسب ، بل كل ما يقوم على امتداد الطريق الشهالى بأكمله . وهو يذكر أسماء مدن جمة ويشير إلى الزراعة واتساع رقعتها . ويولم له الولائم حكام عديدون ، وهم إما من حلفاء الصين أو من أتباعها إلى حد ما ، كما يولم له آخرون من بينهم خان الترك وهو شخص فاخر في ثياب خضراء من الأطلس ، وقد عقص شعره الطويل بالحرير .

« وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشّاة بالذهب تشع فخامة وضاءة تخلب الأبصار ؛ وقد جلس الوزراء الحاضرون والقائمون بالخدمة على بسط في صفوف طويلة على كلا الجانبين ، وكلهم مرتد ثياباً فاخرة من وشي الديباج ، على حين كانت بقية الحاشية صاحبة النوبة تقف من ورائهم . ولقد رأيت أنه وإن كان واليّا من ولاة مناطق التخوم ، فلقد أحاطه مع ذلك جو من السمو والظرف . خرج الحان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوآن تشوانج الذى دخل الحيمة بعد تحية كريمة . . . وبعد فترة وجيزة ، أدخل على الحان رسل من الصين ومن كاو تشانج فقدموا رسائلهم وأوراق اعتمادهم ، فقرأها الحان وسر منهاكثيراً ، وأمر فأجلس الرسل ، ثم أمر لنفسه ولهم بالنبيذ والموسيقي وبشراب العنب للحاج . وعند ذلك تبادل القوم الأنحاب ، وكان لملء كوُّوس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف ، بينها الرتفعت أنغام الموسيقي عن آلاتها المتنوعة : ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة ، فإنها أذخلت السرور على المشاعر وأنعشت الملكات الذهنية . وبعد قليل قدمت إلى الآخرين أكوام من شواء لحم البقر والضأن ، وقدم للحاج الطعام المباح من أمثال الكعك واللبن والفواكه المسكرة والشهد والعنب. وبعد انتهاء الوليمة ، قدم شراب العنب مرة ثانية ، ودعا الحان يوآن تشوانج أن ينتهز المناسبة فينفح المجتمعين بعض علمه ، وعند ذلك بسط الحاج لهم مبادئ « الفضائل العشر »

والرفق بالحيوان وكمالات الياراميتا (Paramitas)(١) وفك الرقاب . فانحنى الخان رافعاً يديه وأمن مسروراً مغتبطاً وتقبل النعاليم » .

وبيان بوآن تشوانج عن سمرقند يصورها مدينة كبيرة ذات رغد ورخاء ، « إنها مستودع تجارى عظيم ، والمنطقة المحيطة بها عظيمة الحصوبة ملتفة الأشجار كثيرة الأزهار ومنتجة لكثير من الحيول الصافنات . وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاط» ، ومما يجدر ذكره لحذه المناسبة ، أنه لم يكن هناك فى ذلك الزمان شىء يمكن تسميته مدينة فى إنجلترة الأنجلو سكسون .

ومع ذلك فكلما اقتربت روايته ما مر به في الهند من خبرات ، تغلبت نزعة الحاج التقى العالم في شخص يوآن تشوانج على نزعة الرحالة ، وعند ذاك يصبح الكتاب مزدحاً بأقاصيص فظيعة تروى معجزات لا سبيل إلى تصديقها . ومع ذلك فإنا نحصل على انطباعة عن المساكن والثياب وما إليها ، وكلها وثيقة الشبه بما في الهند اليوم . وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إلى اليوم ، من شدة تنوع الأشكال والهيئات المختلفة للجاهير ، لهو نقيض صريح للصين بما يعم جميع جماهيرها من الثياب الزرقاء . ووجود الكتابة والقراءة بالهند أيام بوذا من الأمور المشكوك فها ؛ فأما آنذاك فقد صارت الكنابة والقراءة من المهارات الشائعة تماماً . ويقدم إلينا يوآن تشوانج بياناً ممتعاً عن جامعة بوذية عظيمة في نالاندا ، كشفت أخبراً خرائبها ورفعت عنهــــا الأنربة . ويبدو أن نالاندا وتاكسيلا كانتا مركزين تعليميين كبيرين فى زمان يرجع في قدمه إلى عهد فتح المدارس الفلسفية في أثينا . كذلك زار كهوف أجانتا التي مر الحديث عنها . وقد وجد يوآن تشوانج نظام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله ضده بوذا ، ووجد نجم البراهمة فى تألق وصعود لاريب فيه . وهويذكر الطوائف الأربعة الرئيسية التي ذكرنا^(٢) . بيد أن بيانه عن وظائفها وأعمالها يختلف نوعاً ما . فهــو يقول إن السودرا (Sudras) هم حراث الأرض. ويقول الكتاب المعنود إن عملهم كان خدمة الطوائف الثلاثة « المولودة مرتىن » الأعلى منهم .

ولكن كما سبق أن ألمعنا فإن بيان يوآن تشواج عن واقع الأحوال الهندية بغمره ما كدسه فيه من الأساطير والمحتلقات الورعة . فمن أجلهذه دون غيرها جاء ، وبهذه كان

⁽١) كمالات الداراميتا : هي فضائل الكمال المطلق مثل ، العفاف والاحسان والصبر والحكمة ، التي ينبغي أن يمارسها كل من تتوق نفسه إلى سلوك سبيل المنبوة البوذية . (المترجم) (٢) انظر المعالم ج ١ ص ٢٣٤ ط ٣ . (المترجم)

يفرح ويغتبط . فأما ما عدا ذلك نواجب قد ألتى على عاتقه رعماً عنه كما سترى . فإن عقيدة بوذا التى ظلت إلى أيام أسوكا ، بل حتى فى زمن متأخر يصل إلى عهد كانيشكا (Kanishka) ، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهاما نبيلا ، تتبدى لنا آنذاك تائمة فى بيداء من الهراء غير المعقول ، حيث تحولت إلى فلسفة توثمن بوجود سلسلة لا نهاية لها من البوذوات وإلى أقاصيص كرامات وأعاجيب شبيهة بتمثيليات عيد الميلاد الايمائية (Pantomime) ، وإلى إناث يحملن حملا إعجازيا ويلدن فيلة ذوات ستة أنياب ، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طعاماً لنمرات جائعات ، ومعابد مشيدة أنياب ، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طعاماً لنمرات جائعات ، ومعابد مشيدة الأقاصيص هنا ، فإن كان القارئ ميالا إلى مثل هذا النوع من الأشياء ، وجب عليه أن يرجع إلى مطبوعات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية ، حيث يجد طوفائا من مثل هذا الهذيان . وذلك بينها البرهمانية قد أخذت تكسب الأنصار وتفوز بالتفوق من جديد فى كل مكان فى منافستها لهذه البوذية التى تقوضت فكرياً واختنقت بالتفوق من جديد فى كل مكان فى منافستها لهذه البوذية التى تقوضت فكرياً واختنقت بحت زخارفها المذهبة ، كما لحظ ذلك يوآن تشوانج آسفا .

وإلى جوار هذه الشواهد الدالة على وجود اضمحلال فكرى كبير في الهند ، يجوز لنا أن نلحظ أيضا تكرار الحديث عن المدن الخربة المهجورة في بيانات يوآن تشوانج . فإن شطراً كبيراً من البلاد لم يبرح يكابد من غارات الإفثاليين وسلبهم والفوضى المترتبة عليها . فإنا نجد مثل هذه الفقرة مراراً وتكراراً : « لقد ذهب شهالا بشرق محترقاً غابة عظيمة ، وكان الطريق جمـراً ضيقاً خطرا يكثر به الجاموس البرى والفيلة البرية ، ويتربص فيه اللصوص والقناصة على الدوام لقتل المسافرين ، حتى إذا خرج من الغابة وصل إلى إقليم كوشيه ناكالو كوزينا جارا) . وكانت أسوار المدينة حطاماً خربة ، بينها البلدان والقرى قد هجرها أهلوها . وكانت أسس مبانى المدينة القـديمة المبنية من الطوب ، (أعنى المدينة التي كانت القصبة) تمتد في دائرة يزيد محيطها على عشرة من الأميال الصينية (لى(١) لما) . فأما عدد السكان فقد تضاءل إلى أقصى حد ، حتى أصبح داخل المدينة خراباً موحشاً » . ومع ذلك ، فلم يكن هذا الحراب عاماً بأية حال . إذ المدينة خراباً موحشاً » . ومع ذلك ، فلم يكن هذا الحراب عاماً بأية حال . إذ

لا يقل عن ذلك كثيراً ما يذكره الكاتب من المدن المزدحمة والقرى الآهلة والمزارع الناشطة .

والظاهر أن عودة يوآن تشوانج إلى سيان فو عاصمة الصين كانت نصراً مبيناً . فلا شك أن بشراء يسعون بين يديه كانوا يبلغون الناس بمقدمه . وأعلنت بالبسلاد عطلة عامة ؛ وازدانت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجاؤها سروراً بأنغام الموسيتي . وحف به الناس أثناء دخوله إلى المدينة في موكب فخم حافل . واحتاج حمل مغانم رحلاته إلى عشرين حصاناً ؛ ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذية المكتوبة بالسنسكريتية ، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البتولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض ؛ وحمل معه تماثيل جمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة ، وما بين نعضها فوق بعض ؛ وحمل معه تماثيل جمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة ، وما لا يقل ذهبية وفضية وبلورية أو من خشب الصندل ؛ وكانت معه صور مقدسة ، وما لا يقل عن مئة وخمسين أثراً حقيقياً مشهوداً بصحة نسبته إلى بوذا . وقد م يوآن تشوانج الملامر اطور ، فعامله معاملة صديق شخصي ، وأخذه إلى القصر يسأله يوماً بعد يوم عن عجائب تلك الأراضي الغريبة التي قضي فيها مثل ذلك الزمن الطويل . ولكن بينا الإمبر اطور يسأل عن الهند ، كان الحاج ميالا ألا يتكلم إلا عن البوذية .

ويحتوى ما يتلو ذلك من تاريخ يوآن تشوانج على حادثتن تلقيان الضياء على النشاط الفكرى لهذا العاهل العظيم تاى تُسنج ، الذى كان فيا يرجح مسلماً بقدر ما كان مسيحياً أو بوذياً (١). والعيب فى كل المتخصصين فى الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شئون ديانتهم الحاصة ، ومن أوجه اختلافها عن الديانات الأخرى ، ولعل مزية – أو عيب – أولئك الساسة الحلاقين من أمثال تاى تسنج أو قسطنطين الكبير ،

⁽١) يشيد الكتاب البوذيون بذكر تاى تسنج لاستقباله يوآن نشوانج (٦٤٥). بيد أن مؤرخى المسلمين فعلوا مثل ذلك بسبب مسجد كنتون ، وكذلك فعل الكتاب المسيحيون من أجل مالقيه المبعوثون النساطرة (٦٣١) ومن هنا جاء استنتاج المؤلف بما اجتمع فى عقل هذا الإمبراطور من احترام لهذه الأديان الثلاثة . (المترجم)

أنهم لا يعرفون من تلك الأمور إلا القليل نسبياً . وواضح أن الحبر الجوهرى الكمين في هذه الديانات جمعاء كان يبدو لعين تاى تسنج خبراً جوهرياً واحداً لا يختلف في إحداها عنه في الأخرى . لذا كان من الطبيعي أن يقترح على يوآن تشوانج أن ينبذ الحياة الدينية ، وأن يلتحق بوزارة الحارجية ، وهو اقتراح لم يقبله يوآن تشوانج لحظة واحدة . وعند ذلك أصر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب عن أسفاره ، وبذا حصل على هذا الأثر الأدبي النفيس الذي نكتنزه معتزين به . وأخيرا اقترح تاى تسنج على البوذي المتشبع تماماً بمبدئه أن يستخدم معرفته بالسنسكريتية في ترجمة مؤلفات المعلم الصيني العظيم لاو تزى (Lao-Tse) لينتفع بها القراء الهنود .

ولا مراء أن الإمراطور رأى فى ذلك ردا عادلا للجميل وخدمة نافعة للخير الحوهرى الكامن وراء الديانات جميعاً . ذلك أنه كان يرى بوجه الإجمال أن لاو تزى لا يقل عن بوذا إن لم يكن خيرا منه . وإذن فلو أن عمله (موالفه) وضع تحت بصر البراهمة لتلقوه بالترحاب . وبنفس هذا الروح بذل قسطنطين الكبير قصاراه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما ودياً . وطبيعي جداً أن مقترحه هذا قد رفضه يوآن تشوانح . فإنه اعتكف فى أحد الأديرة ، وقضى بقية حياته مترجاً بأسلوب صينى وشيق كل ما وسعه جهده من الأدب البوذى الذى أحضره معه . (**)

^(*) عن الدين والفلسفة والتاريخ ببلاد الصين والهند وغيرها من أقطار الغرب والشرق ، أنظر للمترجم : « التاريخ وكيف يفسرونه » : تأليف البان ورجرى [نشرته الهيئة العامة التأليف والنشر يماسيرو] .

الفضال شيكا توك

محمد (صلى الله عليه وسلم) والاسلام

١ - بلاد العرب قبل محمد (ص) حتى الهجرة .
 ٣ - محمد (ص) يصبح نبيا منافحاً .
 ٥ - الخليفتان أبو بكد وعمر .
 ٧ - انحلال قوة الاسلام في ظل العباسيين .
 ٨ - الفن العربية .

١ ـ بلاد العرب قبل محمد (ص)

سبق أن وصفنا كيف حدث في ٦٢٨ م أنه أمَّ مجالس بلاط هرقل وقباذ وتاى تُسنج رسل من العرب ، أرسلهم شخص معين هو محمد ، (رسول الله » ، المقيم في بلدة « المدينة » المتجارية الصغيرة ببلاد العرب . وسنخبرك الآن من كان ذلك النبي الذي نشأ بن بدو الصحراء العربية وتجارها .

فنذ أزمان سحيقة كانت بلاد العرب، عدا شريط اليمن الخصيب الممتد فى الجنوب الغربي ، أرض بدو رحل ، وهي المنبت الرئيسي للشعوب السامية . فمن بلاد العرب وفي أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشهال والشرق والغرب إلى بلاد المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الجزيرة بالعراق . وقد لا حظنا في هذا الكتاب كيف عمرت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتغلبت عليهم ، وكيف مكن الفينيقيون و الكنعانيون الساميون لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وكيف اتخذت الشعوب السامية حياة الاستقرار في بلاد بابل وآشور ، وكيف استقر الآراميون تماماً في سوريا متخذين من دمشق عاصمة لهم ، وكيف فتح العبر انيون « أرض الميعاد » فتحاً جزئياً . وقد انتقل دمشق عاصمة لهم ، وكيف فتح العبر انيون « أرض الميعاد » فتحاً جزئياً . وقد انتقل

الكلدانيون فى تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية ، واستقروا فى الأراضى الجنوبية السومرية القديمة . وكان كل غزو ينُدخل فى التاريخ هذا القسم من الشعوب السامية ثم ذاك . بيد أن كل واحدة من هذه الجاعات كانت لا تفتأ تترك نواة قبلية من خلفها تزود الغزوات التالية فى المستقبل بالرجال .

وتاريخ الإمراطوريات الأعلى تنظيا في عهد الحصان والحديد: إمراطوريات الطرق والكتابة ، يظهر لنا بلاد العرب متمددة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد الفرات والدجلة ، كما يصورها خزاناً للقبائل المبرحلة التي تغير وتتجر وتتقاضى الحزية الفرات والدجلة ، كما يصورها خزاناً للقبائل المبرحلة التي تغير في وتتجر وتتقاضى الحزية من أجل حصانة القوافل وحمايتها . أجل إنها تعرضت في بعض أيامها للخضوع لسلطان خارجي ضعيف مؤقت . وإن كلا من مصر وفارس ومقدونيا وروما وسوريا والقسطنطينية ثم فارس من جديد لتدعى على التعاقب شيئاً من السيادة غير الحقيقية على بلاد العرب ، وتعلن عليها ضريا لا أساس له من الحاية . وكانت هناك في عهد الإمبراطور تراجان ولاية رومانية تسمى « بلاد العرب » وكانت تتضمن إقليم حوران الذي كان خصباً آنداك و تمتد حتى البتراء (Petra) . وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدينته التجارية إلى مرتبة مؤقتة من الرفعة موالخته القصيرة . وكانت بعلبك كذلك مدينة صوراوية أخرى بلخت رفعة مؤقتة موقتة مواقية أخرى بلخت رفعة مؤقتة وما تزال خوائها تدهش السائح .

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى عرب الصحراء باسم (Saracens) : أعنى المشارقة .

وفى أيام كسرى الثانى الملقب بأبرويز ، ادعت فارس نوعاً معيناً من السيادة على بلاد العرب ؛ وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب . وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بضع سنين تحت حكم النصارى الأحباش ، وظلت قبلذلك سبعة قرون وهى تحت حكم أمراء من بنى جلدتها ، يعتنقون الدين اليهودى ، وهو أمر خليق بالملاحظة .

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادى أية أمارات على وجود أية قوة ﴿

غير مألوفة أو طاقة خطرة فى الصحراوات العربية . إذكانت حياة البلاد تسير على ما كانت عليه منذ أجيال طويلة . فحيثا وجدت رقعة خصبة ، أعنى حيثا كانت هناك عين أو بئر ، كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد فى مدن مسورة ، محاذرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيهم وخيولهم فى الصحراء . وكانت المدن الرئيسية تنشأ على امتداد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرتبة ثانوية ، وكانت فى طليعتها المدينة (: يترب) ومكة . وفى بداية القرن السابع كانت يترب بلداً يحتوى على ما يقارب ١٥ ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها ، فيا يحتمل عشرون أو خمسة وعشرون ألفاً . وكانت يترب بلداً أفضل نسبياً من حيث المياه ، بها أحراش غيل كثيرة ؛ وكان سكانها من اليمائية ، أى من أهالى الأرض الحصيبة فى الجنوب ، أما مكة فدينة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء ذى طعم مرير ويسكنها بدو حديثو الاستقرار .

ولم تكن مكة مجرد مركز تجارى ولاكان ذلك أول وأهم صفاتها ، بل كانت مثابة حج للناس . فكان بين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الحلف يتمركز في مكة وبعض أماكن مقدسة أخرى ؛ وكانت هناك أشهر حرم (هدئة) تقف فيها الحروب وتمتنع الثارات ، وعادات مرعية من حماية الحجيج وإكرامهم . وقد نما بالإضافة إلى هذا عنصر أوليمبي (١) في هذه الاجتماعات . إذ كان العرب قد أخذوا يكتشفون في لغتهم مجالي الروعة والجال ، فكانوا يلقون القصائد الحاسية وأغاني الغزل . وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأسهم « أمير الشعراء» للحكم بين الشعراء ومنح الجوائز ؟ وكانت الأغاني الفائزة بالجوائز تغني في كل بلاد العرب .

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس سحيقة القدم آنذاك . وهي معبد مربع صغير من الأحجار السوداء ، حجر الزاوية فيه من الأحجار النيزكية . وكان هذا الحجر النيزكي يعد رباً ، وفي حمايته كل الآلهة القبلية الصغيرة ببلاد العرب . وكان سكان مكة الدائمون قبيلة من البدو ؛ استولوا على هذا المعبد وأقاموا أنفسهم سدنة له . فيأتيهم قي الأشهر الحرم أفواج عظيمة من الناس يسيرون حول الكعبة وفق طقوس

⁽١) نسبة إلى منطقة أوليمبيا اليونانية القديمة التي كانت تقام فيها المهرجانات. (المترجم)

دينية معينة ، فينحنون ويقبلون الحجر ، ويشتغلون كذلك بالنجارة وإلقاء المقطوعات الشعرية . وكان المكيون يجنون أكبر الفوائد من هؤلاء الزوار .



(شكل ١٢٨) خريطة بلاد العرب والبلاد المتاخمة لها

ولشد ما يدكرنا هذا بحالة بلاد الإغريق الدينية والسياسية قبل ذلك بأربعة عشرقرناً. بيد أن وثنية هؤلاء العرب الأشد بدائية أخذت تتعرض للهجات من جهات عدة . فأدخل العرب في دين اليهودية أفواجاً أثناء عهد المكابيين (١) والهيروديين ببلاد اليهودية (Judea) ؛ وكانت اليمن ، كما سبق أن ذكرنا ، قد وقعت على التعاقب في حكم اليهود (أعنى العرب المعتنقين لليهودية) ، فالمسيحيين فالزرادشتيين . وواضح أنه لا مفو من حدوث الكثير من المناقشة الدينية أثناء انعقاد أسواق الحج في مكة وما شابها من مراكز : وطبيعي جداً أن تكون مكة هي معقل محلة الوثنية القديمة التي وهبتها أهميتها ورخائها ، فأما المدينة فهي من الناحية الأخرى ذات ميول يهودية ، وتقع بالقرب

⁽١) المكابيون : أسرة يهودية ظهرت فى القرنين ٢، ١ ق . م . وأسرة هيرود ، حكمت فى فلسطين فى زمن المسيح عليه السلام . (المترجم)

منها مستقرات لليهود . فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينــة في حالة منافسة وتنازع .

٢ ـ حياة محمد (ص)حتى الهجرة

كان مولد محمد موسس الإسلام بمكة قرابة ٧٠٥ م. ولد فى فقر بالغ ، وكان ضيّيل الحظ من العلم ، ولو قيس حتى بمعايير الصحراء لكان أميا غير متعلم ، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقاً (١) . وظل بضع سنوات يشتغل بالرعى ؛ ثم دخل بعدئذ فى خدمة سيدة معينة اسمها خديجة ، وهى أرملة تاجر موسر . ولعله كان يعنى (٢) بإبلها أو يساعد فى أعمالها التجارية . ويقال إنه سافر مع القوافل إلى اليمن (٣) وإلى سوريا . والظاهر أنه لم يكن تاجراً عظم النفع لها فى تجارتها ، ولكنه أوتى من الحظ نصيباً موفوراً ، فأعجبت به السيدة فتزوجته ، فتضايقت (٤) من ذلك عائاتها تضايقاً كبيراً . ولم يكن عند ذاك قد تجاوز الحامسة والعشرين . وليس من المحقى أن زوجته كانت أسن منه بكثير ، وإن أجمع التواتر على أنها كانت فى الأربعين . والراجح أنه لم يقم بأية رحلات طويلة بعد الزواج . وولد له أطفال عديدون ، كان اسم أحده

⁽۱) علام الشك وأميته (عليسه الصلاة والسلام) مقطوع بها بنص القرآن في مواضيع متعددة منه . (المترجم)

⁽٢) المجمع عليه في الكتب الإسلامية أنه (عليه الصلاة والسلام) أُشرف على تجارة لها إلى الشام مقابل أجر معلوم. (المترجم)

⁽٣) لم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام شافر إلى اليمن لا للتجارة ولا لأى غرض آخر. والثابث. المعروف من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين ، مرة وهو حدث في حوالى الثانية عشرة من. عره في محبة عه أبي طالب وأخرى حينا كان في حوالى الخامسة والعشرين ناثباً عن السيدة خديجة (رضى الله عنها) في تجارتها . (المترجم)

^(؛) قال الدكور هيكل في كتابه «حياة محمد» ص ؛ ٨ ما نصه «فلم تبطئ محديجة أن حددت الساعة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج - وزوجها عمها بحر بن أشد إذ كان محويلد قد مات قبل حرب الفجار - مما يكذب ما يروى من أنه كان حاضراً ولم يكن راضياً عن هذا الزواج » . (المترجم)

عبد مناف() ـ أى خادم الرب المكى « مناف » ، وهذا يدل على أن محمداً لم يكن قد توصل فى ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية(٢) .

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يعيش فى مكة عيشاً عادياً كبل لزوجة ثرية . وربحا كان هناك أساس للظن بأنه أصبح شريكا فى بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعى . فلو أن إنساناً زار مكة سنة ٢٠٠ م لرأى فيه فيا يرجع شخصاً أشببه بالمترفين ، شخصاً حيياً وسيم الطلعة ، متنقلا بين المجالس، منصتاً للحديث ، وشاعراً غير مجيد (٣) ، ورجلا ذا مرتبة ثانوية على وجه العموم .

وليس فى وسعنا أن نتحدث عن حياته الحاصة إلا على سبيل الظن والتخمين . وقد اعتقد بعص المتوقدى الحيال من الكتاب أنه كانت تلم به أدوار صراع روحى عظيم ، وأنه كان يخرج إلى الصحراء فى آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسسية . « فنى هدأة الصحراء ليلا ، وفى قيظ ظهيرة الصحراء نهاراً ، عزف النبى نفسه كما يفعل الناس جميعاً وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش ، ذلك أن الصحراء لله ، وفى الصحراء لا يستطيع إنسان أن يجحده »(٤). وربما كان الحال كذلك حقا ، ولكن

⁽١) الثابت قطعاً أنه لم يولد له عليه العسلاة والسلام ولد بهذا الإسم . والثابت أن نفسه الشريفة كانت تنفر منذ صباه من كل أصنام العرب . ولعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر فجعل من عبد مناف الجد الثالث النبى عليه الصلاة والسلام اسما لأحد أبنائه . (المترجم)

⁽٢) وهل قال أحد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد جاء بجديد من ناحية العقيدة والدين قبل الأربعين عندما جاءه الروح الأمين وهو يتحنث في غار حراء ؟ وهل لا يعتبر نفور محمد (ص) العلبيمي من الأصنام وكل ما يمت إليها بصلة من طقوس وقرابين وتعظيم النخ من أمارات السمو الروحي الذي عرف به بين قومه من طريق تمسكه بكامل الصفات والأخلاق حتى لقبوه بالأمين ، والذي حفزه إلى التفكير والنامل والتحنث بحثاً عن الحق الذي هداه في النهاية إلى نهجه القويم حتى هبط عليه الروح الأمين بالرسالة والقرآن الكريم . (المترجم)

⁽٣) معاذ الله أن يتصف النهبى بقول الشعر ؛ والله نزهه عن الشعر فى كتابه الكريم ولم تروكتب السيرة الشريفة قط أنه عليه السلام قال شعراً فى صباه . (المترجم)

⁽٤) السير مارك سايكس.

لم يقم أى دليل(١) على حدوث مثل تلك الرحلات الصحراوية . ومع ذلك فإنه كان ولا مراء يفكر تفكير آعيقاً فيا حوله من أشباء . ويحتمل أنه رأى كنائس مسيحية في سوريا(٢) ؛ ويكاد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم ، وأنه استمع إلى سفريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة الذي كانت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثمئة ببلاد العرب . ورأى جماهير الحجيج ولحظ أمارات الحتل وعدم الإخلاص والحرافات المتجلية في وثنية البلدة فضاق بذلك ذرعاً . وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق ، دون أن يدرك ما حدث له (٢)

أخيراً لم يستطع أن يكتم هذه المشاعر في نفسه زمناً أطول . فلما بلغ الأربعين شرع يتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجته أول الأمر كما هو واضح وإلى نفر قليل من أصدقائه المخلصين . وجاء بآيات معينة ، أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السهاء . وكانت تحتوى على الجزم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة معقولة عن البر والتقوى . كذلك أصر على وجود حياة في الدار الآخرة ، وعذاب جهنم للمستهين والشرير ، وجعل الفردوس ُنزُلا للمؤمنين بالإله الواحد . وفي ما عدا دعواه أنه نبي جديد ، لا يبدو أن قد كان في هذه المبادئ شيء بارز الجدة في ذلك الزمان ، بيد أن هذه المتعاليم كانت في عرف مكة دعوة إلى الشغب والفتنة ، وهي التي كانت تعتمد في بعض معايشها على نحلتها المتعددة الآلهة ، والتي كانت لذلك مستمسكة بالأصنام بوم بعض معايشها على نحلتها المتعددة الآلهة ، والتي كانت لذلك مستمسكة بالأصنام بوم كان سائر العالم قدد أخذ ينبذها . وقد قال محمد متابع حمد متابع حمد أخل قال ماني حمد متابع العالم قدد أخذ ينبذها . وقد قال محمد متابع حمد متابع على ألى الماني المناه والتي كان سائر العالم قدد أخذ ينبذها . وقد قال محمد متابع حمد متابع المناه على ألى الماني بيد أن هذه المواحد . وقد قال محمد متابع المناه قد كان ماني الماني العالم قدد أخذ ينبذها . وقد قال محمد متابع حمد متابع المناه قد كان في هذه المناه . وقد قال محمد متابع المناه و مناه المناه و مناه الماني المناه و مناه المناه و مناه و مناه المناه و مناه و مناه

⁽١) المتواتر المجمع عليه أن ذلك حدث منه عليه السلام وإلا فأين حديث غار حراء ؟ . (المعرجم) .

⁽٢) إطلاق القول بأنه عليه الصلاة والسلام زار سوريا لا يقوم عليه دليل إذ أنه لم يتعد في زيارتيه الشام مدينة بصرى محط قوافل المكيين وهي في أقصى الحنوب الشرق لفلسطين الحالية .

⁽ المترجم)

⁽٣) لم يكن النبسى عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من اليهود فإن العرب فى جاهليهم الوثنية كانوا يعرفون الله الحالق وإنما كانوا يشخذون من الأوثان والأصنام فى بعداية أمرهم بها شفعاء فى تقربهم إلى الله زلنى . فلما تقادم عليهم العهد سجدوا لها من دون الله مع ذكرهم لاسمه ومنك طاهر فى أشعارهم وخطبهم فى الجاهلية .

بأن الأنبياء من قبله وبخاصة عيسى وإبراهيم كانوا معلمين قلسيين ، ولكنه يكمل تعاليمهم ويختمها . وهو لم يذكر البوذية بأى حال ، وربما كان ذلك لأنه لم يسمع قط باسم بوذا . فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة فى الركود والتأخر من الناحية اللاهوتية .

وظلت الديانة الحديدة بضع سنين وهي سر تحتفظ به جماعة صغيرة من البسطاء ، هم : خديجة زوجة النبي ، وعلى ابنه المتبنى ، وزيد وهو عبد ، وأبو بكر وهو صديق معجب به . وظلت بضع سنين نحلة مغمورة في بيوت قليلة بمكة ، كانت مجرد عبسة وزمجرة خافتة في وجه عبادة الأوثان ، بلغ من خمول شأنها وضآلة أمرها أن زعماء البلدة لم يعيروها أدنى اهتمام . ثم أخذت تقوى ويصلب عودها . وأخذ محمله يجهر بالدعوة أكثر ويعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة ، ويتوعد عبدة الأوثان والكفرة بنار جهنم . ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم . فبدا للكثيرين أنه إنما يهدف إلى إقامة نوع من الدكتاتورية في مكة وإلى اجتذاب كثير من البسطاء والمتذمرين إلى جانبه . وبذلت قريش محاولة لتثبيط الحركة الجديدة والقضاء عليها .

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن ؛ ولا يجوز سفك أى دم داخل أسوارها ؛ ومع ذلك فإن القوم نغصوا عيش أتباع المعلم الجديد تنغيصاً شديداً إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة . فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة المسيحية . على أن النبي نفسه لم يمس بسوء – لما له من عزوة قوية تحميه ، بينها لم يشأ خصومه أن يفتحوا على أنفسهم باب الثأر الدموى . وليس في إمكاننا تتبع تأرجحات الكفاح في هذا المقام . بيد أن من الضرورى أن نذكر حادثة واحدة محيرة في حياة النبي الجديد ، يقول عنها السير مارك سايكس « إنها تثبت أنه كان عربياً صميماً » فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله ، عاد فداخله التردد . فجاء ساحة الكعبة وأعلن (1)

⁽١) هذه فرية الغرانيق ، وإن تعدد الصورة المروية للآيات المزعومة من «تلك الغرانيق الملا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى » أو « وإن شفاعتهن لترتجى » النخ لما يجمل تصديق الرواية مستحيلا ناهيك عن أنه لا يعقل أن يمتدح القرآن أصنام قريش في بعض آيات ثم يعقب ذلك مباشرة بالاستنكار في نفس الصورة كما هو ظاهر من قوله تعالى « أفرأيتم اللات والمزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم اللكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيرى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ، النخ فإذا وضمنا « أفرأبتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق الملا ، وإن شفاعتهن حوالين »

أن أرباب مِكة ورباتها ، قد تكون قبل كل شيء حقيقية ، وقد تكون ضرباً من القديسين الذين لهم قوة الشفاعة .

قوبل تراجعه بالحمية والحماسة من قريش ، ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم [كذا ! . . .] ، وذلك يدل على أن الخوف من الله _ كان لا جرم _ يملأ جوانب قلبه ، فما بدر منه فى حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته (١٠ . .] . فقال إن ومن ثم بذل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا ! . . .] . فقال إن الشيطان تلبس لسانه (٢٠) ، ثم أخذ يسب عبادة الاصنام بقوة وعزم مجددين . وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة ، متأججاً على صورة أشد وأعنف ، دون أى أمل آخر فى الصلح .

وانقضت فترة من الزمن كانت لقريش وأنصارها فيها اليد العليا . فوجد محمد نفسه بعد عشر سنوات من الرسالة رجلا قد بلغ الحمسين من العمر ، وأخفق إخفاقاً تاما فى مكة . وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت ، وكان كثيرون من كبار أنصاره ماتوا أيضاً قبل ذلك بقليل . فخرج يلتمس الجوار فى بلدة الطائف القريبة ، ولكن الطائف ردته بالأحجار والسباب . حتى إذا أظلمت الدنيا فى وجهه كأحلك ما تكون ، انفتحت أمامه أبواب الحظ . إذ وجد أنه كان موضع تقدير وإعجاب فى مكان لم يكن له بحسبان . ذلك بأن يترب (المدينة) كانت تمزقها الانقسامات الداخلية شر ممزق ، وكان كثير من أهلها ، اجتذبتهم تعاليم محمد أثناء موسم الحج إلى مكة . ولعل لترنجى (ثم أردفناها بقوله تعالى) ، « ألكم اللاكر وله الأنثى ، تلك إذا الخ »

لترتجى (ثم اردفناها بقوله تعالى) ، « الكم الذكر وله الانتى ، تلك إذا الخ » لكنان المدح والذم لشىء واحد متتابعين ، فليس من المعقول إذن أن يكون ذلك صدر عن محمد الذى لم يرو عنه أحد أقوالا أو يسند إليه أفعالا متناقضة متضاربة طوال حياته .

ولعل عدم ذكر ابن هشام شيئاً عن هذه القصة يشير إلى شيءهام وهو أنه يحتمل كثيراً أن هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لم تكن قد وضعت وشاعت في أيامه وبذلك تكون هذه القصة وضعية في تاريخ متأخر حشرت حشراً في التفسير وغيره ء أنها تعليل لنزول آيات أخرى من عير بمحيص أو تحليل . متأخر حشرت حشراً في التفسير وغيره ء أنها تعليل لنزول آيات أخرى من عير بمحيص أو تحليل .

⁽١) وكيف يزل وهو المعصوم من الخطأ والواعى لقوله تعالى "لو تقُوَّل عليناً بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ولقطعنا منه الوتين » وهو بعد ذلك يبلغ القرآن الذي أخذ الله على نفسه حفظه « إنا لذكر وإنا له لحافظون » من كل دعاية وكل سوه . (المترجم)

⁽٢) الواقعة وكل ما تفرع منها محض اختلاق ولم يأت بها إلا مؤرخ واحد هو اليعقوبي . (المدّ حم)

اليهود الكثيرى العدد في المدينة زعزعوا في قلوب الناس مكانة عبادة الأصنام العتيقة. فأرسلت إليه الدعوة للحضور ليحكم المدينة باسم ربه(١).

على أنه لم يذهب من فوره بل راح يتفاوض سنتين ، ويرسل الصحابة ليعلموا المناس فى المدينة ويحطموا ما بها من الأوثان . ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة إلى المدينة لكى يكونوا فى انتظاره عند وصوله ؛ ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأنصار مجهولين فى مدينة غريبة . واستمر خروج المؤمنين هذا ، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر(٢) .

وبالرغم من أنه كان مفروضا أن مكة حرم آمن ، فانه أوشك أن يقتل هناك . وواضح أن كبار أهل مكة كانوا على علم بمساكان يجرى فى المدينة ، فأدركوا ما يحدق بهم من خطر لو تهيأ لذلك النبى الحارج علم أن يسيطر على بلد فى طريق قوافلهم الرئيسي إلى سوريا . فلا بد إذن للعرف أن ينثني أمام الضرورة القاهرة ؛ فأجمعوا أمرهم على أن محمداً (ص) يجب أن يموت ، سواء أترتب على ذلك ثأر أم لم يترتب . فدروا أن يقتلوه فى فراشه ، ولكي يشتركوا جميعا فى إثم خرق قواعد الحرم الآمن المقررة ، ندبوا جماعة منهم لتنفيذ ذلك يمثل أفرادها كل عشيرة فى البلدة ما خلا بني هاشم عشيرة محمد . ع أن محمداً كان دبر هجرته من قبل ؛ فلم اقتحموا عليه حجرته فى سدفة الليل ، وجدوا عليا ابنه المتبنى ، نائما أو متناوما فى فراشه .

وكانت الهجرة مليئة بالمخاطر ؛ إذ كانت المطاردة شديدة سريعة . وأخذ المدربون من قصاصى الأثر فى الصحراء يقصون مواطئ الجهال فى شهال مكة ؛ على أن محمداً وأبا بكر انطلقا جنسوبا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والمؤن غبأة (٢) ؛ ومن ثم قاما بدورة عظيمة إلى المدينة . حيث وصل النبي ومعه زميله

⁽١) ليس في شروط بيعة العقبة ما يؤيد الزيم بدعوته للحكم . (المترجم)

⁽٢) الصحيح أنه بتى بعد هجرة الرسول عليه الصلاة. والسلام عدد من المؤمنين والمؤمنات ، ما لبئوا أن نزحوا إلى المدينة بعد الهجرة . (المترجم)

⁽٣) ما للمؤلف يتغاضى عما لابس الهجرة من آيات بينات أسهب فيها كتاب السيرة ولم يشاوا فى تفاصيلها ؟ أين فشاط المكيين فى تعقب الفارين ، وأين قصة الغار وبقائهما به أياماً ثلاثة ، وأين ذكر وقوف جماعة من المطاردين بباب الغار وارتدادهم عنه بفضل من الله الذى يتحدث عنه القرآن =

الصدّيق ؛ واستقبلا بحاسة كبيرة فى ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ . وكان فى ذلك خاتمة ابتلاثه وبداية صولته وسلطانه .

٣ - محمد (ص) يصبح نبياً منافحاً (١)

لقد ظلت شخصية نبى الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أتم الحادية والحمسين من عمره ، موضوع الحدس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهسل الرأى . فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ . وإنا لنستين فيه رجلا أوتى قوة تصورية هائلة ، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا البدوى ونقائصه (٢) .

وكان ابتداء حكمه « بدوياً محضاً » . فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طراً — حسب تفسير محمد – بدأ بسلسلة من السرايا على قوافل(٢) مكة ، دامت أكثر من

« إن لا تنصروه فقد نصره الله من قبل : ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » وأين حديث سراقة الذى جد فى طلبه هو وأبى بكر وماكان من غوص قوائم فرسه فى الرمل وارتمائه من فوقها وطلبه الأمان من فريستيه المرموقتين لما وضع لرأسيهما من مكافأة مجزية ، على أن يتكفل برد الطلب ؟ ولكن ليس يننظر منه – وهو غير المؤمن – أن يورد ما يثبت لمحمد عليه الصلاة والسلام الرسالة والنبوة ؟ (المترجم)

⁽۱) عن غزوات الرسول وسراياه انظركتاب «المغازى » للواقدى طبع جامعة أكسفورد وكلمة التهافئة التي استعملها المؤلف لا تعنى بالضرورة دائماً كلمة «مقاتل » وقد اخترنا منافحاً لأنه أكثر الألفاظ انطباقاً على حالة النبى صل الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره فى المدينة ، إذ كانوا يدودون عن حقوقهم المسلوبة التى أنكرها عليهم المكيون ، فقد أخرجوهم من ديارهم عنوة واستباحوا دماءهم وما كان للم من مال وعتاد ، وما كان النبسى صل الله عليه وسلم ومن ورائه المهاجررن ليعبآوا بحطام الدنيا ومتاعها ، لكنهم والأنصار معهم فى صعيد واحد ، ما كانوا لهداً لهم ثائرة حتى ينتزعوا من المكين بالسلم أو بالحرب ، بالمفاوضة والإقناع أو بالهديد والبطش ، حقوقهم المقررة كسائر الناس فى حرية الرأى وحرية العقيدة وحرية العودة إلى الوطن .

⁽ المترجم)

⁽ ٢) حاشا أن تكون النبسى نقائص . فلئن كان البدوى إنساناً عادياً ، فإن النبسى هو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى .

⁽المترجم)

⁽٣) أنكر بعض المتعصبين من كتاب أوربا هذه السرايا وسموها «غارات ، وهى هى صفة المصادرة بعيها التى أقرها « القانون الدول » وعمل بها قادة الجيوش فى حميع العصور ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية ـ عبقرية محمد للأستاذ العقاد ص ٦٤ . (المترجم)

عام كامل دون أن تلتى واحدة منها أى توفيق . ثم حدث حادث جلل ، هو نقض الحدنة العتيقة المسنونة ، هدنة الحلف العربي في شهر رجب الحرام . فإن جماعة من المسلمين في موسم السلم الأصيل هذا ، هاجموا غدراً قافلة صغيرة وقتلوا وجلا . وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذي أصابوه ، وقد أتوه بأمر النبي (١) .

ثم نشبت فور ذلك معركة . فإنقوة مكونة من سبعمئة رجل خوجت من مكة لتستقبل فى الطريق قافلة أخرى وتوصلها إليها ، فالتقوا بفئة مغيرة كبيرة عدتها ثلثمئة ، وحدث بين الطرفين قتال ، هو معركة بدر التى انهزم فيها لكيون وخسروا خسين أو ستين من القتلى وما يعادلهم من الجرحى . وعاد محمد إلى المدينة منتصراً وقد ألهمه الله وهذا النجاح ، أن يأمر بقتل عدد من خصومه اليهود فى المدينة الذين كانوا قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود .

على أن مكة صممت على الانتقام لبدر ، وأنزلت بأنباع النبى فى معركة « احد » بالقرب من المدينة ، هزيمة خير حاسمة . وقد وقع النبى وكاد يقتل ، وهرب كثيرون من أتباعه . ومع ذلك فإن المكيين لم ينتفعوا من ميزة غلبتهم بدخول المدينة (۲۲) .

⁽١) ينقل المؤلف هاهنا بعض أقاويل المستشرقين في سرية عبد الله بن جحش التي قال فيها الأستاذ العقاد ما نصه « فهي سرية استطلاع لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا النبي عليه السلام الحمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لمم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبي وساءت لقياهم ببن أهل المدينة » . ص ٧٨ عبقرية محمد . وظاهر من هذا أن هذه الفعلة لم تكن أمر من النبي صلى الله عليه وسلم . وتجمع كتب السيرة كلها على أن السرايا لم يكن القصد الأول والأخير منها غير دفع مكة إلى التسليم المسلمين بالمدينة بحقوقهم التي ذكرناها آنفاً .

⁽المترجم)

⁽٢) ما الذي يدل عليه انتصار موتور ثم تقاعسه عن أن يتابع المهزوم حتى يقضى عليه قضاء مبرماً لا تقوم له بعده قائمة ؟ ألم يكن المسلمون شوكة في ظهر المكين وهذا النصر فرصة ذهبية المخلاص مهم نهائياً ؟ لا نحسب القارئ ، وقد أغفى المؤلف عن هذه المسائل ، إلا مدركا لما بين السطور من أن المكين قد تكلفوا في هذا النصر خسارة جسيمة أجبرتهم على الرضاء من الغنيمة بالإياب . وجدير بنا أن نقرر هنا أن الممركة في بدايتها وعندما حمى وطيسها كانت تتطور لمصلحة المسلمين وكانت الأحوال كلها توسمي بأن المسلمين لا بد منتصرون ، لولا أن الرماة بالنبل ، وكان النبسي عليه الصلاة والسلام قد أوقفهم على ربوة خلف المسلمين لخاية ظهورهم وأوصاهم ألا يغادروا مكانهم حتى ولو رأوا أن المسلمين يقتلون ح

شم تركزت كل طاقات النبي ردخاً من الزمان في استثارة أتباعه الذين كانت عز المحمم على ما يبدو قد أصابها الكثير من الفنور ويسجل القرآن الكريم المحنة التي كانت تمر بها المشاعر في تلك الأيام . يقول السير مارك سايكس : و وسور القرآن التحدي ترجع إلى هذه الفترة ، تبز نظيراتها كلها تقريباً في جلالها وروعتها ويقينها المراقع » ، وإنى لأقدم للقارئ هنا مثالا يحكم عليه من تلك الآيات الجليلة نقلته عت المترجة الصحيحة الحديثة التي قام بها مولانا محمد على(١): «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاً كم وهو حبر الناصرين . سنلتي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما عم يُسَرِّل به سلطاناً ومأواهم النار ، وبئس منوى الظالمين . ولقد صدقكم الله و عده إذ تَحسُّونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تُصعيدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم عما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتحكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغيم المسَنَة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله خمير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر شيء ، قل إن الأمركله لله ، يحتضى ت في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لوكان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هما ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى . اللَّه ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور . إن الذبن

سه قشلا ، نسوا وصيته عليه الصلاة والسلام حيها أبصروا المكيين ينزحزحون إلى الوراء تحت ضعفط المسلمين فظنوا أن الهزيمة قد حلت بهم وأنه أولى بهم أن ينزلوا إلى الميدان إلى جنب إخوابهم ، وعندها فعلن حالد بن الوليد – وكان لا يزال على الوثنية وعلى رأس فرسان مكة – إلى أهمية الربوة فاستدار بقرسانه وفجأ المسلمين برجاله عن الخلف ، وكذلك وقع المسلمون بين نارين ، ومع ذلك فلم يهنوا ولم يضمحفوا بل قاتلوا قتالا مجيداً وأنزلوا بأعدائهم خسارة أحجزتهم كلية عن السير في الشوط إلى نهايته . وهكذا يكون هذا النصر أشبه شيء بالهزيمة إذ لم يقض منه المكيون وطرا ، ولم يشف لهم غلة ، اللهم إلا قديل نفر من المسلمين وتروهم في بدر في كثير من اقيالهم .

⁽١) وهي التي أصدرتها المجلة الإسلامية .

تولوا منكم يوم التتى الجمعان إنما اشتراهم الشيطان ببعض ماكسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور رحيم » (آل عمران) .

واستمرت المناجزات سجالا غبر فاصلة بضع سنين ، وأخيراً بذلت مكة آخر جهودها لكى تخمد إلى الأبد قوة المدينة النامية . فجمعت قوة مختلطة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل ـ وهى قوة هائلة بالنسبة للزمان والإقليم . وكانت بطبيعة الحال قوة غير نظامية تماماً من المشاة والفرسان والجمالة ، ولم تكن مستعدة لأى شيء عدا مناوشات الصحراء العادية . وكان كل ما لديها من سلاح هو القسى والحراب والسيوف . فلما أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت نمامات هائلة من النقع وأصبحت بمرأى من أكواخ المدينة وبيوتها ، فبدلا من أن تجد قوة أصغر منها ومن نفس صنفها مستعدة للنزال كما كان منتظراً ، وجدت ظاهرة جديدة أفسدت عليها خططها وحيسرتها : هي خندق وسور . ذلك أن محمداً احتمى وراء خندق أنشأه حول المدينة بمشورة فارسي أسلم(۱) ! .

فبدا ذلك الحندق لعين الخليط البدوى أشد الأشياء مخالفة لأصول النزال الشريف والروح الرياضية القويمة . فداروا حول المكان راكبين . وأخلوا يتصايحون معرين للمحصورين عن رأيهم فى الأمركله . وأطلقوا بضع سهام ، ثم خيموا آخر الأمر لبحث هذه الإساءة الفاحشة . غير أنهم لم يصلوا فى شأنها إلى قرار حاسم . فإن محمداً لا يريد أن يبرز إليهم ؛ وأخذت الأمطار تهطل ، وابتلت خيام الأحلاف وأصبح الطهى عسراً ، ودب دبيب الحلاف بينهم فى الرأى وأخذ صبرهم ينفد ، ثم ذوى المطهى عسراً ، ودب دبيب الحلاف بينهم فى الرأى وأخذ صبرهم ينفد ، ثم ذوى ذلك الحشد العرمرم مرة ثانية متفرقاً شراذم وثللا ، دون أن يتلاحم مع المسلمين فى معركة (٢٧٧) . فتفرقت الجاعات شمالا وشرقاً وغرباً وجنوباً ، وأصبحت ظللا من القتام وزال كل خطر لها . وكان بالقرب من المدينة قلعة للهود ، كان محمد مغضباً من قبل عليهم ، بما أبدوه من عدم احترام لعقيدته (٢٠٠) . وكانوا أظهروا ميلا

⁽۱) عن وصف إعداد ذلك الحندق وكيف شارك الرسول عليه السلام في حفره بنفسه أنظر كتاب « المغازى » للواقدي طبع جامعة أكسفورد ص ٤٤٢ – ٥٤٥ .

⁽ المترجم) (٢) الواقع أنه كان بين الرسول عليه السلام وبين قريظة مِهد نقصه أولئك عندما أحاطت الأحزاب بالمدينة إذ تراسلوا مع قريش وأخذوا يلقون الرعب في المدينة وأعدوا جيوشهم للانقضاض على =

إلى الانضام إلى من خيل إليهم أنهم أصحاب الكفة الراجحة المحتملون فى هذا الصراع السهاق ، هنالك أطبق محمد عليهم ، وذبح كل الرجال وكانوا تسعمئة ، وسبى النساء و المخطفال . ويحتمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل ، من بين المسماومين على مشرى هؤلاء السبايا والعبيد . ولم يحدث قط بعد ذلك الإخفاق العجيب أن البحث مكة بتحد فعمد ، وأخذ كبار رجالها ينضمون إليه واحداً بعد الآخر .

ولسنا بحاجة إلى تتبع دورات الهدنة والمعاهدة التى انهت آخر الأمر بمد سلطان النبيى إلى مكة . وكانت خلاصة الاتفاق أن يتجه المؤمنون نحو مكة عندما يُصلّون ، يعدل أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس ، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحبن ، وآن تذكون مكة مركز الحج للدين الجديد . وما دام رجال مكة قد ضمنوا استمرار تدفق الحجيج إلى بلدهم ، فالظاهر أنهم لم يكن يعنهم كثيراً ، هل يجتمع الناس باسم آله واحد أم آلحة كثيرة . وأخذ اليأس من تحويل أى عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام يدب إلى محمد دبيباً متزايداً ، فأنشأ بكف عن التشديد على فكر ته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد في الحقيقة ربا و احداً . « فالله » قد أخذ في صبح شيئاً فشيئاً ربه الخاص به ، وخاصة وقد أصبح الآن بهذه المعاهدة مقيداً بحجر يعمد النزكى ، كما أخذ يبعد قليلا عن أن يكون رباً وأباً للبشرية جماء(١) .

جيوش المسلمين من الحلف. حياة محمد ص ٣٠١ طبعة أولى. سيرة ابن هشام ج٣ ص ٢٢٩ - ٢٧٤ ، و.قيمها ذكر للعهد بين النبسى صلى الله عليه وسلم وبنى قريظة ونقضهم لعهدهم الذى عاهدوا عليه وانحيازهم إلى الآسوراب وتهديدهم مؤخرة المسلمين بفتح ثغرة فى تحصيناتهم للأحزاب ليثبوا مها على المسلمين وكل ذلك خييانة عظمى ، ومع أن النبسى صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم يذكرهم بالعهد ويطلب إليهم التقيد به فقد آسها يوا رسله بخلع النقاب والتنكر للمسلمين وسب الرسول علنا وإصر ارهم على مؤازرة الأحزاب أحلافهم المحدد ضد المسلمين ، فهل يرجى من أحد بعد هذا كله أن ينسى هذه الفعلة الشنيعة وألا يعاقب عليها بعشلها ؟ .

⁽ المترجم)

⁽۱) إن هذا الذى نقله المؤلف هو رأى المستشرقين ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحد قط عن قصوص التنزيل التي تنص جميعها على الاعتراف بالأنبياء جميعا وأن الله رب العالمين كافة . وكيف يسموغ لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يختص نفسه بالله ربا من دون الناس ، وهو الذى يخفض جناحه المسيحيين و اليهود على السواء . ويستثنيهم من وصمة الكفر ويدعوهم أهل الكتاب أى (التنزيل من عند الله) . وما ذلك إلا لأنهم يقرون لله بالعبودية كالمسلمين سواء بسواء . وإن يكن المؤلف يقصد قوله تعالى « لقد كفر الذين =

وكان النبي أظهر بالفعل ميلا إلى أن يعقد مع مكة صفقة ، وها قد تمت الصفقة آخر الأمر . وكانت السيادة على مكة نستحق بذل هذا التساهل() . ولسنا بحاجة إلى الكلام عن الغدوات والروحات وعن نزاع أخير حدث بين الطرفين . وصفوة القول أن محمداً دخل مكة في ٦٢٩ سيداً مطاعاً وحُطم صنم مناف – وهو الرب الذي سمى ابنه يوماً ما باسمه – فهوى تحت قدميه وهو يدخل الكعبة(٢) .

ومن ثم أخذ سلطانه يمند ، وحدثت معارك وخدع ومذابح ؛ بيد أن الغلبة كانت له على الجملة ، حتى دانت له فى النهاية بلاد العرب قاطبة ؛ حتى إذا تمت له السيادة على كل بلاد العرب فى ٦٣٢ ، انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو فى الثانية والستن .

وليس فى سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التى ختمت بها حياته بعد الهجرة

= قالوا إن الله ثالث ثلاثة α فذلك هو ما يتفق تماماً مع وحدانية الله المجردة التى ظل يدعو إليها طوال رسالته والتي خاطب بها القرآن المسيحيين واليهود في مجتمع المدينة في قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بميننا وبمينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدواً بأنا مسلمون ».

(المرجم)

⁽۱) نسجل على المؤلف هنا هذا الاعتراف الصريح إذ أن ذلك يبين بجلاء ماكان النبسى عليه أفضل الصلاة والسلام يحرص عليه جد الحرص من حقن الدماء وغلبة العقل والحكمة فشوب مكة إلى رشدها وتحلى بين المسلمين وبين حقوقهم المشروعة المباحة لغيرهم من حرية الرأى والعبادة دون عنت ولا إعنات. فلما وجد عليه الصلاة والسلام أن مكة قد أصمت آذانها وأعماها الكبر وصدها عن السبيل القويم وتمادت في طغيانها حتى حاولت قتله فلما فاتها اللك أهدرت دمه ، هجر موطنه وهاجر إلى المدينة ، وفيها حاول بكل ما أوتى من قوة أن يظهر لمكة أن المسلمين قوة تستطيع التنكيل بها وبمصالحها المادية عساها تفيق من غفلتها وتتصالح مع المسلمين وتكف عن أذاهم وتتركهم وشأئهم يدعون إلى دينهم ويزاولون عبادة الله وحده على طريقتهم المثلى ، ولكنها أبت إلا الاسترسال في غيها والمبالغة في كيدها وتأليب العرب لنصرتها ولم يسع طريقتهم المثلى ، ولكنها أبت إلا الاسترسال في غيها والمبالغة في كيدها وتأليب العرب لنصرتها ولم يسع النبسى صلى الله عليه وسلم مع هذا إلا أن يرد القوة بالقوة وما زال يفعل حتى تخضدت شوكة مكة وتقوضت دعام شركها وبان ضعفها فخفض لها جناح رحمته وبسط لها يد السلم التي انقبضت عنها من قبل يدها حية واستكباراً . ولعل القارئ إذا رجم إلى صلح الحديبية وما تم فيه واجد فيما ظهر به النبسى عليه الصلاة والسلام من روح الإنسانية الكاملة ما يؤكد له إفاضة ما أوجزناه هنا .

⁽ المترجم)

(۲) ليس بين أبناء النبي كما أسلفنا من يسمى بعبد مناف قط ولا ندرى من أين جاء المستشرقون الذين نقل عنهم المؤلف بهذه الفكرة . (راجع مقدمة أسد الغابة في أخيار الصحابة وسيرة النبسى وذكر أولاده وأزواجه) .

غير القليل مما يفرق سلوكه العام عن سلوك أى شخص يجمع شتات الشعوب فى كنف حكم ملكى موحد . والفارق الوحيد هو استجاله الدين الذى جاء به ، مادة يشد بها أجزاء مملكته بعضها إلى بعض . كان يستخدم الدبلوماسية وبدارى تارة ويقسو ويشتد أخرى ، أو يتساهل ويلين ، حسبا تقتضى المناسبة والظرف (۱) ، كأى ملك (۲) عربى قد يوجد فى مكانه ، وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدراً طفيفاً من عربى قد يوجد فى مكانه ، وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدراً طفيفاً من الروحانية (۳) . كذلك لم تكن حياته المنزلية إبان فترة سلطانه وقدرته على التصرف ،

(المترجم)

(المترجم)

⁽١) ماكانت المداراة ولا القسوة من صفاته البتة صلوات الله عليه ، وإن المؤلف ليناقض نفسه في فصل تال حين يذكر قدرة الرسول عليه الصلاة والسلام على اجتذاب صداقة الأصدقاء والاحتفاظ بهم ، وهذا لعمرى أمر لا يتأتى إلا لمن كان حقاً على خلق عظيم أبعد ما يكون من المداراة والقسوة . ولسنا نجد أبلغ في الرد على هذا القول من قول العلى الكريم في مخاطبة نبيه الأمين :

[«] فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وقوله تعالى وهو أصدق القائلين : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

⁽٢) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأعرابي الذي قال النبي «أنت سيدنا » فأجابه عليه السلام « السيد الله تبارك وتعالى » .

⁽٣) هذه تهمة يحب المبشرون أن يلصقوها بالإسلام مكابرة منهم وتعصبا وقد دحضها الأستاذ الإمام محمد عبده ، فليرجع القارئ إلى ما كتبه فيها رحمه الله ، ويتزود به . وأية روحانية أكبر من أخذ النَّاسُ حميمهم ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم ، أميرهم وحقيرهم بما شرعه القرآن الكريم من إقامة الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والحهاد في سبيل الله ونعني بذلك جهاد النفس الأمارة بالسوء بالإضافة إلى جهاد الكفار أعداء الله ، وتطهير النفس من أدران الفساد المادى وحملهم حملا على نبذ الرذائل والتحلي بالفضائل وبخاصة الصدق وألحلم وألعلم والتواضع والرخمة والإخاء فى الله والمساواة المطلقة والصبر وإنكار الذات ونبذ المادة وما تغرى به ، إلا بما يقوم بالأود ويقضى ضرورات الحياة ، والإيمان بالله إيماناً صادقاً صادرًا من أعماق قلب عامر بحبه عالم بأنه معه في السر والعلن « يعلم خائنة الأعين وما تخني الصدور ». ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ظل طوال حياته لا ينى لحظة ولا يترك فرصة إلا ويذكر الناس فيها بالله والآخرة والحساب والثواب والعقاب ويضرب لهم الأمثال بنفسه قولا وعملا فهو الصادق الأمين البر الرحيم الصابر المتوكل الخافض جناحه للمؤمنين ، المؤثر على نفسه ، الكاظم الغيظ ، الواثق بربه ، العامل بوحيه وأوامره . وقصارى القول إنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطقة وقد لحصها الله تعالى في قوله « وإنك لعلى خلق عظيم » . و من ثم حضه تمالى الناس على اقتفاء أثره وترسم خطاه : « ولم كن رسول الله أسوة حسنة » . ولعمر الحق إن ذلك كله لقليل من كثير مما كان عليه الرسول صلوات الله عليه وماكان عليه أصحابه الأقمار النيرة من قوة روحية لا تغالب ، بما استحقوا به أن يحظوا بملكوت السموات الذي لا نجد له في الإنجيل والتوراة سؤ هلات روحية أبلغ وأسمى وأبعد أثراً نما جاء به عليه الصلاة والسلام وأخذ به نفسه وأهله رأصحابه 🕳

خير أنواع الحياة ولا أسعدها . وهو يبدو حتى وفاه خديجة ، يوم كان فى الخمسين ، الزوج المخلص لامرأة واحدة — ولكنه عاد عند ذلك — كما يفعل الكثيرون من الرجال عندما تعلو بهم السن() — فأظهر بالنساء اهتماماً قوياً .

فنزوج زوجتن بعد وفاة خديجة ، كانت إحداهما الصغيرة عائشة ، التي أصبحت وظلت شريكته الآثيرة صاحبة السلطان الأكبر عليه . ثم أضاف إلى أهل بيته عدداً من نساء أخريات ، ما بين زوجات وإماء . وأدى هـــذا إلى كثير من المتاعب والاضطراب ، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، فإن هذه التعقيدات ما تزال تستلزم من المؤمنين الكثير من التفسير والنقاش .

وقد كان هناك مثلا قصة حول السيدة عائشة ؛ فإنها خُلُفت في ظرف ما على حين تابع الهودج والجمل السير بينها كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات ؛ ولذا صار لزاماً أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك (٢٠) . ثم نزلت

🕳 ومن دخل فی دینه دون تفریق أو تمییز .

(المترجم)

(١) « ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الشهوات أن يجمع النبي إليه تسماً من الفتيات الأبكار اللاتي اشهرن بفتنة الحال في مكة والمدينة والحزيرة العربية ، فيسرعن إليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهم وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة . لكنه لم يتزوج بكراً قعل غير عائشة رضى الله عنها ، ولم يكن زواجه بها مقصوداً في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بمد وفاة محديمة .

أما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام فما من واحدة مهن – رضى الله عهن – إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة α (هبقرية محمد للمقاد ، ص ۲۰۰ – ۲۰۲) .

(٢) يقول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته : « إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثير ث حولها » . (حياة محمد » . على أننا لا نجد رداً أبلغ ولا أقطع للشك بيقين من قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منسكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مهن . لولا

الآيات أيضاً فيا غلب على بيت النساء هذا من تلهف على « الحياة الدنيا وزينتها » وعلى « التمتع بالرفاهية » . تم هبت عاصفة جدل قوية لأن النبى زوج فى البداية ابنة عمته زينب بنت جحش من ابنه المتبنى زيد ، « فلما قضى زيد منها وطراً » أخذها النبى و تزوجها — ولكن الأمر كما يوضحه التنزيل ، إنما كان فقط بقصد إظهار الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقى . « زوجناكها كى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا » ومع ذلك فن المحقق أن آية بسيطة فى القرآن (١) كانت تُغنى عن هذه المظاهرة العملية الشديدة . وحدث بالإضافة إلى هذا تمرد فى الحريم بسبب المحبة الزائدة التى أظهرها النبى لجارية مصرية ، ولدت له غلاماً (٢) — وهو غلام كان يحنو عليه حنواً شديداً ، ذلك أن

⁼ جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنما والآخرة لمسكم في ما أفضم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بأفواهم ما ليس لكم به طم وتجسونه ميناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظيم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . الله الذين تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . (سورة النور)

⁽١) لم يكن الرسول كما تصور المبشرون « رجلا يأخذ بعقله الهوى . . . فلم يعرف عنه في حياة خديجة ولم يعرف عنه في النساء خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان بمن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب . (حياة محمد) للدكتور هيكل .

ويقول الأستاذ العقاد ما نصه : وكانت النبى زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهى زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التى زوجها زيداً بن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها ، لأنها أنفت وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسول الله – أن يتزوجها غلام عتيق . هذه أيضاً لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان فى بناء النبى بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان الذات الحس سلطان فى هذا الزواج لكان أيسر شىء على النبى أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهى تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسبها شىء كان يجهله يوم عرض عليها زيداً وشدد عليها فى قبوله . فلها تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه رترفهها عليه وإغلاظها بالقول له كان زواج النبى بها « حلا لمشكلة » بيتية بين ربيب فى منزلة الابن وأبنة عمة أطاعته فى زواج لم يقرن بالتوفيق . (عبقرية محمد ص ٢٠١) للعقاد .

⁽ ٢) أنظر للرد على ذلك في حياة محمد ص ٤١٦ ، ٤١٧ . للدكتور محمدُ حسين هيكل .

بتصورنا لشخصية النبى . وكانت ــ صفية ــ إحدى زوجاته يهودية (١) ، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل . إذ استعرض السبايا ف. آخر النهار ، فراقت نظره وحملت إلى خيمته .

هذه وقائع بارزة في هذه الإحدى عشرة سنة من حياة محمد .

هذا وليس عدلا أن نتخذ الغلو لنا رائداً ، فن الناحية الأخرى هل تراك علمت قط بأن رجلا على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقاً ؟ ذلك أن من عرفوا محمداً أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيماناً به . وقد آمنت به خديجة طوال حياتها – على أنها ربما كانت زوجة محبة . وأبو بكر شاهد أفضل ، وهو لم يتردد قط في إخلاصه . كان أبو بكر يومن بالنبي ، ومن العسير على أي إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يومن بأبي بكر . وكذلك على ، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه . لم يكن محمد دجالا بأية حال ، وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله رهن إشارته ؛ وكأنما أفكاره بالضرورة

⁽۱) « وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبى عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتى تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحياة والأقرباء ، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها فاختارات الزواج منه عليه السلام » عبقرية محمد ص ٢٠٤. فكأنه عليه السلام لم يتصرف إزاءها تصرفاً يتنافى مع ما فطر عليه من خلق كريم وذوق سليم ورحة بالضعفاء.

⁽٢) المفروض أن المؤلف لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأينا أن نترك هذا القول وغيره ليطلع عليه المسلمون ويتجهوا إلى دحضه والرد عليه بمعا يعرفون عن نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من روحانية وقدسية وتواضع ورحمة إلى غير ذلك بما جمه الله جلت,صفاته في نعته نبيه العظيم بأنه لا ينطق عن الهوى ، ولو رجعت إلى تاريخ الرسول بأكله لرأيت أن المؤلف قد تنكب طريق الحق والإنصاف إذ لم تكن للنبى عليه الصلاة والسلام صفة واحدة بما تفصل بها المؤلف عليه ، بل الأمر على النقيض من ذلك إذ كان النبى صلوات الله عليه الفضائل الكونية كلها في صورة حية كما أن القرآن الكريم الذي أنزل عليه قد نهى جزماً وصراحة عن الرذائل كلها ومن بينها تلك التى عددها المؤلف ولا يمكن لمقل بشر أن يتصور خروج محمد عليه الصلاة والسلام على ذرة مما نزل به القرآن خاصة وهو القائل «أدبى ربى فأحسن تأديبى » . فضلا عن أن أحداً من الرواة لم يرو البتة أنه عليه السلام ند يوماً عما أدبه به ربه ، ولا أن أحداً من صحابته أخذ عليه يوماً شيئاً من هذا الذي ينتقده المؤلف ، فكأن كل أدبه به ربه ، ولا أن أحداً من صحابته أخذ عليه يوماً شيئاً من هذا الذي ينتقده المؤلف ، فكأن كل

ولئن كانت رغبته فى صفية يوم مقتل زوجها تدهش عقولنا العصرية ، فإن حبه لإبراهيم الصغير ابن مارية المصرية وحزنه المفرط عندما توفى الطفل ، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك الذين خبروا عاطفة الحب ولوعة الحرمان .

وهو حين سوى التراب فوق القبر الصغير بيديه قال « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحي وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » .

٤ _ تعاليم الإسلام

على أن سمات محمد الشخصية (١) شيء ، وصفة الإسلام – نلك الديانة التي أسس – شيء آخر . لم يناصب محمد يسوعاً أو مانى أي عداء . ولكن الإسلام هو الذي ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة ، وتقاليد المجوس الزرادشتية المنحلة ، وهي الأمور التي يعني بها المؤرخ أعظم ما يعني وسواء أكان الأمر بفضل النبي صلى الله عليه وسلم ، أم بسبب صدف وملابسات معينة لنشأة الإسلام وصفات بعينها في الصحراء التي منها نشأ ، فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثر من الصفات الممتازة النبيلة .

وقد حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام فى آخر السنة العاشرة للهجرة . وعند ذاك آلتى على شعبه موعظة عظيمة ، ينقلها إلينا التواتر كما يلى . وبديهى أن هناك خلافاً حول الألفاظ . . ولكن ليس ثمة نزاع فى أن عالم الإسلام ، وهو عالم به مع ذلك ثلاثمئة مليون نفس ، يتقبلها حتى اليوم قاعدة لحيانه ويعمل بها إلى حد كبير . وسيلحظ القارئ أن أول فقرة فى الحطبة تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء . وتجعل الفقرة الأخيرة منها ، الزنجى المؤمن عيد لا للخليفة . وربما ثم تكن تلك الكلمة رفيعة "(٢) رفعة بعض أقوال يسوع التاصرى ، بيد أنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة ، للتعامل العادل الكريم ، وإنها لتنفيخ فى الناس روح الكرم والسهاحة ، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيل .

⁽١) أسلفنا الرد على مزاعم المؤلف والمستشرقين فيما يتعلق بشخص الرسول عليه السلام وما نرى داعيا إلى تأكيد أن الرسول هو روح الإسلام وقائده وهاديه فجميع أعماله هي السنة وجميع تصرفاته هي الأسوة وجميع أقواله هي الأحاديث النبوية الشريفة ولا يمكن عقلا الفصل بين نبى رسول وبين رسالته النبوية .

⁽٢) للقارئ أن يحرَك بعد أن يقرا الخطبة ، على روعة ألفاظها وعباراتها وما اشتملت عليه من جوامع الأخلاق ونبيل الأفكار ورفيع المبادئ . (المترجم) تاريخ الإنسانية جـ٣

وقد أنشأت مجتمعاً أكثر تحرراً من أى مجتمع آخر سبقه ، مما غمر الدنيا أمن قسوة وظلم اجتماعي . قال : ـــ

« أمها الناس : اسمعوا قولى ؛ فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس : إن دماء كم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ﴿ كحرمة يومكم هذا كحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من اثتمنه عليها ، وإن كل رباً موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تنظلمون ولا مُتظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس [من] أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عيدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ــ ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد الذي بين جمادي وشعبان . أما بعد أيها النَّاس فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبيَّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ؛ واستحللتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلّغت ؛ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا به أبدأ ، أمرآ بيناً : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس : أسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمُن َّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن "أنفسكم . ب اللهم هل بلتغت؟ ».

فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى ، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيده فيه ، ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذى لا هواده فيه ، والذى يتجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله ، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم . وكان الإسلام منذ البداية قاطعاً مانعاً إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وغطت بالدخان على روح يسوع . وكان مصدر قوّته الثالث تحديده الدقيق لطراثق الصلاة والعبادة ، وبيانه الصريح عن المغزى العرفي المحدود للأهمية المنوطة عكة . وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان ؟ ولم يترك اسم خياط مفتوحاً ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة . لم تكن عجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نبوية خالصة ، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع . أو ديانة جوتاما في أيام حياة جوتاما ، ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير . ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ . ولكن ليس له تغيير . ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ . ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة .

كان ديناً مليئاً بروح الرفق والسهاحة والأخوّه ؛ وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ؛ كان دين فطرة تحوى ما للصحراء من عواطف الفروسية ؛ وكان يتوجه بمناشلاته المباشرة إلى أشيع الفطر الغالبة على تكوين الرجال العاديين . وقد ناصبته اليهودية عداء مريراً ، وهى التى اتخلت من الرب كنزاً عنصرياً تكتيزه لجنسها . كما تألبت عليه المسيحية وهى التى كانت تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث وقوانين الإيمان والهرطقات التى لم يكن أى رجل عادى ليسطيع أن يميز فيها الرأس من الدنب ؛ كما حاربته المزدكية نحلة المجوس الزرادشيين الذين أوحوا بصلب ماني . ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب (الله) اللهى كان يبشر به الرسول ، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم ، رب بر وهدى وتقوى ، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه — في عالم طافح بالتقلقل والحيانة والانقسامات التى يفتح الباب على مصراعيه — في عالم طافح بالتقلقل والحيانة والانقسامات التى الدنيا ، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أنفسهم بالسرمدى المتواصل من التسبيح والعبادة ، على حن يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالوان يحظون والعبادة ، على حن يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالوان يحظون والعسوس والملوك المعمدون ما يزالوان يحظون

بالدرجات العلا ، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكافئة والملذات البسيطة اليسيرة الفهم من أمثال تلك التي تتلهف عليها نفوسهم . وقد أوصل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية ، دون أن يلجأ إلى أية رمزية مهمة ودون أى تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس .

ه ـ الخليفتان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجسد في محمد مرات فقط ، وإنما في صديقه الحميم ونصيره أبي بكو . ولا يقوم أدنى شك في أنه إن كان محمد هو العقل المفكر والحيالُ الحضب للإسلام البدائي ، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته . ففي كل أيام حياتهما معاً كان محمد هو الذي يقول الشيء ، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان . فإذا داخل محمدا شيء من التردد(١) سارع أبو بكر إلى مسائدته . كان أبو بكر رجلا عامر النفس باليقين خلوها من الشكوك ، وكانت معتقداته تقطع قطعاً حاسماً وتتمخض كسكين شاحذة ـ عن أفعال جازمة . وما يخالجنا إلا شديد التأكد في أن أبا بكر ماكان ليدارى أو يصانع حيال أرباب مكة الأصاغر ولاكان بحاجة إلى الوحى ليفسر للناس تصرفاته في حياته الخاصة (٢٠) . فلما أن مرض النبي بالحمى في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، كان أبو بكر هو الذي أعقبه خليفة له وإماماً للناس ، وكانت ثقة أبي بكر التي لا تتزعزع في الله وبره وهداه . هي التي منعت الشقاق بين مكة والمدينة ؛ وهي التي أخمدت فتنة واسعة النطاق أثارها الأعراب البدو على ضريبة الزكاة المحبية للصالح العام ، وهي المسهاة « حرب الردة » ؛ وهي التي دعته أن ينفذ إلى سوريا حملة غزوكان النبي الراحل أعدها . ثم أنشأ أبو بكر ، بذلك الإيمان الراسخ الذي يزحزح الحبال وتلك البساطة النقية والعقل الراجح ، ينصّب نفسه لتنظيم إخضاع العالم بأسره لحكم الله وإرادته بجیوش صغیرة یتألف کل منها من ۳۰۰۰ أو ۲۰۰۰ عربی – أخذاً بتلك الرسائل التي بعث بها النبي عَيْلِيٌّ من المدينة في (٦٢٨) لكل ملوك العالم .

⁽١) سبق أن رددنا على المؤلف في مثل هذه النقاط فلا داعى للتكرار والعصمة للأنبياء في أدا... الرسالة مكفولة مجميع النصوص المنزلة . (المترجم)

⁽٢) كل هذه أمور سبق الرد عليها فليرجع إليها القارى. .

ثم إنناءلا ندرى ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالعقيدة التي جاء بها الرسول ما دامت 🛥

وأوشكت المحاوله أن توثني ثمارها . ولو قيض للإسلام عشرون رجلا من طينة أبى بكر وممن يصغرونه سناً فواصلوا عمله لنجح على التحقيق في بلوغ تلك الغاية . وما قارب الإسلام هذا النجاح وأوشك أن يبلغه إلا لأن بلاد العرب كانت آنذاك مركزاً للإيمان والعزيمة ، ولأنه لم يكن هناك في أي مكان آخر في العالم حتى حدود الصين ، اللهم إلا في سهوب الروسيا أو التركستان ، مجتمع آخر من رجال أحرار الأرواح لهم أى قوة من إيمان بحكامَهم وزعمائهم . ذلك أن عظيم الإمبراطورية البيزنطية هرقل قاهر كسرى الثاني (أبرويز) ، قد انحدر عن أوج مجده ونالته علة الاستسقاء ، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمراطوريته . وكانت فارس متردية في الحضيض الأوهد من دركات انحطاط الملكية . فإن قباذ الثاني قاتل أبيه لني حتفه بعد حكم دام أشهراً قليلة ، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فملأت حياة القصر نشاطاً ، ولكنها أضعفت قوة البلاد . ولم تنته الحرب بين فارس والإمير اطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بداية حكم أبي بكر . وكان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب أوسع استخدام ؛ وانتثرت في أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات للعرب المتنصرين ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس ؛ وكانت مناطق التخوم الفارسية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربي تابع للفرس ، مقر إمارته الحيرة . وكان سلطان العرب قوياً في مدن من أمثال دمشق ، حيث كان السادة من مسيحيي العرب يقرأون وينشدون أحدث ما ينتجه المتبارون من الشعراء في الصحراء من القصيد . وصدًا كانت في متناول الإسلام مقادير وفيرة من المواد اليسيرة التمثل مهيأة لتقبل دعوته .

والحملات العسكرية التي بدأت عند ذاك من ألمع ما خلتد تاريخ العالم. فقد أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستاناً مونقاً من رجال ممتازين ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في نخبة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء . فحيثها حل قائداً لجيش كان النصر حليفه ، ولما أن دفعت الغيرة الحليفة عمر بن الحطاب إلى خلعه لحيش منه لا يغتفر له لم يحدث أية ضجة ، بل راح يخدم الله في سرور وإخلاص

⁼ العقيدة لم تتأثر أولا وأخبراً بأى شيء نما يأخذه المؤلف ويدعيه المستشرقون وأعداء النبى والإسلام في قديم الزمان وحاضره . إن محمدا هو رسول الإسلام وفكره ومتلق وحيه وصاحب سنته ، ولا يمكن أن تفضل الفروع الأصول . (المترجم)

تحت إمرة الذين كان كبيراً عليهم (1). ولسنا بمستعطيعين أن نتنيع قصة هذه الحروب هاهنا ؛ وبحسبنا أن نقول إن الجيوش العربية وجهت ضرباتها في نفس الوقت إلى سوريا البيزنطية ومدينة الحبرة على التخوم الفارسية ، وكانوا في كل مكان يخيرون الناس بين أمور ثلاثة : فإما أن تدفع الجزية ، وإما أن تؤمن بالله الحق وتنضيم إلينا ، وإما أن تقتل . فالتقوا بجيوش كثيرة ، حيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فهزموها . ولم يحدث في أى مكان أن قوبلوا بشيء اسمه المقاومة الشعبية . فإن سكان أراضي الرى والزراعة الآهلة في أرض الجزيرة بالعراق ، لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو پرسبپوليس (٢) أو المدينة ؛ فإن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو پرسبپوليس (٢) أو المدينة ؛ فإن العظيمة ، أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهم ؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عن المهود . وكما كان الحرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من الهود . وكما كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق ، إذ كان الغزو يتحول الهي ثورة اجتاعية . ولكنها كانت ها هنا ثورة دينية أيضاً لها حسيوية ذهنية جديدة متميزة .

(۱) يقول شورتز فى تاريخ العالم (هلموت) إن حياة ذلك البطل الحاصة كانت تنطوى مل وصمة . فإنه ارتكب الفسق وهى خطيئة خطيرة فى مجتمع يبيح تعدد الزوجات . (المؤلف)

ولكن المعلوم أن هذه الحادثة التي يعدها ولز فسقاً قد عرضت على أبي بكر الصديق رضى الله عنه وهو من نعلم في ورعه وتقواه فلم يرها كذلك وأقر خالداً على تصرفه . وفضلا عن هذا لم يكن ما حدث من عمر رضى الله عنه عن غيرة ولا ظلم ؛ ذكر ابن الأثير أن عمراً رضى الله عنه استدعى خالداً إلى المدينة بعد العزل ، فلما وصلها وفد على عمر شكاه ، وقال فد شكوتك إلى المسلمين ، فبلله إنك في أمرى لغير مجمل ، فقال له عمر «من أين هذا الثراء ؟ قال من الأفضال والسهمان ما زاد على ستين ألفاً فلك ، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال ، ثم قال «يا خاله ؟ والله إنك على لكريم وإنك إلى لخبيب » وكتب إلى الأمصاد «إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت أن يتواكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بمعرض فننة » وعوضه هما أخذ منه .

تاريخ الكمامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ (الطبعة الأولى بالمعلمة الأهلية المصرية سنة ١٣٠١ م).

⁽٢) مدينة فارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلا إلى الشال الشرق من مدينة شيراز الحالية ، غير بعيد من مجرى نهر البلوار واسمها عند المؤرخين العرب اصطخر .
(المترجم)

وكان خالد هو الذي قاد المعركة الحاسمة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف البرموك، وهو أحد روافد الأردن. إذ كانت الكتائب - شأنها على الدوام - خلوآ من القدر الكافى من الفرسان الصالحين؛ فكأن طيف كراسوس الشيخ على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق عبثاً دون أن يتعظ بمصرعه أحد ؛ فكانت الجيوش الامبراطورية تعتمد في أعمال الحيالة على الحنود العربية المسيحية الحليفة ، وانحاز هؤلاء إلى المسلمين عندما التي الجيشان. وأقام الجيش البرنطي موكباً عظيا من القساوسة والرايات المقدسة والصور والآثار القدسية ، وساعدهم فوق ذلك الرهبان بتراتيلهم . ولكن الآثار لم يكن لها أي سحر ، كما أن الاعتقاد في الرتيل كان ضئيلا. فأما في الجانب العربي ، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيوش بخطهم وانطلقت أصوات النساء في الموخرة بالزغاريد تشجيعاً لرجافن حسب العادة العربية القديمة . وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان يتلألا أمام نواظرهم أمران: النصر وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان يتلألا أمام نواظرهم أمران: النصر وانقلبت محاولة العدو للتراجع إلى تشتيت شمله تشتيتاً لم يلبث أن تحول إلى مذبحة . وانقلبت محاولة العدو للتراجع إلى تشتيت شمله تشتيتاً لم يلبث أن تحول إلى مذبحة . وكان الجيش البيرنطي يحادب وظهره إلى النهر ، الذي أصبح للوقت مليئاً بأشلاء قتلاه .

ومن بعدها أخذ هرقل يتخلى عن سوريا شيئاً فشيئاً لأعدائه الجدد ، بعد إذ لم يمض على استرداده لها من يد الفرس إلا زمن قصير . وسرعان ما سقطت دمشق ، وبعد ذلك بسنة دخل المسلمون أنطاكية . ثم اضطروا أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لجهد آخر بذلته القسطنطينية لاستردادها ، على أنهم ما أبثوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة خالد ماكئين بها إلى آخر الدهر ،

وفى نفس الوقت حدث فى الجبة الشرقية ، بعد أن أصاب العرب نجاحاً ابتدائياً سريعاً استولوا به على الحيرة ، أن اشتدت مقاومة الفرس . وكان النزاع على العرش قد انتهى آخر الأمر بتولية ملك ملوك جديد ، واكتشاف قائد ذى مقدرة هو رستم . فالتحم بالعرب قرب القادسية (٦٣٧) . وكان جيشه جحفلا مخلطا كالذى اقتاده دارا إلى تراقيا أو الذى هزمه الإسكندر فى إستوس . كان خليطاً من الحجندين ، وكان لديه ثلائة وثلاثون فيلا حربياً ، وجلس على عرش ذهبى من فوق منصة مرتفعة خلف



(شكل ١٢٩) خريطة بدايات الدولة الإسلامية

الصفوف الفارسية وهو يلاحظ المعركة ويشرف عليها ، وهذا العرش يذكر القارئ بهيرودوت والهلس بونت وسلاميس قبل ذلك بما يزيد عن الألف سنة . واستمرت المعركة ثلاثة أيام . وكان العرب في كل يوم يهجمون ، فيصمد الجيش العظيم الفارسي في مكانه ، حتى يسدل الليل ستاره آمرآ بالهدنة ، وتلقى العرب في اليوم الثالث أمداداً ، وحاول الفرس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاسمة ، بأن قاموا بهجوم بالفيلة . ولقد جرفت تلك الوحوش الهائلة في مبدأ الأمركل شيء أمامها ؛ ثم جرح أحدها جروحاً أليمة ، فجن جنونه وأنعذ يندفع هنا وهناك بين الجيشين ، وانتقل الزعر منه إلى الفيلة الأخرى ؛ واستمر الجيشان مصعوقين فترة من الزمان في أصيل شمس الغروب ، وهما يلاحظان الجهود الجنونية التي تبلها هذه الوحوش

الشهباء الصارخة كى تهرب من جموع الرجال المسلحين المعذبة لها والتى أحاطت بها من كل جانب. وقد حدث بمحض الصدفة أن الفيلة خاضت فى الجيش الفارسى آخر الآمر ولم تخض صفوف العرب، وأن كان العرب هم الذين قيض لهم أن بهجموا هجمة فعالة فى الصميم على أثر الفوضى التى وقعت فى صفوف أعدائهم، وبعد الغسق أطبقت ظلمة الليل، ولكن الجيوش لم تتباعد هذه المرة. وظل العرب الليل كله يكيلون الضربات لأعدائهم باسم الله، ويضغطون على الفرس المحطمين المتقهقرين وبنايا وبزغ الفجر وفلول جيش رستم تفر مبتعدة عما يملأ ميدان القتال من الفوضى وبقايا المعركة المتناثرة. وكانت تلك الفلول تمضى فى طريق مملوء بالأسلحة المتناثرة والأدوات الحربية، وكثير من دواب ومعدات الحمل والموتى والذين فى النزع. فأما المنصة والعرش الذهبي فقد تكسرا، وكان رستم صريعاً بين كومة من الموتى.

وكان أبو بكر قد مات من قبل فى ٦٣٤ ، فتولى الحلافة من بعده عمر وكان تما للنبى (١) . وقد انجزت أعظم فتوح المسلمين فى عهد عمر (٦٣٤ – ٦٤٤) . فطردت الإمبر اطورية البيز نطية من سوريا طرداً تاماً . على أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس . واجتيحت أرمينية وفتحت كل أرض الجزيرة ، كما فتحت فارس وراء النهرين . وانتقلت مصر انتقالا يكاد يكون سلبياً من يد الروم إلى العرب(٢) ، وبذلك استطاع الجنس السامى فى بضع سنين ، باسم الله ورسوله ، أن يسترد تقريباً كل وقت مبكر ، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتمل الحصار ، وبذلك حدث أن

⁽١) ورد في الأصل Brother-in-Law أي عديل النبي او شقيق زوجته وهذا خطأ والصحيح هو ما أثبث هنا ، حيث تزوج النبي (ص) حفصة بنت عمر . (المترجم)

⁽٢) إن فتح العرب لمصر عزل الحبشة عن سائر العالم المسيحى ، ثم يظل العالم بعد ذلك ألف عام دون أن يسمع شيئاً عن هذه البلاد النائية التي بقيت على المسيحية . وفي منتصف القرن الخامس عشر علهرت في روما فجأة بعثة حدشية تستعلم عن بعض نقط معينة تتعلق بالعقيدة المسيحية . وكانت تشيع في العالم المسيحي أسطورة عن بلاد مسيحية عظيمة في الشرق هي بلاد پريسترچون أي القديس يوحنا . والظاهر أنها قامت على قصص محرفة عن الحبشة ومختلطة بأقاصيص أخرى عن زعماء من المغول تنصروا حلى أيدى النساطرة

« الصليب الحق » الذي حمله الفرس قبل ذلك باثنتي عشرة سنة ، ثم أعاده هرقل بمشقة كبيرة انتقل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى . على أنه ظل باقياً في أيد مسيحية ، ونصت المعاهدة نفسها أن ينعم النصارى بالتسامح في مقابل دفع الجزية على الرؤوس فقط ، وتركت الكنائس بأسرها والآثار والذخائر المقدسة بأجمعها في حوزتهم .

واشترطت بيت المقدس مقابل تسليمها شرطاً عجيباً . فإن المدينة أبت أن تسلم إلا للخليفة عمر نفسه . وكان الحليفة حتى ذلك الحين مقيما في المدينة ينظم الجيوش ويدير شئون القتال عامة . فحضر إلى بيت المقدس (٦٣٨) ، على أن طريقة حضوره والحالة التي وحدها عند مجيئه تبين مبلغ السرعة التي أوهن النجاح بها بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها . جاء في رحلة طويلة أمدها ستمئة ميل ومعه تابع واحد ليس غير ؛ وكان راكباً جملا ، وكانت عدته في السفر كبساً صغيراً من شعير , وآخر من تمر وقربة ماء وجفنة من خشب . واستقبله قواده الكبار خارج المدينة ، وهم يرتدون أثواباً فاخرة من الحرير ويمتطون صهوات جياد مزركشة السروج والأعينة . وتملك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب . فانزلق من رحله ، وجمع بيديه الثرى والأحجار ، ثم لطخ هؤلاء السادة المتأنقين وهو يصيح بهم سباباً . فللذاكانت هذه الإهانة ؟ وما معنى هذا التأنق ؟ وأين المقاتاون الأشداء ؟ وأين رجال الصحراء الحشنون ؟ إنه ليأبي على هؤلاء ﴿ الطواويس ﴾ المتأنقين المعجبين بأنفسهم أن يسيروا في معيته . فواصل المسير مع تابعه ، وسار الأمراء المتأنقون من خلفه عن بعد ـ خارج مجال قذفه إياهم بالأحجار . التقي منفرداً ببطريرك بيت المقدس ، وهو الذي تملك المدينة فيا يظهر من حكامها البيزنطين . وأخذ يتعامل والبطريرك على ما يرام فطافا معاً بالأماكن المقدسة ، وأنشأ عمر ، وقد هدأت ثائرته بعض الشيء، ، يوجه النكات الساخرة الماكرة إلى أتباعه ذوى الثياب الفاخرة .

ومما له دلالته كذلك على تزعة ذلك الخليفة رسالة عمر إلى أحد عماله ــ وكان ابتنى لنفسه قصراً بالكوفة ــ يأمره فيها أن يهدمه ثانية .

كتب إليه يقول : « بلغنى أنك شئت أن تحاكى إيوان كسرى(١) ، وأنك شئت أن تحيط نفسك بالأبواب التي كانت له ، أفتر غب كذلك أن يكون لك ما كان لكسرى

⁽۱) بمدينة طيشفون .

من حراس وحجاب؟ أم تريد أن تباعد بينك وبين المؤمنين وتجعل بين مجلسك وبين الفقراء حجاباً؟ أم تريد أن تخالف سنة « النبي » ، وتصير إلى ما كان عليه ملوك الأعاجم من الأبهة والفخامة ، فتردى في نار جهنم كما تردوا؟ »(١) .

٦ - أيام عظمة بني أمية

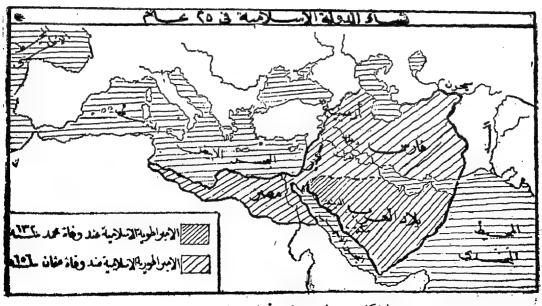
كان أبو بكر وعمر بن الحطاب(٢) أعظم شخصيتين في تاريخ الإسلام . لا يتسع المجال هنا لوصف الحروب التي تم بها في خمس وعشرين ومئة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السناد إلى المحيط الأطلسي وأسبانيا ، ومن قشُّغَرَ على حدود الصن إلى مصر العليا . وبحسبك خريطتن لتبيان المدى الذى دفع به الباعث القوى للعقيدة الجديدة الفكرة العربية والقرآن العربى قبل أن استطاعت النزعة الدنيوية أي روح التجارة والنهب القديمة وبريق الرداء الحريري، أن تستعيد كامل سلطانها القاتل لذكاء العرب وإرادتهم . وسيلحظ القارئ كيف سار المد العربى العظم في آثار خطى يوآن تشوانج ، وكيف ثم في سهولة بإفريقية أن فنوح الوندال السهلة قد كُروت في الانجاه المضاد أعني من الجنوب إلى الشهال ، وإذا خامرت القارئ أية أوهام مضللة في أن حضارة من الحضارات الممتازة سواء أكانت فارسية أم رومانية أم هلينية أم مصرية ، عمرها هذا الفيضان الجديد ، فإنه كلما سارع إلى نبذ مثل هاته الفكرات من عقله كان ذلك خيراً له . فإن الإسلام ساد لأنه كان خبر نظام اجتماعي وسياسي استطاعت تلك الأيام تقديمه . لقد ساد لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً تبلد حسها سياسياً ، تُسلّب وتُنظم وتُخوّف ولا تُنظم ، كما وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال . كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية كان لها نشاط فعلى فى العالم حتى ذلك البوم ، وكان يهب الجمهرة الغفرة من البشرية عامة نظاماً أفضل من أى نظام آخر سبقه . وكان النظام الرأسمالي الاسترقاقي في الإمبراطورية الرومانية ، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتهاعية في أوربا ، قد انحلت انحلالا تاماً وانهارت قبل أن نشأ الإسلام . ولم يحدث

schurtz in Helmolt's History of the World. : نقلا صن (١)

⁽٢) درج كتاب الغرب على تبسية هذا الخليفة باسم عمر الأول ، وتسمية عمر بن عبد العزيز الخدية الأدرى والمد عد الثاني المنافية ... ١١١ - ...

أن دب دبيب الانحلال في الإسلام أيضاً ، إلا عندما ضاعت ثقة البشرية في إخلاص ممثليه .

ولقد تبددت معظم طاقته فى غزو بلاد فارس والتركستان وتمثّلهما . وكانت أقوى طعناته هى الموجهة من فارس نحو الشهال والمنطلقة إلى الغرب عبر مصر ولو أنه ركز قوته الأولى على الإمبراطورية البيزنطية ، فلا شك فى أنه كان مستطيعاً انتزاع القسطنطينية حوالى القرن الثامن والوصول إلى قلب أوربا بنفس السهولة التى وصل بها إلى هضبة الهامير . حقاً إن الحليفة معاوية حاصر تلك العاصمة سبع سنوات (٧١٧ ، ٧١٧) ، وكذلك فعل سليان (٧١٧ ، ٧١٧) ، بيد أن الضغط لم يدعم ولم يتواصل ، وظلت الإمبراطورية البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصناً متداعياً يدفع الشرق عن أوربا . ولا جدال أن الإسلام كان يستطيع على التحقيق أن بجد فى المتنصرين حديثاً أو الباقين على الوثنية من كان يستطيع على التحقيق أن بجد فى المتنصرين حديثاً أو الباقين على الوثنية من كان وبلغاريين وصربيين وصقالبة وسكسون – رجالا مستعدين للانضواء تحت رايته استعداد أثراك آسيا الوسطى . ومع أنه بدلا من الاستمساك



(شكل ١٣٠) خريطة نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عاما

بالاستيلاء على القسطنطينية ، دار إلى أوربا أولا بطريق إفريقية وأسبانيا الملتوى البعيد ، فإنه لم يصادف إلا فى فرنسا فى نهاية خط مواصلات هائل البعد عن بلاد العرب قوة كافية البأس لإيُقاف تقدمه .

وقد تسلط سادة مكة البدو على الإمبراطورية الجديدة منذ البدايه . فإن أبا بكر الحليفة الأول انتخب في المدينة للخلافة بطريقة شكلية غلب فيها الصياح ، وهكذا كان شأن عربن الحطاب وعمان الحليفة الثالث ، على أن ثلاثهم كانوا مكبين من أسر عريقة . ولم يكونوا من رجال المدينة . ومع أن أبا بكر وعمر كانا رجلي بساطة وتقشف مطلق واستقامة ، فقد كان عمان أدني منهما مرتبة ، وهو رجل من طراز أصحاب الثياب الحريرية . فلم يكن الغزو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب ، وبخاصة من أجل مكة ببلاد العرب ، وبالأخص لنفسه هو وللمكبين ولعشرته الأقربين وبخاصة من أجل مكة ببلاد العرب ، وبالأخص لنفسه هو وللمكبين ولعشرته الأقربين بني أمية . كان رجلا ذا مكانة شريفة ، نصب نفسه لحدمة وطنه وبلدته وقومه . ولم يسلم مبكراً كما فعل سلفاه الأولون(١) . وانضم إلى النبي لأسباب سياسية في عملية أخذ وعطاء عادلة [كذا ! . . .] وبتوليته يكف الحليفة عن أن يكون رجلا عجباً له شخصية مدهشة متوقدة ، ويصبح ملكاً شرقياً ، كثكير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحن ، ولكنه قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحن ، ولكنه لا يزيد على ذلك شيئاً .

وإن حكم عمّان ومقتله ليبرزان بوضوح عواقب ما حدث في عهد النبي (٢) ، عقدار ما شهدت حياة أبى بكر وعمر بما انطوت عليه تعاليمه من جذوة قدسية . إذ كان محمد صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى الديبلوماسية في أوقات كان أبو بكر يجنح فيها إلى الصلابة ، وكان العنصر الجديد من الجشع الأرستقراطي الذي ظهر بتولية عمان أحد

⁽١) الصحيح أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن عثمان أسلم قبل عمر وثلاثتهم من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكلهم من المهاجرين المخلصين لله والرسول ولم يكن لأحدهم بنية خاصة من وراء إسلامه فقد ضحى كل مهم في سبيل الإسلام بالنفس والنفيس وتحمل آلام التعذيب والتشريد والفقر والمهانة من أجل عقيدته ودينه . وعن عثمان بن عفان وفضله على الإسلام والثورة التي أدت إلى مقتله ، انظر الموسوعة العربية الميسرة . (المترجم)

⁽٢) أسلفنا عليك القول فى تفنيد تلك المزاعم بما فيه الكفاية . (المترجم).

ثمرات تلك التصرفات الديبلوماسية . وكانت عواقب ذلك الحريم ، حريم النبى المتجمع من غير تمحيص ، والمنازعات والغيرات العائلية التي استكنت خلف أمور المسلمين أنناء حكم الحليفتين الأولين ، قد أخذت تتسلل إلى ضوء النهار . فإن علياً وهو ابن عم النبي وابنه المتبني (١) وزوج ابنته فاطمة ، كان يعد نفسه صاحب الحق في الحلافة دون سواه . وكانت ادعاءاته تياراً خفياً يترقرق معبراً عن امتعاض المدينة ، وعشائر مكة المنافسة لارتفاع شأن بني أمية . ولكن عائشة زوجة النبي الحظية ، كانت تغار على الدوام من فاطمة وتعادى عليا . فانحازت إلى عيان . . . وبذلك تنهار بداية قصة الإسلام البديعة فجأة في حمأة هـذا النزاع والمناوشة بين الوراث والأرامل (٢) .

⁽١) لم يتبن النبى صلى الله عليه وسلم عليا وإنما هو قد ضمه إليه ؛ وهو ابن عمه أبي طالب ، في أيام اشتدت فيها الأزمة على الناس وفعل مثل ذلك العباس بجعفر بن أبي طالب تحفيفاً عن أبي طالب لكثرة عياله حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله للمرجم)

⁽٢) إن كان هذا القول من جانب المؤلف هو بسبب تاخر على كرم الله وجهه عن بيعة أبى بكر بما عده الشيعة سندًا لأحقيته في الخلافة دون أبي بكر وعمر وعثمان ؛ فإننا نبادر إلى القول بان يمَّ إنما تاخر عن بيعة أبي بكر لا لأنه يرى أحقيته في الحلافة ، وإلا لظل طوال حياته دون مبايعة ، وإنما كان ذلك منه لأنه استنكر أن يبرم الأمر من دونه ومن دون بني هاشم فلما تبين له إخماع المسلمين دخل في الجماعة وبابع . فاما أمهات المؤمنين فما أبعد هذا القول فيهن عن الصحة ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعقد على واحدة من زوجاته إلا لسبب هام وذلك ظاهر من كتب السيرة والتفسير ، فبعضهن كان زواجه منها بسبب التثمريم كما حدث في حالة زينب بثت جحشي مثلا ، وبعضهن كان زواجه منها للتآ الف وإحكام الروابط كها حدث في حالة حفصة . وبعضهن للوفاء لهن بما يكفيهن شر العيلة مثل أم حديبة مثلا النتر . فإن أردت الاستزادة فعليك بكتب السيرةففيها تفصيل ذلك بما يشهد أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يتزوج دون غرض تقتضيه الرسالة السمحة أو تمحيص ، وإنما كان له من زواجه من كل واحدة من زوجاته رضي الله عنهن غرض يهدف إليه ، ويضاف إلى ذلك أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل في شئون الدولة إطلاقاً لا في حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولا بعده . وما كان خروج هائشة رضى الله عنها مع الزبير وطلحة عن كراهية لعلى كرم الله وجهه ولكن لأن الزبير وطلحة أوهماها أن عليا لم يكتر ث لدم عثمان المطلول فمخرجت معهما . حتى إذا مرت بالحوأب واشتد ذابح كلابها سأل سائل عن اسم المكان فلما ذكر على مسمع منها وتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم * أيتكن تفبحها كلاب الحوأب الغ » صر خت وأبركت الحمل وهمت بالرمبوع وظلت مكانها حتى تصايح الناس بإشراف على كرم الله وجهه على اللحاق بهم فسارت معهم إلى الـصرة. =

وفى ٦٥٦ رجم جماعة من الرعاع عثمان – وهو شيخ فى الثمانين – بالأحجار فى شوارع المدينة ثم طاردوه إلى منزله وقتلوه . وأصبح على آخر الأمر خليفة لكى يقتل بدوره هو أيضاً (٦٦١) . وفى إحدى معارك هاته الحرب الأهلية ميزت عائشة نفسها وقد أصبحت سيدة عجوزاً شجاعة حادة الطبع ، بأن قادت (١) ضد على معركة وهى فى هودج على جمل . فأسرت وأحسنت معاملتها .

وبينها كانت جيوش الإسلام تتقدم منصورة فى غزوها المظفر للعالم ، أصابها هذا الداء ، داء الحرب الأهلية بضربة على أم رأسها . ماذا كانت قيمة « حكم الله فى العالم » لدى عائشة ، ما دامت تستطيع أن تقضى على فاطمة الممقوتة ؟ وماذا كان يجنى الأمويون وأتباع على على السواء من وحدة البشرية ، وقد قام بينهم مثل ذلك النأر العظيم الحار الذى يتلهون به ويتسلون والذى الخلافة هدفه وغنيمته فى النهاية (۲) ؟ لقد انقسم العالم الإسلامي شطرين ، قسمته الضغائن والجشع والسخافة الحزبية لحفنة من رجال ونساء فى المدينة . ولا يزال هذا الشقاق قائماً إلى اليوم . فإن هناك حتى يومنا هذا قسما رئيسيا من المسلمين هم الشيعة ممن يدينون بفكرة حتى على الورائى فى الحلافة « كمادة رئيسية فى عقيدتهم » ! وهم منتشرون فى فارس والهند . ولكن شطراً آخر يعادل هولاء فى الأهمية هم « السنيون » ، الذين لا يسع ولكن شطراً آخر يعادل هولاء فى الأهمية هم « السنيون » ، الذين لا يسع على الراقب المحايد إلا أن يوافقهم على آرائهم ، ينكرون هذه الإضافة العجيبة إلى عقيدة محمد البسيطة . ونحن – على قدر ما نستطيع أن نستنج على بعد الزمان بيننا وبينهم – على أن عليا كان فرداً عاديا جداً .

ومراقبة هذا الصدع يتمشى فى بداية الإسلام البديعة الرائعة ، أشبه الأشياء علاحظة حالة مريض يتطرق إلى عقله الضعف . وإنا لنحيل القارئ إلى « الأدب » ٣

⁼ وهذا الحروج من جانب عائشة رضى الله عبما لم يكن مبما إلا حفاظاً على الدم المطلول ومطالبة بمعاقبة المجرميى وإن كانت قد حدعث بهذا الأمر وحميت عليها الأغراض الحقيقية للذين حفزوها على الحروج معهم . والواقع أن مرد الفتنة الكبرى كلها هو شيخوخة عبان وتسلط بى أمية في أقامه على شئون المسلمين تسلطاً السخط الناس (انظر الموسوعة العربية الميسرة) . (المترجم)

⁽١) هي لم تقد المعركة وإنما كان هودجها في وسطها لأن أنصار طلحة والزبير أبوا إلا الالتقاف حول الهودج بزعم الدفاع عنه (المترجم)

⁽٢) يبلغ من شدة إعجاب المؤلف ببداية الإسلام واندفاعته الأولى وهي معجبة فعلا، أن يتسخط هذا السخط البالغ على الحلافات التي نشبت بين كبار القادة . ولكن المؤلف يغلو ويقسو وينسب الأشياه إلى غير أسبابها الحقيقية كاعتقاده الخاطئ، في غيرة عائشة من فاطمة . (المترجم)

⁽٣) يفصد المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات التي ظهوت حول ذلك الموضوع ، فالأدب هنا مستخدمة بمعناها العام الواسع . (المترجم)

الكثير المدون فى هسذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلم كيف أن الحسن بن على سمته زوجته ، وكيف قتل أخوه الحسن . ولسنا نتجاوز أن نذكر اسميهما فى هذا المكان ، لأنهما لا يبرحان يمسدان قسما كبيراً من البشرية بمجال مفعم بالعواطف التشيعية والامتعاض المتبادل . وهما أعظم الشهداء مكانة لدى الشيعة . وقد أحرقت الكعبة البيت العتيق بمكة بين غدو المصادمات الناشبة بين مختلف الأطراف ورواحها ، وطبيعى أن تبتدئ لشأنها فى إثر ذلك منازعات لا نهائية بين المسلمين : فهل يجب أن يعاد بناوها فى نفس هيئتها القديمة بالضبط أو على مقياس أكبر كثيراً ؟

لقد رأينا مرة أخرى في هذا القسم وسابقه ، كيف أن الكفاح الحتمى لهذا الدافع الحديد ، الذي هو أحدث الدوافع وآخرها ، والذي يدعو إلى الوحدة في الشئون العالمية ، والذي يكافح ما ركب في البشرية من نزعات دنيوية ، ورأينا كذلك كيف أن دار النبي بما سادها من تقلقل وتعقيد كانت منذ البداية أشبه الأشباء بتركة مثقلة بالأعباء في العقيدة الجديدة (۱) . ولكن لما كان هذا التاريخ ينحدر بعد ذلك إلى الجرائم العادية والمؤامرات التي تحدث في أية أسرة مالكة شرقية ، فإن دارس التاريخ سيدرك نقطة جوهرية ثالثة في إصلاحات عمد العالمية . فإنه كان عربياً أمياً ، غير ملم بالتاريخ ، ولا بكل تجاريب روما وبلاد الإغريق السياسية ، ويكاد يكون غير ملم كذلك بتاريخ بلاد المهودية الحقيقي (۲) ، فترك أتباعه من غير ضورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة العامة و تركزها (۳) ، وخلفهم من غير صورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة التي هي الطابع الغالب على تعاليم الإسلام الجوهرية (مع استعالنا للكلمة بمعناها العصرى) ،

⁽۱) وما دخل دار النبى بإدارة دفة سياسة الدولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ؟ الحق إننا لا نجد مبرراً لحذا الإقحام الغريب . وكل ما فى الأمر أن بنى أمية انتهزوا فرصة ضعف عثمان وقرابتهم منه فوطدوا مركزهم فى الدولة . وكانوا قوماً تجاراً دنيوين ، ذوى نزعة جاهلية ولم يجدوا تلقاءهم سوى على بن أبى طالب وهو رجل زاهد لم يؤت قدرتهم على الختل والخداع . (المترجم)

⁽٢) هذه الأمية و عدم الإلمام بخبرات روما والإغريق السياسية و بتاريخ أبرض اليهودية الحقيق هي البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواضع متعددة مها على سبيل المثال :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون » (سورة العنكبوت).

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى من نشاء من عبادنا وإنك تهدى إلى صراط مستقيم » . (سورة الشورى) .

(المترجم)

(٣) لعل المؤلف يشير بهذه العبارة إلى أن النبي لم يستخلف أحداً من بعده ، وفاته أن الشورى من النقاط الأساسية في حكم الإسلام بنص القرآن . وذلك ما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة الأول . (المترجم)

وكان حكمه حكماً فردياً مطلقاً ، ومن بم ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة . وبذا لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقدماً بل تراجعا(۱) عن الحريات التقليدية وقوانين الصحراء العرفية . وكان نقض هدنة الحج^(۲) الذي أدى إلى معركة بدر أبشع وصمة للإسلام الناشي . والله هو المدير الأعلى للإسلام نظريا ، ولكن سيده الفعلى كان . على الدوام أي رجل يبلغ من القوة ومن موت الضمير ما يجعله يسلب الخلافة ويستمسك بها . وإذ أن رجلاكهذا يصبح عرضة لشبوب الثورات عليه والإقدام على اغتياله ، فإن قانون الإسلام النهائي كان إرادة ذلك الرجل .

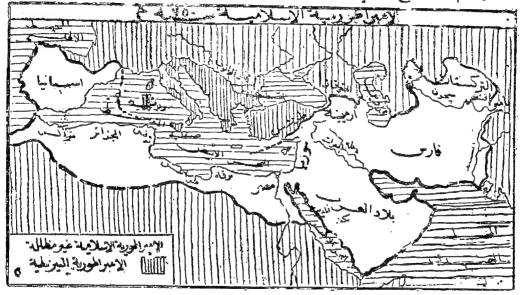
وقد ارتفع شأو أسرة بنى أمية زماناً بعد موت على وظلت قرنا من الزمان تقريبا تعطى الإسلام حكامه وولاته .

ويبلغ من انشغال موَّرخي العرب بالمنازعات على العرش وبجرائم ذلك العصر أن

⁽١) إن كان الانصراف عما كانت عليه الحاهلية من إباحية وتفلت وخروج عن السية الإنسانية ومنافاة لروح كل قانون وخلق وعدم وجود حكومة موحدة ولا نظام معمول به ، يعد في نظر المؤلف تراجعا فانعم به من تراجع . (المترجم)

⁽٢) يشير المؤلف هنا إلى سرية عبد الله بن جحش ويتخد عنها مغيراً على الإسلام ؟ وثتى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرسل عبد الله بن جحش وأصحابه لغزو أو شيء من أعمال القتال . وإنما أرسله للاستطلاع فقط ؟ وذلك ظاهر تماماً من كتابه (ص) لعبد الله ، كما أن المؤلف أغفل غضب النبى من القوم عند عودتهم بقوله ؟ « ما أمرتكم بقتال في الثبر الحرام » ووقف العبر والأميرين وأبي أن ياخذ من ذلك شيئاً ، وكذلك سقط في أيدى القوم وظنوا أنهم هلكوا واشتد تعميف المسلمين لم حتى أنزل الله تبارك وتعالى « يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام والمحراج أهله منه أكبر من القتل » (سورة البقرة) وفي هذا أبلغ رد علي المؤلف الذي يتخذ من هذه السرية وسيلة لأخذ الماخذ على الإسلام في بدايته متناسياً صد الكفار المسلمين عن سهيل الله ، وعن المسجد الحرام ، وإخراج المسلمين منه وهم أهله ، وفتنتهم للمسلمين مع أن كل واحدة من هذه أشد من القتل وأنكي من القتال وستدعيهما . هذا ، وزيادة في الإيضاح نقول إن سرية عبد الله ين حجث لا علاقة لها بغزوه بدر الكبري لأن المسلمين هم اللمين خرجوا لاعتراض عبر قريش القادمة من الشام فخرج جيش قريش الكبري لأن المسلمين هم اللمين خرجوا لاعتراض عبر قريش القادمة من الشام فخرج جيش قريش بمضهم دم الحضرى (الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش) وسيلة التحريض على من قال منهم بالمودة بمضهم دم الحضرى (الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش) وسيلة التحريض على من قال منهم بالمودة دون قتال ، وبذلك كانت قريش البادئة فجعله الله نكالا عليها ونصر المسلمين نصراً مبيناً . (الممرحم) تاريخ الإنسانية جـ٣

أصبح من العسر علينا أن نتتبع التاريخ الحارجي لتلك الفترة . ومهما يكن الحال فإنا نجد سفنا إسلامية تمخر البحار وتهزم الأسطول البزنطي في قتال بحرى عظيم بإزاء ساحل ليكيا (Lycia) (وهي إقليم جبلي ج . غ . آسيا الصغرى) (٢٥٥ م) ، ولكن كيف احتاز المسلمون هذا الأسطول المظفر في هذا الوقت المبكر من تاريخهم ؟ ذلك أمر لسنا نعرفه بوضوح . والراجح أنه كان في معظمه مصريا . ولا شك أن الإسلام ظل بضع سسنين متحكما في شرق البحر المتوسط ، وفي ٦٦٩ ثم في ٢٧٤



(شكل ١٣١) خريالة الإمبر اطورية الإسلامية عام ٧٥٠ م

قام معاوية (771 – 770) أول خليفة أموى عظيم بهجومين بحريين على القسطنطىئية . وكان لزاما أن يكون الهجومان بحريين لأن الإسلام طالما كان تحت الحكم العربى ، لم يتغلب قط على حاجز جبال طوروس (١) . وفى نفس المدة ظل المسلمون يدفعون كذلك بغزواتهم أبعد فأبعد في صميم آسيا الوسطى . وعلى حين كان الإسلام آخداً في الاضمحلال فعلا في منطقته المركزية ، كان لا يفتاً مع ذلك يضم إليه حشوداً عظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحا جديدة بين الشعوب التركية التي كانت حتى ذلك الزمان منقسمة على نفسها هائمة لا وجهة لها في الحياة . ولم تعد المدينة بعد

⁽١) وفى عهد معاوية أيضاً استولى العرب على معظم جزر شرق البحر المتوسط مثل رودس وأقريطش ولدواد وقد ص بقيادة مقدم الحند جنادة بن أمية وعبد الله بن أبي السرح وغيره من أمراء البحر المظفرين . (المترجم)

مركزاً صالحا لمغامرات الإسلام الهائلة فى آسيا وإفريقية والبحر المتوسط ، وبذا أصبحت دمشق العاصمة الطبيعية للخلفاء الأمويين .

ومن أعظم هؤلاء - يوم تبددت إلى حن سحب المؤامرات على العرش - عبد الملك (١٠٥ - ١٨٥) والوليد الأول (١٠٥ - ١١٤) االذان ارتفع شأو الأسرة الأموية في عهديهما إلى ذروة المجد والعظمة . فانتقل الحد الغربي إلى جبال البرانس ، على حين كانت ممتلكات الحليفة في الشرق تتاخم حدود الصين . وأنفل الحليفة سليان بن الوليد(١) (٢١٥) سلسلة ثانية من هجات المسلمين على القسطنطينية ، كان أبوه(٢) قد وضع خططها وأعد العدة لها . وكان الهجوم بحرا شأن ما حدث أيام الحليفة معاوية قبل ذلك بنصف قرن من الزمان - وذلك لأن آسيا الصغري كما أشرنا من تونا لم تكن غزيت بعد . وقد أخذت السفن بصفة رئيسية من مصر . وأبدى الإمبر اطور ليو الإيسوري(٣) - وهو مغتصب للعرش - في الدفاع مهارة وعناداً الإمبر اطور ليو الإيسوري(٣) - وهو مغتصب للعرش - في الدفاع مهارة وعناداً خورة نن للمعتاد فخرج من داخل أسوار المدينة خروجا مباغتا رائعا تمكن به من إحراق معظم سفن المسلمين ، وقطع خط الرجعة على الجيوش التي كانوا أنزلوها على الناحية الأسيوية من البسفور ، وبعد حملة دامت سنتين في أوربا (٢١٦ - ٢١٧) دشور المسلمون . ثم جاء شتاء لا نظير له في القساوة فأكمل هزيمهم .

ومن هذه الآونة فصاعدا يبدأ مجد السلالة الأموية فى الأفول. لقد تبدد عند ذاك الدافع الأول الهائل للإسلام. فلم يحدث بعد ذلك أى توسع فضلا عن ظهور اضمحلال بيتن فى الحاسة الدينية. وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين، ولكن هضمه لمؤلاء

⁽١) سليمان مو ابن عبد الملك وهو أخو الوليد وليس ابنه . (المترجم)

⁽٢) ظاهر أن المقصود بابيه هنا الوليد بن عبد الملك وهو أخوه كما نوهنا قبلا . (المترجم)

⁽٣) انظر كتاب « الحضارة البيزنطية » تاليف رانسيمان (ص ٣٩ – ٤٥) وقد عربه المترجم لإدارة الترجمة والألف كتاب [مكتبة النهضة المصرية] .

والإمبراطور لاوون (ليو الإيسورى) (٦٨٠ – ٧٤٠) جندى اغتصب العرش فى ٧١٧ ، ونجح فى الدفاع عن القسطنطينية على العرب . (المترجم)

الملاين كان هضا ناقصا وسيثا . فإن إمبراطورية خلفاء محمد الهائلة الجديدة هذه ابتعلت المدن والشعوب والطوائف والأجناس بأكملها والوثنيين العسرب واليهود والمسيحيين والمانوية والزرادشتيين والوثنيين الطورانيين . وحتى ذلك الحين ، كان من الخصائص المشتركة بين جميع عظاء أصحاب الرسالات الدينية ، الداعين إلى توحيد العالم ، الوقوع في خطأ شائع ، هو قبولهم المثل العليا الأخلاقية والدينية التي مال الناس اليها قبل زمانهم كما لوكانت مثلا عليا عمومية . فكانت دعوة محمد مثلا متجهة إلى الفروسية التقليدية ، وإلى ما وقر في نفوس أذكياء العرب في زمانه من إحساسات بالوحدة الربانية . وكانت هذه الأمور كامنة في طوية مكة والمدينة وضميرهما .

فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت فى قالبها الخاص ، اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها ، والتزمت أن تنمو فى تربة أخرجتها عن صورتها السوية وحولتها عن طريقها القويم . وكان مرجعها الوحيد هو الفرآن . وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التى لم تتذوق نغات اللغة العربية ، أعنى كما يبدو لكثير من العقول الأوربية اليوم حليطا من البلاغة الرائعة المعنى الممتازة الروح التى عازجها – ولنقلها صراحة – قعقعة غامضة لاكيف لها(٢) . وقد عاب مغزاه الحق

⁽١) لو صح هذا الزم لكان لزاماً أن تسير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فى يسر وسهولة ، مع أن الواقع أنها لقيت فى مكة مهدها ، معارضة قوية وعداوة مرة أليمة وأذى شديداً من المكيين للمسلمين ومعهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ولبث المسلمون يتجرعون كؤوس العذاب ألواناً ولم يسلم من ذلك أحد منهم ، كها تعاقد المكيون على مقاطعة الهاشميين وحرمانهم اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً من كل ما هو مقرر لغيرهم ، لقاء نصرتهم مد عليه الصلاة والسلام وعدم تسليمه لحم ليقتلوه ويستريحوا عاكاله لأصنامهم من السب ولتسفيهه أحلامهم ونيله من عقولهم ومداركهم ، بل إنهم عقدوا الخناصر بعد أن أعيتهم فيه الحيلة ، على قتله وتفريق دمه فى القبائل إعناتاً لبنى هاشم وإصحازاً هم عن إشهار السيف للثار . وعندئذ هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثر ب وتفتحت بذلك الآفاق للدعوة المرة وجعل الدين ينتشر بالطرق الطبيعية التى كان أهمها وأنجعها الإقناع بالحجة الدامغة والمنطق السليم المعجز . (المترجم)

 ⁽ ۲) هذا رأى لا نستغربه على رجل انعدم إلمامه باللغة العربية أصلا ، ناهيك بتذوق أدبها وبلاغتها .
 تلك المؤهلات التى احتازها الوليد بن المغيرة أحد أقيال مكة زمن النبى صلى الله صليه وسلم ، والتى نؤهله ==

عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غياباً تاماً . ذلك عندنا هو مرد ما أظهرته العناصر الفارسية والهندية من المسلمين من استعداد للانضام إلى صفوف الشيعة بسبب نقطة خلاف كانوا عن الأقل يستطيعون إدراكها والإحساس بها . وإلى نفس المحاولة للتوفيق بين ذلك الشيء الجديد وبين التراث القديم . يرجع ذلك الغلق الفقهى الذي سرعان ما نهض يتساءل : أكان القرآن – ولم يبرح منسذ الأزل – قديماً قيد م الله حان ما نهض يتساءل : أكان القرآن – ولم يبرح منسذ الأزل – قديماً قيد م الله لله وإنا لتأخذنا الدهشة حيال خروج هسذه الفكرة عن كل معقول إذا نحن لم نتبين فيها على الفور محاولة حسنة القصد لمسيحى من رجال العلم أسلم ، وآراد أن يسبخ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة عند ألله وكان الكلمة الله (٢) .

ولم يحدث قبل ذلك أن واحداً من عظاء أصحاب الرسالات الدينية الداعين إلى وحدة العالم قد أظهر يوماً أدنى فهم للواجب التعليمي العظيم ، واجب الشرح الواضح المنوع فضلا عن التنظيم الفكرى الذى تنطوى عليه مقدماتها وقضاياها الأولية : بل تراهم جميعاً يكررون نفس القصة ، قصة الانتشار السريع الذى نشبه بقليل من الماء صب فوق مسطح عظيم ، مصحوبة بكل ما يعقب ذلك من سطحية وفساد ،

ولا ينقضى طويل زمن حتى نسمع الأقاصيص عن خليفة أموى هو الوليد الثانى (٧٤٣ – ٧٤٣) ، الذى هزأ بالقرآن وأكل الخبزير وشرب الحمر ولم يتم الصلاة . وربما كانت هذه القصص صيحة أو ربما كانت تشاع لأسباب سياسية . ومهما تكن الحال فقد نشأت في مكة والمدينة حركة تطهرية رجعية تقاوم استخفاف دمشق و ترفها . وثمة عائلة عربية أخرى عظيمة هي عائلة العباس (العباسيين) ظلت تدير الحطط زمنا طويلا للاستيلاء على صوبحان الحكم ، فأنشأت تستغل التذمر العام والنزاع بين بني أمية

أن يتذوق ما في القرآن من فصاحة وبلاغة ومعاتى فذة . إذ يصف ما سمع من محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن « والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لثمر أعلاه ، ومغدق أسفله ،
 وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته » البداية والنهاية ج ٣ ص ٢١ .

⁽١) سير مارك سايكس .

⁽ ٢) لِنجيل يوحنا ، الأصحاح الأول : آية ١ .

وبنى العباس أقدم من الإسلام . وكان متصل الحلقات قبل ميلاد محمد . وحمل هولاء العباسيون لواء «شهداء » الشيعة : على وابنيه الحسن والحسين ، وأقاموا الدليل على أنهم والشيعة سواء (1) . وكان علم بنى أمية أبيض ؛ فاغذ العباسيون علما أسود حداداً على الحسن والحسن ، وأسود لأن السواد أشد تأثيراً فى النفوس من أى لون آخر . وفضلا عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد على مغتصب . وفى ٧٤٩ قاموا بثورة محكمة التدبير ، وطاردوا آخر خليفة أموى وقتلوه بمصر . وكان أبو العباس السفاح أول الحلفاء العباسيين ، فبدأ حكمه بأن جمع فى سجن واحد كل ذكر حى من سلالة أمية استطاع أن يضع يده مليه ، وأمر بهم جميعا فذبحوا . وقد جمعت أجسامهم فيا يقال ، ومد من فوقها بساط من أدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيعة الكئيبة ، فيا يقال ، ومد من فوقها بساط من أدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيعة الكئيبة ، خلس أبو العباس ومستشاروه يطعمون (٢) . زد على ذلك أن قبور خلفاء بنى أمية نبشت وأحرقت عظامهم وذريت بين مهب الرياح الأربعة . وهكذا انتقموا آخر الأمر لما حل بعلى من مظالم ، وزالت أسرة أمية من التاريخ .

ومن الأمور الشائقة الجديرة بالملاحظة ، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بخراسان وكان إمبراطور الصين يشد أزرها .

٧ ــ انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين

على أن ذرية على لم يقداً لها أن تسهم فى هذا النصر طويلاً . فإن العباسيين كانوا مغامرين وحكاما من طراز أقدم من الإسلام . فلما قضوا من قصة على وطرهم المنشود ، كان ثانى إجراء قام به الخليفة الجديد أن يتصيد الأحياء من عترة على وفاطمة ويذبحهم .

⁽١) ليست الشيمة عليا وابنيه الحسن والحسين ، وإنما هي حركة ينتصر أهلها لعل وابنيه وأبنائهم على أنهم أصحاب الحق الأول في الحلافة أي أنهم كانوا يناصرون مبدأ الوراثة وهذا هو المبدأ الذي أكد العباسيون أنه يرجح حقهم في الحلافة على حق الأمويين لأنهم أبناء هم النبيى . وهنا بالذات يضع المؤلف يده دون أن يدرك على أساس الصدع الذي ظهر في الإسلام بسبب شيخوخة الحليفة عثمان ، وهو الشقاق القديم في الحاهلية بين الحاشمين والأمويين . (المترجم)

[.] ليس هذا عمل أبى العباس وإنما هو عمل عمه عبد الله وقائد جيشه وواليه على الشام . (Υ)

وواضح أن التقاليد القديمة فى فارس الساسانية وفى فارس قبل الإغريق كانت فى طريق عودتها إلى العالم . وبارتقاء العباسيين عرش الحلافة أفلتت السيادة البحرية من قبضة الحليفة وذهبت معها شمال إفريقية وأسبانيا التى نشأت فيها دول إسلامية مستقلة ، وكانت أسبانيا من نصيب رجل من بنى أمية أفلت من الموت .

وانتقل محور الأهمية في الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى أرض الجزيرة . وشيد المنصور الذي تولى الحلافة بعد أبي العبلس عاصمة جديدة لنفسه في بغداد بالقرب من خرائب المدائن (طيشفون) (Ctesiphon) العاصمة الساسانية القديمة . وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسواء ، وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية . ولم يعد للمدينة ومكة آنئذ من أهمية قط إلا كمركزين للحج يولى المؤمنون وجوههم شطرهما في الصلاة (١) . على أن العربية استمرت في انتشارها وحلت محل اللغة الرومية وأصبحت لغة المتعلمين في كل أرجاء العالم الإسلامي لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة القرآن .

ولن ندلى إليك إلا النزو اليسير عن ملوك العباسيين بعد أبى العباس . وكانت تنشب سنة بعد سنة فى آسيا الصغرى حرب مناوشات سريعة رجراجة ، لم تفز فيها بيز نطة ولا بغداد بأى كسب دائم ، وإن وصل المسلمون فى غزوهم مرة أو مرتين إلى البسفور . وظهر نبى كذاب هو المقنع ، ادعى الألوهية واستمر مادة قصيرة الأمد ، ولكنه أتعب الدولة وشغلها . ودبرت مؤامرات وشبت ثورات ترقد اليوم فى أسفار التاريخ هزيلة باهتة كما ترقد الزهرات الميتة بين دفتى سفر قديم . وثمة خليفة عباسى التاريخ هزيلة باهتة كما ترقد الزهرات الميتة بين دفتى سفر قديم . وثمة خليفة عباسى آخر لا مندوحة لنا من ذكر اسمه ، وذلك لما يدور حوله من الأساطير وما له من أهمية حقيقية سواء بسواء ، ذلك هو هرون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٨) . لم يكن فحسب خليفة لإمبراطورية ظاهرها الرخاء فى عالم الحقيقة ، بل كان كذلك خليفة إمبراطورية

⁽١) حج المسلمين هو للبيت الحرام ، وللحج مناسك مثل عرفة والصفا والمروة وغيرها وكلها بجوار مكة ، كما أن قبلة المسلمين للصلاة هى المسجد الحرام بمكة ؛ والمدينة حرمتها الخاصة فى نظر المسلمين ؛ فهى فى نظرهم ففط مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثواه الأخير بعد الوقاة ، ومن ثم كانت زيارتهم لها قبل الحج أو بعده واجبة التزود عن قرب دزيارة قبر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام . (المترجم)

خالدة لا تغرب لها شمس في عالم القصة السرمدى ، فهو هرون الرشيد في « ألف ليلة وليلة » ؟

ويدبج السير مارك سايكس في وصف إمبراطوريته الواقعية بيانا نقتبس منه فقرات معينة (١) ، كتب يقول : « كان البلاط الإسراطوري مهذبا مترفا غنيا غني لا حد له ؛ وكانت العاصمة بغداد ، مدينة تجارية هائلة تحيط بقلعة ضخمة هي مقر الحبكم والادارة ، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام منظم على قواعد صحيحة ومرتب ترتيبا تاما ؛ وفيها كثرت المدارس والكليات ؛ وإليها نقاطر الفلاسفة والطلاب والعلماء والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم الممدن تر. وكانت العواصم الاقليمية مزدانة بالمبانى العمومية الضخمة ؛ وتتصل فيا بينها بخدمة سريعة فعالة من بريد وقوافل ؛ وكانت التخوم منيعة وفيها الحاميات الكافية ، وكان الجيش مُخِلصًا للخليفة وفيًا ذا اقتدار وشجاعة ؛ وكان الحكام والوزراء شرفاء رحماء . وكانت الامبراطورية تمتد بقوة متعادلة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية(٢) إلى عدن ، ومن مصر إلى آسيا الوسطى . وكان المسيحيون والوثنيون والهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة . وكأنما اختني المغتصبون للعروش والقواد المتمردون والأنبياء الكذبة من الديار الاسلامية اختفاء تاما . وحلت حركة التبادل والثراء محل الثورة والمجاعة . . . وكانت الأوبئة والأمراض تواجه بالمستشفيات الامىراطورية وأطباء الحكومة . . فأما في أعمال الحكومة ، فإن طرائق الادارة العربية الفجيجة الارتجالية أخلت مكانها لنظام معقد من الدواوين نقل عن الروم منه جزء ، ولكنه أخذ في الغالب من النظام الحكومي الفارسي . فكان البريد والمال وديوان الخاتم وأراضي التاج ومرافق العدالة والشئون العسكرية تداركل منها من دواوين منفصلة على أيدى وزراء وموظفين، وكان جيش من الكتبة والناسخين والمنشئين والمحاسبين المحتشدين في هذه الادارات يجمعون كل قوة للحكومة في أيديهم هم رويداً رويداً ، وذلك بإبعادهم أمير المؤمنين عن أى اتصال مباشر برعاياه . كان الفصر الامبر اطورى ومن به من حاشية ، مؤسسين بالمثل

The Caliph's Last Heritage کتاب آخر تراث الخلفاء

^{(ُ} ٢) بوابة من قيليقية (جوليك بوغاز) بمر ضيق يخترق سلسلة جبال طوروس بآسيا الصغرى ، والطريق الرئيسي منه يمتد من الغرب ، في منحدر طويل وعر يبيداً من الحضبة الوسطى ، إلى وادى أطنه (أدنه) وطرسوس . وائساع الطريق عند البوابة نفسها ٢٥ قدماً . (المترجم)

على سوابق وتقاليد رومية وفارسية . وكان الحصيان ودور الحريم المنعزلة والمفروض عليها الحجاب الشديد والحراس والحواسيس والوسطاء والمضحكون والشعراء والأقزام يتزاحمون حول شخص أمير المؤمنين ، كل في مكانته يحاول أن يحظى بالعطف الملكى ويشغل العقل الملكى بطريقة غير مباشرة عن شئون العمل والدولة . وفي نفس الوقت كانت تجارة الشرق تصب الذهب في بغداد صبا ، وقضيف إلى سيل النقود الهائل المأخوذ من في الأسلاب والغنائم المرسل إلى العاصمة من لمدن قواد القوات المغيرة المظفرة ، التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان . وثمة معين آخر للثراء كان يبدو كالفيض الذي لا نهاية له ، وهو الماليك والأتراك والنقود المعدنية البيزنطية ، وكان يزيد دخل العراق ثراء ، كما كان ـ بالإضافة إلى حركة التبادل التجارى وكان يزيد دخل العراق ثراء ، كما كان ـ بالإضافة إلى حركة التبادل التجارى تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن إليهم ، عن شجعوا الفنون والأدب والفلسفة والشعر بالقدر الذي تعملهم عليه أمزجتهم ، بانين القصور لأنفسهم ، متنافسين فيا بينهم في بلخ ترفهم ، محرضين الشعراء على مديحهم والإشادة بذكرهم متلهين بالفلسفة ، معضدين مدارس للفكر متنوعة ، باذلين الصدقات وسالكين في الحقيقة نفس الطريق الذي يسلكه الأثرياء في كل العصور .

ولقد قلت إن الإمبراطورية العباسية فى أيام هرون الرشيد كانت ضعيفة واهنة إلى درجة ما ولعل القارئ يعد هذا فكرة حمقاء عندما يضع فى اعتباره أنى وصفت الإمبراطورية بالنظام ، والإدارة بالدقة والاستقرار ، والجيش بالاقتدار ، والثروة بالوفرة . ويرجع ذهابى لهذا الرأى إلى أن الإمبراطورية العباسية قطعت صلتها بكل شى اصيل وحيوى فى الاسلام ، وأنها أقيمت بكليتها على تجميع أشلاء الامبراطوريات التى حطمها الاسلام من قبل . ولم يكن فى الامبراطورية شىء يستثير فى قادة الشعب أسمى الغرائز ؛ إذ أن الجهاد أو الحرب المقدسة قد الحط وتحول إلى استبلاء منظم على الغنائم . وبات الخليفة إمبراطورآ أو ملكا للملوك مترفا فاخراً . على حين انتقلت الادارة من النظام « الأبوى » إلى نظام مركزى ببروقراطى . وأخذت الطبقات الكبيرة الغنى تفقد كل إبمان بديانة الدولة . بينها أخذ التأمل والنظر الفلسني والمعيشة الراقية ؛ يمكان على العقيدة القرآنية السلفية والبساطة العربية . وقد أهمل كل من الخليفة يمكان على العقيدة القرآنية السلفية والبساطة العربية . وقد أهمل كل من الخليفة أ

ومستشاريه إهمالا ناما صرامة الاسلام وبساطته ، وهما الرابطة الوحيدة التي كان في وسعها أن تربط بين أجزاء الامبراطورية . . وكان هرون الرشيد نفسه من معاقرى النبيذ (۱) وكان قصره مزينا بصور وتماثيل للطير (۲) والحيوان والانسان .

وإنا لنتوقف هنيهة ذاهلين أمام عظمة الممتلكات العباسية ؛ ثم لا نلبث أن ندرك فجاءة أنها لا تزيد عن غلالة برّاقة تستر رفات المدنيات الغابرة ورمادها » .

مات هرون الرشيد سنه ٨٠٨. وما أن مات حتى هوت إمراطوريته العظيمة في حمأة الحرب الأهلية والاضطرابات. والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة في هذا الجزء من العالم ، تأتى بعد ذلك بمئتى سنة عندما انثال الدك من الركستان جنوبا بقيادة روساء آل سلجوق العظام ، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد ، بل آسيا الصغرى كذلك . ونظراً لانخمارهم من الشهال الشر ، فإنهم استطاعوا أن يتجنبوا الحاجز العظيم وهو جبال طوروس ، التى ظلت حتى ذلك الحن تصد المسلمين . وكانوا ما يزالون الكثير من شأنهم نفس أولئك الذين أعطانا عنهم يوآن تشوانج عقد سريعة قبل ذلك بأربعمئة سنة ، ولكنهم كانوا الآن قد أسلموا ، وكانوا مسلمين من الطراز البدائي ، أى رجالا ممن كان أبو بكر يرحب باعتناقهم الاسلام . فأحدثوا في قوة الاسلام انتعاشا عظيا ، وأداروا أذهان العالم الاسلامي من جديد صوب الجهاد (الحرب الدينية) ضد المسيحية . ذلك أنه حدث ضرب من الهدنة بين هاتين الديانتين العظيمتين بعد انقطاع التقدم الاسلام واضمحلال شأن الأمويين . أما تلك الحروب العظيمتين بعد انقطاع التقدم الاسلام فكانت بالأخرى مناوشات في منطقة التخوم أكثر الني دامت بين المسيحية والاسلام فكانت بالأخرى مناوشات في منطقة التخوم أكثر منها حربا متصلة الحلقات . ولم تصبح كفاحا مريراً تعصبيا من جديد إلا في القرن الحادي عشر .

⁽۱) ذكروا أن هرون الرشيد كان يحضر مجالس الشراب وأنه كان يشرب ولكهم اختلفوا في نوع شرابه من حيث الاختاد والتاثير على العقل فجعلوه النبيذ غير المحرم صند أبى حنيفة والظاهر أن هرون الرشيد كان ممموداً وكان الشراب ضرورياً له لتيسير الهضم وبهذا لا يكون معاقراً للنبيذ المحرم.

(المترجم)

⁽٢) انظر « حضارة الإسسلام » لجرونيباوم وترجمة المترجم ، (الألف كتابُ ومكتبة مصر بالفجالة ص ٤٤ - •٤) في اقتباس عن البغدادي في وصف الشجرة الذهبية وطيورها المعدنية المغردة وأروقة قصر الخلافة وفخامته . (المترجم) .

٨_ الثقافة العربية

على أنا قبل أن ننتقل فنحدثك عن الأراك والصليبين ، وعن الحروب العظيمة التى ابتدأت بين المسيحية والاسلام ، والتى خلفت من ورائها حالة جنونية شديدة من عدم التسامح بين هذين النظامين العظيمين دامت حتى العصر الحاضر ، نرى من الضرورى أن نوجه مزيداً من عنايتنا للحياة الفكرية فى العالم الناطق بالعربية الذى كان آخذاً عند ذاك فى الانتشار انتشاراً يزداد سعة أكثر فأكثر فوق الأقاليم التى تسلطت عليها الثقافة الهلينية يوما ما . فقد كان الذهن العربي ، قبل محمد عليا بضعة أجيال متقداً بنار تسرى تحت الرماد ، فكان ينتج الشعر والشيء الكثير من الجدل الديني . وما لبث ذلك العقل – بتأثير ما أحرز من النجاح القوى والعنصرى – حتى تأجيج فى تألق لا يفوقه إلا ما كان للاغريق فى أزهى عصورهم . فأحيا من جديد بحث الانسان وراء العلم . فلئ كان الاغريقي أبا للطريقة العلمية ، فلقد كان العربي أبا روحيا لها وشريكا له فى أبوتها . فن العرب ، وليس عن طريق اللاتين ، تلقي العالم العصرى تلك المنحة من النور والقوة .

على أنا عندما نكتب كلمة العرب هاهنا ، يجب أن نكتها فى قدر معين من التحفظ ، فإن ثقافة الإسلام العربية تتصل بالعربى القح بصلة تشابه إلى حد ما صلة الثقافة الهلينستية (۱) بعد أيام الإسكندر بالإغريقي الأوربى الأصلى . إذ لم تعد تلك الثقافة نقية من الناحية العنصرية . بل ضمت بين دفتها مجموعة من الثقافات السابقة عليها ، هى ثقافة فارس فى عهد الأسرة الأرشكية (۲) والثقافة القبطية لمصر المهلنة . إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمتا الحديث بالعربية فى سرعة عظيمة على أنهما ظلتا فى جوهرهما فارس ومصر .

⁽١) يفرق المؤرخون بين الثقافة الهلينية وهي الإغريقية بصفة عامة شاملة والثقافة الهلينستية أى اليونانية بعد عصر الإسكندر انظر المبرحم كتاب « الحضارة الهلينستية » (تارن) مكتبة الأمجلور والألف كتاب . (المبرجم)

⁽٢) الأرشكيون Arsacide : هم أسرة حكت إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر أو هى الأسرة الغالبة على أمر دول الطوائف خيمها ومنها أردوان الأصغر الذى نازعه السيادة أردشير بن بابك وقتله وتلقب بشاهنشاه ، وأردشير هذا هو مؤسس الدولة الساسانية فى فارس . (المترحم)

وكانت فتوح العرب الأولى قد أتاحت للثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية الْأَغريقية . حقا إن ذلك لم يحدث في الاغريقية الأصلية ولكن عن طريق الترجمات السريانية المنقولة عن الكتاب الاغريق . ويلوح أن المسيحيين النساطرة ، وهم المسيحيون المقيمون إلى الشرق من الأرثوذكسية ، كانوا أكثر ذكاء وأنشط ذهنا من علماء اللاهوت فى بيزنطة ، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أعلى كثيراً من مسيحيي الغرب الناطقين باللاتينية . وحظوا بالتسامح في الأيام الأخيرة للدوَّلة الساسانية ، كذلك تسامح معهم الاسلام حتى يوم ارتفاع شأن الترك في القرن الحادي عشر. كانوا العمود الفقرى لثقافة العالم الفارسي . وكانوا احتفظوا بكثير من علم الطب الهلينستي ، بل لعلهم أضافوا إليه أشياء . فني عصر بني أمية كانت غالبية الأطباء في دولة الخلافة من النساطره ، ولا مراء أن الكثيرين من علماء النساطرة اعتنقوا الاسلام دون أن يلم بهم أى ندم خطير أو أى تغير عظيم فى مرتزقهم أو أفكارهم . ومن فضلهم على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو في كل من الاغريقية والترجمات السريانية . وكانت لديهم مؤلفات كثيرة في الرياضيات . ولا شك أن عتادهم من العلم يجعل ما لدى كل من القديس بندكت أوكاسيودوراس من موارد معاصرة ، يبدو في حالة إعواز تستحق الرثاء. وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وفد من الصحراء العقل العربي الغفل متوقدا مستطلعا ، فاستوعب كثيرًا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرًا وتحسينه نوعا . تعلم كثيرا واستوحب كثيرا . ومن قبل ذلك كانت فارس قرونا عدة ميدانا لنشاط لاهُوتي وفُكريعميق دقيق . فعندئذ تدثر هذا النشاط بدثار الأساليب العربية وأصبح سبيلا للزندقة والانقسام في الديانة الاسلامية . وكان الانقسام الشيعي فارسيا فی جوهره .

على أن الفرس ومعهم العلم الهلينى لم يكونوا المعلمين الوحيدين الذين أتيحوا للعرب. فقد كان ذوو قرباهم اليهود منترين فى كل مدن الشرق الغنية ومعهم أدبهم وتقاليدهم الحاصة المميزة لهم. وأثر العقل العربى والعقل اليهودى كل منهما فى صاحبه تأثيرا عاد بالمنفعة المشتركة عليهما جميعا: فاستفاد العربى من ذلك علما وأفاد اليهودى من ذلك مزيدا من المشتركة عليهما جميعا: فاستفاد العربى من ذلك علما وأفاد اليهودى من ذلك مزيدا من الشحد الفكرى. ولم يحدث قط أن كان اليهود متحذلقين فى أمر لغتهم. فلقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة ، يتكلمون الاغريقية فى الاسكندرية المهلنة

وهاهم الآن فى كافة أنحاء هذا العالم الإسلامى الجسديد يتكلمون العربية ويكتبونها . فكتبت فى العربية طائفة من أعظم الآداب : (المؤلفات) اليهودية ، منها على سبيل المثال ، كتابات ابن ميمون (Maimonides) الدينية (١) . والواقع أن من العسير أن نقول ، فى حالة هذه الثقافة العربية ، متى ينتهى المؤثر اليهودى ويبدأ العربي ، فإن عواملها اليهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حداً كبيراً .

وفضلا عن ذلك ، فتم مصدر ثالث للإلهام ، هو، بلاد الهند ــ وقد تجلى على الأخص فى علم الرياضيات ، ويعسر علينا فى الوقت الحاضر أن نقدره حتى قدره . وليس هناك إلا القليل من الشك فى أن الذهن العربى إبان فترة روعته كان على اتصال وثيق فعال بالأدب السنسكريتي وبعلم الفوزيتي « الهندى الفارسي » Indo-persian .

وقد تجلت نواحى النشاط الذهنية التي يمتاز بها العقل العربي منذ أيام بني أمية وإن لم تظهر بأحسن مظاهرها إلا في عهد العباسيين . والتاريخ هو بداية ولباب كل فلسفة سليمة وكل أدب عظيم ، وكان أول من برز من الكتاب العرب الممتازين هم المؤرخون وكتاب الراجم والشعراء شبه المؤرخون . وتبع ذلك ظهور رواية المغامرة العاطفية (الرومانس) والقصة القصيرة عندما نشأ جمهور من القراء يريد أن يتسلى . حتى إذا كفت القراءة عن أن تكون امتياز آخاصاً ، وأصبحت ضرورية لكل رجال الأعمال ولكل شاب مهذب ، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمي وأدب تعليمي . وعند حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين مؤلفات في قواعد اللغة (أجروميات) فحسب بل معاجم عظيمة وكتلة ضخمة من الدراسات في فقه اللغة . وقد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه ، إذ نمت به مجموعة من الحامعات وقد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه ، إذ نمت به مجموعة من الحامعات العظيمة في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي قرطبة ، تطورت عما كان في مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد على المساجد . فأضاء نور هاته الحامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة ، واجتذب إلها الطلاب من الشرق والغرب . وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوى أعداداً كبيرة من الطلاب المسيحيين ، والغرب . وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوى أعداداً كبيرة من الطلاب المسيحيين ، والمتذبر الفلسفة العربية الوافدة عن طريق أسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد وكان تأثير الفلسفة العربية الوافدة عن طريق أسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد

⁽۱) هو أيو عمران موسى پن ميمون (۱۱۳۵ – ۱۲۰۶) فيلســـوف وطبيب يهودى ومصنف قوانين . ولديقرطية ، وانتج فلسفة دينية لها وزنها وعمل طبيبا لصلاح الدين وأرلاده بمصر ، وله مؤلفات منها «مثنة التوارة» و «دليل الحائرين» (المترجم)

وشمال إيطاليا وعلى الفكر الأوربي الغربي عامة ، – جسيا جداً ولا جرم . ويبرز اسم ابن رشد القرطبي (١١٢٦ – ١١٩٨) ممثلا لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة العربية من سلطان على الفكر الأوربي . وهو الذي طور تعاليم أرسطو على أسس فصلت الصدق الديني عن الصدق العلمي فصلا تاماً ، وبذا مهد الطريق لتحرير البحث العلمي من المذهب الاعتقادي (Dogmatism) اللاهوتي الذي كان يقيده في ظلال كل من المسيحية والإسلام . وهناك اسم عظيم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (١٠٣٠ – السيحية والإسلام . وهناك اسم عظيم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (١٠٣٠ حر اسان(۱)) الذي ولد في الطرف الآخر من العالم العربي ببخاري ، وتنقل في خر اسان(۱) . . وازدهرت صناعة نسخ الكتب في الإسكندرية ودمشق والقاهرة وبغداد ، وقرابة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة مجانية في قرطبة لتعلم الفقراء .

ويقول ثاتشر وشويل (٢): «شاد العرب ما شادوه في الرياضيات على الأسس التي أقامها الرياضيون الإغريق. وأصل ما يسمى بالأعداد العربية يغشاه الإبهام. وقد حدث في عهد ثيودوريك الأعظم أن استعمل بويثيوس (Boëthius) علامات معينة ، كانت من ناحية جزئية شبهة جداً بالأرقام التسعة التي نستعملها الآن ». وكذلك استخلم أحد تلاميذ جربرت علامات كانت أشد شها بأرقامنا ؛ على أنه يقال إن الصفر ظل مجهولا حتى القرن الثاني عشر ، عندما اخترعه رياضي عربي اسمه محمد بن موسي (٣) ، الذي كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية ، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية في خاناتها . على أن هذا ينازع فيه الكثيرون من الهنود الذين يدعون لأنقسهم الصفر والطريقة العشرية بوصف كونهما مساهمة فعالة وفضلا للهند على الثقافة .

« ولم يضف العرب إلى ما ابتكره إقليدس فى الهندسة إلا الشيء القليل ، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم ؛ وكذلك أدخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائرى مختر عين جيب الزاوية (Sine) وظل الزاوية (tangent) وظل تمام الزاوية (optics) بعض الكتب .

⁽١) خراسان : هي منطقة شمال شرق إيران المتاخمة لبلاد التركستان . (المترجم)

[«]A General History of Europe» : ف كتابهما (٢)

⁽٣) هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزی(ت٥٠٥) رياضي وفلکي وجغرافي ، عربي عاصواللْم.ول (المترجم)

وتقدموا بعلم الفلك . فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيرا من الآلات الفلكية لاتزال تستعمل حتى اليوم . وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecliptic) والموضع الدقيق لنقطتى الاعتدالين . وكانت معرفتهم بالفلك جسيمة ولا مراء .

« وتقدموا فى الطب أشواطاً بعيدة على الإغريق . ودرسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوچيا) وعلم تدبير الصحة ، ويكاد علم الأقراباذين (۱) (المادة الطبية العضاء (الفسيولوچيا) لديهم أن يكون هو نفس ما لدينا اليوم . ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملا بين ظهرانينا إلى اليوم . وكان جراحوهم يفهمون استعمال التخدير ، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة . وفى نفس الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحرم ممارسة الطب انتظارا منها لإنمام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها القساوسة ، كان لدى العرب علم طبي حق .

«وابتدأوا في الكيمياء بداية حسنة . واكتشفوا كثيراً من المواد بالجديدة ، من أمثال البوتاس ونترات الفضة والسلياني وحمض النتريك والكبريتيك . وكلمة والكحول » عربية ؛ وإن كانت المادة معروفة باسم « أرواح الخمر » عند پليني كانوا يشتغلون في الصناعة فإنهم بزوا العالم في تنوع الصنف وجمال التصميم وإنقان الصنعة . كانوا يشتغلون في جميع أنواع المعادن : الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز والحديد والصلب . ولم يفقهم أحد أبد الدهر في صناعة المنسوجات . وصنعوا زجاجاً وخزفاً من أرق الأنواع وأشدها امتيازاً . وعرفوا أسرار الصباغة ، وصنعوا الورق . وكانت لديهم طرائق عديدة لنهيئة الجلود ، وكانت مصنوعاتهم الجلدية شهيرة في كافة أرجاء أوربا . وأنتجوا الأصباغ والعطور والأشربة . وصنعوا الراعة بطريقة علمية ، وكانت لديهم طرائق جيدة لمرى . وعرفوا قيمة المخصبات ، بطريقة علمية ، وكانت لديهم طرائق جيدة لمرى . وعرفوا قيمة المخصبات ، وكيفوا محصب نوع التربة . وتفوقوا في فلاحة البساتين وعرفوا كيف يطعيمون النباتات وكيف ينتجون أضرباً جديدة من الفواكه والأزهار . وأدخلوا يطعيمون النباتات وكيف ينتجون أضرباً جديدة من الفواكه والأزهار . وأدخلوا علمية في الزراعة » .

⁽۱) الأقربادين : فرع الطب الذي يبحث في مصادر الأدرية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها . (المترجم)

وثمة عنصر في هسذا البيان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته في حياة البشرية الفكرية ، وهو صناعة الورق . ويلوح أن العرب تعلموا تلك الصناعة من الصينيين بطريق آسيا الوسطى ؛ وأخذها الأوربيون عن العرب . وكان لزاما حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرق (١) أو البردى ، حتى إذا فتح العرب مصر ، انقطع عن أوربا مورد البردى . وما كان فن الطباعة بكبير الغناء ، ولا كانت الصحف والتعليم الشعبي العام بوساطة الكتب من الأمور الممكنة ، حتى أصبح الورق وفيراً . وربما كان هذا عاملا أعظم أثراً في تأخر أوربا النسبي أثناء العصور المظلمة ، مما يبدو أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به . . .

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية في العالم الإسلامي على الرغم مما شمله من فوضى سياسية ذريعة . ولم يحاول العرب من اليداية إلى النهاية أن يعالجوا المشكلة التي لا تزال تنتظر الحل ، ألا وهي مسألة الدولة المستقرة التقدمية ؛ فقد كان نظام الحكم عندهم فى كل مكان مطلقاً وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والقتل ، وهي أموركانت على الدوام ولا تزال من خصائص الملكيات الشديدة التطرف. ولكن روح الاسلام ظلت بضع قرون تحتفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس من وراء آثام القصور والمعسكرات ومنافساتها ، وكانت الإمبراطورية البزنطيــة أعجز من أن تحطم هذه المدنية ، كما أن الخطر التركي في الشمال الشرق لم يفتأ يشتد قوة ولكن في بطءكبير . واستمرت حياة الإسلام اللهنية نابضة بالحياة. حتى أطبق التر ك عليها . ولعلها كانت تمنى نفسها في طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم مما كان يتبدى فى توجيهها السياسي من آيات العنف والمحالفة لكل معقول . وقد كان هذا . حتى ذلك الحين ، هو الخاصة المميزة للعلم والأدب في كافة الأقطار . إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر المثقف نافرآ من الاصطدام برجل العنف والقوة . وكان على الجملة رجلًا ممن حذقوا خدمة البلاط والمداورة مع مقتضيات الزمان . ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه وإلى ذلك الحين ، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المتعصبالديني (الفنطيق) وثقته بنفسه . ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك في أنهم قد تجمعت لدبهم

⁽١) الرق بفتح الراء جلد رقيق يكتب فيه - معجم الوسيط . (المترجم)

عقائله ثابتة ، واستجمعوا الثقة فى أنفسهم أثناء القرون القليلة الأخيرة ، فاهتدوا فى بطء إلى سبيلهم إلى القوة والسلطان بفضل تطور التعليم الشعبى العام والأدب الرائج بين الناس عامة ، وها هم اليوم أشد ميلا إلى التحدث عن الأشياء بصراحة ووضوح ، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق التسلط على تنظيم الشئون البشرية أكثر مما سبق لهم من قبل فى أى عصر من عصور تاريخ العالم .

الفن العربي

ترتبط الفتوح الإسلامية بطرز جديدة في العارة ، وهي تسمى يأسماء متنوعة هي: المشرقية أو الإسلامية والمحمدية والعربية . على أن العربي الحق فيها يقول « جايت نه الله على الله منه الله العربي المساجد والقصور والقبور والمدن ، لأنه (Gayet اضطر أن يبتنيها بحكم الحاجة . على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعاريه بن المصرين والسوريين والفرس الذين أخضعهم . فلم يكن الفن العربي في فارس إلامجرد استمرار للفن الفارسي ، ولكن حدث في مصر وسوريا تكييف حقيتي يسا ر الظروف الجديدة ، وظهور طراز جديد وخصيصة جديدة في المباني والزخرفة . كان هذا هو الفن « العر » بأدق معانيه . وإلى الغرب ف شمال إفريقيا وأسبانيا نشأ تنويع خاص جديد يتميز بعقد حدوة الفرس . وكانت سوريا ومصر قبل مجيء العرب بزمن طويل ، قد انحرفتا عن الأشكال الهزنطية باستبدال العقد المستدر بالعقد المدبب ؛ وكانتا تقدمتا على الفن البيزنطي كشرآ بإهمال الأشكال المصنوعة نماذج مجسمة ذلك بأنهم كانوا يغفلون الروح الواقعية الهلينية ويستبدلون بها التزين الزخرف بالرسوم والنقوش . وكان المز اجالعربي المفطور على التأمل والنشوة ميالا بكليته إلى تقوية هذه العملية . « ولا يرجع ذلك ــ كما يقول جايت ـ إلى الرغبة في إطاعة ناموس ديني ـ لأن هناك كشراً من التصاور العربية المبكرة التي تمثل الأشكال الحية ــ بل إلى غريزة فطرية ركبت فهم » . والعربي يبدى في شئون ً الحياة العادية ، وبصرف النظر عن أية ثقافة ، كراهية شديدة لتعرية جسده أو النظر إلى جمد عار . وحدث تدريجياً فى ثنايا تطور الفن العربي أن انتقلت الزخرفة من صور الحيوان والنبات المتواضع عليها إلى المنشابكات الهندسية المسهاة و بالنسق الزخوف تاريخ الإنسانية جـ٣

العربى Arabesque » وتصبح السقوف والأقبية مغشاة بطبقة مشكلة لا يبرح تشكيلها يزداد عمقا ، فيتكاثر التلبيس بالأستار المثقبة ، بل إن الشكل الحارجي نفسه يصبر مجسما متعدد السطوح ، وتغدو الأقبية مغطاة بجانات (studs) مستديرة ومتعددة الأضلاع (polygonal) تتدلى آخر الأمر تدلى المعلقات الكلسية (۱) . ويتمخض هذا الخفض والرفع والبروز والتوهد عن جمال جديد سحرى شبيه بجمال البلورات والتموجات الماثية والإيقاعات الساحرة الغامضة لغير الأحياء من الأشياء ، ولكنه جمال يضاد على خط مستقيم تلك الحريات المطلقة والسوقيات الفخمة والحيوية المتدفقة للفن الحليني .

وتقترن هذه النطوات البنائية بخصائصها العربية فى أذهاننا بالمئذنة والقبة البصيلية واستعال جميل للقراميد المزججة التى غالبا ما تكون جزلة الحليات. وتمة توسع هائل فى استعال الزخرفة المكونة من آيات وفقرات قرآنية بالخط العربى الانسيابي الجميل.

⁽١) المعلقات الكلسية : (Stalactites) : تكوينات كلسية مدببة تنشأ في الكهوف الطبيعية هذر دشح المياه الحيرية وتبدو متدلية كالثريات والشموع من سقوف الكهوف . (المترجم)

الفصل لحادمي اليّلا تونّ عالم المسيحية والحروب الصليبية

- العالم الغربي في أشد دركات تدهوره
- ٤ تنصير البر ابرة الغربيين .

٢ - نظام الإقطاع .

- ٣ شخصية شرلمان.
- ٨ الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم .
- ١٠ كيف استغاثت القسطنطينية بروما .
 - ١١ الحروب الصليبية.
 - ١٣ الإمبر اطور فردريك الثاني .
 - ١٥ قائمة بأسهاء البابوات العظام .
 - ١٧ موسيق العصور الوسطى .

- ٣ مملكة الميروڤنچيين الفريجية .
- مر لمان يصبح إمبر اطوراً على الغرب.
 - ٧ الفن والعارة الرومانسكيان . ٩ – النورمانديون والعرب والمحريون .
 - والأتراك السلجوقيون .
- ١٢ الحروب الصليبية اختبار للمسيحية .
 - ١٤ معايب البابوية وتحديداتها .
 - ١٦ العارة والفن القوطيان .

العالم الغربي في أشد دركات تدهوره

علينا الآن أن نحول التفاتنا مرة ثانية من هذه النهضة الفكرية التي قامت في مهد المدنيات القديمة إلى شئون العالم الغربي .

ولقد وصفنا لك الانهيار التام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي ألم بالنظام الإمعراطوري الروماني في الغرب ، وبينا الارتباك والظلمة اللذين أعقبا ذلك إبان القرنىن الخامس والسادس ، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس في سبيل حفظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة . وتمر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فها من الدول والحكام إذ لا دول هناك ولا حكام . وكل ما في الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة أو ناحية من الريف و يحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكماً غير مستقر . فكانت الجزر البريطانية مثلا. مقسمة بين حشد كبير من الحكام ؛ وكان هناك زعماء كلتيون عديدون

في إيرلندة واستكتلندة ووبلز وكورنوال ، يتقاتلون ويتغلبون أحدهم على الآخر أو يخضعون بعضهم لبعض . وكان الغزاة الإنجليز مقسمين أيضاً إلى عدد من المالك غير المستقرة ، وهي كنت ووسكس وساسكس وإسكس ومرسيا ونورثمبريا وأنجليا الشرقية ، وهي دول لا تنقطع الحرب بينها أبداً .

وكذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربي فأنت واجد هنا أسقفاً يتولى الملك ، كماكان جريجورى الكبير في روما . وواجد ها هنا مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك . وكنت تجد بين الحرائب الهائلة بمدينة روما ، أسرات نصف مستقلة من مغامرين شبه نبلاء ، كل يذود عن حياضه ومعه أتباعه . وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك ، ولكن كان ينافسه فى تلك السيادة ويرجحه تماماً فى بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه « دوق روما » . وقد حُول المجتلد(١) العظيم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد ، وكذلك حبُول قبر الإمبر اطور هادريان الهائل المستدير ؛ وكان المغامرون الذين استولوا على تلك المعاقل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض ، ويتقاتلون ويتناوشون في الشوارع الحربة للمدينة التي كانت يوماً ما حاضرة الإمير اطورية . وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجورى الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أى حصن الملاك المقدس ، لأنه عندما كان البابا جريجورى يعبر الجسر من فوق التيبر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلي الله طالباً رفع الوباء العظيم الذي كان يعيث في المدينة دماراً ، أطافت به روءيا مـــلـك عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفاً ، وعند ذلك عرف أن دعواته ستستجاب . وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو هذه دوراً عظيماً للغاية في الشئون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب .

وكانت أسبانيا على نفس التمزق السياسي الشديد الذي كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ، وكان النزاع القديم بين القرطاجي والروماني ما يزال مستمراً في أسبانيا متمثلا في العداء المرير بين أخلافهم وورثهم من يهود ومسيحيين . حتى أنه

⁽١) المجتلد (Arena) هو كما سبق أن ذكرنا الحزء المتوسط من مدرجات الألعاب العنيفة ، وهو مفروش بالرمل للمصارعات . انظر المجلد الثاني ص ٦٣ ه [ط ٣] . (المترجم)

لما جرفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإفريقي الشهالى إلى مضيق جيل طارق ، وجدت في يهود أسبانيا أعواناً متأهبين لمعاونها في غزوها لأوربا . فإن جيشاً عظيما من العرب والبربر (وهم الشعوب الحامية المترحلة في الصحراء الإفريقية والأراضي الجبلية الداخلية الذين اعتنقوا الإسلام) ، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة (٧١١) . وأصبحت البلاد بأجمعها في قبضة أيديهم في بضع سنين(١) .

وما حلت (٧٢٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس ، واندفع من حول بهايتها الشرقية إلى فرنسا ، وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الجديد موشك أن يخضع بلاد الغال (: فرنسا) بنفس السهولة التي أخضع بها شبه الجديد موشك أن يخضع بلاد الغال (: فرنسا) بنفس السهولة التي أخضع بها شبه الجزيرة الأسبانية . على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشيء صلب ، هو مملكة جديدة للفرنجة ، أخذت أجزاؤها تهاسك طوال قرنين تقريباً في أرض الراين وشمال فرنسا(٢) .

ولدينا الشيء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية ، المبشرة بظهور فرنسا وألمانيا ، والى كانت الحصن الغربي لأوربا ضد دين محمد ، كما كانت الإمبر اطورية البيز نطية خلف جبال طوروس حصنها الشرق ؛ على أنا نرى لزاماً علينا أولاأن نقدم إليك بياناً عن النظام الجديد لتلك التجمعات الاجتماعية التي نشأت منها تلك المملكة .

⁽۱) صحيح أن اليهود في أسبانيا كانوا يسامون سوء الحسف ويعاملون معاملة سيئة أيام القوط الغربيين بأسبانيا . ولكنه صحيح كذلك أن لذريق ملك أسبانيا عند الفتح العربي لها كان منتصباً للعرش وكان أولاد غيطشة وكثير من أمراء القوط ثائرين عليه نفسيا متحفزين للإيفاع به . ومع ذلك فهذه عوامل نتلمسها لهزيمة القوط في شريش ويمكن أن يكون مها قوة جيش الخليفة المعنوية ومهارة قواده العسكرية واستاتة الجيش والقواد في نصرة الدولة والدين . (المترجم)

⁽٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة تور أو بلاط الشهداء التي منى فيها جيش العرب بالهزيمة أمام جيش شارك مارتل وهو في إشارته يعزو الهزيمة إلى قوة الفرنجة وصلابتها بدرجة تحطمت على صخرتها قوة الغافقي وجيشه ، ولكنه من العدل أيضاً أن نجلو أن جيش المسلمين كان قد توغل إلى مسافة بعيدة داخل حدود بلاد غالة وطالت خطوط تموينه ومدده وقلت عدته وعدده بسبب الحاميات التي اضطر إلى تركها خلفه كما أن كثرة يعتد بها من رجال الحيش كانوا أفقلتهم الغنائم وأهمهم أمرها حتى شغلهم عن لقاء عدوهم بنفس القوة والحاسة التي كانت لهم في المشاهد والملاحم السابقة فكان ماكان من هزيمة وهي أمور أشار إليها المؤلف في فصل سابق. (المترجم)

٢ - نظام الإقطاع

من الضرورى أن يكون لدى القارئ فكرة محددة عن أحوال أوربا الغربية في القرن الثامن . فإنها لم تكن على همجية بربرية . أجل كانت أوربا الشرقية ما تزال متبربرة ومتوحشة ؛ ولم تتقدم الأمور هناك إلا قليلا عن حالها التي وصفها جيبون في بيانه عن بعثة پريسكوس إلى أتيلا (راجع الفصل ٢٧ قسم ٢ص٣٠٠). على أن أوربا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة ، لا قانون فيها ولا إدارة ، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم ، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لهم فكرات وعادات وتقاليد ممدنة .

كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم . ومن الشائق الممتع أن نتبع ذلك التفتت والعراك الشامل الصاخب ونتبن كيف تمخض عن ظهور بواكبر نظام جديد . فلو أن انهياراً حدث في عصرنا هذا لم على الراجح تكوين جمعيات للإدارة والمراقبة المحلية ، تتحد فيا بينها وتقيم إدارة بوليسية وحكماً ديمقر اطياً بدائياً خشناً . ولكن أفكار الناس في عهد حطام الإمبر اطورية الغربية المنهارة إبان القرون السادس والسابع والثامن ، كانت أكثر اتجاهاً صوب الزعماء والقادة منها إلى الجمعيات واللجان ، وكانت المراكز التي تبلورت حولها شئون الناس هي أحسد رؤساء البرابرة هنا أو أسقفاً قوياً هناك أو مدعياً لوظيفة رومانية قديمة ، وهنا تجد مالك أرض قديم طال اعتراف الناس به أي رجلا من أسرة عريقة ، وتعثر هناك على قوى مغتصب للسلطان ، وهي حال لم تدع لرجل بمفرده عالا كلاطمئنان والأمن .

لذلك اضطر الرجال أن يربطوا أنفسهم بغيرهم ، مفضلين في ذلك من كان أقوى منهم من الرجال . وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل في إقليمه ويصبح رجله وتابعه . وكان الرجل الحر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربط نفسه بسيد أقوى منه . وكانت حماية ذلك السيد (أو خطر عداوته) تزداد جسامة كلما تكاثر المنضوون تحت جناحه . وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور سياسي ، في خضم الارتباك وانعسدام القانون الذي هوت إليه الإمراطورية الغربية . وهذه

الارتباطات والمحالفات الطبيعية تماماً بين الحامى والأتباع سرعان ما تدرجت فى النمو فأصبحت نظاماً هو «نظام الإقطاع»، الذى لا تزال آثاره باقية فى التركيب الاجتماعى لكل مجتمع أوربى غرب الروسيا . وكان يختلف اختلافاً بينا فى مظاهره الحارجية .

ولم تلبث هذه العملية أن اتخذت لنفسها صوراً فنيسة وأصولاً وقوانين خاصة بها . فكانت في قطر كبلاد الغال متقدمة تقدما حسنا أيام القلاقل وانعدام الأمان السابقة لانقضاض قبائل البرابرة على الإمبراطورية الغربية ، ولما أن هبط الفرنجة بلاد الغال جلبوا معهم نظاماً سبق أن لحظناه لدى المقدونيين ، وكان على الراجح واسع الانتشار إلى حد كبير بين الشعوب النوردية الشهالية ، وهو اجتماع هيئة من شبان الأسر العريقة حول الزعيم أو حول الملك المحارب ، وهم رفقاؤه أو لداته وبطانته من النبلاء (comitatus) (الكونتات) أو قواده . فكان من الطبيعي في حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الضعيف بالسيد القوى شكل العلاقة بين الكونت ومليكه ، وأن يوزع الرئيس الفاتح على رفاقه المزارع والممتلكات بين الكونت ومليكه ، وأن يوزع الرئيس الفاتح على رفاقه المزارع والممتلكات المستولى عليها والمصادرة . وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإقطاع فكرة التجمع بغية الحاية المتبادلة للناس والممتلكات ؛ وجاءت من الحانب «التيوتوني » فكرات جمعيات الفرسان ، والإخلاص والحدمة الشخصية . وكانت الأولى هي الناحية الاقتصادية للنظام ، على حين كانت الثانية ناحية الفروسية فيه .

والمائلة بين التجمع في الإقطاع وبين عملية التبلور مماثلة وثيقة جداً. وبينا المؤرخ يراقب أثناء القرنين الرابع والحامس مراجل الارتباك ودواماته تدور وتهدر في أوربا الغربية ، فإنه يبدأ في ملاحظة ظهور هذه التكوينات الهرمية المكونة من رؤساء وأتباع ، وأتباع ، وهي تتدافع إحداها مع الأخرى أو تتفرع أو تنحل من جديد أو تلتحم . وإنا لنستعمل مصطلح « نظام الإقطاع » من أجل اليسر والسهولة ، ولكن في شيء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى « الترتيب والنظامية » . فنظام الإقطاع في أزهر عصوره أبعد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية . إذ لم يكن الأمر فيه إلا فوضى واضطراباً نظم على أخشن وجه ، وكان المتغاير والاختلاف العظيم بين أشكاله منتشراً في كل مكان . ومن ثم فلن يدهشنا

وجود تياين فى الوقائع والعرف والعادات المقررة بين إقطاعية وأخرى . وقد وصل نظام الإفطاع الأنجلو نورماندى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على شدة ما أوتى من انساع الرقعة إلى اكتال منطقى واتساق فى المارسة والعرف كان منقطع النظير فى صميم العصر الإقطاعى نفسه .



(شكل ١٣٢) خريطة أوربا حوالى عام ٥٠٠ م

« والأصل فى العلاقة الإقطاعية الصحيحة هو الإقطاعة (Fief) التي كانت فى العادة أرضاً ، ولكنها ربما كانت أى شيء مرغوب فيه كالوظائف ، أو الدخل نقداً كان أم عيناً ، أو حق جمع مكس أو (فرضة مالية) ، أو إدارة طاحون . وكان الرجل يصبح فى مقابل الإقطاعة نابعاً (vassal) لمولاه ؛ فكان يجثو أمامه ، ويعده

⁽١) ريسي أيضاً بالمقطع [بضم الميم وفتح الطاء] أو الفَصَل (Vassal) . (المترجم)

- ويداه بين يديه - بالولاء والحدمة وكان الإخلاص في تنفيذ كل الواجبات التي اضطلع بها التابع في عهد الولاء قوام حقه في التمتع بإقطاعته : فإذا أديت الواجبات ، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاعة ملكاً حلالًا لهم من الناحية العملية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم الملاك . وفي حفلة الولاء والنخويل التي هي الركن الأساسي في عقد الإقطاع ، كانت الالتزامات التي يضطلع بها الطرفان ، غير محددة في العادة تحديداً دقيقاً . وكان العرف المحلى هو الذي يحددها . وكانت محدمات التابع تختلف اختلافاً بيناً في كثير من دقائق التفاصيل بن أجزاء عالم الإقطاع المختلفة . على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقتين ، عامة وخاصة . فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء : من المحافظة على مصالح السيد ، وكتمان أسراره ، وإفشاء خطط أعدائه ، وحماية عائلته وهكذا ، والخدمات الحاصة يمكن أن تصاغ في عبارات أشد تحديداً ، ويحددها عادة تعريفات مضبوطة يقررها العرف أحياناً والوثائق المكتوبة في بعض الأحيان الأخرى. وكانت أبرز نواحها هي الحدمة العسكرية ، التي كانت تتضمن الحروج إلى الميدان عند النفر بقوة معينة من الجند ، غالباً ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد . وتبتى فيه زمناً معلوماً . وكانت كثيراً ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد ، ووضع حصن التابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه في الدفاع عن إقطاعه (Fief) . . . وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية ، ألفيناه يملأ أوربا بشبكة من هذه الإقطاعات التي تتدرج إحداها فوق الأخرى في مراتب مدرجة بادئة من أقلها شأناً في القاع ، وهي أجز الفارس ، حتى الملك في القمة ، وهو مالك الأرض الأعلى ، أو هو الذي وهبه الله المملكة "(٣١ .

على أن هذه هي النظرية التي فرضت على الحقائق المقررة . ولكن الحقيقة الواقعية في نظام الإقطاع كانت تقوم فيما هو عليه من تعاون اختياري .

⁽¹⁾ الموسوعة البريطانية – الطبعة النائب عشرة – مادة « الإقطاء - للأستاذ ح - د - آماس .

« وقد قيل ، إن الدولة الإقطاعية دولة اغتصب فيها القانون الحاص مكان القانون العام » . ولكن أليس الأصح أن يقال : إن القانون العام قد فشل وتوارى وأن القانون الحاص جاء ليسد الفراغ الحاصل ؟ لقد صار الواجب العام إلزاماً خصوصياً .

٣ _ مملكة الميروڤنچيينالفرنجية

سبق أن ذكرنا من قبل ممالك متنوعة للقبائل البربرية الذين أقاموا لأنفسهم بين أنقاض الإمبراطورية سيادة هزيلة تتفاوت في رثاثها فوق هذه المنطقة أو تلك ، وهي ممالك السويثي والقوط الغربيين بأسبانيا ومملكة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة اللومبارد الإيطالية التي عقبت القوط بعد أن طردهم چستنيان وبعد أن عاث الوباء العظيم في إيطاليا تدميراً.



(شكل ١٣٣) خريطة حدود ممتلكات الفرنحة في عهد شارل مارتل

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى نشأت في أول الأمر فها هو الآن بلچيكا ، ثم امتدت جنوباً حتى اللوار ، بيد أنها أظهرت من لقوة والتماسك ما يفوق كثيراً ما كان لدى الأخريات . وكانت أول دولة حقة تخرج من غمرة الدمار العام . ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسعة الرقعة . ومنها نُبعت دولتان عظيمتان في أوربا العصرية ، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية . وكان مؤسسها هو كلوڤيس (Clovis) (٤٨١ – ٥١٤) الذي بدأ أمره ملكاً صغيراً في بلچيكا وانتهى وحدوده الجنوبية تكاد تتاخم البرانس . وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة . على أن الفرنجة احتفظوا بعرف من الوحدة بالرغم من هذا التقسيم ، وْثارت بين الإخوة حيناً من الدهر حروب تستهدف الانفراد بالسيادة فوحدتهم أكثر مما فرقت بينهم . على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الغربيين بالصبغة اللاتينية ، بعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصبغة ، وتعلموا اللاتينية الشوهاء المحرفة ، لغة السكان المقهورين ، علىحين احتفط فرنجة إقليمالراين بلغتهم الألمانية الدنيا(١) . وتتولد عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض للمدنية ، توترات سياسة قوية للغاية . وأقام العالم الفرنجي مئة وحمسين سنة وهو منشق شطرين ، هما نوستريا (Neustria) ، وهي نواة فرنسا وتتكلم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التي نعرف الآن ، وأوستراسيا وهيأرض الراين التي ظلت ألمانية . وكان الفرنجة يختلفون عن السوابيين وسكان جنوب ألمانيا ، ويقاربون الأنجلو سكسون كثيراً لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية عليا . وكانت لغتهم تشبه اللغية الألمانية (Plattdeutsch) والأنجلوسكسونية ، وهي الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية . والواقع أنه حيثًا لم يصطبغ الفرنجة بالصبغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى فلمنك ويصبحون هولندى جنوب هولندة (فأما هولندة الشهالية فلا تزال فريزية Friesisch أي أنجلوسكسونية) . « والفرنسية » التي كان يتكلمها الفرنجة والبرجنديون ذوو الصبعة اللاتينية في القرن السابع إلى

⁽۱) ، (۲) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألمانى (Plattdeutsch) : هي لعة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا . والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الحنوبية بها . (المترجم)

العاشر ، كانت عجيبة الشبه بلغة سويسرا الرومانشية (Rumansch) ، ــ استنتاجاً منا من البقايا الباقية في الوثائق القديمة (١) .

ولسنا بمحدثيك هاهنا عن انحلال الأسرة الميروفنچية التي أسسها كلوفيس ، ولا كيف حدث في أوستراسيا أن موظفاً بعينه في البلاط ، هو محافظ القصر (Mayor of the Palace) ، أصبح بالتدريج ملكاً فعلياً ، واتخذ من الملك الحقيقي ألعوبة طبيعة . ثم أصبح منصب محافظ القصر وراثياً أيضاً في القرن السابع ، وفي (١٨٧) كان من يدعي پين الهرستالي محافظ القصر في استراسيا قد غزا نوستريا ووحد كل الفرنجة تحت لوائه . وأعقبه في (٧٢١) ابنه شارل مارتل ، الذي لم يكن يحمل كذلك إلا لقب محافظ القصر . (فأما سادته الملوك الميروفنچيون التافهون المساكين ، فلا يعنينا أمرهم هنا في قليل ولا كثير) وشارل مارتل (٢) هذا هو وهزمهم هزيمة كاملة في معركة عظيمة بن ذلك المكان وبين پواتيبه (٧٣٢) وفل" من عزيمة م ، فلم يتقدموا بعد وفل" من عزيمة م ، ومن ثم ظلت جبال البرانس أقصى حد لهم . فلم يتقدموا بعد ذلك في أوربا الغربية .

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه ، ولكن أحدهما اعتزل الملك وترهب . تاركاً أخاه يبين حاكما وحيداً على الدولة . ويبين هذا هو الذى قضى نهائياً على أحفاد كلوڤيس . إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق ، صاحب القوة والسلطان أو صاحب التاج ؟ وكان البابا في حاجة إلى ناصر يعينه ، فقضى لصالح محافظ القصر . وبذلك انتخب يبين ملكاً فى جمع من نبلاء الفرنجة فى العاصمة الميرو ڤنچية ، سواسون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج . وكان ذلك فى المير و ڤنچية ، سواسون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج . وكان ذلك فى وحدها يبين . وظلت الدولة موحدة متاسكة إلى عهد حفيده لويس (١٨٥٠) ، ثم انفصلت فرنسا و ألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد – مما أنزل بالإنسانية أبلغ الضرر

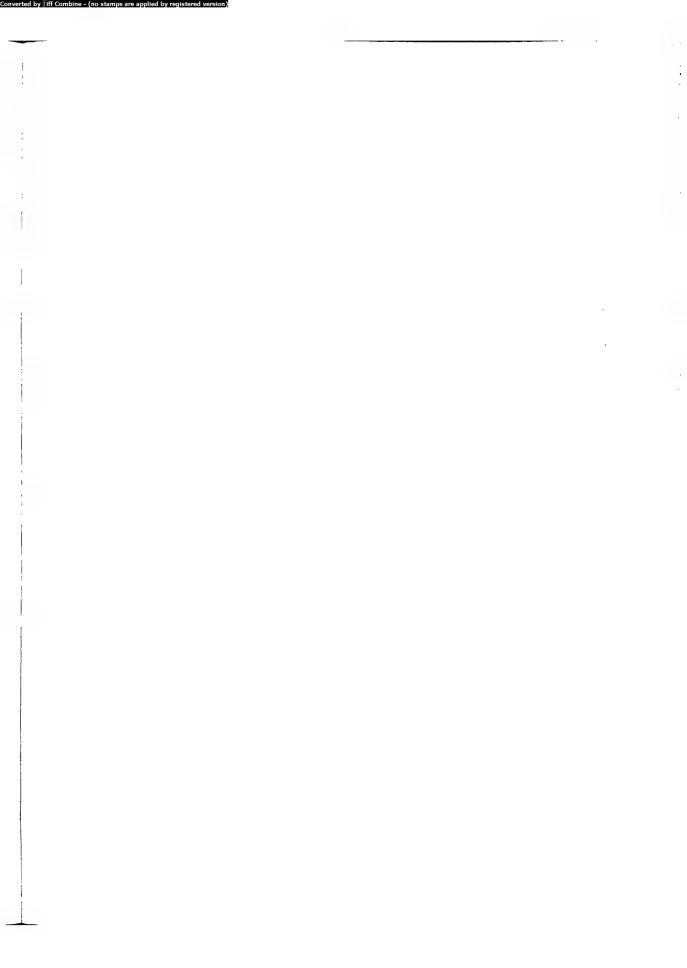
⁽١) المرومانشية هي اللغة التي يتكلمها الناس ببعض المناطق الشرقية لسويسرا . (المترجم) (٢) عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر للمترجم «ميلاد العصور الوسطى » تأليف موص(الألف كتاب ، ومكتبة عالم الكتب) .

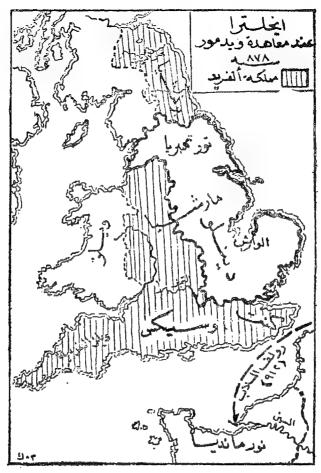


(شكل ١٣٤) خريطة انجلترة عام ٦٤٠ م

ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقاً في الجنس ولاالمزاج ، بل فارقاً في اللغة والتقاليد .

ولا يزال ذلك الانفصال القديم بين نوستريا وأوستراسيا يثمر ثماراً مريرة إلى يومنا هذا . فني ١٩١٦ كان لهيب ذلك النزاع التليد بين نوستريا وأوستراسيا قد تأجج من مجديد حرباً ضروساً . وفي أغسطس من تلك السنة ، زار كاتب هذه السطور مدينة سواسون ، وعبر الكوبرى الحشبي المؤقت الذي بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Aisne)





(شكل ١٣٥) خريطة انجلترة عند معاهدة ويدسور عام ٨٧٨

مطردة . وكان الإله چوبيتر يتمثل عند الألمان في الإله أودن (Oden) . والإله مارس (المريخ) يمشله أثور (Thor) والربة الزّهرة تمثلها لديهم الربة فرييا (Freya) وهكذا . وتواصل إبان القرنين السابع والنامن تنصير همذه القبائل النّانة والسلائونية (الصقلبية) .

وربما كان من الشائق القراء الناطقين بالإنجليزية ، أن ينفهوا إلى أن أشد المبشرين حاسة ونجاحاً بين السكسون والفريزيين جاءوا من إنجلترة . وقد وضعت بذور المسيحية

مرتين في الحزر البريطانية . فكانت موجودة بها فعلا حين كانت بريطانيا جزءاً من الإمبر اطورية الرومانية . إذ يذكرون أن شهيداً اسمه القديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز ، ولا شك أن كل زائر لكانتربرى ، لن يفوته أن يزور كذلك كنيسة القديس مارتن الصغيرة القديمة التي كانت تستعمل إبان العهد الروماني . وانتشرت المسيحية من بريطانيا – كما أسلفنا – خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندة وانتشرت المسيحية من بريطانيا – كما أسلفنا – خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندة القديس كولمبا والمستوطنات الدينية بجزيرة أيونا (Iona) (١) . ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثنيون في القرنين الخامس والسادس ، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عن جسم الوثنيون في القرنين الحامس والسادس ، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عن جسم من شمال انجلترة ، حيث أتوا من إرلندة ، وفي الجنوب وافدين من روما . وقد أوفاد بعثة (إرسالية) روما البابا جريجورى الكبير عند نهاية القرن السادس بالضبط . وتقول الرواية إنه رأى غلماناً من الإنجليز يباعون في سوق الرقيق بروما ، وإن كان من العسير علينا إلى حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك . كانوا شديدى الشقرة ووسامة الطلعة . فلما أن تحرى عنهم أبلغوه أنهم من الإنجليز . فقال «إنهم ليسوا إلجليز (Angles) (٢) لو أن لديهم الإنجيل» .

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع . وقبل أن ينهى ذلك القرن كان معظم الانجليز قد تنصروا ؛ وإن أبدت مرسيا (المملكة الانجليزية الوسطى) نحو القساوسة مقاومة شديدة ، دفاعاً عن العقيدة والطرائق القديمة . وأصاب أولئك المتنصرون الجدد تقدماً سريعاً في العلوم . فأصبحت أديرة مملكة نور ثميريا في شال انجليرة مركزاً للنور والعرفان . وكان ثيودور الطرسوسي من أوائل رؤساء أساقفة كانتربرى (١٦٨٠) — ١٩٠٠) . لا وعلى حين كانت الإغريقية مجهولة جهلا تاماً في غرب أوربا ، كان بعض تلاميذ ييودور يجيدونها . وكانت الأديرة تضم كثيراً من الرهبان الذين بلغوا من العلم الذروة . ثيودور يجيدونها . وكانت الأديرة تضم كثيراً من الرهبان الذين بلغوا من العلم الذروة . وكان أشهرهم جيعاً بيد (Bede) ، المعروف باسم بيد الوقور (١٧٣ — ٧٣٥) ، وهو

⁽۱) هي جزيرة من جزر الهبريدس الداخلية باسكتلناة نصرها كولمها في ٥٠٣ م . (المترجم) (۲) هنا يلمب الكانب على الحناس بين لفظتي (Angles) أي الإنجليز و (Angels) أي الملتزكة . (الملتزجم)

راهب من چارو (Jarrow) على نهر التاين (Tyne) . و تتلمذ عليه رهبان ذلك الدير الستمئة ، فضلا عن الأجانب الكثيرين الذين كانوا يفدون لسماعه . ولم يبرح بيد حتى أَتَقَنَ بِالتَّدْرِيجِ كُلُّ عَلُومٍ زَمَانُهُ ، وترك عند وفاته خمسة وأربعين مجلداً من كتاباته ، أهمها « تاريخ الإنجلىز الكنسي (١)» وترجمة إنجيل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية . وذاعت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس في كافة أنحاء أوربا . ثم إنه جعل ميلاد المسيح بداية لكل تواريخه ، وبفضل مؤلفاته أصبح استخدام التواريخ الدقيقة للأحداث المسيحية شائعاً بكل أوربا . ونظراً لكثرة الأديرة والرهبان في نورثمبريا ، تقدم ذلك الجزء من بريطانيا حيناً من الدهر تقدماً كبيراً على الجنوب في المدنية (٢٪.

وإنا لنجـــد المبشرين الإنجليز في القرنين السابع والثامن يعملون ناشطين على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية . وأهم هؤلاء هو القديس بونيفاس (٦٨٠ ــ ٧٥٥) ، الذي ولد في كريديتون بمقاطعة ديڤونشير والذي نصر الفريزيين والثورنجيين والهيسيين (Hessians) ثم استشهد في هولندة .

و في كل من إنجلترة والقارة الأوربية ، كان الحكام الذين أخذ نجمهم يعلو يستمسكون بالمسيحية ويتخذونها قوة موحدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض. وبذلك أصبحت المسيحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان ــ شأنها في أوغندة بأَفْرِيقية في الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البريطانية .

وخلف پپن الذي توفي ٧٦٨ ولداه ، شارل وأخوه ، فاقتسما مملكته ، ولكن أخا شارل توفى (٧٧١) ، وعندئذ انفرد شارل بالحكم (٧٧١ – ٨١٤) في مملكة وكما حدث في حالة الإسكندر الأكبر وبوليوس قيصر ، فإن الخُلَفَ بالغوا الإشادة بذكراه . فإنه جعل من حروبه العدوانية حروباً دينية لا شلك فيها !! وظل عالم شمال غربي أوربا بأجمعه الذي هو الآن بريطانيا العظمي وفرنسا وألمانيا

تاريخ الإنسانية جـ٢

[«]The Ecclesiastical History of the English» (1)

⁽ ۲) انظر : «A General History of Europe» تألیف ثاتشر وشویل .

والدانمارك والنرويج والسويد طوّال القرن التاسع ، معتركاً لصراع مرير بين العقيدتين القديمة والجديدة . وأجبرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بحد الحسام ، كما فعل الإسلام قبل ذلك بنحو قرن حين اضطر شعوباً بأسرها في بلاد العرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه .

فاستخدم شرلمان السيف والنار في التبشير بإنجيل الصليب لدى السكسون والبوهيميين ، بل توغل حتى الدانوب فيا هو الآن بلاد المحر ؛ وحمل نفس التعاليم منحدراً بها حتى سواحل الأدرياتي ، خلال ما هو الآن دالماتيا(۱) ؛ ودفع المسلمين خلف البرانس حتى برشلونة .

زد على ذلك أنه هو الذى آوى إجبرت (Egbert) ، يوم نفى من وسيكس بإنجلترة ثم ساعده من فوره فى أن يقيم نفسه ملكاً فى وسكس (١٠٢) . وأخضع إجبرت البريطون فى بريتانى (بفرنسا) ، عثل أخضع شرلمان البريطون فى بريتانى (بفرنسا) ، ثم ثهباً له بقيامه بسلسلة من الحروب التى والاها بعد وفاة نصيره الفرنجى ، أن يجعل نفسه آخر الأمر أول ملك لإتجلترة بأسرها (٨٢٨) .

على أن هجات شرلمان على آخر معاقل الوثنية أحدثت حركة مضادة قوية من جانب الذين لم يتنصروا . وكان الإنجليز المتنصرون لم يحتفظوا إلا بالنذر اليسير من فن الملاحة الذي جاء بهم من أرض القارة الأوروبية ، ولم يكن الفرنجة أصبحوا بعد من البحارة . وبينا كانت دعاية شارلمان تنساق نحو شواطي بحر الشهال وبحر بلطتى ، فقد د فع الوثنيون دفعاً إلى البحر . وكان ردهم على اضطهادات المسيحية ، القيام بغارات سلب و مهب و حملات على سواحل فرنسا الشهالية وعلى إنجلترة المسيحية .

وهوًالاء السكسون والإنجليز الوثنيون في أرض القارة الأصلية وذوو قرباهم من الدانيمركة والنرويج هم الدانيمركيون وأهل الشمال (Northmen) الذين تذكرهم

 ⁽١) دالماتيا : هي القمم المطل من يوغوسلافيا على شرق الادرياق .

⁽٢) البريطون: سكان بريطانيا القدماء الآصليون ، أو سكان إقليم بريتاني بفرنسا. (المترجم)

كتب تاريخنا القومى. وكانوا كذلك يسمون بالثيث إنجز (Vik-ings) (۱) ومعناها وجال الخلجان أو الفيوردات، لأنهم جاءوا من الثنايا العميقة في الشاطئ الاسكندناوى. حضروا في سفن طويلة سوداء تسمى القوادس (۲)، مستعملين الشراع استعالا طفيفا. ومعظم معلوماتنا عن حروب وغارات الثيث إنجز الوثنيين مستقاة من مصادر مسيحية، ولذا فإن لدينا معلومات مستفيضة عما كانوا يرتكبونه في غاراتهم من المذابح والفظائع، ونزراً يسيرا عما حل بإخوانهم الوثنيين السكسون من قساوات على يد شرلمان. وكان عداوهم للصليب والرهبان والراهبات شديداً متطرفاً. ولشد ما كان يهجهم إحراق أديرة الرهبان والراهبات وذبح من بها من الأحياء.

وظل هؤلاء القيك إنجز أو أهل الشال طوال الفترة بين القرن الخامس والقرن التاسع يتعلمون فن البحرية ، ويزيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم . ثم اجترأوا على البحار الشهالية حتى أعدت شواطئ جرينلندة الثلجية مرتاداً مألوفاً لديهم ، وكانت لم عند حلول القرن التاسع مستقرات في أمريكا (لم تعرف أوربا عنها شيئاً ، ولم يكن لأهل الشهال أى مستقر دائم في أمريكا ، وفي زمان ما يقارب (١٠٠٠ م) ه قاموا بمحاولة للاستقرار في جزء ما من أمريكا اسمه فن لاند (Vinland) ، على أنهم لم يتملكوا الأرض سوى سنتين اثنتين ، فإن قارباً من الجلد ظهر في أحد الأيام مليئاً بالهنود المنقوشي البشرة ، فدار بخلد رجال الشهال أنهم ضيوف سوء شديدو القبح . ولاح أن الطرفين تبادلا نظرات التفحص الصامت ، ولكن لم يحدث بينهما تجارة وبعاد الشهال كانوا أقل عدداً وبعيدين عن أوطانهم ، فإنهم جعوا متاعهم واعتلوا رجال الشهال كانوا أقل عدداً وبعيدين عن أوطانهم ، فإنهم جعوا متاعهم واعتلوا سفنهم عائدين إلى بلادهم . ولا يسجل التاريخ أي مستقر آخر لرجال الشهال على الأراضي الأمريكية . وفي القرن الثاني عشر ، بدئ بكتابة كثير من ملاهمهم (Saga) المعامرة الجريثة .

⁽١) تنبيه : تنطق هسده الكلمة فيك إنجز وليس أن كنجز . ومعنى فيك : vik هو فيورد أو خليج . (المؤلف)

⁽ ٢) القاهس Gally : سفينة قديمة طويلة ذات سطح واخد تسير بالحجاديف والشراع . (المترجم)

فلطالما هاجموا كلب البحر والدب والحوت. وقد انتسج فى خيالهم صورة ضخمة لمدينة عظيمة غنية فى الجنوب وهى ضرب من الحليط بين روما وبيزنطة وسموها ميكلاجارد (Miklagard) أو ميكلاجارث (اى المدينة العظيمة) - (قارن هذه بكلمة ميكلاباير (Miklabaer) الإيسلندية ومعناها المزرعة العظيمة) . وبلغ من قوة جاذبية الميكلاجارث هده أن اجتذبت أحفاد رجال الشمال هؤلاء إلى البحر المتوسط بطريقين ، أولهما من جهسة الغرب ، وثانيهما عبر الروسيا من بحر البلطيق كما سنبين ذلك فيا بعد . وبالطريق الروسي ذهب كذلك أقرباؤهم السويديون .

ولم يكن الفيك إنجز إلا مجود مغيرين ما عاش شارلمان وإجبرت ؛ ولكن مع تقدم الأيام بالقرن التاسع ، تطورت هذه الغارات فأصبحت غزوات منظمة . فني كثير من نواحي إنجلترة ، لم يكن مركز المسيحية حتى آنذاك وطيدا بأى حال . إذ كان رجال الشهال الوثنيون يلاقون في مرسيا على وجه الخصوص كل عطف ومعاونة . وما أن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجلترة في قبضة الدانيمركيين ، وحتى كان الملك الإنجليزي الفريد الكبير ، قد اعترف محكمهم لما فتحوه ، (وهو ما يسمى بالقانون الدانيمركي Dane-Law) في الحلف الذي عقده مع جوثرام زعيمهم .

على أننا لا نستطيع أن نحدثك بأى تطويل عن كيف حدث على الفور غرو جديد لإنجلترة على يد الدانيمركيين ، ولاكيف أصبح دوق نور ماندى آخر الأمر ملكاً على إنجلترة . والفوارق العنصرية والاجتماعية بين الإنجليز (الأنجل) ، والسكسون والحوت والدانيمركيين أو النور مانديين ضئيلة لا تكاد تذكر ، ومع أن هذه التغيرات ترتسم ضخمة فى أخيلة الإنجليز ، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدا فى مجرى التاريخ عندما نقيسها بمعايير عالم أكبر .

وسرعان ما اختفت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية . إذ قبل

الدانيمركيون بمعاهدة ودمور (Wedmore) أن يعتنقوا النصرانية ، إذا ضمن لهم بقاء ما غزوا بأيديهم ، ولم يقف الأمر بأحفاد رولف في نورمندى عند حد التنصير ، بل إنهم تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب الحيط بهم الأكثر منهم تمدناً ، ناسين لسابهم الشمالي (النورسي Norse) الحاص على أن هناك شيئاً . له شأن أعظم قدراً في تاريخ البشرية ، هو علاقات شرلمان بجيرانه في الجنوب والشرق ، وعلاقاته بالتقاليد الإمير اطورية .

ه ـ شرلمان يصبح إمبراطورا على الغرب

أعيدت تقاليد القيصر الروماني إلى الحياة في أوربا على يد شرلمان . كانت الإمبر اطورية الرومانية قد ماتت وأخذت تتعفن ؛ وكانت الإمبر اطورية البيز نطبة ممعنة في الاضمحلال ؛ على أن تعليم أوربا وعقليها كانا ترديا إلى درك كاد معه كل فكر سياسي جديد خلاق أن يكون ضرباً من المحال . ولعل أوربا بأكملها لم تكن لتحتوى مثقال ذرة من قوة النظر والتفكير التي نجدها في الأدب(١) الأثيني في القرن الخامس ق . م . ولم تكن هناك قوة تتصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة أو تضع مهجاً سياسياً جديداً وتنظمه فكرياً .

تعمدت المسيحية الرسمية أن تسدل منذ أمد بعيد ستاراً كثيفاً على تلك التعاليم العجيبة الرائعة ، تعاليم يسوع الناصرى التى منها انبعثت ـ كما أنها روضت نفسه على ، تجاهلها . فأما الكنيسة الكاثوليكية فهى حين تشبثت ذلك التشبث الشديد بملكيتها للقب الحير الأعظم (Pontifex Maximus) ، قد تنكرت منذ ذلك الزمان البعيد لواجبها الذى خلقت من أجله ، وأعنى بذلك بلوغ مملكة السهاء . ذلك بأنها كانت مشغولة بإحياء عزة الرومان على الأرض ، التى تصورت أنها تراثها التليد . لقد أصبحت هيئة سياسية ، تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم للمضى قددماً بمشروعاتها وخططها . وتشبثت بتقاليد الإمبر اطورية الرومانية وبفكرة أنها هى الطريق الطبيعي لوحدة أوربا .

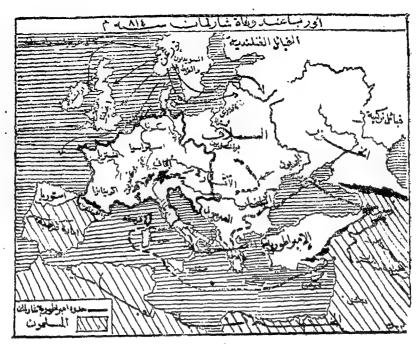
⁽١) المؤلف هنا كعادته يستخدم لفظة الأدب بمعناها العام الشامل ويقصد بها كل ما ظهر فى اللغة من أبحاث ومؤلفات أيا كان نوعها . (المترجم)

على أن أوربا فى ثنايا محاولاتها المتكررة إعادة تلك الإمبراطورية إلى الوجود ، قد انحرفت إلى تزييف مثان لها شائه ممسوخ : وإلى ابتعاث كبوات الماضى وسقطاته التى أساءت تصورها .

وانقضت أحد عشر قرناً من عهد شرلمان فما بعده ، و « الأباطرة » و « القياصر » من هذه الأسرة أو تلك يظهرون على مسرح التاريخ الأوربي ثم يتوارون كأنهم خيالات سقيمة تتراءى لذهن مضطرب . ونحن على أن نخبرك عن عملية عظيمة من النمو العقلى في أوربا ، وعن اتساع الآفاق وتجمع القوى ، بيد أنها كانت عملية سارت في طريقها مستقلة عن الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها ، حتى ترامت آخر الأمر إلى تحطيم تلك الأوضاع تحطيا مطلقاً . وكانت أوربا أثناء حقبة الأحد عشر قرنا من القياصر الزائفين التى افتتحت بشرلمان ، والتي لم تنته إلا بمجزرة (١٩١٤ – ١٩١٨) الرهبية الوحشية ، – أشبه شيء بمصنع مزدحم يملكه رجامصاب بالتجول أثناء النوم ، فهو قي بعض الأحيان تافه لا أهمية له مطلقا ، وهو في أحيان أخرى معطل للأعمال نومه : فنمثلها بجثة هامدة تتخذ بالسحر سيا الحياة . فأنت تشهد الإمبر اطورية نومه : فنمثلها بجثة هامدة تتخذ بالسحر سيا الحياة . فأنت تشهد الإمبر اطورية الرومانية تترنح ثم تنبطح على الأرض ، ثم يقذف بها خارج المسرح ثم تعود فتظهر ه كل هذا وكنيسة روما – إن جاز لنا أن نتقدم بهده (الصورة الحيالية) خطوة أخرى كل هذا وكنيسة روما – إن جاز لنا أن نتقدم بهده (الصورة الحيالية) خطوة أخرى كل هذا وكنيسة روما – إن جاز لنا أن نتقدم بهده (الصورة الحيالية) خطوة أخرى

ويتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحلقات ، حول التحكم فى الجثة يظل ناشبا بين القوى الروحية ومختلف القوى الزمنية . وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى الروح التى ينطوى عليها كتاب « مدينة الله » القديس أو غسطين. وهو كتاب نعرف أن شرلمان طالعه ، أو استمع لتلاوته – إذ أن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك . وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شيء يحكمه ويصون سلامته فى أمثل صورة وأسلمها ، قيصر عظيم مثله ، وأن له أن يحكم حتى البابا نفسه ؟

على أن وجهة نظر روما فى شأن الإمبراطورية المبتعثة ، كانت تختلف قليلا عن ذلك . إذ أن الرأى المتخذ هناك هو أن القيصر المسيحى يجب أن يمسحه البابا بالزيت



(.شكل ١٣٦) خريطة أوربا عند وفاة شرلمان عام ٨١٤ م

المقدس ويهديه سواء السبيل ــ بل هو الذى تكون له حتى سلطة حرمانه وعزله . وكان هذا التضارب فى وجهات النظر واضحا حتى فى أيام شرلمان نفسه . على أنه ازداد حدة فى القرون التالية .

ولا شك أن فكرة الإمبراطورية المبتعثة لم تدر بخلد شرلمان فجأة ، بل بغاية البطء والتدرج. فإنه كان في مبدأ الأمر مجرد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية ، وكان منهمكأ بكل قواه في الكفاح مع السكسون والبافاريين ومع الصقالبة في شرقهم ، ومع المسلمين في أسبانيا . وفيا شب في ممتلكاته نفسها من ضروب العصيان . وحمله شقاق دب بينه وبين حيد ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشهال إيطاليا . وقد رأينا استقرار اللومبارد في شهال إيطاليا قرابة (٧٠٥) بعد الوباء العظيم ، وبعد خلع جستنيان لملوك القوط المشرقين . كان هؤلاء اللومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للباباوات ، وقد

أبرمت ضدهم محالفة بين البابا وملك الفرنجة فى زمن پبين. والآن أخضع شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤) ، وأرسل حماه إلى أحد الأديرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا : إلى دالماتيا (٧٧٦) . وفى (٧٨١) جعل ابنه پبين (الذى لم يعش بعده) ينصب ملكاً على إيطاليا ويتوج فى روما .

وجاء بابا جديد هو ليو الثالث في (٧٩٥) ، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جعل شرلمان إمبراطوراً . وكان لبلاط بيزنطة حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا . وكان أقوياء الأباطرة من أمثال چستنيان يخيفون الباباوات ويجبروهم على المثول إلى القسطنطينية ؛ وكان الأباطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر . ولطالما خامرت قصر اللاتيران(١) فكرة الانفصال عن القسطنطينية انفصالا علمانياً ودينياً ، كما تمثل له في الدولة الفرنجية السند الذي لا يدمنه إذا أريد تحدى القسطنطينية .

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليته البابوية مفاتيح قبر القديس. بطرس ولواء "، رمزاً لسيادته فى روما بوصفه ملكاً لإيطاليا . وسرعان ما اضطر البابا إلى الالتجاء إلى الحامى الذى اختار . ذلك أنه كان مكروها فى روما ؛ فهوجم فى شوارعها وأسيئت معاملته أثناء مسيره فى أحد للواكب ، واضطر أن يهرب إلى ألمانيا (٧٩٩) . ويقول إجنهارد إن عينيه سملتا وأن لسانه قطع . ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان . فإن شرلمان أعاده إلى روما ورده إلى منصبه (٨٠٠) .

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية . فني يوم عيد الميلاد (١٠٠) ، وبينها كان شرلمان ينهض من الصلاة في كنيسة القديس بطر س ، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء) ، تاجاً على رأسه وحياه قيصراً وأوغسطس . وعج الشعب بالاستحسان العظيم . ولكن إجنهارد صديق شرلمان والمترجم لسيرته ، يقول إن الإمبر اطور الجديد لم تسره فعلة

⁽١) واللاتير إن هو قصر الباباوت الأول في روما . ثم احتلوا الفاتيكان فيما بعد . (المؤلف)

البابا المفاجثة هذه بأية حال . فإنه قال : « لو أنه عرف أن هذا سيحدث لما دخل الكنيسة ، مهما بلغ العيد من الجلال! » . ولا شك في أنه كان يفكر ويتكلم عن جعل نفسه إمبراطورا ، ولكن من الواضح أنه لم يكن يريد أن يجعله إلبابا إمراطورا . وكان يجول في خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إبريني ، التي كانت تحكم في القسطنطينية في ذلك الزمان ، وبذا يصبح عاهلا لكل من الإمبر اطوريتين الشرُقية والغربية . ولكنه أصبح آنئذ مضطرا إلى قبول اللقب على الشاكلة التي رسمها ليو الثالث ، أي بوصفه هبة من البابا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية . وكانت بيزنظة في بادئ الأمر غير راغبة في الاعتراف بلقب شار لمان الإمبر اطوري . ولكن حدث في ٨١١ أن حلت بالإمبر اطورية البيز نطية كارثة عظيمة . فإن البلغار الوثنيين بقيادة أميرهم كروم (Krum) (١٠٢ – ٨١٥) ، دحروا وشتتوا جيوش الإمراطور نقفور الذي أصبحت جمجمته كأساً لكروم . وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان . ﴿ وَبِذَلْكُ يكون الشعبان البلغارى والإنجليزى ظهرا كوحدتين سياسيتين في وقت واحسد تقريباً) . وبعد هذه الكارثة لم تبد بيزنطة أي اعتراض على هـذا الابتعاث للإمبراطورية في الغرب ، وفي (٨١٢) اعترف رسمياً بشرلمان إمبراطورا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين .

وبذلك تكون إمراطورية روما التي ماتت على يدى أودواكر (Odoacer) في ١٧٦ ، قد بعثت من جديد في ١٨٠٠ م باسم «الإمراطورية الرومانية المقدسة » وعلى حن أن جسمها وقوتها الحثمانية كانت في شمال جبال الألب ، فإن مركز فكرتها كان روما . فكانت من ثم ، منذ بدايتها شيئا موزعا له قوة غير محددة ، كانت دعوى وجدلا أكثر منها حقيقة لا يستغني عنها . كيف كان صليل السيف الألماني يسمع على الدوام في مسيره من فوق جبال الألب إلى إيطاليا ، وكانت بعوث المبشرين والقاصدون الرسوليون يدلفون من فوقها في الانجاه المضاد . على أن الألمان لم يتهيآ لهم البئة أن الرسوليون بالبطاليا باستمرار ، إذ لم يكن في طوقهم تحمل الملاريا التي كانت تلك البلاد المخربة المهملة غير المصرفة المياه مباءة لها . وثمة تقليدقديم كانت جذوته تنقد خلل الرماد في

روما وفى مدن إيطالية أخرى عديدة ، تقليد أعرق منبتا ، هو أحد التقاليسد المتوارثة عن الجمهورية الأرستقراطية ، تلك التقاليد المعادية للإمبراطور والبابا على السواء .

٦ _ شخصية شرلمان

من العسير علينا أن نتمثل خلق شرلمان وشخصيته ، وبالرغم من أن لدينا سيرة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد(۱) . ذلك أن إجنهارد يعوزه الإشراق والنصاعة ، لعم إنه يدلى إلينا بتقاصيل كثيرة ، ولكنها ليست التفاصيل التى تبعث الحياة فى صورة الرجل المسجلة . وهويقول إن شرلمان كان رجلا طويل القامة ، له صوت ضعيف أو يكاد ، وكانت له عينان براقتان وأنف طويل . « وكانت قمة رأسه مستديرة » ، (وما ندرى لذلك القول معنى) . وكان أشيب الشعر . وكانت رقبته غليظة قصيرة نوعاً و « بطنه شديد البروز » . وكان يلبس إزارا Tunic) مطرز الحواشي بالفضة وجوربا له أربطة للساق . وكانت له عباءة زرقاء ، وكان على الدوام متقلدا سيفه ، وكان مقبضه وحائله من الذهب والفضة .

وواضح أنه كان رجلا جم النشاط – وإن الإنسان ليتصوره يتحرك بسرعة - ولم تحل غرامياته العديدة قط دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التي لم تنقطع . كانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات . وكان يكثر من مزاولة الرياضة : وكان مغرماً بالأمهة والحفلات الدينية ، كريماً يجزل العطاء . كان رجلا متعدد نواحي النشاط عظيم الإقدام الذهني ، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء بغليوم الثانى إمبراطور ألمانيا السابق الذي هو آخر – وريما كان ذلك إلى الأبد – هذه المجموعة من القياصرة الزائفين بأوربا الذين يقوم على رأس قائمتهم شرلمان .

والحياة العقلية التي يسجلها عنه إجنهارد شائقة لاتخلو من متعة ، لأنها لا تقف عند إعطائنا لمحات عن شخصه مستطلعة ، ولكنها تمثل لنا نموذجا من عقلية ذلك الزمان . كان له إلمام بالقراءة ؛ والراجح أنه كان أثناء تناوله الطعام « يصغى إلى

^() انظر : «Life of Karl the Great» تأليف إجنهارد (جلايستر) .

 ⁽۲) هوردا، رومانی یشد بنطاق حول الحصر , (المترجم)

الموسيتي أو القراءة » ، ولكن يحدثنا مؤرخه بأنه لم يتعلم فن الكتابة ؛ « وكان من عادته أن يضع دفتره وألواحه تحت وسادته ، حتى يمرن يده على كتابة أشكال الحروف إذا بهيأت له فسحة من وقت الفراغ ، ولكن تقدمه كان طفيفاً في ذلك الفن الذي ابتدأه في وقت متأخر جداً من حياته » . ومع ذلك فقد كانت نفسه تنطوى على احترام حتى للعلم ورغبة صادقة في المعرفة ، وبذل قصارى جهده ليجنذب رجال العلم إلى بلاطه . ومن بين الكثيرين الذين وفدوا عليه الكوين (Alcuin) وهو عالم إنجليزى .

وكان كل هوالاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس) ، إذ لم يكن هناك أى علماء آخرين ، وطبيعي أنهم كانوا يصبغون المعلومات التي يقدمونها لسيدهم بصبغة قوية من الدين . وكان مقر بلاطه في العادة إكس لاشابل أو مايانس ، فإذا حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة غريبة تسمى« مدرسته» ، وفيها كان يتظاهر هو وخلطاؤه اللوذعيون أنهم ينبذون جانباً كل تفكير في المراكز الدنيوية ، ويتخذون لأنفسهم أسماء مستقاة من كتَّاب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار المقدسة ، ويتناقشون في اللاهوت والأدب . فأما شارلمان نفسه فكان يتسمى باسم « داود » . فأفاد علما غزيراً ومعرفة جسيمة باللاهوت ، وإليه ينبغي لنا أن ننسب اقتراح إضافة عبارة : « وعن الابن أيضاً Filio que ﴿ إِلَى قانون إيمان العقيدة النيقية (١) ـــ وهي إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن اللاخرى . ولكنا نشك كثيراً في أنه كان يرمى إلى مثل هذه الفرقة . فإن كل ما أراده أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحي كلمة أوما إليها ، كما شاء الإمبراطور غليوم الثانى بالضبط أن يكتب المسرحيات الغنائية (الأو پرات) وأن يدبج الصور ، وكان بذلك يتخذ لنفسه ما كان في الأصل بدعة أسبانية . فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل ؛ واقتضت حكمة البابا ليو معارضها . وعند ما تم قبولها آخر الأمر ، كان ذلك على الأرجح عمداً بقصد إحداث الانفصال عن الكنيسة اليونانية . والنقطة الني ينطوى عليها الموضوع ، نقطة دقيقة خفية ولكنها حيوية ، غير أن كاتب هذه السطور

⁽۱) يشير كما أسلفنا إلى المجمع اللى عقده قسطنطين (٣٢٥م) وأصدر قانيينها إيمان)نظر (ص ٧٤١) . شير كما أسلفنا إلى المجمع)

لا يستطيع أن يدلى فيها برأى . فالمسيحية اللاتينية تعتقد أن « الروج القدس» ينبثق من الآب « وعن » الإبن ، على حين يعتقد المسيحيون اليونان والشرقيون بأن «الروج القدس» إنما ينبثق من الآب دون أى ذكر للإبن . وهذا الاتجاه الثانى يبدو كأنما يميل هونا ما نحو وجهة النظر الآريوسية . ولن نسوق إليك هنا إلا القليل من القول فى تنظيم شرلمان للإمبر اطورية . فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثرة المشاغل بحيث لم يتهيأ له أن يدرس صفة خلفه أو يبحث فى شروط الاستقرار السياسى ، وأجدر الأمور بالذكر فى هذا الصدد هى أنه أوصى ابنه وخليفته ، لويس الورع (١١٤ – الأمور بالذكر فى هذا الصدد هى أنه أوصى ابنه وخليفته ، لويس الورع (١١٤ – الأمور بالذكر فى هذا التعلمات عتد ما اعترض البابا .

وتأثر تشريع شرلمان أعظم التأثر بقراءته للكتاب المقدس ؛ فإنه أصبح مع تقدم الزمن ، جيد المعرفة بالكتاب المقدس ، ومن خصائصه المأثورة أنه بعد ما توج إمبراطوراً ، طلب إلى كل ذكر من أفراد رعيته تجاوز الثانية عشرة أن يجدد له قسم الولاء والطاعة ، وأن يتعهد بأن يكون لا مجرد فرد طيب من أفراد الرعية بل مسيحياً صالحاً . وكان رفض التعميد والارتداد بعد التعميد جرائم عقوبتها الإعدام .

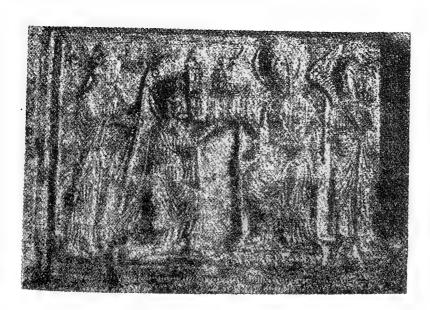
فعل الشيء الكثير لتشجيع فن العارة ، قاستحضر معاريين إيطاليين عديدين ، من رافناً (Ravenna) بصفة خاصة ، ونحن مدينون لهم بكثير من المبانى الجميلة التي ما زالت تبهج السائحين في ورمز وكولونيا (كولن) وغيرهما من بلدان أرض الراين . وبذل جهداً كبيراً للنهوض بفن العارة «الرومانسكي» (1) الذي سنصفه في القسم التالي . وأسس عدداً من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة ، وفعل الشيء الكثير لتشجيع دراسة اللانينية (الكلاسيكية) القديمة ، وكان هاوياً ممتازاً شديد الولع بموسيقي الكنيسة . على أن احمال تحدثه باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فيها جدال ونظر ، ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية . ومع ذلك فإن الفرنجية (Frankish) هي لغته العادية . وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأقاصيص الألمانية القديمة . على أن خلفه لويس الورع دمر هذه لوثنيها .

⁽١) الدومانسكى طراز من فن العارة وسط بين الطرازين الرومانى والقوطي . انتشر بغرب أوربا يمن القرن التاسم والثالث عشر . (المترج)

وتبادل الرسائل وهرون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد ، الذي يحتمل أن مودته له لم تتأثر قط بما لقيه العرب الأمويون في أسبانيا على يديه من شديد النكال ويرى جيبون أن هذه « المراسلات العلنية كانت تقوم على الغرور » ، وأن « مركزيهما المتباعدين لم يتركا أي مجال لاحتكاك المصالح » . ولكن لما كانت الإمبراطورية البيزنطية تقوم بينهما في الشرق ، والخلافة المستقلة بأسبانيا في الغرب ، والخطر المشترك من أتراك السهول العظيمة ، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل المودة القلبية . ويقول جيبون إن هرون الرشيد أرسل إلى شرلمان على يد سفرائه فسطاطاً فاخراً وساعة مائية وفيلا ومفاتيح الناووس المقدس . والهيئة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربي كان يتعد شرلمان إلى حديما ، حاى المسيحيين والممتلكات المسيحية في مملكته ، ويعلن بعض المؤرخين صراحة ـ أنه قد كانت هناك معاهدة بهذا الصدد .

٧ - الفن والعمارة الرومانسكيان

كان يحدث في الشرق بدافع المؤثرات المسيحية ، أن فن عمارة الإمبراطورية الرومانية الفاخر الاتزان والجمود ، أى فن العارة الذي يوجد في تدمر وبعبك . قد ألم به تحوير سريع عميق بحول به نحو جمود الجزالة الأثيرية التي للطراز البيزنطي ، أما في الغرب فكانت تلم به تطورات مشامة وإن لم تكن مناظرة لتلك تماماً . وقد شاع لمطلاق اسم «الرومانسكي » على أضرب جمة من المبانى تتبدى فيها جميعاً صفة مشتركة ، لأنها مشتقة جميعاً من التقاليد الفنية الرومانية ، التي أو هن قوتها وكبحها انتشار الفقر بصفة عامة في أرجاء العالم ، ولكنها تشهد أيضاً في كل مكان بوجود تأثيرات عنصرية بحديدة وضرورات اجتماعية جديدة . فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات عظيمة للماء ولا أي أقواس نصر ولا معابد تقام للآلهة . بل كانت هناك حصون عظيمة للماء ولا أي أقواس نصر ولا معابد تقام للآلهة . بل كانت هناك لأول مرة وقلاع ضخمة مستديرة أو مربعة ، وكنائس وأبراح . ويصبح البرج آنذاك لأول مرة مهما في أوربا ؛ ذلك أن فن العارة أخذ يعلو صُعداً . وقد كنا حتى الآن لا نشاهد



(شكل ١٣٧) رسم بارز من قير شرلمان في إيكس لاشاپل يمثله وهو يكرس كنيسة للعذراء

الأبراج إلا في أرض الجزيرة بالعراق. ولم تحاول المبانى في العالم المصرى ولا الهلتيني ولا الرومانية أن تشق عنان السموات. حقاً إنه توجد أبراج في التحصينات الرومانية والهلتينية وفي سور الصين العظيم، وهي أجزاء من الاستحكامات الدفاعية، ولكن هذا يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحقبة المسيحية. ثم يصبح البرج ضرورة لا بد منها في عالم يغير عليه الهون والعرب وقراصنة البحر من كل الأنواع وسنجد ثلث في قسم قابل عن أهل الشهال (Northmen) والعرب والمجريين. وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسبب صلاة الجماعة التي يدعو إليها الدين الجديد، وطبيعي أن يظهر الاثنان جنبا إلى جنب.

وتشترك ديانتا « الكتاب والفكرة » الجديدتان : النصرانية والإسلام ، فى هذه الصفة ؛ فإنهما جهدتا أن تصلا إلى قلب كل إنسان . فكان لابد من حشد الناس فى مكان العبادة والقربان ؛ وكان لا بد من تذكيرهم بالصلاة والعقيدة . ولذا أطلق فن العارة الإسلامي أرق زهراته ، وهي المئذنة التي يمكن من فوقها دعوة الناس

وهدايتهم . ولم تعد المسيحية تستطيع الاكتفاء بالمعبد المظلم الصغير الخاص بالآلهة الأقدمين ؛ فكان لزاما أن تبنى الكنائس كبيرة متسعة الجنبات ، لتضم كل من في الناحية من المؤمنين . وكان لا بد من دعوة الناس بوج الجوس فهجر طراز المعبد الإمبر اطورى ، ودعت الحاجة إلى المبانى الفسيجة المعاريين المسيحيين للتحول بوجههم إلى نموذج دور القضاء الرومانية وأعنى بها الباسيليقا (Basilicas) (۱).

ومن المستحيل علينا في هذا المجال المتاح لنا أن نقفو الفن « الرومانسكي » بمختلف أنواعه وأشكاله الجمة ، فنراه وهو ينتقل متحولا إلى فن بنزنطى ناحية الشرق ثم وهو يتعدّل على يد النورمانديين والسكسون والفرنجة . على أن عهد الاستقرار الذي حل إبان حكم شرلمان جمع تحت رعايته كل ما في أوربا الغربية من قوى فنية ، وإنما يصل الطراز الرومانسكي إلى أبرز مستويات تعبيره عن ذاته في مباني كاتدرائية إكس لاشايل (آخن) وأمثالها .

وكما حدث من اختفاء الأشكال المجسمة الممثلة للكائنات الحية الذي لاحظناه في الفنين البيزنطي والعربي ، تواصل في أوربا الغربية أثناء تلك العصور المضطربة ، اختفاء مناظر له وإن لم يكن تاماً . حتى أن المثال الذي كان يسطيع أن يعالج بقوة أوضاع الإنسان أو الحيوان ، لم يعد له وجود على ظهر البسيطة في أية منطقة غربي بلاد الهند . والتجأ فن النقش والتصوير إلى الأديرة . إذ أن تحلية الكتب بالصور ارتفعت إلى مستويات عالية من الإتقان في الإمبراطوريتين الرومانية والهلينية ، ولم تندش قط اندثاراً تاماً . وإنما أبقاها على قيد الحياة غدوات الرهبان المسيحين وروحاتهم ، كما كان يتجدد فيها النشاط الحياد الأساليب والفكرات . وكانت الأديرة الإرلندية تخرج منذ عصر مبكر يتناهي إلى القرنالسابع مخطوطات ذات حمال أخاذ . ويرجع كتاب الرقائق (٢)(The Book of Kells المتعاللة ويرجع كتاب الرقائق (٢)

⁽۱) الباسيلة اأو البازيليك أصلها عند الرومان قاءات مستطيلة ذات صفين من الأعمدة ولها محر ب تصف دائرى فى نهايتها ، تستخدم فى الشئون القضائية والمالية – وتحول أكثرها فيما بعد إلى كنائس مسيحية . (المترجم)

⁽٢) كلمة معناها ألجلد الرقيق أو الغشاء أو المشبكات (على نحو ما يراه الإنسان فى الشبكة من خيوط متقاطعة تاركة بينها ثقوباً أو منافذ) وعليه يمكن تسمية هذا الكتاب باسم «كتاب الرقائق أو المشبكات » (المترجم)

الذى هو نسخة من الأناجيل بكلية ترينتي (Trinity College) بدبلن ، إلى ذاك العهد . ويماثل الإنتاج الكلتي الانتاج العربي الأول مماثلة غريبة في امتناعه عن استخدام صور الأشكال الحية في زخارفه . وألوانه وتصمياته بديعة ، ولكن الرسم فيه زرى حقير . واختلطت المؤثرات الكلتية بالمؤثرات الكلاسيكية والبزنطية في النهضة الفنية ببلاط شرلمان . وهناك ارتفعت المخطوطات المحلاة بالصور المثقلة بالذهب إلى أبدع وأروع مستوياتها .

على أن يعض المنتجات الإنجليزية والنورماندية تبدى شيئاً من التمرد بإظهارها ميلا إلى الفن التمثيلي ورسم الأشكال بالخط المحيطي^(۱) Outline ، وسرعان ما تنطلق نحو عمل الصور المصغرة Miniatures أو المنميات . على أن الانحطاط التدريجي الذي لحق فن تحلية المخطوطات بالصور ، واختفاء روح المبادهة والاختراع فها بسبب انحراف الطاقة الفنية إلى أوساط Media أخرى^(۲) ، لم تصبح ملموسة إلاقي القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

ــ الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم

لم تعش إمراطورية شرلمان بعد ابنه وخليفته لويس الورع ، فإنها انشطوت إلى أجزائها الرئيسية الأصلية . ذلك أن سكان بلاد الغال من الكلت والفرنجة ذوى الصبغة اللاتينية يأخلون عند ذاك في أن يتميزوا تحت اسم فرنسا ، وإن كانت فرنسا تلك منقسمة إلى عدد من الدوقيات والإمارات انقساماً لم يجعل لها معه في معظم الوقت الا وحدة إسمية ، وشرعت الشعوب الناطقة بالألمانية بين نهر الراين وبين الصقالبة في الشرق تكون بالمثل صورة لألمانيا أشد من صورة فرنسا القساماً . حتى إذا ظهر آخر الأمر إمبر اطور حقيقي في أوربا الغربية (٢٦٣) ، فإنه لا يكون فرنجيا بل سكسونيا فقد أضحى المغلوبون في ألمانيا هم السادة .

وإنا لنرى هاهنا أول الإشارات إلى صنف جديد من أصناف التجمع السياسى فى أوربا ، وهو فجر ما نسميه الآن « بالقومية Nationalism » . وهى شيء أشبه ما يكون ببداية إحدى عمليات التبلور ، أو قل إنها عملية تخارج وفرز حدثت فى الخليط المتلاطم التام الاضطراب الذى جاء فى أعقاب تحطم النظام الإمبر اطورى .

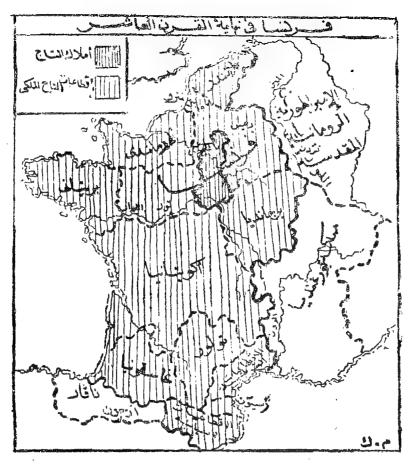
⁽۱) الخط المحيطى : طريقسة فى الرسم تبرز فيها الحطوط الحارجية للشىء من غير تظيل . انظر للمترجم كتاب «التربية عن طريق الفن » لهربرت ريد (الألف كتاب)

⁽٢) الوسط : المواد والأساليب والوسائل الفنية والمادية والتكنيكية النعبير الفي . (المترجم)

ومحال أن نقفو في هذا المقام أحداث القرنين التاسم والعاشر بأى قدر من التفصيل ، سرسمين ما جرى فيه من المخالفات والحيانات والادعاءات وصنوف الضم والاستبلاء . فقد كانت تعم أوربا حالة من الفوضى والحروج على القوانين وحروب وكفاحات من أجل القوة والسلطان . وفي (٩٨٧) انتقل ملك فرنسا الإسمى من أيدى الكارلوڤنچيين ، وهم آخر سلالة شرلمان إلى يد هيو كاپيت ، الذى أسس أسرة ملكية جديدة . وكان معظم أنباعه المزعومين مستقلين في الحقيقة ، نزاعين إلى خوض عمار الحرب على الملك لأقل استفزاز . فكانت ممتلكات دوق نورماندى مثلا أشد سعة وأعظم قوة مماكان يملكه هيو كاپيت نفسه . وتكاد الوحدة الوحيدة التي نجمع شتات فرنسا هذه ، التي كان للملك عليها سلطة إسمية ، تنحصر في عزم ولاياتها الكبرى جميعاً على مقاومة أي الدماج في أية إمبراطورية يتسلط عليها حاكم ألماني أو يسودها بحيعاً على مقاومة أي الندماج في أية إمبراطورية يتسلط عليها حاكم ألماني أو يسودها البابا . وفيا عدا ذلك التنظيم البسيط الذي كانت تمليه تلك الإرادة المشتركة ، فإن فرنسا لم تزد عن رقعة شطونخ مكونة من نبلاء مستقلين أو يكادون . كانت الحقبة حقبة بناء قلاع وإقامة تحصينات ، وفترة ما يسمونه « بالحرب الحاصة » في كل أرجاء أوربا .

وتكاد حالة روما فى القرن العاشر أن تعجز القلم عن أى وصف. فإن انحلال المبراطورية شرلمان ترك البابا ولا حامى له: تهدده ببزنطة والعرب (الذين استولوا على صقلية) ، ويتحرش به نبلاء روما الشرسون . ومن أقوى هؤلاء النبلاء امرأنان ، هما تيودورا وماروزيا وهما أم وابنتها(۱) ، تعاقبنا فى الاحتفاظ بقلعة سانت أنجلو (انظر ص ۸۳۰) ، التى استولى عليها ثيوفيلاكت زوج تبودورا النبيل ، كما استولى عليم معظم سلطة البابا الزمنية . وكانت هاتان المرأتان من الجرأة وموت الضمير خلاعة كأى أمير ذكر فى ذلك الزمان ، والمؤرخون يسبونهما كأنما كانتا أسوأ من الأمراء عشر مرات . وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وسجنته (٩٢٨) ، وسرعان ما توفى فى ظل رعايتها ! ! . . . فأما أمها ثيودورا فكانت خليلة له . ثم نصبت ماروزيا بعد ذلك ابنها غير الشرعى على عرش البابوية ، باسم يوحنا الحادى عشر .

⁽۱) ويذكر جيبون اسم تيودورا أخرى ، هي شقيقة ماروزيا . (المو'لف) تاريخ الإنسانية جـ٣



(شكل ١٣٨) خريطة فرنسا في نهاية القرن العاشر

ومن بعده شغل كرسى القديس بطرس حفيدها يوحنا الثانى عشر. وإن ما سطره جيبون عن سلوك يوحنا الثانى عشر وأخلاقه ، ليتوارى آخر الأمر خجلا وراء ستار من الهوامش اللاتينية . وقد جُرد هذا البابا يوحنا الثانى عشر من منصبه على يد الإمراطور الألمانى الحسديد أوتو ، الذى عبر جبال الألب والمحدر إلى إيطاليا ليتوج (٩٦٢) .

وهذه السلالة الجديدة من الأباطرة السكسون ، التي ارتفعت على هذا النحو إلى



رتبة الصدارة ، تنتسب الى شخص معين اسمه هنرى الصياد ، انتخبته ملكا لألمانيا جمعية من النبلاء والأحبار الألمان في (٩١٩) . وفي (٩٣٦) في (٩٣٦) . وفي (٩٣٦) خلفه في الملك ابنه أوتو الأول خلفه في الملك ابنه أوتو الأول انتخب كذلك خليفة له في المتحب كذلك خليفة له في المتحدر آخر الأمر إلى روما الحكى يتوجه امبراطورا في بدعوة من يوحنا الثاني عشر لكي يتوجه امبراطورا في تجريد يوحنا فيا بعد خيانة تجريد يوحنا فيا بعد خيانة

ذلك البابا له . ولما تسلم (شكل ١٣٩) خريطة إالبراطورية أوتو الكبير

أوتو الأول مقاليد سلطته الإمبراطورية ، لم يكن ذلك منه تغلبا على روما قدر ما كان إعادة للنزاع القديم على السلطان بين البابا والإمبراطور إلى حالة تدانى الاعتدال والكرامة . وتبع أوتو الأول على العرش أوتو الثانى (٩٧٣ – ٩٨٣) ، الذى أعقبه أتو الثالث (٩٨٣ – ٩٨٣) .

وربما جاز لنا أن نشير هنا أنه ظهرت ثلاث أسرات من الأباطرة فى أوائل القرون الوسطى – هى السكسونية : من أوتو الأول (٩٦٢) إلى هنرى الثانى ، وتنتهى فى (١٠٢٤) ؛ والساليانية (١) : من كونراد الثانى إلى هنرى الخامس وتنتهى

⁽١) كلمة Salian مشتقة من سالو Salii وهم كهنة إله الحرب مارس Mars عنه قدماء الرومان . والمقصود هنا من كلمة ساليان هو النسبة إلى قبيلة من قبائل الفرنجة استوطنت الراين الأدنى . (المترجم)

قرابة (١١٢٥) ؛ ثم أسرة هوهنشتاوفن ، كونراد الثالث إلى فردريك النانى ؛ وتنتهى فى (١٢٥٠). وكانت أسرة هوهنشتاوفن سوابية الأصل . ثم جاءت أسرة هابسبرج ، مبتدئة برودلف الأول فى (١٢٧٣) ، واستمرت حتى (١٩١٨) . وإنا لنتكلم عن الأسرات المالكة هنا ، وإن جرت العادة بإقامة احتفال عظيم لانتخاب كل إمبراطور عند توليه العرش .

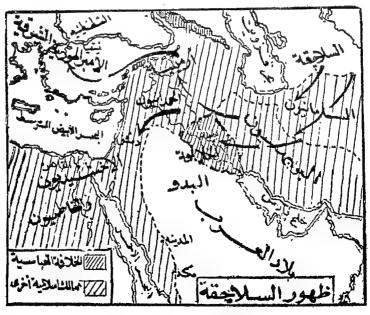
ويلعب الكفاح بين الإمبراطور والبابا على السيادة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة دوراً كبيراً في تاريخ الشطر الباكر من القرون الوسطى ، وسنرسم لك من فورنا صورة تخطيطية لأدواره الرئيسية . ومع أن الكنيسة لم تنحدر بعد ذلك أبداً إلى مستوى يوحنا الثاني عشر ، فإن تاريخها يتقلب بين أدوار من القسوة العظيمة والفوضى الشديدة والمؤامرات الجامحة .

ومع كل هذا فإن التاريخ الظاهرى لعالم المسيحية ، ليس التاريخ الكامل لذلك العالم ، فأما أن قصر اللاتيران كان يضارع في الدهاء والحمق والإجرام معظم البلاطات المعاصرة له ، فشيء لا مناص من تسجيله ، على أننا إن أردنا أن نحافظ على التناسب التام اللازم في هـ فيا السفر التاريخي ، فواجبنا يحتم عليا ألا نشـ تط في توكيد ذلك . وينبغي لنا أن نتذكر أنه على اكر تلك العصور جميعاً ، ظل ما لا حصر له من رجال ونساء لهم أثرهم العميق في هذه الدنيا ، وإن لم يخلفوا من ورائهم أن أثر تسجله صفحة المؤرخ ، أقول ظلوا يعيشون متأثرين بتلك الروح الصادرة عن يسوع الناصرى التي بقيت حقية بل لن تبرح حية في لباب المسيحية وسويدائها ، يعيشون متأثرين بذلك تأثراً عليم على اتخاذ سبيل للحياة كريم في جملته ينطوى على متبادل العون ، كما دفعهم على اتخاذ سبيل للحياة كريم في جملته ينطوى على متبادل العون ، كما دفعهم بركة تزيل من جو تلك العصور كل ما علق به من أدران ، ونعمة تتيح للناس علماً أفضل . وكان ذلك على غرار ما كان في العالم الإسلام جيلا بعد جيل ثمارها من الشجاعة والأمانة والرفق

٩ - النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون

وبيناكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وشعوب فرنسا وإنجلترة تظهر كما ترى في وسط التمزق السياسي البالغ الذي أصاب مدنية أوربا الغربية ، فإن كلا من هذه المدنية والإمبراطورية البيزنطية قد تعرضت لهجوم مثلث الجوانب: من دول العرب، ومن أهل دول الشمال ، ثم من شيء ثالث هو أبطؤها جميعاً تطوراً وأشدها بأساً: من زحف جديد نحو الغرب قامت به الشعوب التركية خلال جنوب الروسيا ، ومن آسيا الوسطى كذلك بطريق أرمينية وإمبراطورية بغداد .

فبعد أن أسقط العباسيون خلافة الأمويين ، تناقصت قوة الدافع العربي ضد أوربا . لم يعد العالم الإسلامي متحداً : إذ كانت أسبانيا تحت حكم خليفة أموى منفصل ؟ على حين أن شمال أفريقية وإن كان خاضعاً بالاسم للعباسيين ، كان في حقيقت مستقلا ؛ وما لبثت مصر أن أصبحت في (٩٦٩) دولة منفصلة لها خليفة شيعي خاص مها ، وهو رجل ادعى الانتساب إلى على وفاطمة « وأسس الحلافة الفاطمية » .



(شكل ١٤٠ خىرىطە ظھور السلاجقة

وكان هؤلاء الفاطميون المصريون، وهم المسلمون ذوو العلم الأحضر، متعصين بالمفارنة إلى العباسين، وفعلوا الشيء الكثير لتشويه ما بين الإسلام والمسيحية (١) من صلات طيبة. فاستولوا على بيت المقدس، وتدخلوا فى زيارة المسيحيين للقبر المقدس، وكانت هناك كذلك فى الناحية الأخرى من الأملاك العباسية المتقلصة، مملكة شيعية مقرها فارس. وكان أهم فتح قام به العرب فى القرن التاسع هو صقلية ؛ ولكن ذلك الفتح لم يتم اجتياحاً على الطراز الرائع القديم أى فى سنة أو ما يقاربها، بل تم إخضاعها فى جهد جهيد خلال قرن كامل من الزمان، ومع نكسات كثيرة فى كفة الحرب، وكان عرب أسبانيا يتنازعون فى صقلية مع عرب إفريقية. وكان العرب فى أسبانيا يتنازعون فى صقلية مع عرب إفريقية. وكان العرب فى أسبانيا الإمراطورية البرنطية وعالم المسيحية الغربية كانا ما يزالان من الضعف فى البحر المتوسط بحيث استطاع المغيرون والقراصنة العرب من شمال إفريقية، أن يغيروا على حديب إيطاليا والحزر اليونانية دون أن يجرؤ أحد على تحديم.

على أن قوة أخرى جديدة أخذت تظهر آنذاك في البحر المتوسط. وقد سبق أن أشرنا أن الإمبر اطورية الرومانية لم تبسط نفوذها مطلقاً على شواطىء البلطيق ، ولاكان لديها قط القوة لدفع سلطانها إلى بلاد الدانيمرك . وتعلمت الشعوب الآرية النوردية في تلك الأقاليم المهملة الشيء الكثير من الإمبر اطورية التي لم تستطع إخضاعهم ؛ وقد استطاعوا كما أسلفنا الهوض بفن بناء السفن وأصبحوا ملاحين ذوى إقدام ؛ فانتشروا عبر بحر الشهال غرباً ، وعبر بحر البلطيق وأعلى الأنهار الروسية إلى صميم ما هو الآن الروسيا . وكانت نو فشجورود الكبرى من أقدم مستعمراتهم فيها .

وإن دارس التاريخ لا يفتأ يجد في حالة هذه الشعوب الشهالية ماكان يثقله من المشقة والربكة لدى دراسته للإسكيذيين في الأزمان القديمة ، والشعوب التركية

⁽۱) أطلق هنا المؤلف القول على عواهنسه ، إذ المعروف حقيقة أن تسامح الفلطميين مع السنيين والكتابيين كان مضرب الأمثال ، فقد اتخذوا من المسيحيين واليهود على السواء وزراء وكاتمى أسرار وتزوجوا منهم ، وكان بعض خلفائهم من أمهات كتابيات .

الهونية في آسيا الشرقية والوسطى. فإنها تظهر نحت عدد وفير من الأسماء ، كما أمها تتغير وتتخالط . في حالة بريطانيا مثلا ، ترى أن الإنجليز والسكسون والجوت قد غزوا معظم ما هو الآن بريطانيا في القرنين الخامس والسادس ، وجاء في أعقابهم في القرنين الثامن والتاسع الدانيمركيون وهم موجة ثانية من نفس الشعب تقريباً ؟ وفي (١٠١٦) حكم في إنجلترة ملك دانيمركي ، هو كانوت الكبير ، ولم يقتصر ماكه على إنجلترة بل تعداها إلى الدانيمرك والترويج . وكان رعاياه يمخرون البحر مسفهم إلى أيسلندة وجرينلندة وربما إلى القارة الأمريكية ، وجاء حين من الدهر تبدت في الأفق فيسه إبان حكم كانوت وأبنائه ، بوادر احيال إنشاء اتحاد عظيم من أهل الشهال .

ثم انثالت فى (١٠٦٦) موجة ثالثة من نفس الشعب إلى إنجلترة ، من دولة « النورمان » فى فرنسا ، حيث كان أهل الشهال مستقرين منذ أيام رولف العدّاء (٩١١) ، وحيث تعلموا أن يتكلموا الفرنسية . وأصبح وليم دوق نور ماندى وليم الفاتح (١٠٦٦) فى التاريخ الإنجليزى .

وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب من زاوية التاريخ العام ، وجدناها جميعاً تكاد تكون شعباً واحداً ، وألفيناها موجات من أرومة نوردية (شهالية) واحدة . ولم تكن هذه الموجات تتجه غرباً فحسب بل شرقاً كذلك . ولقد سبق لنا أن سجلنا حركة جد شائقة قبل هذه لنفس الشعوب تحت اسم القوط تتجه من البلطيق إلى البحر الأسود . وتبعنا تفرع هولاء القوط إلى القوط الشرقية والقوط الغربية ، كما تأثرنا التجولات المليئة بالمغاه رات التي انتهت آخر الأمر بتكوين مملكة القوط الشرقين في إيطاليا ودويلات القوط الغربين في أسبانيا . في القرن التاسع ، كانت لأهل الشهال حركة ثانية عبر الروسيا في نفس الوقت الذي كانت فيه مؤسساتهم في إنجلترة ودوقيتهم في نورماندى قد أخذت تظهر إلى عالم الوجود .

ولاشك ان بين سكان جنوب اسكتلفدة وإنجلترة وشرق إبرلندة وفلاندر ونورماندى والدول الروسية من العناصر المشتركة ما لا يكاد يخطر ببالنا بحكم الإلف

والعادة . فهم جميعاً من الناحية الأساسية شعوب قوطية ونوردية . وإن القرابة بن الروس والإنجليز لنلحظ حتى في موازين الطرفين ومكايباهم . فإن لدى كل مهما البوصة والقدم الشهاليين (Norse) ، كما أن كثيراً من الكنائس النورماندية الأولى في إنجلترة قد بنيت على مقياس يبين استعال الساچيبي (وهو يعادل ٧ أقدام) وربع الساچيبي ، وهو مقياس نورسي (شهلل) لا يزال مستعملا في الروسيا . وكان أهل الشهال « الروسيون » هؤلاء يسافرون زمن الصيف ، مستعملين الطرق المهرية الوفيرة في الروسيا ؛ وكانوا يحملون سفهم على الأراضي الفاصلة بين الأنهار المتجهة شهالا وتلك التي تنساب جنوباً . وقد ظهروا على صورة قرصان أو مغيرين و تجار في كل من بحرى قزوين والأسود . وذكر المؤرخون العسرب ظهورهم على بحر قزوين ، وتعلموا أن يسموهم الروسيين . وقد أغاروا على فارس ، على بحر قزوين ، وتعلموا أن يسموهم الروسيين . وقد أغاروا على فارس ، وهددوا القسطنطينية بأسطول عظيم من الزوارق الصغيرة (في ١٠٤٥ ، ١٠٤٩ ، ١٩٤١ م) (١) .

وفى عام ١٥٠ م تقريباً نصب روريك أحد أهل الشهال هؤلاء ، نفسه حاكماً على نوڤجورود ، واستولى خليفته الدوق أوليج (Oleg) على مدينة كييڤ وبذلك وضع أسس روسيا الحديثة . وسرعان ما قدرت القسطنطينية ما لدى الڤيك إنجز الروس من صفات حربية ؛ وكان الروم (اليونان) يسمونهم الڤارانچين (Varangians ، وأنشى من هؤلاء الڤارانچين حرس إمراطورى خاص . وبعد غزو النورماندين لإنجلترة (١٠٦٦) دُفع بعدد من الدانيمركيين والإنجليز إلى المننى فلحقوا بهؤلاء الڤارانچين الروسين ؛ وواضح أنهم لم يجدوا إلاشيئاً لا يكاد يذكر من الفوارق فى اللغة والعادات يحول دون اختلاطهم بعضهم ببعض .

وفى نفس الوقت كان النورمانديون النازحون من نورماندى كذلك يكتشفون طريقهم إلى البحر المتوسط من الغرب. فهبطوه بادى وني بدء مرتزقة ، ثم مغرين

⁽۱) هذه التواريخ منقولة عن جيبون بينا يحددها بيزلى ۸۲۵، ۹۰۶ – ۹۰۷ ، ۹۳۵، ۹۳۶، ۵۳۶، ۹۴۶ ، ۹۲۲ – ۹۷۱ . (المؤلف)

لحسابهم الخاص فيما بعد ؛ ويهمنا أن نسجل هنا أن انتقالهم الرئيسي لم يكن بطريق البحر ، بل في شراذم متناثرة بطريق البر . جاءوا محترقين أرض الراين وإيطاليا ، يبحثون من ناحية عن الخدمة الحربية والأسلاب ، ومن ناحية أخرى بوصفهم حجاجاً . ذلك أن القرنين التاسع والعاشر شهدا إقبالا عظيما على الحج :

وحين بلغ هؤلاء النورمانديون مبلغ القوة ، تنهوا لأنفسهم وإذا بهم لصوص سلابون ذوو بأس ، حتى لقد أرنموا الإمبراطور الشرق والبابا أن يبرما ضدهم معاهدة ضعيفة غير فعالة (١٠٥٣) . فهزموا البابا وأسروه ثم عفا عهم . وثبتوا أنفسهم في كالابنريا وجنوب إيطاليا وانتزعوا صقلية من العرب (١٠٦٠ – ١٠٩٠) ، ثم هددوا الإمبراطورية البيزلطية نفسها (١٠٨١) تحت إمرة روبرت جويسكارد ، الذي هبط إيطاليا حاجاً مغامراً وبدأ حياته قاطعاً للطرق في كالابريا . كان جيشه يضم كتيبة من الصقلين المسلمين ، فعبر به البحر من برنديزي للي إيروس لهاجمة الجمهورية الرومانية ، قبل ذلك بثلاثة عشر قرنا (٢٧٣ ق . م) . فألقى الحصار على مدينة دوراؤو البزنطية المنيعة م

وفتح روبرت دورازو (۱۰۸۲) . على أن حرج الحالة فى إيطاليا استدعى عودته إليها ، ووضع حداً نهائياً لهذا الهجوم النورماندى الأول على إمبراطورية بيزنطة ، مهيئاً بذلك فرصة لحكم أسرة آل كومنين (۱) القوية نسبياً (۱۰۸۱ – ۱۲۰۶) .

وحدث أن روبرت جويسكارد تمكن فى أثناء منازعات أشد تعقيداً من أن يتسع لها المقام هاهنا – من محاصرة روما ونهبها (١٠٨٤) ؛ ولهذه المناسبة ينبه جيبون المعادى للمسيحية فى غبطة واطمئنان – إلى وجود تلك الكنيبة من مسلمى صقلية بين الناهبين . ثم حدثت فى القرن الثانى عشر ثلاث هجات نورماندية أخرى على الدولة الشرقية ، إحداها على يد ابن روبرت جويسكارد ؛ والأخريان من صقلية مباشرة بظريق البحر

ولكن لم يقيض للعربولا للنورمانديين أن يدقوا الإمبراطورية العجوزفى بيزنطة

⁽١) انظر المسترجم في مجموعة الألف كتاب ومكتبة النهضة كتاب «الحضارة البيرقطية » تأليف ستيفن رانسيمان .

أو الإمبر اطورية الرومانية المقدسة تلك الإمبر اطورية الشيخة المتصابية فى الغرب ، عثل تلك القوة التى جاءت بها الطعنة المزدوجة من المراكز الطورانية فى آسيا الوسطى ، التى يجب أن نتحدث عنها الآن .

لاحظنا فيما سلف حركة الآفار نحو الغرب والمجريين الأتراك الذين ترسموا خطاهم . فهذ أيام بيين الأول فه بعدها ، كانت الدولة الفرنجية وما خلفها من دول في ألمانيا ، في نزاع مع هولاء المغيرين الشرقيين على امتداد أراضي الحسدود الشرقية بأسرها . وقد صدهم شرلمان وأنزل بهم النكال وأسس لنفسه ضرباً من السيادة العليا بمنطقة امتدت شرقاً حتى جبال الكربات ؛ ولكن هسذه الشعوب عادت في فترة الضعف الذي تلا وفاة شرلمان – وقد تخليطت عند ذاك تخلطاً يتراوح زيادة وتقصاناً وتسمت في البيانات التاريخية باسم الهنغاريين – عادت فاستردت بقيادة المجريين حريتها كاملة غير منقوصة وأخذت تغير كل عام إغارات كانت تصل أحياناً إلى نهر الراين ، ويذكر جيبون أنهم دمروا دير القديس جال كانت تصل أحياناً إلى نهر الراين ، ويذكر جيبون أنهم دمروا دير القديس جال مواد من فوق جبال الألب ، عائدين إلى وطنهم ثانية بطريق شمال إيطاليا وذلك ساروا من فوق جبال الألب ، عائدين إلى وطنهم ثانية بطريق شمال إيطاليا وذلك في موطنه بحرية عظيمة جداً . إذ يقال إنهم كان لهم في القرن العاشر دستور يستمتع في موطنه بحرية عظيمة جداً . إذ يقال إنهم كان لهم في القرن العاشر دستور سياسي تقليدي موروث .

وإذ أن هذه لاضطرابات وأخرى سنلحظها من فورنا دفعت بالبلغار جنوباً وأنهم وطدوا أقدامهم كما ذكرنا آنفاً بين الدانوب والقسطنطينية تخت إمرة كشروم (Krum). والبلغار شعب تركى الأصل ولكنهم منذ ظهورهم لأول مرة فى شرق الروسيا ، كادوا يصبخون بالتخليط المتكرر صقالبة تماماً فى جنسهم ولغتهم . وأقاموا على الوثنية حينا بعد استقرارهم الأول فى بلغاريا . وقد أولم ملكهم بوريس (٨٥٢ – ٨٥٤) الولائم لمبعوثين من المسلمين ، ويلوج أنه فكر فى اعتناق الإسلام ، على أنه تزوج آخر الأمر أميرة بيزنطية ، وسلم نفسه وشعبه للعقيدة المسيحية .

وممن أدب الهنغاريين رالمجر) حتى أحذوا يحترمون الحضارة الغربية بعض الشيىء هنرى

الصياد ملك ألمانيا المنتخب وأوتو الأول أول إمبراطور سكسوني في القرن العاشر. بيد أنهم لم يوطنوا النفس على اعتناق المسيحية حتى قرابة ١٠٠٠م. وهم وإن تنصروا ، فإنهم احتفظوا بلغتهم التركوفنلندية (المجرية) ، ولا يزالون يحافظون علمها إلى يومنا هذا . واحتفظوا كذلك بقدر معين من الحرية تحت الملكية التى فرضت عليم . ودستورهم المكتوب « الحاتم الذهبي Golden Seal » يرجع تاريخه إلى ١٢٢٢ ، وهو عديل « شرق » (للماجناكارتا) أى العهد الأعظم الإنجليزي في تقييده لسلطة الملك المطلقة . واشترط الملك استيفن أول ملوك المجر عند ما قبل المسيحية رسمياً ، أن المجر على عكس بوهيميا و پولندة — يجب ألا تدخل في نطاق الإمبر اطورية الرومانية المقدسة .

ومع ذلك فإن البلغار والهنغاريين ليسوا آخر الشعوب الذين كانت تحركاتهم نحو الغرب قوام الزحف التركى عبر جنوب الروسيا . إذ اندفع الحزر من خلف الهنغاريين والبلغار ، والحزر شعب تركى اختلطت به نسبة عظيمة جداً من اليهود المطرودين من القسطنطينية ، فاختلطوا بهم واجتذبوا إلى دينهم عدداً كبيراً مهم تحولوا عن الوثنية . وإلى هوالاء الحزر اليهود يجبأن تنسب مستوطنات اليهود العظيمه في بولندة والروسيا . ثم جاء في أعقاب الحزر أيضاً فغلبوا عليهم وعمروهم قوم هم الهتشنج (أو الهاتشيناق) ، وهم شعب تركى متوحش نسمع عنهم الأول مرة في القرن التاسع ، وقد كتب لهم أن ينحلنوا ويختفوا كما فعل ذوو قرباهم الهون قبل ذلك بقرون خمسة .

وعلى حين كانت كل هذه الشعوب تسير غرباً ، فإن علينا عند ما نفكر في سكان تلك الأقاليم الروسية الجنوبية ، أن نتذكر أيضاً غدو أهل الشمال ورواحهم بين البلطيق والبحر الأسود ، وتوثيق صلاتهم بالمهاجرين الأتراك توثق السدى باللحمة ، وأن لا يغيب عنا أيضاً أنه كان هناك عدد ضخم من السكان الصقالية ، ورثة وخلفاء الإسكيذيين والسرماتيين (١) ومن شامهم ، الذين استوطنوا آنفاً تلك المناطق الحصبة

⁽۱) Sarmatians سلامة تنتمى إلى فصيلة تكلمت نفس اللنة التى كان يتكلمها الإسكيذپون ، ويعتقد أنها انحدرت من أصل ميدى ، ولذلك فهى من الحنس الإيرانى ؛ ولو أن بعض الباحثين يظن أنها تنتمى إلى الحنس الآرال الظائى Ural-altaic : ويطلق الناس فى حديثهم أحياناً لفظة سرماتيو على البولنديين . الغر الممالم ص ٣٠٥ ط ٣ . (المترجم)

المضطربة المحرومة من كل قانون . اختلطت كل هذه الأجناس أحدها بالآخر وتفاعلت بعضها مع بعض . ويدلك انتشار اللغات الصقلبية (السلاڤونية) انتشاراً عاماً في كل مكان عدا بلاد المجر ، على أن السكان ظلوا يغلب عليهم العنصر السلاڤ . فأما ما هو الآن رومانيا ، فعلى الرغم من تكرار مرور الشعوب ومن الغزو تلو الغزو . ظلت تقاليد و تراث الولايتين الرومانيتين داكيا ومويسيا السفلى تحافظ على بقاء لغة وذكريات لاتينية .

على أن هذا التوغل المباشر للشعوب التركية ضد المسيحية فى شمال البحر الأسود لا يكاد فى النهاية يبلغ فى الأهمية درجة توغلهم غير المباشر فى جنوبيه خلال دولة الحلافة . وليس فى إمكاننا أن نتناول هنا قبائل الشعوب التركية التركستانية وانقساماتها ولا الأسباب الحاصة التى أبرزت إلى مكان الصدارة القبائل التى كانت تحت حكم العشيرة السلجوقية . فنى القرن الحادى عشر انطلق هؤلاء الأتراك السلجوقيون بقوة لا تقاوم لا فى جيش واحد ، بل فى مجموعة من الجيوش وتحت إمرة أخوين ، وأطبقوا على الحطام المتداعى للإمبراطورية الإسلامية .

ذلك بأن الإسلام كف من زمن بعيد عن أن يكون إمبراطورية واحدة . فإن الحكم العباسي السني انكمش حتى لم يعد يشغل إلا رقعة الأرض التي كانت تسمى « بابل » يوماً ما ، وحتى في بغداد نفسها لم يكن الحليفة إلا كائناً يدين بمنصبه لحراس قصره الأتراك . فإن تركيا ذا سلطان كسلطان « محافظ القصر » كان الحاكم الحقيق . وإلى الشرق من الحليفة في فارس وإلى الغرب منه في فلسطين وسوريا ومصر ، كان في الحكم طوائف شيعية متزندقة (١) .

وكان هؤلاء الأتراك السلجوتيون سنين يأخدون بالعقيدة السلفية ، فأطبقوا عند ذاك على الحكام الشيعين ومغتصبي السلطان ، وغلبوهم ، وأقاموا أنفسهم حماة للخليفة البغدادي ونقلوا لأنفسهم سلطة « محافظ القصر » الزمنية . وانتزعوا أرمينية من يد الروم في زمن مبكر جداً ، وإذ تهيأ لهم النفاذ من الحدود التي صدت قوة الإسلام أربعة قرون ، الدفعوا لغزو آسيا الصغري إلى ما يداني أبواب القسطنطينية . فقد نتج

⁽۱) لا إخال السنبين يعدون الشيمة من الكفرة ، اللهم إلا عند بعض المتعصبين ، وذلك لأنهم في الواقع مسلمون يؤمنون بالله ونبيه وكتبه . (المترجم)

عن غزو أرمينية أنهم داروا من الشمال الشرق حول حاجز قيليقية الجبلي الذي طالما صد جيوش المسلمين. ثم ما لبث البرك تحت قيادة ألب أرسلان الذي وحد في يده كل قوة السلجوق ، أن حطموا الجيش البيزلطي تحطيماً تاماً في موقعة ما زيكرت (Manzikert) أو ملازجرد (Melasgird) (١٠٧١) . وكان تأثير هذه المعركة في أخيلة الناس عظيماً جداً . ذلك أن الإسلام الذي بدا عليه الانحلال البالغ والذي كان منقسها على نفسه دينياً وسياسياً ، قد تنبه الناس إليه فجأة ، وإذا به قد نهض ثانية من كبوته ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية العجوز الآمنة هي التي لاح أنها على شفا الانهيار .

كان فقدان آسيا الصغرى سريعاً جداً . واستقر السلاجقة في قونية (Iconium) ، في هو الآن بلاد الأناضول . ولم يمض طويل زمن حتى آلت إليهم قلعة نيقيا المقابلة للعاصمة .

١٠ ـ كيف استغاثت القسطنطينية بروما

سبق أن تكلمنا عن هجوم النورماندين على الإمبراطورية البيزنطية من الغرب، وعن معركة دورازو (١٠٨٢) ؛ كما ألمعنا إلى أن القسطنطينية كانت لا تزال تمى ذكريات قوية وحية عن الغارات الروسية البحرية (١٠٤٣) . لا جرم أن بلغاريا روضت ونصرت . ولكن حرباً ضروساً غير فاصلة كانت تدور رحاها بينها وبين البتشنج (البشناق) . وكانت يدا الإمبراطور مليثين بالمشاغل في الشهال والغرب . وها قد جاء من الشرق ذلك التهديد الحطير الذي زاد الطين بلة . ولا بد أن تقدم الأتراك السريع في تلك البلاد التي طال بها العهد بأيدي بيزنطة قد لاح لها في صورة النذير النهائي بكارثة قاضية . لذلك اتخذ الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع بدافع هذه الأخطار التي تناوشته من كل جانب ، خطوة يرجح أنها بدت له ولروما على السواء ذات أهمية سياسية قصوى . فإن العالم اليوناني تطلع إلى أخيه اللاتيني الذي دب فيه دبيب الحياة من جديد . والتمس المساعدة من البابا جريجوري السابع . وما لبث خلفه دبيب الحياة من جديد . والتمس المساعدة من البابا جريجوري السابع . وما لبث خلفه دبيب الحياة من جديد . والتمس المساعدة من البابا جريجوري السابع . وما لبث خلفه دبيب الحياة من جديد . والتمس المساعدة من البابا جريجوري السابع . وما لبث حاله

ألكسيوس كومنينوس أن كرر ذلك الرجاء على البابا إربان الثانى فى مزيد من الإلحاح والاستحثاث .

ولا بد أن هذه الاستغاثة بدت فى أعين مستشارى روما نهزة نادرة لتأكيد رياسة البابا على العالم المسيحي بأسره .

ولقد تتبعنا فى هذا التاريخ نمو هاته الفكرة الذاهبة إلى إنشاء حكومة دينية لعالم المسيحية – وللبشر كافة من خلال عالم المسيحية ذاك – وأظهرنا كيف أنه كان من الأمور الطبيعية التى تقتضيها الضرورة أن تجد تلك الفكرة فى روما مركزاً لها بسبب ما اختصت به من متوارث التقاليد عن فكرة الإمبراطورية العالمية . كان بابا روما هو البطريرك الوحيد فى الغرب ؛ وكان رئيساً دينياً لمنطقة مترامبة الأطراف ، لغتها السائدة هى اللاتينية ؛ فأما بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية الآخرون فهم قوم يتكلمون اليونانية ، وبذا كان صوتهم غير مسموع فى كل أرجاء ممتلكاته ؛ هذا إلى أن إضافة عبارة « ومن الابن أيضاً pue) إلى العقيدة اللاتينية أدت إلى فصل المسيحين البيزنطيين بوساطة إحدى النقاط الدقيقة الحفية التى يتعذر معها كل توفيق . (وتم الانفصال النهائي فى ١٠٥٤) .

كانت حياة قصر اللاتبران دائمة التغير من كل نواحيها بتغير شاغل كرسى القديس بطرس ؛ فكانت روما البابوية فى بعض الأحيان مباءة فساد و دنس ، شأنها أيام يوحنا الثانى عشر ؛ وكان يظلها فى أحيان أخرى سلطان رجال يفكرون تفكير أرحباً ونبيلا . على أنه كان من وراء البابا جمعية الكرادلة والقساوسة وعدد كبير من الموظفين ذوى التعليم الراقى ، الذين لم يغب عن أبصارهم قط حتى فى أحلك الأيام وأفظعها ، تلك الفكرة العظيمة الفاخرة القائلة بمملكة دنيوية مقدسة ، وبسلام من المسيح يعم أرجاء الأرض قاطبة ، وهى الفكرة التى ترجم عنها القديس أوغسطين . ظلت هذه الفكرة طوال العصور الوسطى هى القوة الهادية التى توجه روما . أجل ظلت هذه الفكرة طوال العصور الوسطى هى القوة الهادية التى توجه روما . أجل إنه حدث أحياناً أن سادتها بعض العقول الجبيئة ، وعندئذ تلعب روما فى شئون العالم دور عجوز شرهه حوون ماكرة مكراً جنونياً ؛ وربما جاء فى إثر ذلك دور رجولة

ودهاء دنيوى كامل أو دور رفعة وعظمه . ثم قد تأتى بين هدا وذاك فترة تعصب أو تقعر وادعاء للعلم ، يوم يغدو الاهتهام كله منصباً على الدقة المذهبية . أو ربما حدث انهيار خلتى ، يصبح معه اللانيران عرشاً لأحد المستبدين بأمر هم المنغمسين في الملذات أو المغرمين بالجمال المستعدين لبيع كل ما تستطيع الكنيسة أن تقدمه من أمل أو شرف مقابل نقود ينفقها على الملذات والمظاهر : ومع ذلك فإن سفينة البابوية كانت على الجملة تسير في طريقها ، ولا تلبث حتى تبرز بعد ذلك أمام الربح ثانية .

وفى هذه الفترة التي وصلنا إليها الآن ، وهى مدة القرن الحادى عشر ، كانت وما تحت نفوذ شخصية سياسى عظيم نادر المثال ، هو هلدبرانلا (Hildbrana) ، اللذى تولى مناصب متنوعة تحت رياسة مجموعة متعاقبة من البابوات ، ثم أصبح آخر الأمر بابا باسم جريجورى السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) . وإنا لنجد أن الرذيلة والتوانى والفساد قد محيت بفضله من الكنيسة تماماً ، وأن طريقة انتخاب البابوات قد أصلحت ، وأن كفاحاً عظيا قد استعر لهيبه مع الإمبراطور على مسألة ذات حيوية بارزة ، هي مسألة « التعيينات Investitures » . فهل كان البابا أو العاهل الزمنى هو صاحب القول الفصل في تعيين الأساقفة على ابروشياتهم ؟ وإنا لندرك على وجه أحسن كم كانت تلك المسألة حيوية بالغة الأهمية إذا تذكرنا أن ما يزيد عن دبع الأراضي كان في كثير من الممالك ملكاً لرجال الكنيسة . وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية يستطيعون حتى ذلك الحين أن يتزوجوا ؛ ولكن العزوبة فرضت آنذاك على وجه على جميع القسس رغبة في فصلهم فصلا فعالا عن العالم وجعلهم أداة طبعة في يد الكنيسة على وجه أكمل

على أن النزاع على مسألة «التعيينات» حال بين جريجورى السابع وبين الاستجابة الفعالة لأول استصراخ جاءه من بيزنطة ، غير أنه ترك فى شخص إربان الثانى خليفة له ذا فضل وجدارة (١٠٨٨ – ١٠٩٩) ، فلما جاءته رسالة أليكسيوس ، استمسك إربان على الفور بالفرصة التي هيأتها له لضم كل الأفكار والقوة فى أوربا الغربية فى تيار ولحد من الحمية والهدف . وكان يرجو من وراء ذلك أن يقضى على « الحروب الحاصة » السائدة فى أوربا ، ويجد المخرج المناسب الذى تنصر ف إليه طاقة النور ماندين

الهائلة . ورأى فيها كذلك فرصة لتنحية الدولة والكنيسة البيزنطية عن مكانتهما ؛ وبسط سلطان الكنيسة اللانينية على سوريا وفلسطين ومصر .

وسمعت أقوال مبعوثى أليكسيوس فى مجلس كنسى دُعى على عجل بمدينة پياتشنرا (بلانشنتيا). وفى السنة التالية عقد إربان فى كليرمونت (١٠٩٥) مجلساً عظيا ثانياً ، نظمت فيه كل قوى الكنيسة التى تجمعت فى بطء للقيام بدعاية لحرب عامة ضد المسلمين. وكان لزاماً أن تقف الحرب الحصوصية ويخمد كل ما بين المسيحيين من حروب ، حتى يطرد الكافرون [كذا!! . . .] وتصبح أرض القدس فى الأيدى المسيحية من جديد .

وإن حمية الاستجابة التي قوبلت بها تلك الدعوة لتمكننا من أن نفهم ذلك العمل العظيم من التنظيم البناء الذي تم في أوربا الغربية في القرون الحمسة السالفة . فإنا في بداية القرن السابع ، رأينا أوربا الغربية خليطاً متناثراً من الحطام الاجتماعية والسياسية ، لاتجمعها فكرة مشتركة ولا أمل مشترك ، وألفيناها نظاما قد تحطم حتى كاد أن يصبح ذرّات من أفراد لا يبحثون إلا عن أنفسهم ومصلحتهم . فأما الآن ، ونحن في ختام القرن الحادي عشر ، فيسرى بين الناس في كل ناحية اعتقاد مشترك : أع. فكرة جامعة ، قد يستطيع الناس أن يهبوها أنفسهم ، وبها يستطيعون أن يتعاونوا معاً في مسعى جماعي عام . وإنا لنرى بأنفسنا هنا ما صنعته الكنيسة المسيحية بعملها وجدها ، بالرغم من وجود كثير من الضعف وعدم السلامة الذهنية والأخلاقية . وإنا لنستطيع أن نقدر الأدوار السيئة التي تردّت فيها روما أنناء القرن العاشر وما حوت من الفضائح والنجاسات والقِتل والعنف ، ــ قدرها الحق إذا وزنتّاها بمنزان هذه ﴿ الحقيقة الحديدة . ولا شك كذلك في أنه كان يوجد في كل أرجاء العالم المسيحي قساوسة كثيرون من الكسالى والشريرين الحمتى ، ولكن من البين أن عبء التعليم والتنسيق لم يتم إلا بواسطة عدد غفير من القسيسين والرهبان والراهبات الذين كانوا يعيشون عيش الصلاح . ذلك بأن حلفاً عظيا جديداً ، هو حلف العالم المسيحي قد ظهر في هذ العالم ، وقام ببناثه آلاف من الأنفس المخلصة المجهولة .

ولم تقتصر هذه الاستجابة لدعوة إربان الثاني على من قد نسميهم بالمتعلمين . فلم يكن الأمر مجرد فرسان وأمراء يرغبون وحدهم في الانخراط في تلك الحروب الصليبية . وإلى جوار شخص إربان يجب أن نضع شخص بطرس الناسك ، وهو طراز من الرجال جديد في أوربا ، وإن كان يذكرنا يعض الشيء بالأنبياء العبرانيين . قام هذا الرجل يدعو للحروب الصليبية بين عامة الناس . وكان يقص عل الناس – إن صدقاً وإن كذباً ، إذ أن ذلك أمر لا يكاد يعنينا في هذا المقام – قصة حجه إلى بيت المقدس ؛ ويحدثهم عن الندمير المنطوى على الاستهانة البالغة ، الذي أنزله بالقبر المقدس الأتراك السلجوقيون ، الذين أستولوا عليه في زمان ما يقارب (١٠٧٥) الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعمدة التي ينزلونها بالحجاج المسبحيين إلى الحائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعمدة التي ينزلونها بالحجاج المسبحيين إلى الأماكن المقدسة . طوّف هذا الرجل ، حافي القدمين وفي ثياب خشنة وممتطياً حماراً وحاملاً صليباً ضخماً ؛ أنخاء فرنسا وألمانيا ، وهو يخطب في كل مكان جماهير حاشدة في كنيسة أو شارع أو سوق .

وإنا لنتبين أوربا هنا وقد ألفت بينها لأول مرة فكرة واحدة وروح جامعة ! وإنا لنلمس هنا استجابة عامة من الغضب من قصة ظلم يقع فى مكان سحيق ، ونشهد تفهما سريعا لهدف مشترك يجمع بين الغنى والفقير على السواء . وليس فى طوقك أن تتصور حدوث ذلك الشيء فى إمبر اطورية أوغسطس قيصر ، ولا فى أية دولة سابقة لها فى تاريخ العالم . وربما كان شيء من هذا القبيل ممكاً فى عالم «هيلاس » الأصغر حجماً بكثير ، أو فى بلاد العرب قبل الإسلام : فأما هذه الحركة فكانت توثر فى الأمم والممالك والألسن والشعوب . فمن الجلى إذن أننا نعالج هنا شيئاً جديداً ظهر فى العالم ، هو ارتباط جديد واضح بين المصلحة المشتركة وبين وعى الرجل العادى من العامة .

١١ ــ الحروب الصليبية

كانت هذه الحماسة المتأججة نحتلطة منذ بدايتها بعناصر أكثر اتضاعاً . فقد كانت هناك الحطة الهادئة المضبوطة التقدير التي رسمتها الكنيسة اللاتينية الطموحة الحرة لإخضاع الكنيسة البيزنطية الحاضعة للإمبراطور والحلول محلها . وكانت هناك غريزة النهب الذي لا حد له لدى النورمانديين الذين كانوا يمزقون إيطاليا إرباً ويبعثرونها أشلاء . وسرعان ما حولت وجهتها آنذاك إلى عا معانم جديد أوفر ثراء . وكان يخيم على الجموع التي ولتت عند ذاك وجهها شطر الشرق ، شيء أعمق في التكوين البشرى من عاطفة الحب ، وأعنى به الكراهية الناجمة عن الحوف تلك الكراهية التي أججتها دعوات الدعاة الحانقة والمبالغة في فظائع وقساوات الكفرة [كذا ! ! . . .] ناراً حامية .

وكانت هناك فضلا عن ذلك قوى أخرى تعمل عملها ؛ ذلك بأن السلاجقة والفاطميين غير المتسامحين كانوا آنذاك عقبة كأداء في سبيل تجارة جنوا والبندقية صوب الشرق ، وكانت حتى ذلك الحين تنساب بطريق بغداد وحلب أو بطريق مصر . فلم يكن بد من فتح هذه المسالك المغلقة عنوة ، إلا إذا احتكر طريق القسطنطينية والبحر الأسود التجارة الشرقية احتكاراً تاماً . وفضلا عن ذلك فقد حدث في (١٠٩٤ ، ١٠٩٥) وباء ومجاعة امتدا من نهر الشلت (Scheldt) إلى بوهيميا ، وترتب عليهما اختلال اجتماعي بليغ .

يقول المستر أرنست بارك و لا عجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة ، شأن ما يحدث في الأزمنة الحديثة من انسياب الناس نحو منطقة للذهب حديثة الكشف ـ تيار يحمل في أمواهه العكرة أدراناً كثيرة من المشردين والمفلسين ومتبعى المعسكرات والباعة المتجولين والرهبان اللاجئين والأشرار الفارين ، موسوم بنفس سمة الخليط المتعدد الألوان ، ونفس حمى الحياة ، ونفس التأرجحات بين الثراء والإدقاع التي تميز الاندفاع إلى منطقة الذهب اليوم » .



(شكل ١٤١) خريطة الحرب الصليبية الأولى

على أن هذه كائت أسبابا ثانوية مساعدة . فأما الحقيقة ذات الأهمية البالغة لدى مؤرخ البشرية فهمى هذه « الإرادة النازعة إلى شن حرب صليبية » المتجلية فجأة على صورة إمكانية جماهيرية جديدة في الشئون الإنسانية .

وقصة الحروب الصليبية مليئة بتفاصيل رومانسية رائعة الجمال يلتزم إزاءها كاتب معالم تاريخ أن يغفر لقلمه إذا هو انساب منه عند منعطف ذلك الميدان الجذاب. وكانت أول القوات التي سارت شرقا جماهير غفيرة من أناس غير منظمين أكثر منها جيوشا ، وقد حاولوا أن يتخذوا من وادى الدانوب طريقا لهم ، ثم ينحرفوا جنوبا إلى القسطنينية . وكانت هذه هي « الحملة الصليبية الشعبية » . ولم يحدث البتة من قبل في تاريخ العالم بأسره أن كان هناك مثل ذلك المشهد من الجماهير التي لا قائد لها أو تكاد والتي تحركها فكرة ؛ بيد أنها كانت فكرة بالغة الفجاجة .

فلما أن أصبحوا بين ظهراني الأجانب ، لم يبد عليهم أنهم أدركوا أنهم لم يصلوا بعد إلى بلاد الكفرة (١) . وقد ارتكبت جماعتان عظيمتان من الغوغاء ، هما مقدمة الحملة ، من ضروب الحروج عن الاعتدال في بلاد المجر (حيث كانت اللغة ـ لا ريب _ غير مفهومة لهم) ما استثار المجريين (الهنغاريين) إلى القضاء عليهم . فأعملوا فيهم السيف ذبحا وتقتيلاً . وابتدأ حشد ثالث عمله بمذبحة كبيرة أعملها في يهود أرض الراين _ ذلك أن الدم المسيحي كان فائراً _ ثم تمزّق ذلك الجمع أيضاً في هنغاريا . واخترق حشدان آخران أوربا بقيادة بطرس ووصلا إلى القسطنطينية ، وكم كانت دهشة الإمبراطور أليكسيوس وجزعه بالغين ! ! . . ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينهبون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر بالسفن عبر البسفور ، وهناك لم يهزمهم السلاجقة فقط بل ذبحوهم على بكرة أبهم (١٠٩٦) .

ومما يؤسف له أن ظهور « الشعوب » لأول مرة كشعوب فى تاريخ أوربا الحديث ، كان ظهوراً تعساً غير موفق ، وقد أعقبه مجىء القوات المنظمة ١٠٩٧ المخصصة للحملة الصليبية الأولى . جاءوا من طرق شتى : ــ من فرنسا ونورماندى وفلاندر وإنجلترة وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكان النورمانديون عصب الحملة وعزيمتها ، فعبروا البسفور واستولوا على نيقيا التي اختطفها أليكسيوس منهم قبل أن ينهبوها .

ثم واصلوا مسيرهم على نفس الطريق الذى اتخذه الإسكندر الأكبر في الغالب مخترقين البوابة القيليقية ، تاركين الأتراك في قونية غير مهزومين ، ومجتازين ميدان معركة إيسوس ثم مواصلين السير إلى أنظاكية التي استولوا عليها بعد حصار قارب السنة . ثم هزموا جيشاً عظيا جاء من الموصل لنجدتها .

وظل قسم كبير من الصليبيين في أنطاكية ، وتقدمت قوة أصغرتمت قيادة جودفرى البويتوني (نسبة إلى بويتون Bouillon من أعمال بلچيكا) أماماً إلى بيت المقدس .

⁽١) غريب أن يشير الكاتب إلى المسلمين بالكفرة فإن كان ذلك منه متابعة لأهل العصر الذي يكتب فيه فما كان أحراء أن ينزه نفسه عن مثل هـــذا الجهل يالإسلام وأهله، وأنهم يعبدون الله وحده فلا شرك ولا كفران . (المترجم)

« وبعد حصار دام أكثر قليلا من شهر ، استولوا على المدينة نهائياً (١٥ يولية ١٠٩) . كانت المذبحة رهيبة ؛ وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع حتى لقد كان الرجال يصيبهم رشاش الدم وهم ركوب . وعند ما أرخى الليل سدوله ، جاء الصليبيون وهم « يبكون من فرط الفرح » إلى الناووس المقدس بعد حوضهم فيا أريق من دم سال كالخمر من معصرة العنب . ورفعوا جميعاً أيديهم الملطخة بالدماء يصلون شكرا لله . وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى فى ذلك اليوم من شهر يولية »(۱)

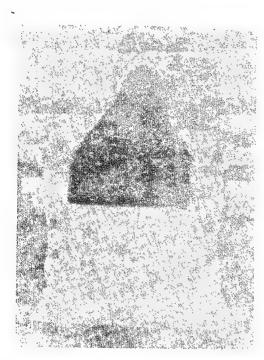
وسرعان ما استحوذ رجال الدين اللاتينيون المرافقون للحملة على سلطة بطريرك بيت المقدس ، ووجد المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم تحت الحكم اللاتيني في حال يكاد يكون أسوأ منه تحت حكم الأتراك . وكان أن تأسست إمارات لاتينية في أنطاكية والرها Edessa ، وابتدأ النزاع على السلطان بين مختلف هؤلاء الملوك والقصور ، كما أخفقت محاولة كانت غايتها جعل بيت المقدس ملكاً للبابا . على أن هذه أمور معقدة تخرجنا عما بن أيدينا من مجال .

ومع ذلك فلنقتبس فقرة عامرة بما يتميز به جيبون من خصيصة : « وربما ملت في أسلوب أقل وقاراً مما يليق بالتاريخ ، إلى تشبيه الإمبراطور أليكسيوس بابن آوى ، الذى يقال إنه يتعقب خطى الأسد ويلتهم ما يفضل منه . ومهما يكن مبلغ محاوفه وعنائه أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى ، فإنه قد جوزى علها أوفى جزاء بما اجتناه بعد ذلك من وراء مغامرات الفرنجة . فإن مهارته ويقظته أتاحت له احتياز نيقيا أولى فتوحهم ، ومن نقطة التهديد هذه اضطر الأتراك إلى إخلاء ما يجاور القسطنطينية من أرض .

« وعلى حين كان الصليبيون بشجاعتهم العمياء يتوغلون فى داخل أقطار آسيا ، انتهز اليونانى الماكر الفرصة المواتية وأفاد من استدعاء الترك أمراء ساحل البحر ليلتفوا حول لواء السلطان . فد ُفع الأتراك من جزائر رودس وخيوس ؛ وأعيدت مدن

⁽١) باركر في مادة « الحروب الصليبية » المرسوعة البريطانية .

إفيسوس وأزمر وسارديس وفيلادلفيا() واللاذقية إلى الإمراطورية التى وسع اليكسيوس رقعتها من الهلس بونت (الدردنيل) إلى ضفتى نهر المياندر وإلى شواطئ بامفيليا(٢) الصخرية . وعادت الكنائس إلى سابق أبهتها ؛ وأعيد بناء المدن وتحصينها ؛ وعُمس القاحل بمستقرات من المسيحين اللذين نقلوا برفق من التخوم النائية الحطرة .



(شكل ١٤٢) قبر صلاح الدين

« وربما اغتفرنا كل أخطاء أليكسيوس من أجل هذه الرعايات الأبوية ، إذا نحن تناسينا خلاص الناووس المقدس ؛ ولكنه كان فى نظر اللاتين موصوما بتهمتى الحيانة والغدر القبيحتين !! وكانوا أقسموا يمين الولاء والطاعة لعرشه ؛ بيد أنه وعد

⁽١) فيلادلفيا: مدينة باقليم «ليديا » القديم بآسيا الصغرى واسمها الحديث «الأشهر » . (المترجم

⁽٢) يامفيليا: منطفة تقع بجنوب آسيا الصفرى. (المترجم)

بأن يساعدهم فى مغامرتهم بشخصه أو على الأقل بجنوده وأمواله ؛ فأحلهم نكوصه الدفىء من يمينهم ؛ وعندئذ صار السيف الذى أبلغهم ذرا النصر ، هو الكفيل بضمان استقلالهم العادل عنه . ولا يبدو أن الإمراطور حاول أن يبعث من جديد مدعياته القديمة البالية على مملكة بيت المقدس ، على أن عهده بامتلاك حدود قيليقية وسوريا كان أحدث كما أنهما كاننا أقرب إلى ذراعيه منالا . وكان أن أبيد جيش الصليبين العرمرم أو تشتت ؛ وكان أن شغرت إمارة أنطاكية وأصبحت بلارئيس ، الصليبين العرمرم أو تشتت ؛ وكان أن شغرت إمارة أنطاكية وأصبحت بلارئيس ، بمباغتة بوهمند وأخذه أسيراً ؛ وأبهظت الفدية كاهله بالدين ؛ ولم يكن لأتباعه النورماندين كثرة فى العدد كافية لدفع عدوان الروم والترك .

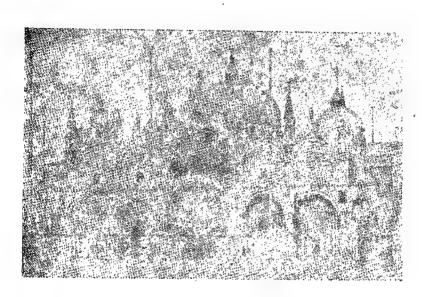
« وقد أضمر بوهمند أثناء هذه المحنة عزماً كريماً على ترك الدفاع عن أنطاكية لقريبه المحلص تانكريد ؛ وعلى تسليح الغرب ضد الإمراطورية البزنطية ، وعلى تنفيذ الحطة التي ورثها درساً ومثالاً عن أبيه جويسكار د . وأحيط نروله إلى السفينة بالكتمان ؛ ولئن وثقنا بقصة ترويها الأمرة أنّا ، فإنه مر في البحار المعادية محتبناً اختباء شديداً في تابوت . (وتضيف أنّا كومنينا(۱) إلى ذلك أنه رغبة في استكمال الخدعة ، أقفل عليه التابوت مع ديك ميت ؛ ثم تتنازل أنّا فتعجب كيف استطاع الحمدي المتبربر أن يتحمل الحبس وريح التعفن الرمّي . على أن هذه القصة السخيفة مجهولة لدى اللاتين) . واستقبل في فرنسا بحفاوة لم يشها أى مساس وذلك بفضل حسن استقبال الشعب له ، وزواجه من ابنة الملك ؛ وكانت عودته مجيدة ، إذ أشجع رجال العصر قد انضووا تحت إمرته العسكرية الحبيرة ؛ وعاد فعير أن أشجع رجال العصر قد انضووا تحت إمرته العسكرية الحبيرة ؛ وعاد فعير أن أشجع رجال العصر قد انضووا تحت إمرته العسكرية الحبيرة ؛ وعاد من واشتداد المجاعة واقراب الشتاء فوتت عليه آماله الطموحة ؛ وقد أغرى الروم حلفاءه واشتداد المجاعة واقراب الشتاء فوتت عليه آماله الطموحة ؛ وقد أغرى الروم حلفاء من المرتزقة على التخلى عن رايته . وعقدت محالفة سلام كانت حداً مؤقتاً لمحاوف المروم » .

عالجنا الحرب الصليبية الأولى على هذه الشاكلة من التطويل لأنها تبين تبياناً تاماً صفات هذه الحملات جميعاً . وأخذت حقيقة النضال بين النظامين اللاتيني

⁽١) أناكومنينا : (و١٠٨٣) هي ابنة الإمبراطور ألكسيوس ومؤرخة حياته ، ولعلها أول مؤرخة في التاريخ . (المترجم)

والبيزنطى تتجلى للعيان شيئاً فشيئا . وفى (١١٠١) وصلت الأمداد التى لعبت فيها أساطيل الجمهوريتين التجاريتين البندقية وجنوا دوراً بارزاً ، وامتد سلطان مملكة بيت المقدس .

وشهدت (١١٤٧) حملة صليبية أخرى ، اشترك قيها كل من الإمبر اطوركونر اد



(شكل ١٤٣) كنيسة القديس مارك بالبندقية ، وقد شادها في القرنين ١١ و ١٢ فنيون معظمهم من اللومبارد والشرقيين

الثالث والملك لويس الفرنسي . كانت حملة أكثر فخامة وأقل نجاحاً وحماسة من سابقتها . وكان الدافع إلى إرسالها هو سقوط الرها في يد المسلمين في (١١٤٤) . وكان فيها فصيلة ضخمة من الألمان عمدت ، بدلا من أن تتجه إلى الأراضي المقدسة ، إلى مهاجمة وإخضاع شعب الوند (Wend) (١) شرقي نهر الإلب وكانوا لا بزالون وثنين . فوافق البابا على ذلك واعتبره من الحروب الصليبية ، وكذلك كان شأن

⁽١) شعب الوند أو الڤند : شعب من مجموعة الشعوب الصقلبية كالبولنديين . ولغتهم صقلبية وأبجديتهم لا تينية الأصل عددهم ١٥٠ ألفاً . ويحيط بهم الألمان ، ومع ذلك يحافظون للآن على تقاليدهم ولغتهم .

الاستيلاء على لشبونة ، وتأسيس الفصائل الإنجليزية والفلمنكية لمملكة البرتغال المسيحية .

وفى (١١٦٩) أصبح مغامر كردى اسمه صلاح الدين حاكماً على مصر ، ذلك القطر الذى قام فيه السنيون بثورة أسقطت الزندقة [كذا!!] الشيعية التى أسسها الفاطميون بها . فوحد صلاح الدين هذا جهود مصر وبغداد ودعا إلى «الجهاد» ، أى الحرب المقدسة ، أو الحرب الصليبية المضادة ، مستنهضاً جميع المسلمين على المسيحيين . وقد أثار هذا «الجهاد» في ديار الإسلام من المشاعر القوية ما يداني ما أثارته الحرب الصليبية الأولى في عالم المسيحية تقريباً . وتغير الحال آنئذ وإذا هو حال صليبي ينازل نظيراً له «صليبياً » (حسب تعبير المؤلف) ؛ واستعيدت بيت المقدس (١١٨٧) .

وأثار هذا الأمر الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٩) . وكانت هذه أيضاً حملة فاخرة وضع خطتها الإمبراطور فردريك الأول (الشهير باسم فردريك بربوسا(۱) بالإشتراك مع ملك فرنسا وملك إنجلترة الذي كان يملك في ذلك الوقت كثيراً من أجمل المقاطعات الفرنسية) . ولعبت البابوية دوراً ثانوياً في هذه الحملة ؛ مذكانت في أحد أدوار الضعف ؛ وكانت هذه الحملة الصليبية أشد الحملات دماثة وفروسية التي ورومانسية . إذ خففت من حدة مرارة التعصب الديني روح الشهامة الفروسية التي غيرت كلا من صلاح الدين وريتشارد الأول (قلب الأسد) (١١٨٩ – ١١٩٩) ملك إنجلترة . فما أجدر مجبي الرومانس أن يتوجهوا إلى الروايات الرومانسية المدبجة عن هذه الخملة إمارة أنطاكية إلى حين . ولكنها أخفقت دون استراداد بيت المقدس . ومع ذلك فإن المسيحيين ظلوا مسيطرين على سواحل فلسطين .

⁽١) مني كلمة بربروسا هو ذو اللحية الحمراء . (المترجم)

لقد ابتذلت فكرة الحروب الصليبية لكثرة ما استعملت وتفاهة ما استخدمت فيه . فكلما تنازع البابا مع شخص من الناس ، أو إذا شاء هو أن يضعف من قوة الإمبراطور الخطرة بتوجيه مجهوداته وراء البحار ، راح يدعو إلى حرب صليبية ، حتى لقد كفت الكلمة عن أن يكون لها أى معنى إلا محاولة وضع شيء من النكهة في حرب غير مستساغة الطعم . فهناك حرب صليبية أعلنت على الهراطقة في جنوب فرنسا ، وثانية على جون (ملك إنجلترة) ، وأخرى على الإمبراطور فردريك الثاني . فلم يكن الباباوات يفهمون أن الكرامة ضرورية للبابوية . أجل إنهم بلغوا في صدارتهم لعالم المسيحية أوج الرفعة الخلقية . ثم أخذوا بعد ذلك يبددونها شيئاً فشيئاً . ولم يقتصروا على ابتذال فكرة الحرب الصليبية وتضييع قيمتها ، بل جعلوا ما في يدهم من قدرة هائلة على الحرمان (أي طرد الناس من الرحمات القدسية ، والآمال والسعادات التي يكفلها لهم الدين) – مثار السخرية باستعالها في المنازعات السياسية البحتة. ولم يقتصر يكفلها لهم الدين) – مثار السخرية باستعالها في المنازعات السياسية البحتة . ولم يقتصر الأمر على إعلان الحرب الصليبية على فردريك الثاني بل إنه «حرم» أيضاً — دون يعود عليه ذلك بأي ضرر ظاهر . ثم حرم مرة ثانية في (١٢٣٩) ، وجدد ذلك الحرم إنوسنت الرابع في (١٢٤٥) ، وجدد ذلك الحرم إنوسنت الرابع في (١٢٤٥) .

ولم تصل معظم الحملة الصليبية الرابعة إلى الأرض المقدسة بتاتاً . خرجت من البندقية (١٢٠٣) ، واستولت على زارا وعسكرت فى القسطنطينية (١٢٠٣) ، وأخيراً نهبت المدينة (١٢٠٤) . كانت الحملة هجوماً مشتركاً صريحاً على الإمبراطورية البيزنطية . فاستولت البندقية على شطر كبير من شواطىء الإمبراطورية وجزرها ، وأقيم أمير لاتبنى هو بلدوين الفلاندرى إمبراطوراً بالقسطنينية . وأعلنت عودة الوحدة بين الكنيستين اللاتينية واليونانية ، وحكم أباطرة لاتين بوصفهم غزاة فى القسطنطينية من (١٢٠٤ – ١٢٦١) .

ثم حدث فى (١٢١٢) حدث رهيب ، هو دحملة صليبية للأطفال » . فإن هياجاً لم يعد يستطيع أن يؤثر بعد فى البالغين السليمى العقل انتشر بين الأطفال فى جنوبى فرنسا وفى حوض نهر الرون . فسار جمهور مكون من آلاف كثيرة من الغلمان الفرنسين إلى مرسيليا ؛ فاستغواهم تجار الرقيق إلى النزول فى السفن ، وباعوهم فى فى مصر عبيداً . وسار أطفال أرض الراين على أقدامهم حتى انحدروا إلى إيطاليا ، وهناك تشتتوا بعد أن هلك منهم كثيرون فى الطريق .

واستغل البابا إنوسنت الثالث هذه الحادثة العجيبة لصالحه أيما استغلال. فقال: «حتى الأطفال أنفسهم يلبسوننا ثوب الخزى والعار». ثم حاول أن يستثيز الحماسة لحملة صليبية خامسة . وكان هدف هذه الحملة غزو مصر ، لأن بيت المقدس كانت عند ذاك فى قبضة السلطان المصرى ؛ وعادت البقية الباقية من هذه الحملة (١٢٢١) ، مجللة بالحزى بعد جلاء غير كريم عن مدينة دمياط ، الفتح الوحيد الذى فتحته ، ومعها آثار من الصليب الحق ببيت لمقدس كمنحة جاد بها عليهم على سبيل العزاء – عدوهم المنتصر ، ولقد سبق أن لحظنا ما مر بذلك الأثر الجليل قبل أيام محمد ملي عندما حمله كسرى (الثانى) أبرويز إلى المدائن (طيشفون) ، ثم استعاده الإنبر اطور هرقل . ومع ذلك فإن أجزاء من الصليب الحق ، قد بقيت على الدوام فى روما بكنيسة (سانت كروتشى جيروساليمي تقول الأسطورة عنها ، إنها أليام الإمبراطورة هيلانة (أم قسطنطين الكبير ، التى تقول الأسطورة عنها ، إنها أطلعت على محبثه فى رويًا رأتها أثناء حجها إلى الأراضى المقدسة .

ويقول جيبون: «إن حراسة الصليب الحق الذي كان يعرض يوم أحد القيامة في جلال ووقار أمام أعين الناس ، كانت موكولة إلى أسقف بيت المقدس ؛ وكان هو وحده الذي يرضى تقوى الحجيج المتشوقين بأن يهديهم قطعاً صغيرة منه ، كانوا يضعونها في أوعية من الذهب أو الجواهر ، ويحملونها إلى بلادهم ظافرين . ولكن لما لم يكن بد لهذه السلعة المربحة من أن تنضب سريعاً ، فقد وجد من الملائم الزعم بأن ذلك الحشب العجيب كانت له قوة إنبات خفية ، وأن مادته وإن كانت تتناقص ياستمرار إلا أنها تظل مع ذلك كاملة غير منقوصة » .

فأما الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) فهى حملة قاربت درجة السخف. ذلك أن الإمبر اطور فردريك الثانى كان أقسم على القيام بحملة صليبية ثم نكث بنذره. أجل إنه

شرع فى الحملة شروعاً زائفاً ولكنه عاد أدراجه . والراجح أنه كان يتبرم من مجرد فكرة القيام بحملة صليبية . ولكن النذر كان جزءاً من الصفقة التى ضمن بها نصرة البابا إنوسنت الثالث له فى انتخابه إمبراطوراً . فتشاغل بإعادة تنظيم حكومة مملكته الصقلية ، وإن كان أوهم البابا أنه سيتخلى عن هذه الممتلكات لو أصبح إمبراطوراً ؛ وكان البابا تواقاً إلى الحيلولة دون ما يقوم به الإمبراطور من تنظيم ممتلكاته الصقلية وإحكام مماسكها ، – بإرساله إياه إلى الأراضى المقدسة . ذلك أن البابا لم يكن ليرغب فى وجود فردريك الثانى أو أى إمبراطور ألمانى بأى حال فى إيطاليا ، لأنه هو نفسه كان برغب فى أن يحكم إيطاليا . فلما أن طال تملص فردريك الثانى ، أصدر جزيجورى التاسع عليه قرار الحرمان وأعلن عليه حرباً صليبية ، وغزا ممتلكاته فى إيطاليا (١٢٢٨) . وعند ذلك أقلع الإمبراطور بحيش إلى الأراضى المقدسة . وهناك التي بسلطان مصر (وكان الإمبراطور يتكلم بطلاقة ست لغات من بينها العربية) ؛ ولقد يبدو أن هذين السيدين ، ولكل منهما آراؤه المتشككة ، تبادلا وجهات نظر متائلة متجانسة وتناقشا أمر البابا بروح علمانية ، وتناجثا فى الدفاع المغول غرباً ، وهو الأمر الذى كان بهددها جميعاً على السواء ، واتفقا آخر الأمر المعلية على عقد معاهدة تجارية وتسليم جزء من مملكة بيت المقدس إلى فردريك .

فكان هذا لا جرم نوعاً جديداً من الحروب الصليبية ، فهو حرب صليبية بالمعاهدات الحاصة . ولما كان هذا الصليبي المدهش محروماً ، كان لزاماً عليه أن أن يستمتع بتتويج علماني بحت في بيت المقدس ، آخذاً الناج من المذبح بيديه ، في كنيسة كان كل رجال الدين قد انصرفوا منها . والراجح أنه لم يجد هناك واحداً منهم يريه الأماكن المقدسة . والواقع أن هذه كلها حظرها عليه بطريرك القدس ، وأمر بإقفال أبوابها . وواضح أن الروح هنا تختلف تمام الاختلاف عن الروح التي أوحت تلك المذبحة الدامية الحمراء في الحرب الصليبية الأولى . ولم يكن فيها حتى ذلك الإكرام للظريف الذي لقيته زيارة الحليفة عمر قبل ذلك بستمئة عام .

ورحل فردريك الثانى من بيت المقدسوهو وحيد تقريباً ، عائداً إلى إيطاليا من ذلك

النجاح غير الرومانسي ، وسارع إلى تنظيم شئونه هناك ، وطرد الجيوش البابوية من ممتلكاته ، وأجبر البابا على أن يحله من حرمانه (١٢٣٠) . وفي الحق إن هذه الحرب الصليبية السادسة لم تكن نقيضا للمقصود من الحروب الصليبية ودليلا غير مباشر على سخفها وحدها فحسب ، بلوسخف الحرمان البابوى أيضاً . وسنحدثك في قسم تال عن فردريك الثاني هذا ، لأنه كان طرازاً نموذجياً في تمثيله قوى جديدة بأعيانها ، أخذت تظهر في الشئون الأوربية .

ثم فقد المسيحيون بيت المقدس مرة ثانية (١٢٤٤) ؛ إذ استرجعها منهم سلطان مصر بغاية السهولة عندما حاولوا أن يدبروا مؤامرة ضده . فتسبب عن ذلك الحرب الصليبية السابعة ، وهي حرب القديس لويس ملك فرنسا (لويس التاسع) الذي أخذ في مصر أسبراً ثم افتدى (١٢٥٠) . ولم يحدث أن أفلتت بيت المقدس مرة ثانية من قبضة المسلمين حتى (١٩١٨) عندما سقطت في يد قوة مختلطة من الجنود الفرنسية والإنجليزية والهندية .

وتثبتی بعد ذلك حملة صلیبیة أخرى ؛ وهی حملة علی تونس قام بها نفس لویس الناسع ذاك ، الذی مات هناك بالحمی .

١٢ ــ الحروب الصليبية اختبار للمسيحية

تنحصر الأهمية الجوهرية للحروب الصليبية لدى مؤرخ البشرية فى موجة العواطف وتوحيد الشعور اللذين أفعا الحملة الأولى بالحيوية الناشطة . ثم أخذت الحملات بعد ذلك تنحدر إلى منزلة العمليات الروتينية العادية ، وأخذت قيمتها تقل بالتدريج كأحداث لها أهمية حيوية . كانت الحرب الصليبية الأولى حدثاً ضخماً يماثل اكتشاف أمريكا ؛ على حين لم تزد الحملات التالية عن رحلة اجتياز عادية للمحيط الأطلسي فني القرن الحادى عشر لا بدأن فكرة الحرب الصليبية كانت أشبه شيء بنور غريب رائع أضاء في السهاء ، فأما في القرن الثالث عشر ، فإن الإنسان ليستطيع أن يتصور سكان المدن الأمناء وهم يقولون بصوت المحتج «ماذا ؟! أحرب صليبية أخرى!!! . . المدن الأمناء وهم يقولون بصوت المحتج «ماذا ؟! أحرب صليبية أخرى!!! .

ولم يكن ما لقيه القديس لويس فى مصر ، شيئاً يعد من قبيل خبرة جديدة اكتسبتها البشرية ، بل هى أقرب شبها بجولة جولف على ملعب معروف . . . جولة لاحقها سوء الطالع وهى مجموعة من أحداث لا وزن لها . ذلك أن مناط اهتمام الحياة قد تحول إلى اتجاهات أخرى .

وتكشف بداية الحروب الصليبية عن أوربا بأجمعها وهي مشبعة بمسيحية ساذجة ، ومستعدة في ثقة وبساطة لأن تتبع قيادة البابا . إذ كانت فضائح قصر اللاتبران أثناء أيامه الشريرة تلك ، التي نعرفها نحن جميعاً الآن ، مجهولة خارج روما أو تكاد . أجل أصلح جريجوري السابع وإربان الثاني كل ذلك وعوضا الكنيسة عما أصابها . ولكن خلفاءهما في اللاتبران والفاتيكان(1) لم يكونوا من الناحية العقلية والحلقية كُفواً لما بين أيديهم من نهزات . وكانت قوة البابوية تقوم على الثقة التي أولاها الناس إياها ، وهي ثقة استغلتها الباباوية في غير حرص أو عناية حتى أوهنتها . ذلك أن روما ظلت على اللدوا تنطوى على قدر أكثر مما ينبغي من حصافة «الكاهن» ومكره ، وعلى النرر اليسير من قوة «النبي» وروحه . ولذا فبينا كان القرن الحادي عشر قرن أناس جهلة ذوى ثقة عمياء ، كان القرن الثالث عشر قرن رجال عارفين غير مخدوعين .

وكان الأساقفة والقساوسة والمؤسسات الديرية في عالم المسيحية اللاتينية قبل أيام جريجورى السابع على شيء من الارتباط المفكك العرى تقريباً ، كانوا من حيث الكيف والكنه غاية فى الاختلاف والتفاوت ؛ ولكن من الواضح أنهم كانوا فى العادة على أعظم درجة من المودة الحالصة مع الناس الذين كانوا يعيشون بين ظهرانهم ، كما كانوا ينطوون على نصيب وافر من روح يسوع التي ما برحت حية فى شخصهم ؛ كانوا موضع الثقة ، وكان لهم نفوذ هائل « على ضهائر أتباعهم » . وكانت الكنيسة بالمقارنة إلى

⁽۱) سكن البابوات قصر اللاتيران حتى (۱۳۰۹) ، عندما أتمام بابا فرنسى البلاط البابوى فى أننيون . فلما عاد البابا إلى روما فى (۱۳۷۷) ، كان قصر اللاتيران قد تخرب أو كاد ، فأصبح قصر الفاتيكان مقر البلاط البابوى . وكان ذلك القصر ، بالإضافة لى ميزات أخرى ، أقرب كثيراً إلى قلمة. انت انجياو حصن البابوية . (المؤلف) .

حالتها فيما بعد ، واقعة بدرجة أكبر فى قبضة العلمانيين المحليين والحاكم المحلى ؛ وكانت تنقصها الروح العالمية العامة التي صارت لها فيما بعد .

وقد أفضت جهود جريجورى السابع الفعالة فى تقوية الكنيسة وتنشيطها تنشيطاً يستهدف زيادة قوة روما المركزية ، إلى فصم كثير من الروابط الحفية بين القسيس والدير من ناحية ، وبين منطقة الريف التى من حولهما من الناحية الأخرى . فإن ذوى الإيمان والحكمة من الناس يومنون بأن النمو سنة الحياة كما يومنون بإخوانهم من الناس ؛ فأما القساوسة حتى من كان منهم من أضراب جريجورى السابع نفسه ، فيعتقدون في « الكفاية » الزائفة التى ينطوى عليها نظام مفروض على الناس . وأفضى النزاع على مسألة « التعيينات » بكل أمير فى عالم المسيحية إلى الاسترابة من أمر الأساقفة واعتبارهم عمالا لدولة أجنبية . وتسربت هذه الاسترابة حتى وصلت إلى سكان الأبروشيات (١) . ولقد قضت مشروعات البابوية السياسية بأن يزداد الباباوات طلباً للمال على الأيام . وشاع بين الناس فى كل مكان إبان القرن الثالث عشر القول بأن رجال الدين ليسوا بالرجال الطيبين ، وأنهم لا يفتأون يتصيدون الأموال .

وفى أيام الجهالة الأولى كان الناس دائماً على أتم استعداد للاعتقاد بأن طائفة الكهنوت الكاثوليكية طيبة حكيمة . وكانت بالفعل خيراً وأحكم نسبياً في تلك الأيام . ذلك أنه وكلت إلى الكنيسة سلطات هائلة تتجاوز أعمالها الروحية — كما أبيحت لها حريات خارقة لكل معتاد . فاستغلت هذه الثقة أتم استغلال . وقد أصبحت الكنيسة في القرون الوسطى دولة داخل الدولة فكانت لها محاكمها الحاصة ، التي لم تقتصر على النظر في قضايا القساوسة (رجال الدين) بل تناولت كذلك قضايا الرهبان والطلاب والصليبين والأرامل واليتامي ومن لا معين لهم ، إذ يحتفط بقضاياهم للمحاكم الكنسية . وحيثًا كان لطقوس الكنيسة أو قواعدها دخل في أي موضوع ، ادعت أن لها الاختصاص و تدخلت في مسائل من أمثال الوصية والزواج والأيشمان (٢) ، وطبعا الهرطقة والسحر والتجديف . وكانت

⁽١) الأبروشية : هي منطقة اختصاص إحدى الاسقفيات (المترجم)

⁽٢) المقصود هنا من الأيمان جم يمين وهو القسم (الترجم).

هناك سجون كنسية عديدة ربما قضى المذنبون فيها كل حياتهم كاسفين . وكان البابا هو المشرّع الأعلى للمسيحية ، محكمته بروما هي محكمة الاستثناف النهائية الحاسمة . وكانت الكنيسة تجبى الضرائب ؛ ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل إنها فرضت ضريبة العشر (العشور) على رعاياها . وهي لم تدع ألى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والتقوى ؛ بل طالبت به كحق . وأخذ رجال الكنيسة من الناحية الأخرى يد عون عند لك حق الإعفاء من الضرائب العلمانية .

ولا شك أن هذه المحاولة منهم للاتجار بنفوذهم الحاص فى بابه والتملص من نصيبهم فى الأعباء المالية ، كانت عاملا جسيما فى السخط المتزايد على رجال الدين . وبصرف النظر عن كل ما يتعلق بالعدالة فإنه كان أمراً لا ينطوى على الحنكة . كان أمراً يجعل الضرائب فى أعين من عليهم دفعها تبدو عشرة أضعافها ، ويجعل كل إنسان مرهف الحس إزاء ما تستمتع به الكنيسة من حصانات

وثمة دعوى أخرى ادعتها الكنيسة كانت هي أيضاً أكثر سرفاً وبعدا عن الحكمة هي قولها بأن لها «حق التحلة » . ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع في كثير من الأحيان أن يهمل قوانين الكنيسة في حالات فردية خاصة ؛ فهو قد يأذن لأبناء العم وأبناء الحال أن يتزاوجوا ؛ وقد يسمح لرجل بأن تكون له زوجتان ، أو يحل أي إنسان من نذره ولكن إنيان مثل هذه الأمور ينطوى على اعتراف بأن القوانين التي تتصل بها ليست قائمة على أسس من الضرورة اللازبة والصلاح الفطرى ؛ وأنها في الواقع إنما تنطوى على التضييق والمضايقة . فإن مشرع القوانين للبشر قاطبة ملزم أكثر من كل إنسان بالولاء للقانون . وهو دون الناس كافة ملزم أن يتصرف كأنما القانون سيف مسلط عليه قبل كل الناس . ولكنه ضعف الإنسانية عامة ذلك الذي يوحى إلينا بأن نتخيل أن الوديعة التي تسلم إلينا لإدادتها إنما هي مما ملكت أيماننا .

17 - الامبراطور فردريك الثاني⁽¹⁾

يعد الإمراطور فردريك الثانى حير مثال لطراز المتشكك المتمرد الذى استطاع القرن الثالث عشر أن ينبته . وربما كان من الشائق أن تحدثك قليلا عن ذلك الرجل الذكى الساخر . وهو ابن الإمبر اطور هنرى السادس الألمانى وحفيد فردريك بربروسا ، وأمه ابنة روجر الأول ملك صقلية النور مندى . فورث هذه المملكة (١١٩٨) وهو بعد فى الرابعة من عمره ، وظلت أمه وصية عليه ستة أشهر ، فلما أن ماتت أصبح البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وصياً على العرش وقياً عليه .

ويبدو أنه حظى بتعليم استثنائى فى جودته عجيب فى تنوعه ، وأكسبته مزاياه لقباً ينطوى على الملق والإطراء هو « أعجوبة العالم العالم المنافق و الإطراء هو « أعجوبة العالم السيحية إلى الإسلام ، أن أصبح نتيجة جعه بين النظرة العربية إلى المسيحية ، والنظرة المسيحية إلى الإسلام ، أن أصبح يعتقد أن كل الديانات دجل ، وهو رأى ربما ذهب إليه كثر من ذوى الرأى المكبوقى الألسنة فى « عصر الإيمان » . بيد أنه تحدث دونهم معراً عن آرائه ؛ ذلك بأن كثيراً من تجديفه و إلحاده مدون مسجل .

وإذ أنه ترعرع تحت حكم إنوسنت الثالث ذلك المتغطرس الشامخ بأنفه ، الذى لا يبدو عليه أبداً أنه أدرك أن القاصر قد رشد ، فقد نمت فيه روح تملص فكهة وكانت سياسة البابا أن يمنع قيام أى اتحاد جديد ببن قوة ألمانيا وإيطاليا ، ويعادل هذا التصميم من جانب البابا عزم فر دريك على أخذ كل ما يستطيع الحصول عليه . فلما أن هيأت له الفرص للساعة تاج ألمانيا الإمبر اطورى ، استطاع أن يضمن عون البابا له بأن وافق إن هو انتخب حلى ترك ممتلكاته في صقلية وجنوب إيطاليا ، وأن يقضى على ما في ألمانيا من إلحاد . ذلك أن إنوسنت الثالث كان من أعظم البابوات ولعاً بالاضطهاد ، ما في ألمانيا من بلحاد مقتدراً طبع على الجشم والعدوان . (كان بحسبانه بابا ، صغير السن صغير السن صغيراً مفرطاً ، إذ ارتقى عرش البابوية وهو في السابعة والثلاثين) . وإنوسنت

⁽١) أصدرت الهيئة المصرية العامة للتأليف ترجمة لهذا الإمبر اطور العظيم تحت اسم والزنديق الأعظم» ألفها الموزيف جاى ديس وترجمها الاستاذ أحمد نجيب هاشم . وهي سيرة رائمة تستحق لفنة من كل قارئ مربي . (المترجم) تاريخ الإنسانية جـ٣

هو الذي حض على شن حرب صليبية قاسية على الهراطقة في جنوبي فرنسا ، وهي حرب صليبية انقلبت من فورها إلى حملة نهب وسلب أفلت معهما الزمام من يده .

وما أن انتخب فردريك إمبراطوراً (١٢١٧) ، حتى ألح عليه إنوسنت بأن يبر بالأيثمان والوعود التى انتزعها من «قاصره» (الإمبراطور) الفتى!! وقد تعهد أن ينزل يرفع عن رجال الدين التشريع العلماني ويعفيهم من دفع الضرائب، ووعد أن ينزل على الملاحدة (الهراطقة) من ألوان القساوات ما يجعلهم عبرة لمن عداهم. ولكن فردريك لم يقم بشيء من كل هاته الأمور. وكما قلنا قبلا، لم يقبل حتى أن يتخلى عن صقلية. إذ كان يؤثر المقام في صقلية ويفضلها على ألمانيا.

ومات إنوسنت الثالث وقد أعيته منه الحيل (١٢١٦) ، ولم يصل خفه هونوريوس الثالث معه إلى أية ننيجة . ومات إنوسنت الثالث دون أن يتوج فردريك ، ولكن هونوريوس فعل ذلك (١٢٢٠) . وجاء جريجورى التاسع (١٢٢٧) بعد هونوريوس ، والظاهر أنه تولى عرش البابوية معتزماً عزماً أكيداً مغيظا الهيمنة على ذلك الإمراطور الشاب المحير . فحرمه على الفور لنكوصه عن القيام بحملته الصليبية الموعودة ، التى تأخر موعدها اثنتي عشرة سنة ؛ ثم شهر برذائله وهرطقاته وذنوبه عامة فى رسالة علنية نشرها (١٢٢٧) . فرد فردريك على هذه بوثيقة على درجة أكبر من الاقتدار ، إما أن يكون هوكاتها أو أنها كتبت له ، موجهة إلى كل إمراء أوربا ، وثيقة ذات أهمية قصوى فى التاريخ ، لأنها أول بيان واضح صريح عن أوربا ، وثيقة ذات أهمية قصوى فى التاريخ ، لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا فى أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسره ، وبين الرماد . ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ، ويتأجيج هناك على صورة أخرى ؛ ولكن فردريك وضع الأمر الآن فى عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخذوها أساساً لاتحادهم بعضهم بعض .

حتى إذا كال هذه الضربة ، ارتحل فى حربه الصليبية السلمية التى تحدثنا عنها من ، قبل . وفى (١٢٣٩) كان جريجورى التاسع يحرمه للمرة الثانية ، ويجدد حرب الشتائم

العلنية التي قاست منها البابوية الويلات من قبل . وانبعثت الحصومة من جديد بعد وفاة جريجورى التاسع ، عند ما أصبح إنوسنت الرابع بابا ؛ وللمرة الثانية صدرت عن فردريك رسالة قاضية كتبها ضد الكنيسة ، صار لزاماً على الناس أن يتذكروها ، رسالة شهر فيها بكبرياء رجال الدين وانعدام التدين فيهم ، وعزى كل مفاسد الزمان إلى استكبارهم وثرائهم واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة مصادرة عامة _ لحير الكنيسة نفسها . فكانت تلك منه إشارة لم تبارح بعد ذلك أبداً أخيلة الأمراء الأوربين .

ولن نواصل الكلام عنه " سنواته الأخيرة ولا عن الكوارث التي نشأت عن عدم اكتراثه ، فألقت على خاتمته ظلا من الإخفاق . وبديهي أن حوادث حياته الخاصة أقل قيمة من جوها العام ، ومن الميسور أن يجمّع الإنسان شتات صورة لحياة بلاطه في صقلية . فإنه ليوصف – وقد دنت آخرته – بأنه « أهمر الوجه أصلع الرأس ضعيف الميصر » ؛ على أن قسهاته كانت مليحة جذابة . وكان مترفاً في معيشته ، مولعاً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بالإغراق في الملذات . ولكن من الواضح أن ذهنه لم يشعر بالاقتناع لما ملأه من الشكوك الدينية ، وأنه كان رجلا أوتى توتى استطلاع وبحث فعالتين للغاية . وكان بلاطه يجمع بين الفلاسفة اليهود والمسلمين والمسيحيين على السواء ، وبذل جهداً كبيراً في سبيل إرواء الذهن الإيطالي بموثرات شرقية عربية . وعلى يديه أدخلت الأرقام العربية والحبر إلى الطلاب المسيحيين، وكان من بين الفلاسفة الكثيرين في بلاطه ميخائيل سكوت ، الذي ترجم أجزاء من أرسطو وتعليقات الفيلسوف العربي العظيم ابن رشد (القرطبي) عليها .

وفى (١٢٢٤) أسس فردريك جامعة نابولى ، ووسع مدرسة الطب الكبيرة. بجامعة سالر ثو أقدم الجامعات وأغدق عليها الأموال . كذلك أنشأ حديقة للحيوان . وترك كتاباً فى التصقر (١) يكشف فيه عن نفسه خبيراً بعادات الطير له ملاحظات دقيقة ، وكان من أوائل الإيطالين الذين كتبوا الشعر بالإيطالية . والحق إن الشعر الإيطالي قد ولد فى بلاطه . وقد أطلق عليه كانب مقتدر اسم «أول المحدثين» ، وهى

⁽١) التصقر : كما ورد في معجم الوسيط ، الصيد بالصقور . (المترجم).

عبارة تترجم فى براعة عما كانت عليه نواحيه الذهنية من استقلال وحياد فى الرأى برىء من كل تحيز . كان ذا أصالة تامة من جميع نواحيها ؟ وقد وفق فى إبان أزمة أحدثت بعض النقص فى الذهب إلى إدخال عملة مصنوعة من الجلد المختوم أو الرَّق ، تحمل وعداً منه بأن يدفع قيمتها ذهباً ، وهو ضرب من (البنكنوت) المصنوع من الجلد . وبذلك ابتعثت طريقة للنقد ، لم ير العالم منذ أيام قرطاچة لها نظراً .

وبالرغم من سيل الشتائم والسباب الذى أغرق فيه فردريك ، فإنه ترك أعمق الأثر في مخيلة الشعب . ولا يزال جنوب إيطاليا يذكره بشكل يكاد يضارع في قوته ذكرى نابليون الأول لدى الفلاحين الفرنسيين ؛ وهو لديهم « فريدريجو العظيم ، ويصرح العلماء الألمان أنه بالرغم من كراهية فر دريك الظاهرة لألمانيا ، فإنه هو ، وليس فر دريك الأول ، فر دريك بربروسا ، الذى تنتسب إليه أصلا تلك الأسطورة الألمانية وهي الأسطورة التي تمثل ملكاً عظيا قد أخذه النعاس في غارعميق ، وقد نمت لحيته حول منضدة حجرية ، انتظاراً ليوم يُنتشكل فيه العالم على يديه من وهدة فوضى بالغة إلى سلام شامل . ويبدو أن بطولة القصة نقلت فيا بعد إلى الصليبي بربروسا جد فر دريك الثاني .

كان فر دريك الثانى طفلا عسر القياد على أمه الكنيسة ، على أنه لم يكن إلا موطقاً مهدّ السبيل وطليعة للكثيرين من أمثاله من الأطفال العسرين . وكان الأمراء والمتعلمون فى أرجاء أوربا كافة يقرأون رسائله ويتباحثون فيها : فأما طلاب الجامعات الأشد إقداماً ، فراحوا يلتمسون ويشخصون بأبصارهم بل ويهضمون : — كتب أرسطو العربية الأصل التي جعلها فر دريك فى متناول أيديهم باللاتينية . وألقت سالرنو على روما نوراً مهلكاً مؤذياً . ولا بد أن الناس على اختلاف أصنافهم قد راعهم قلة غناء ما انهال على رأس فردريك من ألوان الحرمان والعزلة عن الجماعة .

١٤ – معايب البابوية وتحديداتها

أسلفنا أن إنوسنت الثالث لم يبد عليه قط ما يدل على أنه أدرك أن القاصر فردريك الثانى كان ينمو ويرشد . ولا يقل عن هذا صدقاً أن البابوية لم يبد عليها أبداً أنها أدركت أن أوربا كانت آخذة بأسباب النضج والرشاد . ومن المستحيل على دارس ذكى عصرى للتاريخ ألا يعطف على ما كان يجول فى ضمير البلاط البابوى ، من فكرة تقول بوجوب قيام حكم عام للصلاح والبر يحفظ على الأرض السلام ، وألا يميز عناصر النبل العديدة التى دخلت فى سياسة اللاتيران . فلا بد للبشرية من أن تصل إن عاجلا وإن آجلا إلى سلام عام واحد ، اللهم إلا إذا قضت على جنسنا البشرى قوته المتزايدة التى تعود عليه من غيرعاته المهلكة ؛ ولا مناص لهذا السلام العام من أن يتخد شكل حكومة ، أو بعبارة أخرى ، هيئة تدعم القانون بطريقة العام من أن يتخد شكل حكومة ، أو بعبارة أخرى ، هيئة تدعم القانون بطريقة دينية بأحسن ما فى كلمة دينية من معان – حكومة تحكم الناس بواسطة التعليم الذى يغلق الناسق اللماني بينهم ويسلكهم جميعاً فى تصور مشترك من التاريخ الإنساني والمصير الإنساني .

وعلينا الآن أن ننظر إلى البابوية على أنها أول محاولة واعية واضحة القصد ترمى إلى تزويد العالم بمثل هذه الحكومة . وما يجوز لنا أن نشتط فى الحياسة والجدونحن نفحص عن نقائصها وضروب عجزها ، إذ أن كل درس نستطيع أن نستفيده منها ، إنما له بالضرورة أعظم القيمة لدينا فى تكوين فكراتنا عن علاقاتنا الدولية الحاضرة . ولقد حاولنا أن نشير إلى العوامل الرئيسية التى أفضت إلى انهيار الجمهورية الرومائية ، ومن المناسب لنا الآن أن نحاول تشخيص الأسباب التى أدت إلى إخفاق كنيسة روما الكاثوليكية دون تجميع وتنظيم حسن نية البشرية وطواياها الطيبة .

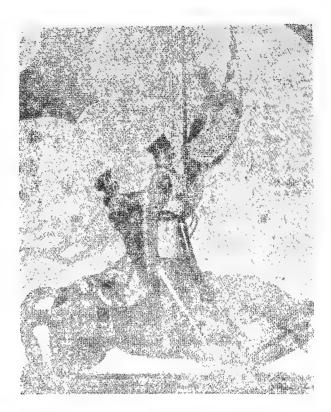
وأول ما يسترعى انتباه الدارس هو تقطع جهود الكنيسة فى تأسيس «مدينة الله» العالمية . فلم تكن سياسة الكنيسة منجهة بكل قواها وفؤادها وباستمرار إلى تلك الغاية . فلم يكن يحدث إلا بين الفينة والفينة أن شخصية ما ممتازة أو مجموعة ما من

الشخصيات الممتازة ، كانت تتسلط عليها وتوجهها في ذلك الاتجاه . ذلك أنه منسذ البداية تقريباً احتجبت مملكة الرب التي دعا إليها يسوع الناصرى كما بينا آنفاً واستترت وراء المبادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقلية . وقد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريباً عن أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة . إذ أنها أوقعت نفسها في شراك التقاليد العتيقة الحاصة بالتضحية الإنسانية ، وبالتطهير الدموى لدى « المثراثية »(1) ، وبالكهانة القديمة قدم الجاعة الإنسانية وبتفاصيل النواحي الدقيقة لطبيعة الإله . ومن عجب أن أصبع الحبر الإترورى (الإترسكي) الأعظم الخضبة بالدم أصبحت الداعية المتشددة التي تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصرى ! الخضبة بالدم أصبحت الداعية المتشددة التي تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصرى ! المخضبة بالدم أصبحت الداعية المتشددة التي تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصرى ! المنفيذ أيضاً أوقعها عقل الإغريتي الإسكندري في أحبولته يما جبل عليه من تعقيد ذهني . حتى إذا وقعت الكنيسة في معمعان هذا التطاحن الذي لا مفر منه بين هسذه المتفارقات المتناقضة ، اضطرت أن تصبح إعتقادية (دوجماتية) تأخذ بالمذهب المتقادى الحتمى (٢) . ذلك أنها حين يئست من بلوغ حلول أخرى لحلافاتها الفكرية ، التجأت إلى الاستبداد التعسني .

فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالا 'مكيّقين وفق مذاهب واعتقاديات حتمية وإجراءات مقررة وثابتة ؛ حتى إذا ما آن أوان توليهم منصب الكرادلة أو البابوات إذا بهم فى العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسي ذلك الضرب الذي يقصد إلى غاية قريبة مباشرة ، ولم يعودوا أهلا لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره . ولم تعد لهم بعد رغبة في روية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس . فقد نسوا ذلك الأمر ؛ وأصبحوا يرغبون في روية قوة الكنيسة التي هي قوتهم هم ، متسلطة على شئون البشر . وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شيء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر . ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا على الأرجح 'يسرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم الحكم وصحته المطلقة ، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في محاففة ،

⁽١) انظر الممالم ج ٢، ص ٦٣٣

⁽٢) الاعتقاد الحتمى أو القطمى (Dogma) : مجموعة المبادئ التي تعدها الكنيسة صحيحة تتجاوز كل ريب وتلزم كل إنسان باعتناقها ولا تقبل فيها نقاشا . (المترج)



(شكل ١١٤) الصليبي المثالي

لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها . وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم لأسباب تتصل بالسياسة .

وقد تجلى فى الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التى تنخر بناء مدعياتها بأكلهوقد تجعله أثراً بعد عين. فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسى. وكانت تتصيد الهراطقة فى كل مكان ، كما تبحث العجائز الخائفات _ في يقال _ عن اللصوص تحت الأسرة وفى الدواليب قبل الهجوع فى فراشهن.

ولقد سبق أن أشرنا إلى مانى الفارسى الذى صلب وسلخ جلده فى (٢٧٧) م وكانت طريقته فى تمثيل الكفاح بين الحير والشر تتمثله كفاحاً بين قوة من نور ، كانت فى الواقع فى ثورة ضد قوة من ظلمة ملابسة للكون . وكل هذه المعميات العميقة تمثلها بالضرورة بعض الرموز والعبارات الشعربة ، ولا تزال فكرات مانى تجد استجابة لدى كثير من الأمزجة العقلية اليوم . ولر بما سمع الإنسان المبادئ المانوية من فوق كثير من المنابر المسيحية . على أن الرمز الكاثوليكي الصحيح كان رمزاً مغايراً .

انتشرت هذه الفكرات المانوية انتشاراً واسعاً جداً في أوربا ، وبخاصة في بلغاريا وجنوب فرنسا . وكان القوم الذين يعتنقونها في جنوبي فرنسا يسمون الكاثاريين أو الألبيجنسيين (Albigenses) . وكان اختلاف فكراتهم عن الأصول الجوهرية المسيحية من الضآلة بحيث جعلهم يحسبون أنفسهم مسيحيين مخلصين . وكانوا كهيئة يعيشون عيشة فضيلة وطهر ظاهر في عصر طافح بالعنف والفوضي والرذيلة . يعيشون عيشة فضيلة وطهر ظاهر في عصر طافح بالعنف والفوضي والرذيلة . بيد أنهم أظهروا الشك في صحة مبادئ روما وفي التفسير الصحيح للكتاب المقدس . وكانوا يرون في يسوع ثائراً على قسوة رب « العهد القديم » ، وليس ابناً له وكانوا يرون في يسوع ثائراً على قسوة رب « العهد القديم » ، وليس ابناً له وكانوا يرون في يسوع ثائراً على قسوة رب « العهد القديم » ، وليس ابناً له وكانوا يرون في يسوع ثائراً على قسوة رب « العهد القديم » ، وليس ابناً له وكذا ! ! !] متسقاً وإياه .

وممن يرتبطون ارتباطاً وثيقاً مع الألبيجنسين طائفة أخرى تسمى الوالدونيون ، والوالدونيون هم أتباع رجل اسمه والدو ولكنه لم يكن يقل عن الآخرين مضايقة للكنيسة لأنه كان ينعى على رجال الدين ثراءهم وترفهم . ويخيل إلينا أن اللاهوت الذى كان يدعو إليه كان كاثوليكيا صحيحاً . وكان فى ذلك الكفاية لدى قصر اللاتيران ، ومن ثم نرى مشهداً يبدو فيه إنوسنت الثالث وهو يحرض على حرب صليبية ضد هاته الشيع التعيسة ، ويأذن لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيشوأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكنأن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك فرنسا مسالمة . والقصص التي تروى عن هذه الحرب الصليبية تحكى لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة أى استشهاد

للمسيحيين على أيدى الوثنيين ، وهي فوق هذا تسبب لنا رعباً مضاعفاً لما هي عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها .

كان هذا التعصب الأسود القاسى روحاً خبيثاً لا يجوز أن يخالط مشروع حكم الله فى الأرض. وإنه لروح يتعارض تماماً مع روح يسوع الناصرى. فما سمعنا قط أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له أو غير المستجيبين لدعوته ولكن البايوات كانوا طوال قرون سلطانهم فى حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل فى كفاية الكنيسة الذهنية.

ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها . فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالآبهة السريعي الهياج الحقودين الذين من الجلي أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة في مجالس الكنيسة ، كانوا يضيقون ذرعاً بأية معرفة عدا معرفتهم لا يثقون بأى فكر لم يصمححوه و براقبوه . فنصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان . وكان أى نشاط عقلي عدا نشاطهم يعد في نظرهم نشاطاً وقحاً . وقد خاضوا بعد ذلك يقليل معركة عظيمة مدارها مسألة موضع الأرض من الفضاء ، وهل هي تدور حول الشمس أم لا تدور . ولم يكن هذا في الحقيقة من شئون الكنيسة بتاتاً . وربما كانت تحسن صنعاً لو أنها تركت للعقل ما للعقل من أمور ، ولكن يبلو أن ضمرورة داخلية كانت تسوقها إلى تنفير ضمير الناس الفكرى منها .

ولو أن هذا التعصب نشأ عن عمق يقين حقبتي لكان فيه من السوء ما فيه ، ولكن كان يصحبه عنصر لا يكاد يستترمن الاحتقار للذكاء والكرامة العقلية عند الرجل العادى يجعله أقل استساغة بكثير في عين تقديرنا العصرى ، ولا شك أنه جعله أقل قبولا لدى النفوس الحرة في ذلك الزمان . ولقد سردنا بمنتهى الهدوء سياسة كنيسة روما نحو أختها المضطربة في الشرق . ولا شك أن كثيرا مما استعملته من الآلات والوسائل كان بغيضاً مقيتاً . وإنك لتشهد في معاملتها لشعبها بالذات مسحة من السخرية الحقة . ولقد قضت على هيبتها بعدم مراعاتها لتعاليمها ذاتها الداعية إلى الصلاح والبر . وقد سبق أن تكلمنا عن نظام التحلة . وكانت خاتمة حاقاتها في القرن السادس عشر بيع و صكوك الغفران »

التي بها يمكن افتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية . على أن الروح التي دفعتها آخر الأمر إلى هذه الفعلة المتبجحة التي كانت نكبة عليها ، كانت واضحة ملحوظة من قبل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

وقبل أن تنبت بذرة النقد التي ازدرعها فردريك الثا بزمن طويل في أذهان الناس ، وتؤتى ما لا مناص منه من ثمار العصيان ، كان يخيم على عالم المسيحية شعور واضح القوة يوحي إلى الناس بأن حال الجو الروحاني ليست على ما يرام . فابتدأت داخل الكنيسة الحركات – التي قد نسميها نحن اليوم بالحركات « الانتعاشية » ، والتي تضمر في نفسها النقد لكفاية طرائقها وتنظياتها القائمة أكثر مما تنطق به . وعندئذ أخذ الناس يلتمسون أشكالا جديدة من حياة البر والهدى خارج الأديرة وصفوف الكهنوت .

وهناك شخص حدر بالذكر هو القديس فرنسيس الأسيسي (١١٨١ - ١٢٢٦). ولسنا بمستطيعين أن نخبرك ها هنا في أى تفصيل كيف أن هذا الشاب المترف الظريف قد نزل عن كل ما وهبته الحياة من متعة ودعة وانطلق يطلب الله ؛ وليس استهلاك قصته بعيد الشبه عن تجارب جوتاما بوذا الأولى . إذ أصابه تحول فجائي إلى الهداية وسط حياة ناعمة بالمسرة والملذات ، حتى إذا نذر عيشة الفاقة الشديدة ، وهب نفسه لحياة تشبه حياة المسبح ، ولمنة المرضى والبائسين وبوجه أخص لحدمة المصابين بالجذام ، الذين كانوا يكثرون عند ذاك في إيطاليا .

وانضمت إليه جماهير غفيرة من الآتباع ، وبذا ظهر في عالم الوجود أول الرهبان في دعيقند » الرهبنة الفرنسسكانية (أو الفرنسسكية). وأقيم عقد من النساء المتبتلات المخلصات إلى جوار عقد الأخوة الرهبان الأصلى ، وبالإضافة إلى هذا ، ضموا إليهم أعداداً غفيرة من الرجال والنساء ارتبطوا بهم كريدين ارتباطاً رسميا بدرجة أقل . فأخذ يعظ الناس في مصر وفلسطين مبشرا بدعوته لا يعترض المسلمون عليه ، وهو أمر يجب ملاحظته هنا وتسجيله – وإن كان ذلك إبان الحمسلة الصليبية الحامسة . ولا تزال علاقاته بالكنيسة موضوع الأخذ والرد . وقد أقر البايا إنوسنت الثالث عمله ؛ غير أن عقد تشكيل الجماعة أعيسد تكوينه وهو غائب ببلاد الشرق بصورة تقوى روح النظام ، وتجعل الرياسة ذات

السلطة الموجّهة محل الدافع الاستجابى . فأفضت هذه التغييرات إلى تخليه عن رياستها . وقد ظل حتى نهاية أيامه متمسكاً أشد التمسك بالفقر كمثل أعلى ، ولكن لم يكد يمضى على وفاته أمد طويل ، حتى كان العيقد يحتاز الأملاك عن طريق القوامة على الأوقاف ويبنى كنيسة عظيمة وديراً تخليداً لذكواه فى أسيسى . هذا إلى أن النظم التي طبقت بعد وفاته على خلطائه وأتباعه المباشرين لا تكاد تفترق عن الاضطهاد فى شيء ؛ فجلد كثير من أبرز المتحمسين للبساطة ، وسجن آخرون ، وقتل واحد أثناء محاولته الهرب ، وقضى الأخ برنار «أول تلاميذه) سنة فى الغابات والتلال ، وهو يطارك مطاردة الوحش الضارى .

إن هذا النزاع الذى نشب داخل العقد الفرنسسكانى (الفرنسسكى) ، نزاع شائق جداً . لأنه ينذر بالمتاعب العظيمة التى كانت النصرانية ملة عليها ؛ وقد ظل فريق من الفرنسسكانيين يجاهد طوال القون الثالث عشر ضد حكم الكنيسة ، وفى صلاح . ويبدو أربعة منهم وهم أحياء فى مرسيليا بوصفهم هراطقة لا يرجى لهم صلاح . ويبدو أن الفارق كان طفيفاً بين تعاليم القديس فرنسيس وروحه وبين تعاليم والدو وروحه فى القرن الثانى عشر ، وهو مؤسس طائقة الوالد نيين التى وئدت وقضى عليها . وكان كلاهما متوقداً حماسة لروح يسوع الناصرى . ولكن بينها خرج والدو على الكنيسة ، بذل القديس فرنسيس قصاراه لكى يكون ابناً بازا بالكنيسة ، ولم تكن تعليقاته على روح المسيحية الرسمية إلا تلميحاً ضمنياً غير صريح . ولكن كلا منهما كان مثالا لثوران الضمير على السلطة المستبدة وعلى الإجراءات العادية التي تتبعها الكنيسة . ومن الجلى أن الكنيسة اشتمت ريح العصيان فى المثال الثانى

وكان القديس دومينيك الأسپانى (١١٧٠ – ١٢٢١) شخصية مغايرة جدا للقديس فرنسيس ، فقد كان قبل كل شيء تقليدى العقيدة . وكان ولوعاً بهداية الهراطقة عن طريق الجدال ، فندبه البابا إنوسنت الثالث للذهاب والتبشير بين الألبيجنسين . وكان عمله يسير جنباً إلى جنب مع القتال والمذابح التي تمت أثناء

الحملة الصليبية عليهم: فمن لم يستطع دومينيك أن يهديهم إلى سبيل الدين ، أعمل فيهم صليبيو إنوسنت السيف والنار ؛ ومع هذا فإن مناشطه ذاتها واعتراف البابا بعقد رهبانيته وتشجيعه إباه لتشهد بتصاعد سيل المناقشة ، وباعتقاد الناس كافة بما فيهم البابوية نفسها بأن القوة ليست علاجا للموقف .

وتطور عقد الرهبان السود أى الدومينكيين (الدومينيكان) — (إذ كان الفرنسكانيون هم الرهبان الشهب (۱) يبين لنا من عدة أوجه أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وهي عند مفترق الطرق تتردى مستسلمة رويدا في أعماق الاعتقادية الحتبية (Dogma) المنظمة ، وبذا تقع في نزاع لا رجاء فيه مع ذكاء الإنسانية المتوقد وشجاعتها المشبوبة . وبذلك تخيرت الكنيسة طريق القسر والإجبار ، وهي التي واجبها الأوحد أن ترشد وتهدى . ولا يزال آخر حديث ألقاه القديس دومينيك واجبها الأوحد أن ترشد وتهدى . ولا يزال آخر حديث ألقاه القديس دومينيك للى الهراطقة الذين جهد أن بهديهم إلى الطريق السوى باقيا لنا إلى اليوم . وهو من صوى (۲) التاريخ الهامة . وإنه ليكشف لنا عن رجل تغلى مراجل غيظه القتال لأنه فقد إيمانه في قوة الصدق نظراً لأن صدقه (الحاص » لم ينتصر .

قال: «قد نصحتكم سنين عديده بلا جدوى : باللطف والموعظة والرجاء والبكاء . ولكننا تبعاً للمثل القائل فى بلادى : «حيثها تفشل البركات عن إتمام أى شيء ، فن الجائز أن تفيد اللكمات » ــ سنثير عليكم الأمراء والأحبار الذين سوف ــ ويا للأسف ! . . . يسلحون الأمم والمالك ضد هذه البلاد وبذا تفيد اللكمات حيث كانت البركات واللطف غير ذات جدوى (٣) »

شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة ، هى محكمة التفتيش البابوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم فى بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد فى هذا الإقليم أو ذاك ، ولكن إنوسنت الثالث

⁽١) الشهب : جمع أشهب وهو الرمادي اللون . (المترجم)

⁽٢) الصوة : بالضم حجر يكون علامة في الطريق ، وجمعه صوى . (المترجم)

⁽٣) الموسوعة البريطانية – مادة دومينيك .

وجد الآن فى عقد الرهبان الدومينيكيين الجديد أداة قوية للقمع ومن ثم نظمت عاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم . وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنسانى بالنار والعذاب وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد فى السيادة على العالم . وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعسدام إلا نادراً بالملاحدة والكفار . فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون فى مئة ساحة من ساحات الأسواق فى أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها – وهم فى غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم – تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة ، وتحترق وتخمد معهم فى نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رماداً تذروه الرياح .

على أن بدايات الفرنسسكيين والدومينيكيين لم تكن إلا اثنتين من بين القوى الكثيرة الجديدة التي أخذت تنشأ في عالم المسيحية ، إما لمساعدة الكنيسة أو لتحطيمها حسبا كانت تمليه عليها حكمتها الحاصة . وقد تمثلت الكنيسة بالفعل هذين «العقدين » (الهيئتين) واستخدمتهما ، وإن كان ذلك مع قليل من العنف في حالة العقد الأول . على أن قوى أخرى كانت أصرح في نقدها وخروجها على الطاعة . إذ ظهر بعد ذلك بقرن ونصف ويكليف (Wycliffe) (١٣٦٠ – ١٣٨٤) . وكان قسيساً ولاهوتياً علما أفي أوكسفورد ، واشتغل بالتدريس بكلية باليول حيناً من الدهر ، وتولى مناصب متنوعة في الكنيسة . ثم شرع وقد علت به السن يوجة سلسلة من النقد الصريح إلى ما عليه رجال الدين من مفاسد وما عليه الكنيسة من الحاقة .

ونظم عدداً من فقراء القساوسة ، هم الويكليفيون لنشر آرائه فى كل أرجاء إنجلترة . ولكى يحكم الناس بينه و بين الكنيسة ، ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية .

كان رجلا أوسع علماً وأكثر اقتداراً من أي من القديسين فرنسيس أو دومينيك . كان له مؤيدون من ذوى المراكز العالية ، وأتباع كثيرو العدد من بين أفراد الشعب ، ومع أن روما ثارت حنقاً عليه وأمرت بسجنه ، فإنه مات رجلا حراً ، وهو ما يزال يقوم بالطقوس الدينية والأسرار المقدسة بوصفه قسيساً لأبروشية لوترورث (Lutterworth) .

على أن الروح الحبيثة القديمة التي كانت تسوق الكنيسة الكاثوليكية إلى حتفها لم تكن لتسمح لعظامه بأن تستقر في قبره . فبمقتضى قرار صادر من مجمع كونستانس في (١٤٢٨) انتبشت عظامه وأحرقت ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج في (١٤٢٨) بأمر من البابا مارتن الحامس . ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة المقابر من عمل متعصب بمفرده ؛ بل كان عملا رسمياً أتته الكنيسة .

١٥ ـ قائمة بأسماء البابوات العظام

إن تاريخ البابوية مربك للقارئ العادى لكثرة البابوات ووفرتهم . كانوا فى الغالب يعتلون منصة الحكم شيوخاً قد تقدمت بهم السنون ، وكانت مدة حكمهم قصيرة تقل عن سنتين فى المتوسط .

على أن من البابوات من يبرزون ويهيئون لدارس التاريخ نقاطاً بارزة يستطيع أن يمسك بها ويحس أثرها . ومن أمثال هؤلاء جريجورى الأول العظيم (٩٠٥ – ٢٠٤) ، وهو أول بابا مترهب ، وصديق بندكت ، وصاحب الفضل في إرسال بعثة التبشير الإنجلزية .

ومن البابوات الآخرين الجديرين بالذكر ليو الثالث (٧٩٥ – ٨١٦) ، الذي توج شرلمان ؛ واثنان من البابوات اشتهرا بالفضائح هما يوحنا الحادى عشر (٩٣١ – ٩٣١) ويوحنا الثانى عشر (٩٥٥ – ٩٣٣) ، والأخير هو الذي خلعه الإسراطور أوتو الأول ، ثم يجيء هلدبراند العظيم ، الذي ختم حياته تحت اسم جريجوري السابع (٣٧٠ – ١٠٨٥) ، والذي فعل الشيء الكثير بتقريره العزوبة على رجال الدين ، وتشبثه بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء ، لكي يركز قوة الكنيسة في روما .

وحدث نزاع عظيم بين هلدبراند والإمبراطور المنتخب هنرى الرابع على مسألة التعيينات . فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ؛ فحرم البابا الإمبراطور وأحسَل أتباعه الأمراء من ولا بهسم له . واضطر الإمبراطور أن يذهب تائباً إلى البابا في كانوساً (١٠٧٧) ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش ، وهو حافي القدمين في

الثلج فى فناء القلعة . على أن هنرى ما لبث أن عاد فيما بعد إلى فرض حقوقه وإبراز قوة شكيمته إذ أعانته أكبر العون هجات قوية قام بها المغامر النور ماندى روبرت جويسكارد على ممتلكات البابا .

وكان البابا التالى لخليفة جريجورى السابع هو إربان الثانى (١٠٨٧ – ١٠٩٩) ، وهو البابا الذى دعا إلى الحرب الصليبية الأولى .

وكانت الفترة من جريجورى السابع إلى ما بعده بقرن ونصف من الزمان هى الفترة العظمى للكنيسة : فترة اشتداد طموحها وجهودها . وفيها بذلت المحاولات الصادقة المتواصلة لتوحيد عالم المسيحية بأجمعه فى ظل كنيسة مطهرة مجددة التنظيم .

وإن فى إقامة الممالك اللانينية بسوريا والأراضى المقدسة على مذهب روما بعد الحرب الصليبية الأولى ، لعلامة ملحوظة آذنت باستهلال مرحلة جديدة لغزو روما للمسيحية الشرقية ، مرحلة وصلت إلى ذروتها أثناء الحكم اللاتيني فى القسطنطينية (١٢٠٤ – ١٢٦١) .

وفى (١١٧٧) ركع الإمبراطور فردريك بربروسا (فردريك الأول) للبابا اسكندر الثالث فى مدينة البندقية واعترف بسيادته الروحية وأقسم يمين الإخلاص والولاء له . ولكن بعد موت اسكندر الثالث (١١٨١) ، تجلى ضعف البابوية الراجع إلى احتال وقوعها فى أيدى كهول محطمين . فإن خسة من البابوات دلفوا إلى اللاتيران متر نحين لكى يموتوا فى مدى عشر سنوات . ولم يتح للبابوية إلا فى شخص إنوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) بابا قوى جديد يتناول بيديه السياسية العظيمة « لمدينة الرب » .

وفى عهد إنوسنت الثالث ـ الوصى على الإمراطور فردريك الثانى ، الذى سبق أن درسنا ترجمته ـ والباباوات الخمسة الذين خلفوه ، أصبح بابا روما أقرب إلى ملك لعالم مسيحى متحد منه فى أى زمن سابق أو لاحق . ذلك بأن الإمراطورية ضعفت لما نشب فيها من منازعات داخلية ، على حين صارت القسطنطينية فى أيدى اللاتين ، ومن ثم صار البابا هو السيد الأعلى فيا بين بلغاريا

وإرلندة وما بين النرويج وصقلية وبيت المقدس . ومع ذلك فإن سيادته هذه كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية . ذلك أنه على حين كانت العقيدة كما رأينا آنفا ، قوية أيام إربان الثانى فى كل أوربا المسيحية ، كانت البابوية أيام إنوسنت الثالث قد فقدت سيطرتها على قلوب الأمراء ، كما أن إيمان الناس وضميرهم كانا آخذين فى التحول إلى العداء لكنيسة لا تنطوى إلا على السياسة والعدوان() .

وكانت الكنيسة في القرن الثالث عشر تقوى وتبسط سلطتها القانونية في العالم وتفقد سيطرتها على ضائر الناس. وكانت تغدو أقل إقناعاً وأكثر عنفاً. ولا يستطيع أي إنسان ذكي أن يتحدث أو يقرأ عن هذه العملية الفاشلة دون أن تخالجه مشاعر بالغة التضارب. لقد آوت الكنيسة بين أحضانها أوربا جديدة كونتها بنفسها خلال العصور الطويلة من الظلمة والفوضى ؛ وكانت هي القالب الذي صبت فيه المدنية الجديدة التكوين إنما دفعتها إلى النمو حويتها الفطرية الكامنة ، فأما القالب (الكنيسة) فكان ينقصه القدر الكافي من قوة التنمية والتيسر. وكان الزمان الذي لا بد فيه من كسر هذا القالب يقترب حثيثاً.

وجاءت أول إشارة قوية لا نحلال القوى الحية الداعمة للبابوية ، عندما حدث بعد ذلك نزاع بين البابوات وقوة الملك الفرنسي النامية . إذ حدث في حياة الإمبراطور فردريك الثاني أن وقعت ألمانيا فريسة للفرقة ، وأخد الملك الفرنسي يقوم نحو البابا بدور الحارس والمساعد والمنافس ، وهو الدور الذي كان يؤديه إلى ذلك الحين أباطرة آل هوهنشتاوفن واتبعت مجموعة متتالية من البابوات سياسة مناصرة الملوك الفرنسيين ، فنصب أمراء فرنسيون في ممالك صقلية ونابولي بمناصرة روما وموافقتها ، ورأى الملوك الفرنسيون أمامهم فرصة سانحة لاستعادة إمبراطورية شرلمان وحكمها . ومع ذلك فإنه لما انتهت فترة خلو العرش الألماني التي نشأت بعد موت فردريك الثاني آخر أفراد آل هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسيرجي أول إمبراطور من آل هابسيرج هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسيرجي أول إمبراطور من آل هابسيرج المتعاقبن .

⁽۱) كانت الكنيسة فى ذلك الحين تعد نفسها مجاهدة فى سپيل العقيد؛ (Church Militant) . انظر مقال أو منتصرة على شرور الدنيا ومستقرة فى ملكوت السموات (Church Triumphant) . انظر مقال عن چان دارك فى كتاب ، أعلام وأفكار » تأليف يوهان هويزنجنا ترجمة المترجم للبيئة المصرية للتأليف .

فنى (١٢٩٤) تبوأ بونيفاس الثامن دست البابوية . وكان رجلا إيطاليا معادياً للفرنسيين ، وافر الإيمان بتقاليد روما العظيمة ورسالتها الكبرى . فعالج الأمور حيناً من الدهر بقوة واستبداد . وفى (١٣٠٠) عقد مهرجاناً لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج فى روما . « بلغ من عظم انثيال المال إلى خزائن البابوية ، أن ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التى وضعت عند قبر القديس بطرس "() . على أن هذا المهرجان كان نصراً خداعاً . فإن جمع جيش عظيم من الرحالة المتنزهين أيسر كثيراً من جمع ثلة من الصليبيين . وتنازع بونيفاس مع الملك الفرنسي فى أيسر كثيراً من جمع ثلة من الصليبيين . وتنازع بونيفاس مع الملك الفرنسي فى الملك ، فاجأه غليوم دى نوجاريه فى قصر أجداده الموروث بأناجني (Anagni) واعتقله . وقد دخل هذا المندوب عن الملك الفرنسي القصر عنوة وسار حتى وصل إلى مخدع والإهانة . وأطلق أهل المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم ، وأعادوه والإهانة . وأطلق أهل المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم ، وأعادوه بضعة أسابيع حتى مات الرجل الشيخ الهرم مصعوقاً وقد رفعت عنه غشاوة الحداع ، بضعة أسابيع حتى مات الرجل الشيخ الهرم مصعوقاً وقد رفعت عنه غشاوة الحداع ، فقض وهو لا يزال سجيناً في أيدبهم .

وقد غضب أهل أناجني بالفعل للاعتداء الأول وثاروا ضد نوجاريه لتخليص بونيفاس ، ولكن أناجني كانت مسقظ رأس البايا . والنقطة الهامة التي علينا ملاحظها هي أن الملك الفرنسي ، كان في هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية الأكبر ، يتصرف بملء استحسان شعبه ، فإنه دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث (النبلاء والكنيسة والعامة) وفاز بموافقتهم قبل البدء في الإجراءات المتطرفة . ولم تبد أي من إيطاليا أو إنجلترة أدنى مظهر عام ينم على عدم الموافقة عن هذا التصرف الجرىء مع الحبر الأعظم صاحب السيادة العليا . فقد انحلت الفكرة الداعية لتوحيد العالم المسيحي مع الحبر الأعظم صاحب السيادة العليا . فقد انحلت الفكرة الداعية لتوحيد العالم المسيحي من عمول الناس .

⁽١) چ . ۵ . روېنسن .

وفى الشرق استرد اليونان مدينة القسطنطينية (١٢٦١) من الأباطرة اللاتين ، ولم يلبث مؤسس الأسرة اليونانية الجديدة ميخائيل باليولوجوس أو ميخائيل الثامن ، بعد محاولات زائفة للصلح مع البابا ، أن انفصل عن مجتمع روما الكنسى انفصالا نهائياً ، وبهذا الانفصال وبسقوط المالك اللاتينية في آسيا ، زال ما كان للبابوات من سيادة في الشرق .

ولم تعمل البابوية شيئاً طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيبتها المعنوية . وكان خليفة البابا التالى ، وهو كلمنت الخامس ، رجلا فرنسياً ، اختاره الملك فيليب الفرنسي . فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه في مدينة أڤنيون ، ولم تكن عند ذاك تابعة لفرنسا ، بل كانت تابعة للكرسي البابوي وإن وقعت في صميم الأراضي الفرنسية ؛ وهناك أقام خلفاؤه حتى (١٣٧٧) ، عند ما عاد البابا جريجوري الحادي عشر إلى قصر الفاتيكان بروما . ولكن جريجوري الحادي عشر لم يحمل معه عطف الكنيسة بأسرها . إذ كان كثير من الكرادلة فرنسي الأصل وكانت عاداتهم ومشاربهم شديدة الارتباط بأڤنيون . فلها أن مات جريجوري الحادي عشر (١٣٧٨) ، وانتخب إيطالي هو إربان السادس ، أعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون أن الانتخاب باطل ، وانتخبوا بابا آخر هو البابا المضاد كلمنت السابع .

ويسمى هذا الانقسام « بالصدع الكبير » . وظل البابوات فى روما ، وبقيت كل الدول المعادية لفرنسا ، من الإمبراطور إلى ملك إنجلترة إلى هنغاريا وبولندة وشهالى أوربا ، موالين لحم . وذلك على حين استمر البابوات المضادون فى أقنيون يناصرهم ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وأسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان متنوعون . وكان كل بابا فى الجانبين يحرم أنصار منافسه ويلعنهم ، حتى لقد غدت المسيحية بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعنا صحيحاً كاملا بهذا المعيار أو ذلك (١٣٧٨ – ١٤١٧) .

ومن المستحيل أن نبالغ فيا ترتب على هذا الانقسام من أثر محزن على قوة تماسك العالم المسيحى . فلا غرو إذن أن رجالا من أمثال ويكليف شرعوا يعلمون الناس أن يفكروا لحسابهم الخاص ، عند ماكان معين الصدق يتطاحن ويفرى يعضه بعضاً على النحو الذى ثرى ! !

وفى (١٤١٧) التأم الصدع الكبير فى مجمع كونستانس ، وهو نفس المجلس الذى إنتبش عظام ويكليف وأحرقها ، والذى تسبب كما سنبين فيا بعد فى إحراق چون هس (Huss). وفى هذا المجمع استقال البابا والبابا المضاد أو قذف بهما جانباً ، وأصبح مارتن الخامس البابا الوحيد على عالم مسيحية موحدة رسمياً ولكنها مضعضعة بادية الإعياء روحياً.

ولسنا بمستطيعين أن نقص هاهنا كيف أن مجمع بازل (١٤٣٩) أدى إلى صدع جديد وإلى بابوات مضادين آخرين .

هذه نبذة موجزة عن قصة القرون العظيمة لرفعة البابوية وتدهورها . وهي قصة الإخفاق في الوصول إلى تلك الفكرة النبيلة الرائعة ، فكرة قيام عالم ديني موحد . ولقد أشرنا في القسيم السابق كيف أن مبراثاً من لاهوت معقد قائم على الاعتقاد الحتمى (Dognia) ، قد أثقل كاهل الكنيسة في مغامرتها الطموحة هذه . كان لديها من اللاهوت ما تجاوز الغاية ومن الدين ما دون الكفاية . على أنه ربما لا يكون من اللغو الإشارة هنا إلى مدى ما ساهم به عدم الكفاية الشخصية للبابوات في انهيار خطة الكنيسة وكرامتها ، لم يكن في العالم ذلك المستوى التعليمي اللازم لتزويد سلسلة متعاقبة من الكرادلة والبابوات بسعة المعرفة ورسابة الأفق اللازمين للواجب الذي أخذوا على عاتقهم النبوض به ؛ فهم يتلقوا التعليم الذي يكني لقيامهم بواجبهم ، ولم يتهيأ إلا للقليل منهم ، أن يتساموا على هانه النقيصة بمحض قوة العبقرية . وكما سبق أن نوهنا ، كانوا عند ما يصلون آخر الأمر إلى النفوذ والسلطان ، أستن وأضعف من أن يقدروا على استخدامه . وقبل أن يحكوا القبضة على الموقف الذي كان عليهم أن يهيمنوا عليه ، يكون معظمهم قد فارق الحياة .

ومن الشائق أن يتساءل الإنسان كم كان الميزان يجنح إلى جانب الكنيسة لو أن الكرادلة كانوا يتقاعدون فى سن الخمسين ، أو حرم انتخاب أى إنسان لمنصب البابوية بعد سن الخامسة والخمسين ؟ كان ذلك لا جرم يطيل متوسط مدة حكم كل بابا ، وكان يزيد زيادة هائلة فى استمرار سياسة الكنيسة . وربما كان من المحتمل

كذلك أن تُسْتَنْبَط طريقة أكثر كمالا فى انتخاب الكرادلة ، وهم أصحاب القول الفصل فى انتخاب البابا وذوو الرأى والمشورة لديه . فإن القواعد والطرق التى بها يصل الرجال إلى مناصب السلطان لعلى درجة عظيمة جداً من الأهمية فى الشئون الإنسانية . وإن سيكولوچية الحاكم لعيلم لا يزال على العلماء أن يدرسوه دراسة صحيحة . لقد رأينا الجمهورية الرومانية تتحطم ، وها نحن نرى الكنيسة تخفق فى رسالها العالمية لسبب يرجع على الأغلب إلى طرائق انتخابية عقيمة .

١٦ ــ العمارة والفن القوطيان

هناك تطورات معارية وفنية خاصة تميز أدوار تاريخ المسيحية من العصر الرومانسكي إلى عصر الشك واضمحلال العقيدة الذي كان فردريك الثاني بشيره ولقد حدث إقبال عظيم على بناء الكاتدرائيات في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، وتطور سريع في العارة الرومانسكية الغربية ، تحول بها إلى ما يسمى في أدق معانيه باسم الطراز القوطي . فإن السقوف المنحدرة في الأبراج الرومانسكية قد استطالت وأصبحت منائر مستدقة (Spires) ؛ وأدخل السقف المقبو المتقاطع الحنايا . وجرف العيقد المدبب الذي انتشر من قبل في الفن العربي طوال مثني سنة أو تزيد _ أمامه العقد المدور . وظهر مع هذه المظاهر تطور عظيم وتنميق كبير في النوافذ وفي الزجاج الملون .

. والراجح أن نمو هيئات الأديرة وازدياد ثراثها هو الذى أطلق سراح فيض الطاقة الفنية التي أعلت العالم كنيسة نوتردام بباريس مثلا وكاتدرائية شارتروكاتدرائية أميان والبداية الفاخرة التي تشهدها في بوقيه (Beauvais). وظل الدافع الفني القوطي متواصلا طوال قرون عديدة . ومنذ القرن الفالث عشر أخذت النافذة ذات الحلي الحجرية التشجيرية المنقورة من أعلى تصل إلى أقصى درجات تطورها . وفي القرن الرابع عشر أصبح الفن القوطي زاخراً بالحيوية فترة طويلة من الزمان ثم ارتد قاسياً ساماءاً . وانتهج الإنجليز طريقاً خاصاً بهم المناس المسمى الطراز المرتفع الصان المسمى

« بالعمودى » (Perpendicular) (١) . واتخذت الأشكال القوطية سمة وكيفاً جديداً باستعمال الطوب في مناطق مترامية الأطراف من شرق ألمانيا وشهالها حيث حجر البناء نادر أو بعيد المنال . ولقد ذوى فن العمارة القوطى مع بداية القرن الحامس عشر . ذلك أن أيام عظمة الكنيسة في أوريا قد وليّت ، وكان لا بد للظروف الاجهاعية الجديدة من أن تعبر عن نفسها بطرائق جديدة . وما زلنا نجد الكاندرائيات ناقصة لم يستكمل بناؤها في بعض مدن بلجيكا وهولندة ، وإلى جوارها بناء للبلدية عظيم سلب ماكان للكنيسة من موارد البناء ومواده . فني إير (Ypres) مثلا ، وقبل أن تمتد يد الحرب بالتخريب ، كانت قاعة « بورصة الأقشة » العظمي تبز وقبل أن تمتد يد الحرب بالتخريب ، كانت قاعة « بورصة الأقشة » العظمي تبز الكاتدرائية إتقاناً وتفوقها جمالا .

وفى أسبانيا كان الفن القوطى يقفو المسيحيين من مقاطعة إلى أخرى أثناء استردادهم شبه الجزيرة من العرب. فالفن العربى المغربى (Mauresque) والفن القوطى الأسبانى قد تطورا كل فى حدوده الحاصة. هذه أشبيلية تقوم فيها إلى جانب القصر المغربى الطراز المسمى بالكازار ، كاتدرائية قوطية عظيمة ، وكأن داخلها السامق يستشعر فرحاً تغشاه العتمة لما تم من فوز على الغزاة المقهورين .

ولم يتغلغل الفن القوطى فى إيطاليا بدرجة كبيرة . وأبرز مثال له هو كاتدرائية ميلانو . على أن إيطاليا كانت أثناء الفرة القوطية فى أوربا الغربية ، ساحة قتال بين التقاليد العتيقة والطرز المتنازعة . فإن كنيسة سانت مارك البيزنطية الطراز فى البندقية تضاهى بطرازها الطراز القوطى المتجلى فى كاتدرائية ميلانو ، وإن النورمانديين والعرب ليمزجان روحيهما بالروح الرومانية فى مثل مبانى كاتدرائية أمالنى . وتشكل الكاتدرائية ومكان التعميد و برج الجرس الكبير فى پيزا مجموعة من أشد مجموعات المبانى الإيطالية تعبيراً ، وكلها ترجع إلى حوالى القرن الثانى عشر تقريباً .

⁽۱) طراز العارة العمودى: طراز إنجليرى مفأخر من العارة القوطية (أواخر القرن ١٤ إلى منتصف ١٦) ويمتاز بالحليات الحجرية المنقورة بأعلى النوافذ أو بالعقد المحفض ذى الزوايا الأربعة وبالتقبية ذات الحليات الحجرية افنقورة على شكل مروحة وبالجدران المرقشة بالصور. (المترجم)

وظل الميل إلى فن التشكيل التمثيلي () طوال العهد القوطى ، وهو الميل القوى المشبوب فى كل من الشعوب الآرية والحامية ، بيكافح كفاحاً ظاهراً ضد الميل الغريزى إلى كبته ، الذى ظهر فى العالم الغربي بعد الانتشار الأول للمسيحية والإسلام . وينبغى أن يكون من المفهوم أنه لم تكن هناك عداوة صريحة ضد الفن التشكيلي التمثيلي عند المسيحيين . وقد اختنى فن التصوير الروماني القديم من سراديب الدفن والقبور المسيحية المزخرفة . وظل قدر معين من التصوير الجدارى المنمط النوع يكافح خلال القرون الوسطى ثم تكاثر في القرنين العاشر والحادى عشر .

ومع زيادة أسباب الاطمئنان في الحياة جاءت الرغبة المتزايدة في تجميل الكنائس ومباني الأديرة . وانتشر التصوير منتقلا من العمل الضيق المحدود لمن يحلي الكتب بالصور إلى الجدران واللوحات العصرية . فأصبح القديسون الجامدون أكثر مرونة ؛ وأضيفت الحلفيات الظاهرة من ورائهم ، فأتاحت للرسام الحجال لإضافة التفاصيل المتمشية مع الطبيعة الحقة Naturalistic . فاما اللوحة المصورة (٢) التي كانت تعمل في مكان ثم تنقل إلى آخر وتثبت فيه ، فكانت بشيراً وسلفاً للصورة المستقلة . وانقضت فترة من الزمن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت فرنسا وألمانيا سابقتين فيها لإيطاليا في هذا الابتعاث للمن التصويري . وفي نفس الوقت كان نحات أحجار البناء ينفث في الحليات المضنية التي عليها المباني القوطية حيوية وروحاً واقعية متزايدتين . فهو يحول الميزاب إلى رأس حيوان كاشر الوجه مضحك ، ويضع وجوهاً وأشكالا مصورة على تيجان العمد والأبراج المرتفعة الدقيقة للأبنية هي القائدة صاحبة السبق . المنحوت من الحفر البارز Relict إلى التجسيد الصلب الماثل (أي يحوله من نقش بارز مسطح إلى تمثال بجسد) . وفي ذلك أيضاً كانت ألمانيا هي القائدة صاحبة السبق . مسطح إلى تمثال بهد) . وفي ذلك أيضاً كانت ألمانيا هي القائدة صاحبة السبق .

⁽١) فنالتشكيل التمثيل : (Representative Art) هو القائم على تمثيل أو تصوير الأشياء الطبيعية والكائنات الحية . (المترجم)

⁽٢) اللوحه المصورة (Panel) هي التي يسميها أهل الفن باسم يانوه (Panneau) (المترجم)

ولقد سبق لنا أن لحظنا من قبل اختفاء لمحاكاة الطبيعة مشامها لهذا ، ثم ظهوراً جديداً لتلك المحاكاة في تاريخ الإنسانية . فالإنسان في أواخر العصر الحجرى القديم كان يحفر الأشكال الواقعية ويرسمها بحرية وقوة ولكن إنسان العهد المبكر من العصر الحجرى الحديث لم يترك لنا رسوماً جيدة ولانحائت جيدة تمثل الكائنات الحية . ثم لم يكه فن التشكيل يظهر مرة ثانية حتى جاء عصر البرونز . وقد حدث نفس هذا الأمر بالضبط وإن على مقياس أكبر بن الأيام العظيمة للإمبراطورية الرومانية وبين العصور الوسطى ، لا في ظلال المسيحية فحسب بل في رحاب الإسلام كذلك. ولم يقم أحد قط بتقديم أى تفسير كامل مقنع لظهور هذه البدائل المتناوبة . فإن الفن تراجع عن محاكاة الحقيقة والطبيعة وحبس نفسه على الإتقان والتنميق الشكلي . ومنذ ذلك التاريخ بدت موجة عظيمة أخرى من روح المحاكاة المشرقة للطبيعة ، لعلها بلغت ذروتها من أمد غبر بعيد . ومنذ خسين سنة كان كل من التصوير والنحت أكثر على الجملة امتلاءً بروح لمحاكاة للطبيعة والتمثيل لأشــكالها ، وأقل رمزية وأدنى تلويحاً وإشارة مما هو عليه الآن(١) . ولسنا بمستطيعين أن نقدم هاهنا أى تفسير مرض لهذه الموحات التي تلم بالباعث الفني العـــام ، وأعني بها الترجحات المتناوبه بين الحقيقة الجذلة القوية النقل والأداء وبين الترفع والتزمت. وكأنما الروح الواقعية المفرطة والجذل المفرط بالجسم والحركة والانفعال والتفاصيل العرضية كانت تنتهى آخر الأمر إلى إحداث رد فعل يتجه إلى عملية التجريد والشكلية ويسبب التجاء غريزياً إلىهما .

١٧ ـ موسيقي العصور الوسطى

كانت تلم بالموسيقى تغيرات عظيمة فى أيام الحروب الصليبية . إذ أن أى نوع من أنواع الانسجام (الهرمونى Harmony) لم يكن معروفاً حتى ذلك الأوان ؛ بل كانت الموسيتي شأناً بسيطاً مكوناً من الإيقاع واللحن ؛ وقد ابتدأ آنذاك تطور جديد تمام الجدة كان فى مبدأ الأمر غناء موزعاً من نوع بدائى (Part-singing)، ثم تطور فأصبح حبكة معقدة من ألحان يزداد تناسجها على مر الزمان إحكاماً وتفصيلا . إذ جنعلت الأصوات المختلفة

⁽١) انظر للمترجم «التربية عن طريق الفن » تألبف هربرت ريد (هيئة الكتب والأجهزة العلمية) ، وفي هذه الفقرة يشير الكاتب إلى ما غلب على فن القرن العشرين من روح عصرية تتمثل في التجريدية والسرياليه والتكميبية والوحشيه والترقيطية وغير ذلك من أشكال الفن المعاصر . (للترجم)

تغنى فى نفس الوقت أنغاماً مختلفة يجمعا الانسجام الهارمونى . وفى الحين نفسسه تطور تدوين للنوتة الموسيقية قادر على التعبير عن الموسيقي الجديدة المتعددة الأصوات الهوليفونية (Polyphonic) وتسجيلها . وكان التدوين ضروياً للتطور الموسيتي الحر، ضرورة الكتابة لظهور « أدب » نام متنوع .

ويبدو أن البدايات الأولى لهذا التجديد في صوع الموسيقي إنما ظهرت في أوربا الغربية ، والراجح أن ذلك كان في ويلز ووسط إنجلترة . إذ نحن إنما نجد هناك أول ما سجل لنا من حالات الغناء الموزع ، ولعله بدأ هنا في زمن مبكر يرجع إلى القرن التاسع . ولكنه كان على التحقيق أمراً قائماً يمارسه الناس عند نهاية القرن الثاني عشر . وهناك قطعة ممتازة من الندوين الموسيقي الإنجليزي الموزع ترجع إلى حوالي (١٢٤٠) لا تزال موجودة حتى الآن . وهي الروتا (Rota) ومطلعها «سوالي (١٢٤٠) لا تزال موجودة حتى الآن . وهي الروتا (Rota) ومطلعها عاضر ، ويقول السير و . ه . هادو (١) « إن تدوين التوزيع قيها مدهش في صحته وإرضائه للنفس ، ومن المكن سماعه في الوقت الحاضر بسرور عظيم وهي أول صوت في تطور فننا الغربي ، ما يزال يستطيع أن يحدثنا في نبرات صديقة أول صوت في تطور فننا الغربي ، ما يزال يستطيع أن يحدثنا في نبرات صديقة مألوفة » .

وكانت تلك الأيام أيام المغامرين الجوالين ، كما كانت أيام الموسيقي الطوافة أيضاً . فإن جماعات التروبادور كانت تنتفل من قصر إلى قصر ، وكان ثمة كثير من المغنين المتسولين ، وانتشرت فكرة الانسجام الموسيقي (الهارموني) بأرجاء فرنسا وإيطاليا وإلى أوربا الوسطى . وكانت معظم التلحينات غناء متعدد الأصوات پوليفونيا غير مصحوب بموسيقي . على أن تطور التوزيع الموسيقي على الآلات جاء فيما بعد مع ظهور العود (Lute) والقرچينال (٢) والقيول (٣) وزيادة استخدام و مجال الأرغن بصورة متمشية مع الزيادة في مهارة صانعيه . وكان لا يزال على القصر والبلاط أن يصلا إلى

⁽١) : هو السير وليم هترى هادو : (٩٥٩ -- ١٩٣٩) من كبار رجال التربية ومن أعظم علماء علم الموسيقى وتحليلها وفلسفتها ومحرر «تاريخ اكسفورد للموسيقى » (المترجم)

⁽٢) آلة وبرية قديمة ذات مفاتيح .

⁽٣) ضرب قديم من الكمان .

تلك الذرى العالية من الترف والتنميق التى لا بد منها لإنتاج موسيق علمانية أرفع من هذه التى لا يتجاوز نطاقها هذه الموسيقي الصوتية والشعبية الصرفة وفي مبدأ الأمر ، كانت أهم مهاد لإنتاج الموسيقي الجديدة هي جوقات (كورس) المرتلين والعازفين يالكاتدرائيات والأديرة. فهناك كافح الرؤساء المجددون لجوقات المرتلين (الكورس) ضد النزعات الدينية الشديدة المحافظة والتمسك بالقديم ، بل لقد كافحوا كفاحاً طويلا بعيد المدى .

وكانت الصيغة الغالبة في أثناء طور الانسجام الهارموني الصوتي البحت هي المادريجال (١) . وكان الملحن الإيطالي بالسترينا (١٥٢٦ – ١٥٩٤) هو الأستاذ الذي بلغت به تلك الفترة من الموسيقي الكورالية الجهاعية ذروتها . وفي القرن السادس عشر كان الصناع الإيطاليون قد ساروا فعلا بالكمان (الڤيولينا) في سبيل الكمال ، وكان الأرغن الحديث في دور التطور النهائي ، فقد أخذت ظروف اجهاعية جديدة في الظهور ، وثمة مشاعر جديدة أخذت تبحث عن يترجم عنها ، وثم طرائق ومناهج جديدة أخذت في التطور فتيسر بها ظهور طراز من التلحينات الموسيقية أرحب أفقاً وجب فيه على فن التوزيع الموسيقي على الآلات أن يلعب الدور الأعظم .

⁽١) لحن موضوع لقصيدة غزلية .

الكِيّاب السّالع

الامبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والامبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

الفصل الفي والثيلاتون والفيلاتون وخلفاؤه وإمبر اطوريتهم العظيمة (عصر الطرق البرية)

- ١ آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر.
- ٣ رحلات ماركو پولو . ٤ الأتراك المُّانيون والقسطنطينية .
 - لادا لم يعتنق المغول المسيجية .
- - ٧ المغول يرتدون إلى الروح القبلية .
 ٩ تيمورلنك .
 - ١١ الفجر (النور).

٣ - أسرتا يوان ومنج في الصين .

٢ - قيام المغول والتصاراتهم.

- ٨ -- إمبر اطورية القپيچاق وقيصر موسكوڤيا (الروسيا).
 - ١٠ إمبر اطورية الهند المغولية .

١ - آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر

الآن نحدثك عن آخر وأعظم غارات نظام «البداوة» والترحل على مدنيات الشرق والغرب. ولقد تتبعنا في هذا التاريخ تطور طريقة العيش هاتين جنباً إلى جنب، وأشرنا إلى أنه كلما اتسعت رقعة المدنيات وتحسن تنظيمها ، كانت تتحسن كذلك أسلحة المترحلين وتزداد سرعة حركتهم ويرتفع مستوى ذكائهم. ولم يكن المترحل

أو البدوى مجرد رجل غير ممدن ، بل كان إنساناً متخصصاً في طريقة عيشه لايبرح تخصصه يعمق ويزداد . ومنذ بداية التاريخ ذاتها ، كان المترحلون والمستقرون في تفاعل دائم . وقد سبقت الإشارة إلى غارات الساميين والعيلاميين على سومر . ورأينا الإمبر طورية الغربية وكيف حطمها مترحلو السهول العظيمة ، ورأينا فارس تسقط في أيدى مترحلي بلاد العرب الذين يهزون بيزنطة هزا . والعدوان المغولي الذي ابتدأ مع ابتداء القرن الثالث عشر ، يعد حتى الآن آخر غارة أعيد فيها خرث الجاعة الإنسانية حرثاً مدمراً .

ظهر المغول على مسرح التاريخ فجأة هابطين من غياهب المجهول قرب نهاية القرن الثانى عشر. وكان ظهورهم فى القطر الواقع شهالى الصين بأرض الأرومة الأصلية للهون والترك ، وواضح أنهم ينحدرون من نفس سلالة هذين الشعبين . تجمعوا بعضهم مع بعض تحت لواء رئيس ما نحن بمثقلين ذاكرة القارئ باسمه ، وما لبثت قوتهم أن نمت تحت قيادة ابنه چنكير خان بسرعة خارقة للعادة .

ولعل القارئ لا يزال يذكر التفكك التدريجي الذي ألم بوحدة الإسلام الأصلية ، فقد كان هناك عند بداية القرن الثالث عشر ، عدد من الدول الإسلامية المتفرقة المنازعة في غرب آسيا . كانت هناك مصر (ومعها فلسطين وجزء كبير من سوريا) تحت حكم خلفاء صلاح الدين ، وكانت هناك الدولة السليجوقية في آسيا الصغرى ، وكان ما يزال هناك خلافة عباسية في بغداد ، وثمة إمبراطورية ضخمة نمت إلى الشرق من هذه أيضاً هي الإمبراطورية الحوارزمية ، وهي إمبراطورية الأمراء الأثراك في خيوة الذين غزوا عددا من الإمارات السلجوقية الصغيرة المتناثرة ، وحكموا الشقة الممتدة من وادى الجانج (الكنج) إلى الدجلة . ولكن سلطامهم على السكان الفرس والهنود كان غير وطيد .

وكانت الحضارة الصينية كقرينتها العربية على حال من الوهن تغرى بها أى فاتح مقدام مغامر . ولعل القراء يذكرون لمحة ألقيناها على الصين فى هذا التاريخ وأنها كانت فى القرن السابع إبان السنوات الأولى من حكم أسرة تانج ، يوم كان ذلك الإمبراطور الأريب المقتدر « تاى تسوُنج Tai Tsung » يوازن بين مزايا كل من المسيحية

النسطورية والإسلام والبوذية وتعاليم « لاوتزى Lao Tse » ويميل فى جملة الأمر إلى الأخد بأن لاوتزى معلم يضارع فى الفضل أى واحد من الآخرين . وقد وصفنا استقباله للرحالة يوان تشوانج . وتسامح تاى تسنج مع جميع الديانات . ولكن كثيرين من خلفائه أنزلوا بالعقيدة البوذية اضطهادات ، لا تداخلها رحمة ، على أنها ازدهرت بالرغم من هذه الاضطهادات . ولحبت أديرتها دوراً مشابها بعض الشهه للدور الذى لعبته المنظات الديرية المسيحية فى الغرب فى أخذها بناصر العلوم بادئ الرأى ثم فى اعتياقها سبيل العلم بعد ذلك .

حتى إذا وافي القرن العاشر ، كانت أسرة تانج القوية بلغت من الانحلال أقسى الملدى . إذ استمرت عملية الاضمحلال المألوفة المتسببة عن تعاقب مجموعة من الفساق والعاجز بن على عرش الإمبراطورية ، وانقسمت الصين مرة ثانية من الناحية السياسية إلى عدد متغير من الولايات المتطاحنة في أثناء ما يسمى و عصر الولايات المعشر» ، وهو عصر من فوضي استمرت طوال النصف الأول من القرن العاشر ه ثم نشأت أسرة جديدة هي أسرة صنج (Sung) الشهالية (٩٦٠ – ١١٢٧) التي نشرت في البلاد ضرباً من الوحدة ، ولكنها ظلت مع ذلك في حالة كفاح مستمر مع عدد من الشعوب الهونية الزاحفة من الشهال ، والمضاغطة جنوباً على امتداد الساحل الشرق ، وجاء زمن تغلب فيه شعب من هولاء هم شعب الخيتان (Khitan). ولم يلبث هذا الشعب أن أخضيع في القرن الثاني عشر وأخلي مكانه لإمبراطورية وحد هو نية أخرى ، هي إمبراطورية الكن (Kin) التي جعلت عاصمتها بيكين وحد ها الجنوبي المواقعة جنوب نهر هوانج هو .

وتقلصت ظلال إمبر اطورية صنح أمام إمبر اطورية الكن هذه . وفى (١١٣٨) نقلت العاصمة من نانكين التى أصبحت عند ذاك شديدة القرب من التخوم الشهالية ، إلى مدينة هان تشاو على الساحل . وتعرف أسرة صنح منذ (١١٢٧) إلى (١٢٩٥) باسم صنح الجنوبية . وإلى الشهال الغربي من أراضيها ، كان هناك عند ذاك إمبر اطورية المسيا (Hisia) التتارية ، وإلى الشهال إمبر اطورية الكن ، وكان السكان الصيئيون



(شكل ١٤٥) خريطة أوربا وآيسيا حوالى ١٢٠٠ م

فى كلتا الدولتين تحت حكام ما تزال تقاليد المترحلين قوية الأثر فيهم . ومن ثم ترى أنه هاهنا فى الشرق كذلك ، كانت الجمهرة الرئيسية الغفيرة للبشرية الآسيوية تحت حكام من غير بنى جلدتهم ، كما كانوا على استعداد لقبول أى فاتح إن لم يبلغ بهم الأمر حد الترحيب به .

فأما شهال الهند فكان كما سبق أن لاحظنا أرضاً يحتلها الفاتحون عند مستهل القرن الثالث عشر. وكانت في مبدأ الأمر جزءاً من إمبراطورية خيوة ، ولكن حدث في (١٢٠٦) أن حاكماً مغامراً اسمه قطب (Kutub) – كان عبداً مملوكاً وارتقي حتى أصبح والياً على الولاية الهندية – أنشأ في دلهي دولة إسلامية منفصلة هي الهندوستان . وكانت البرهمانية كما سبق أن ذكرنا ، قد طردت البوذية من الهند منذ أمد بعيد ، على أن المعتنقين للإسلام كانوا ما يزالون أقلية حاكمة في البلاد .

تلك عجالة وجيزة عن حالة آسيا السياسية ، عند ما شرع چنكيز خان يوطك الله عجالة وجيزة عن حالة السياسية ،

دولته بين المترحلين فى القطر المحصور بين بحيرتى بلكاش وبايكال عند مفتتح القرن الثالث عشر .

٢ _ قيام المغول وانتصاراتهم

كانت سيرة فتوح چنكيز خان وخلفائه المباشرين مثار دهشة العالم ، ولعلها له تدهش أحداً أكثر مما أدهشت هؤلاء الخانات المغول أنفسهم .

كان المغول في القرن الثاني عشر قبيلة خاضعة لهؤلاء «الكن» الذين فتحوا شهال شرقي الصين. وكانوا قبيلة من الفرسان المترحلين يعيشون في خيام ، ويعتمدون في طعامهم بوجه رئيسي على منتجات لين الأفراس ولحومها . وكان الرعي والصيد عملهم الذي تدخل الحرب عليه شيئاً من التنويع . وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شهالا انتجاعاً للمراعي الصيفية ، كما ينتقلون مع الشتاء جنوباً إلى المراعي الشتوية على جارى عادة أهل السهوب . وابتدأ تدربهم على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على «الكن » . كانت موارد نصف الصين في قبضة إمبراطورية الكن ، وتعلم المغول أثناء الكفاح شيئاً كثيراً جداً مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية . وما وافت نهاية القرن الثاني عشر حتى أصبحوا قبيلة مقاتلة من طراز ممتاز .

وقد أنفق چنكيز الأعوام الأولى من حياته العملية فى النهوض بعدته الحربية وفى تمثّل المغول والقبائل المخالطة لهم والمحيطة بهم وإدماجهم جميعاً فى جيش واحد منظم . وقد وجه أول امتداد عظيم لسلطانه نحو الغرب ، وهناك استطاع الخان أن يضم قبيلتى القرغيز والبويغور (Uighurs) (۱) التتاريتين (وهما تولفان الشعب التتاري فى حوض التاريم) –

⁽۱) يظهر اليويغور لأول مرة فى القرن السادس ، حين كانوا يعرفون باسم الكاوكو (۱) للهم الكاوكو (Kao-Ku) أى العربات العالية وهم أحد فرعى الترك الرئيسيين فى منفوليا الشهالية وما حولها . وتغطى مدة عظمتهم واستقلالهم ما بين ٧٥٠ ــ ٥٥٠ م وهو زمان يقابل رفعة ومجد أسرة تانيج الشهيرة .

وبلغ اليويغور مستوى ثقافياً عالياً جداً ، وأظهرت البحوث الأركيولوچية الحديثة مقداراً ضمخاً من. الأدب والفن اليويغورى ، ومنها نعلم أن المسيحية والبوذية والمانوية كانت تمارس كلها في مملكتهم ، إذ كانوا يراعون أقصىغاية التسامح الديني علىحين كانت المانوية هي دين الدولة . وكان اليويغور على التحقيق هم أشد م

إلى جيشه عن رغبة واقتناع لا عن قهر وغلبة . وعندئد هاجم إمبراطورية الكن واستولى على پيكين (١٢١٤) . فانضم إليه شعب خيان الذين أخضعهم الكن منذ قريب وبذلك ضموا مقد راتهم إلى مقد راته ، فأسدوا إليه بذلك معاونة عظيمة جداً . فأما السكان الصينيون المستقرون فقسد استمروا فيما هم فيه من بذر البدور وحصد الحصاد والتبادل التجارى أثناء تغير السادة هذا دون الانضهام بثقلهم لأى من الطرفين .

ولقد سبق أن ذكرنا الإمبراطورية الخوارزمية القريبة العهد التي شملت التركستان وفارس وشالى الهند . كانت هذه الإمبراطورية تمتد شرقاً حتى قشْغر ، ولا بد أنها كانت تبدو من أكثر إمبراطوريات زمانها تقدماً وأملا في المستقبل . وقد أرسل چنكيز خان رسله إلى خوارزم وهو ما يزال مشتغلا بالحرب مع إمبراطورية الكن . وأقدمت خوارزم على قتل الرسل — وهي غباوة لا يكاد يصدقها عقل . ذلك أن

= جير ان الصين اشاليين حضارة ، و مع أن مملكتهم دمرتها (٥٨٠) قبيلة تركية شالية هي قبيلة القرغيز ، فإن اليويغور لم يختفوا من التاريخ بأي حال ، إذ أنا لا نبرح نجد حتى القرن الحامس عشر إمارات ودويلات يويغورية صغيرة تنشأ ، على حين أنه أثناء المدة كلها كان اليويغور يستخدمون بكثرة في القضاء الإسلامي - ويقومون في مصالح الحكومة بالتركستان بنفس الدور الذي لعبه الهندوس تجت حكم المغول في دلهي والهنغاليون أثناء المكم البريطاني بالهند .

وتحدثنا فترة تاريخ الشرن التى تبدأ بظهور جنكيز خان فى القرن الثالث عشر وتنتهى بفنح القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين ، عن قيام وسقوط عدد كبير من الأسرات التركية الحاكمة فى آسيا الوسطى والهند وفارس . ومن السجيب أن هدد الأسرات كان يؤسمها فى معظم الحالات رجال بدأوا حياتهم مماليك . وقد ورد هذا البيان الغريب التالى عن الأتراك فى مخطوط فارسى لم ينشر بمد ، يرجع إلى القرن الثالث عشر :

" من المعلوم الشائيم أن جميع الأجناس والطبقات ، تكون مكرمة محترمة وهي مقيمة بين ظهراني شعبها وفي بلادها ، ولكنهم عندما يغادرون بلادهم ، يصبحون تعساء أذلاء . والترك على نقيض ذلك ، فإنهم عندما يكونون بين بني جلدتهم ، يكونون مجرد قبيلة بين قبائل كثيرة ، ولا يستمتعون بأى قوة أو منزلة خاصة . ولكنهم عنسدما يغادرون موطنهم إلى دولة إسلامية - (وكلما ابتعدوا عن بلادهم وأقاربهم ، زادت قيمتهم رفعة وتقديرهم سموا) - يصبحون أمراء وقادة للجيوش . ولم يحدث منذ أيام آدم حتى العصر الحاضر أن أصبح مملوك مشترى بالمال ملكا قط إلا بين الأتراك ؛ ومن الأقوال المأثورة عن أفراسياب (Afrasyab) الذي كان ملكاً على الترك وكان خارقا العادة في حكمته وعلمه قوله ؛ « التركي أشبه شيء بلؤلؤة في صدفتها تحت أطباق الدباب ، لا تصبح ثمينة القدر حتى تغادر البحر وتزين تيجان الملوك وآذان الغواني » .

الحكومة الخوارزمية _ إن جاز أن نستعمل لغة اليوم السياسية _ رأت ألا تعررف بجنكبز خان وسلكت حياله ذلك المسلك الجرىء ، وعنسه ذلك (١٣١٨) اجتاح جيش الفرسان العظم الذي وطد أركانه چنكيز خان ونظمه ، هضبة اليامير وهبط إلى التركستان . كان جيشاً حسن العدة والسلاح ، والراجح أنه كانت معه بعض المدافع والبارود يستعملها في الحصار . ذلك أن الصينيين كانوا على التحقيق يستعملون البارود فى ذلك الزمان ، وأن المغول تعلموا استعاله منهم . فسقطت قشغر وخوقند وَبِخَارِي ثُم سمرقند عاصمة الإمراطورية الخوارزميــة . ومن بعاءها لم يعد شيء بالإمبراطورية الحوارزمية يستطيع صد المغول ، فاندفعوا غرباً نحو بحر قزوين ثم جنوباً حتى لاهور . وإلى الشهال من بحر قزوين التتى جيش مغولى بقوة روسية آتية من كييث . ونشبت بين الفريقين سلسلة من المعارك ، كسرت فيها الجيوش الروسية كسراً نهائياً ، وأخذ غرندوق كييڤ أسراً . وهكذا ظهر المغول على الشبواطئ الشمالية للبحر الأسود . وتولى الذعر القسطنطيلية ، التي وجهت كل جهدها إلى إعادة بناء تحصيناتها . وفي نفس الوقت كانت جيوش أخرى تشتغل بفتح إمراطورية هسيا في الصمن فألحقت هذه بمُلك المغول. ولم يبق من إمبراطورية الكن سليما غير مقهور إلا الجزء الجنوبي . وفي (١٢٢٧) مات چنكيز خان في أوج حياة حافلة بالنصر بعد أن أصبحت إمبراطوريته تمتد من المحيط الهادي إلى نهر الدنيير . وفوق ذلك فإنها كانت إمبراطورية لا تبرح رقعتها تتسع بقوة .

على أنها ، شأن كل الإمبر اطوريات التى أسسها المترحلون ، كانت قبل كل شىء إمبر اطورية عسكرية وإدارية بحتة ، وكانت هيكلا وإطاراً أكثر منها نظام حكم ه وكانت تتمركز حول شخصية العاهل ، وكانت علاقتها بكتلة الشعوب الذين تحكمهم مجرد علاقة ضرائب تجبى للإنفاق على القبيلة . على أن چنكيز خان كان قد دعا لمعاونته سياسياً عظيم الكفاية من مدبرى إمبر اطورية الكن واسع الحبرة عليا بكل تقاليد الصينيين ملماً بعلومهم . وقد استطاع هـــذا السياسي المحنك يليوتشوتزاى تقاليد الصينيين ملماً بعلومهم . وقد استطاع هــذا السياسي المحنك يليوتشوتزاى (Yeliuchutsai) أن يواصل إدارة شئون المغول مدة طويلة بعد وفاة چنكيز خان ، وليس هناك أدنى ربي في أنه من أعظم أبطال السياسة في التاريخ . فكم روض من شراسة

سادته وهمجيتهم ، وأنقذ من يد التدمير مدناً لا تحص ومنتجات فنية قيمة لا حصر لها . ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش ، ولما انهم بالرشوة ، ظهر أن كل ما فى حوزته من ثروة يتكون من الوثائق ومن بعض آلات موسيقية . وربما جاز أن ينسب إليه ، بقدر ما يعزى إلى چنكيز خان ، ما استمتعت به الأداة الحربية المغولية من كفاية . وربما جاز لنا أن ننبه الأذهان أيضاً أن آفاق آسيا بأكملها كان يسودها إبان حكم چنكيز خان أتم وأكمل أنواع التسامح الديني .

كانت عاصمة الإمبراطورية الجديدة عند وفاة چنكيز ما تزال هي مدينة قوم فورم المتبريرة العظيمة في منفوليا . وهناك انتخبت جمعية من زعماء المغول أوجاءاى خان ابن چنكيز خليفة له . فواصل المغول في عهده الحرب على بقايا إمبراطورية الكن ، حتى أخضعت إخضاعاً تاماً (١٢٣٤) . وكانت الإمبراطورية الصينية التي تحت حكم أسرة صنح في الجنوب عوناً للمغول في هذا العمل ، وبذا دمروا حصنهم الواقي الذي يمنعهم من الغزاة الفاتحين أعداء الطرفين . ومن ثم سارت الجيوش المغولية عبر آسيا إلى الروسيا لا تلوى على شيء (١٢٣٥) وهو زحف عسكرى رائع سأخذ بالألباب . فدمرت كييف (١٢٤٠) وأصبحت كل الروسيا تقريباً تابعة للمغول وتببت بولندة وخربت وأبيد جيش مختلط من البولنديين والألمان بمعركة ليجنيز (Liegnitz) في سيليزيا السفلي (١٢٤١) . ويبدو أن الإمبراطبر فردريك الثاني لم يقم بأي مجهود عظيم ليوقف ذلك السيل المنهمر .

يقول بيورى فى ملحوظاته على كتاب «اضمحلال الإمراطوريه الرومانية وسقوطها لجيبون »: « لم يحدث إلا فى العصر الحديث أن أخذ العالم الأوربي يفهم أن نجاح الجيش المغولي الذي اجتاح بولندة واحتل هنغاريا فى ربيع (١٢٤١) قد تم بفضل خطط استراتيچية بالغة غاية الكمال وأنه لم يكن واجعاً إلى مجرد تفوق عددى جارف ولكن هذه الحقيقة لم قصبح بعد من المعلومات الشائعة المعروفة للناس أجمعين . إذ لا يزال من الأفكار الشائعة بين الناس تلك الفكرة السوقية التي تتمثل التتار فى تاريخ الإسانية حا

صورة قبيلة ضارية متوحشة تجترف كل شيء أمامها بمحض كثرة العدد ليس غير ، وتركض بخيولها خلال أوربا الشرقية دون خطة استراتيچية مرسومة ، وتندفع من فوق كل عائق يعترض سبيلها وتتغلب عليه بمجرد الثقل العددى



(شكل ١٤٦) خريطة إمبراطۇرية چنكيز خان عند وفاته سنة (١٢٢٧)

« وكم كان من المدهش أن تنفاك في الوقت المحدد وفي قوة تأثير فعالة - ترتيبات القائد في عمليات حربية تمتد من المسستولا الأدنى إلى ترانسالفانيا . فمثل هذه الحملة كانت فوق طاقة أى جيش أوربي في ذلك الزمان ، وكانت وراء أحلام أى قائد أوربي . ولم يكن بأوربا ، ابتداء من فردريك الثاني فما دونه قائد لا يعد من المبتدئين الأنمار في فن القيادة الاستراتيجية بالقياس إلى سوبوتاى (Subutai) . كذلك يجب أن يلاحظ أن المغول قد أقدموا على هذا الأمر وهم على معرفة تامة بموقف ألمجر (هنغاريا) السياسي وظروف بولندة - وذلك لأنهم عنوا مقدماً بتعرف الأخبار بواسطة هيئة من الجواسيس حسنة التنظيم . على حين أن المجريين والدول المسيحية ، كانوا شأن المتبريرين الأشبه بالأطفال ، لا يكادون يعرفون عن أعدائهم شيئاً » .

ومع أن المغول انتصروا قرب ليجنتز ، فإنهم لم يواصلوا تقدمهم غرباً . وذلك لأنهم أخذوا يدخلون إلى أراضى غابات ومناطق تلال لم تكن لتوافق ما لديهم من تكتيك() حربي . ولذا عرجوا جنوباً وأعدوا عدة الاستقرار في بلاد الحجر ، وهم يذبي ون الحجريين ذوى قرباهم أو يتمثلونهم ، على طريقة تدانى ما أعله هؤلاء من اللبح والتمثل من قبلهم في الإسيكذيين والآ فار والهون المخلطين . والراجح أنهم كانوا يبغون أن يقوموا من السهل الهنغاري بالغارات غرباً وجنوباً كما فعل الهنغاريون في المقرن التاسع والآ فار في القرنين السابع والثامن والهون في الحامس . غير أن المغول كانوا في آسيا يحاربون أسرة صنج حرب غزو عنيفة ، وكانوا كذلك يغيرون على غارس وآسيا الصغرى ؛ ومات أوجداى موت الفجاءة ، وحدث في (١٢٤٢) نزاع خول ولاية العرش من بعده ، ودعاهم هذا الأمر إلى العودة إلى بلادهم . ولذا فإن الجيوش المغولية غير المقهورة أخذت تنساب راجعة عبر بلاد المجر ورومانيا محو الشرق .

ومن حسن طالع أوربا أن الحلافات على العرش فى قره قورم دامت هضع سنين، وبدت على هـــذه الإمبراطورية الهائلة الجديدة بوادر التصدع. وأخيراً أصبح ه مانكوخان » خانا أعظم فى (١٢٥١) ، فعين أخاه قوبلاى خان حاكماً عاماً على الصين. وأخضعت إمبراطورية صنج بأجمعها فى بطء ولكن فى غير تراخ، وبينا هى بسبيل الإخضاع ، كان المغول الشرقيون يتحولون أكثر فأكثر إلى صينيين فى ثقافتهم وطرائق عيشهم ، وغزا مانجو بلاد التبت وأعمل فيها تدميراً ، وغزيت فارس وسوريا بمنتهى الحد والهمة. وكان على إمرة هذه الحرب الأخيرة أخ آخر لمانكو هو هولاكو . فوجه جيوشه على الحلافة واستولى على بغداد ، وفى هذه المدينة تلوثت عداه بإعماله الذبح فى سكانها برمتهم . وكانت بغداد ما تزال عاصمة الإسلام الدينية . وكان المغول قد أصبحوا معادين للمسلمين عداوة مريرة . وزادت هذه العداوة من وكان المغول قد أصبحوا معادين للمسلمين عداوة مريرة . وزادت هذه العداوة من أوار الحلاف الطبيعى بين المترحلين وأهل المدن . وفى (١٢٥٩) مات مانكوخان وانتخب قوبلاى خاناً أعظم فى (١٢٦٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه وانتخب قوبلاى خاناً أعظم فى (١٢٦٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه وانتخب قوبلاى خاناً أعظم فى (١٢٦٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه وانتخب قوبلاى خاناً أعظم فى (١٢٠٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه

⁽١) التكتيك : فن أو علم تجريك القوات والمداورة بها في المعركة وفق مبادىء مقررة . (المترجم)

الإمبراطورية الهائلة من المجر و روريا والسند والصين قد استغرق شطراً كبيراً من سنة كاملة . ولمساكان قوبلاى من قبل عميق الاهتهام بالشئون الصينية ، فإنه اتخذ بيكن عاصمة له بدلا من قره قورم ، وأصبحت فارس وسوريا وآسيا الصغرى مستقلة فعلا تحت حكم أخيه هولاكو ، على حين أن قبائل المغول في الروسيا والمناطق الآسيوية المجاورة للروسيا وجماعات صغيرة مغولية متنوعة في التركستان ، قد أصبحت أيضاً منفصلة تقريباً . ومات قوبلاى (١٢٩٤) ، وبموته زالت كل سيادة للخان الأكبر حتى الإسمية منها .

وعند موت قوبلاى كانت هناك إمبراطورية مغولية رئيسية عاصمتها پيكين ، ثضم كل الصين ومنغوليا ؛ وثمة إمبراطورية مغولية عظيمة ثانية هي إمبراطورية القهچاق (Kipchak) في الروسيا ؛ وثم إمبراطورية ثالثة في فارس ، وهي تلك التي أسسها هولاكو ، وهي الإمبراطورية الإيلخانية (likhan) التي كان الآتراك السلجوقيون في آسيا الصغرى تابعين لها ، وكانت هناك دولة سيبيرية تقع بين القهچاق ومنغوليا ؛ ودولة أخرى منفصلة « تركيا الكبيرة » في التركستان . ومما هو جدير بالملاحظة بوجه خاص أن الهند فيا وراء البنچاب لم يغزها المغول أبدا أثناء تلك المدة ، وأن جيشاً بقيادة سلطان مصر دحر قطبغا قائد هولاكو في فلسطين دحراً تاماً (١٢٦٠) ، وحال دون دخولهم إلى إفريقية . وذلك أنه عند (١٢٦٠) كان دافع الغزو المغولي قد انحط عن ذروته . ثم يقع المغول من بعدها في غمرات الفرقة والاضمحلال .

ودامت أيام الأسرة المغولية التي أسسها قوبلاى خان في الصين ، وهي أسرة يوان من (١٢٨٠) إلى (١٣٦٨) . ثم تجدد من بعد ذلك نشاط المغول في غرب آسيا تجددا قدر له أن يوسس ملكية أرسخ قدماً وأطول عمراً في بلاد الهند . واكن كان الأفغان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هم سادة شهالي الهند وليس المغول ، وامتدت لهم إمع اطورية أفغانية حتى صميم منطقة الدِّكَنْ

۳ – رحلات مارکو پولو

لا جرم أن قصة الفتوح المغولية من أعجب القصص وأجدرها بالتنويه في موكب التاريخ بأكمله . وما تستطيع فتوح الإسكندر الأكبر أن تدانيها في العظم واتساع

المدى . كما أن أثرها فى نشر الأفكار بين الناس وتوسيع آفاقها وفى استنارة أخيلتهم كان هائلا ضخماً . ذلك أن آسيا وأوربا الغربية جميعا أقامتا زمانا وهما تستمتعان بالاتصال الحر والاختلاط المباشر ؛ وفتحت كل الطرق الموصلة بينهما فتحا موقوتا ، كما ظهر ممثلون لجميع الأمم فى بلاط قره قورم .

وأزيلت الحواجز الفاصلة بين أوربا وآسيا وهي التي نشأت عن الحلافات الدينية بين المسيحية والإسلام . وأخذت الآمال الكبار تداعب البابوات في تحويل المغول إلى المسيحية . وكانت ديانهم الوحيدة حتى ذلك الحين هي الشامانية(۱) وهي ضرب بدائي من الوثنية . وكان البلاط المغولي مسرحا اختلط فيه مبعوثون من لدن البابا وكهنة وذيون من الهند ، وحذاق صناع باريسين وإيطالين وصينين ، وتجار بيزنطيون وأرمن ، بموظفين من العرب وفلكيين ورياضين من الفرس والهنود . وإنا لنسمع وأرمن ، بموظفين من العرب وفلكيين ورياضين من الغول ومذابحهم ، ولكنا لا نسمع القدر الكافي عن استطلاعهم ورغبتهم في العلم . ولعل تأثيرهم في تاريخ العالم لم يكن بالغا جــدا بوصفهم شعبا مبتكراً خلاقاً بل بوصفهم نقلة للعرفان وحملة للمناهج بالغا جــدا بوصفهم شعبا مبتكراً خلاقاً بل بوصفهم نقلة للعرفان وحملة للمناهج والأساليب . فكل ما قد يستطيع المرء أن يحصل عليه من العلم بشخصيتي چنكيز وقوبلاي الغامضتين الرومانسيتين يحدو بنا إلى أن نوقر في أذهاننا الإنطباعة التي تقول بأن هذين الرجلين كانا عاهلين فهمين خلاقين بدرجة لا تقل عن الإسكندر الأكبر واللاهوتي الناشط والأمي في نفس الوقت .

هاءت جهود البعثات التبشيرية التابعة للبابوية فى منغوليا بالفشل والإخفاق. ذلك أن المسيحية كانت تفقد قدرتها على الإقناع. وما كان المغول يضمرون للمسيحية أن المسيحية عامل ه بل الواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر يفضلونها على الإسلام. على أنه كان من الجلى أن البعثات التبشيرية التى حلت ببلادهم كانت تستعمل ما استقر فى

⁽١) الشامانية : هي المعتقدات والمادسات الدينية التي كان عليها سكان آسيا الشهانية القدماء وتقوم على فكرة أن الخير والشر يمكن التصرف فيهما بوساطة السحر . (المترجم)

تعاليم يسوع من فوة ضخمة فى تزكية مدعيات البابا الجسام فى السيادة الدنيوية . لذا فإن المسيحية ـ وقد أتلفت على تلك الشاكلة ـ لم تكن تحوى من عناصر الجودة ما يجعلها مقبولة لدى الذهن المغولى . وربما جاز أن تروقهم فكرة جعل الإمراطورية المغولية جزءا من ملكوت الرب ، لا جعلها إقطاءا تابعاً لجماعة من القساوسة الفرنسين والإيطالين ، الذين كانت مدعياتهم ضخمة ، بمقدار ما كانت قدراتهم وآفاقهم ضعيفة هزيلة ، والذين كانوا آناً من صنائع إمبراطور ألمانيا ، وآناً ممن ينصبهم ملك فرنسا ، وآونة من ضحايا أحقادهم الصغيرة وغرورهم التافه .

فنى (١٢٦٩) أرسل قوبلاى خان إلى البابا بعثة كان من الواضح أن الهدف منها هو الوصول إلى وسيلة ما للتعامل المشترك مع المسيحية الغربية . فطلب أن يرسل البابا إلى بلاطه مئة من رجال ذوى علم ومقدرة ليضعوا أسس التفاهم بين الطرفين . ولكن بعثته وجدت عرش البابوية في العالم الغربي شاغراً وألفته منهمكاً في إحدى تلك المنازعات، التي يكثر اشتجارها في تاريح البابوية حول وراثة الكرسي البابوي . وظل منصب البابوية شاغراً سنتين كاملتين لا يشغله أي بابا . فلما آن تقلد المنصب أحد البابوات آخر الأمر ، أرسل راهبين من الدومينيك لينقلا إلى حكمه ودينه أقوى دولة في آسيا!!! . وقد هال هذين السيدين الفاضلين ما كان ينتظرهما من بعد الشقة ومتاعب السفر ، والتمسا منذ البداية المعاذير للتملص من المهمة .

على أن هذه البعثة العقيمة لم تكن إلا واحدة من بين عدة محاولات للاتصال ، ولكنها كانت على الدوام محاولات ضعيفة واهنة الروح ويعوزها ذلك المضاء النادى القاهر الذى كانت تتسم به البعثات المسيحية الأولى . وقد أرسل إنوسنت الرابع بالفعل بعض رهبان الدومينيل إلى قره قورم ، كذلك أرسل القديس لويس الفرنسي البعوث والمخلفات المقدسة بطريق فارس . وكان لدى مانكوخان عدد جم من النصارى النساطرة يقيمون في بلاطه ، كما أن مرسلين للبابا وصلوا إلى بيكين بعد ذلك فعلا ؛ فإنا نسمع عن تعين بعض القاصدين الرسوليين وأساقفة متنوعين في بلاد الشرق ، على أنه يلوح أن الكثيرين من هوالاء كانوا يفقدون شجاعتهم أو يفقدون

حياتهم قبل وصولهم إلى الصن . فكان هذاك قاصد رسولى بابوي فى پيكن فى المغولية (١٣٤٦) ، ولكن ياوح أنه كان مجرد دبلوماسى بابوى . ولما أن سقطت أسرة يوان المغولية (١٣٦٨) ، ذهب بسقوطها كل ما كان للبعثات التبشيرية من فرص ضئيلة مضمحلة ذهاباً لا رجعة له . وخلف بيت منج (Ming) بيت يوان ، وكان بيت منج أسرة شديدة النمسك بالقومية الصينية ، فأظهر فى بادئ الأمر عظيم العداوة للأجانب كافة . ولعلهم أحدثوا مذبحة أوقعوا فيها بالبعثات التبشيرية النصرانية . فإنا لا نعود نسمع بعد ذلك حتى العهد المتأخر لأسرة منج (١٦٤٤) إلا النزر القليل عن المسيحية فى الصين سواء منها الكاثوليكية أو اللسطورية . ثم بذلت محاولة جديدة تكاد تكون أكثر توفيقاً من سابقتها لنشر المسيحية الكاثوليكية فى الصين قام بها اليسوعيون (الحزويت) ، على أن هذه الموجة الثانية من البعثات التبشيرية وصلت الم الصين بحراً .

حدث في (١٢٩٨) أن شبت معركة بحرية بين الجنويين والبنادقة ، انهزم فيها الأخيرون . وكان بين الأسرى السبعة الآلاف الذين أسرهم الجنويون سيد من البندقية اسمه ماركو پولو . كان رحالة كبيراً معروفا بين أصدقائه عموما بشدة الميل إلى المبالغة . وقد اشترك في تلك البعثة الأولى التي أرسلت إلى قوبلاى خان ، غير أنه واصل السير على حين عاد الراهبان الدومينيكيان أدراجهما . وكان ماركو پولو هذا يقتل السأم وهو سجين في چنوة ، بأن يقص قصة رحلاته على مسامع كاتب بعينه اسمه رستتشانو المتعلقة بمدى ما في قصة رستشانو من صدق المطابقة للواقع . ولسنا نعرف على وجه النحقيق بأى لغة كتبت . ولكن لا يتطرق أي شك إلى الصدق العام الذي يكتنف هذه المتحقيق بأى لغة كتبت . ولكن لا يتطرق أي شك إلى الصدق العام الذي يكتنف هذه المتحقية ، التي أقبل الناس عليها أيما إقبال في القرنين الرابع عشر والحامس عشر ولا سيها كل من أوتي الذكاء المتوقد من الرجال . وكتاب « رحلات ماركو پولو » من أعظم كتب التاريخ . فهو يفتح أمام عين خيالنا رتاج عالم القرن الثالث عشر — يفتحها بصورة من القرن الذات شهد حكم فردريك الثاني وبدايات محاكم التفتيش — يفتحها بصورة القرن الذات شهد حكم فردريك الثاني وبدايات محاكم التفتيش — يفتحها بصورة

لا يبلغها أى تدوين تاريخي سطره مؤرخ . فإنه أدى بصفة مباشرة إلى اكتشاف أمريكا ،



ر شكل ١٤٧) خريطة الولإيات المغولية حوالى (١٢٨٠) م ورحلات ماركو پولو

يبدأ الكتاب بالحديب عن رحلة نقولو بولو والد ماركو وعمه مافيو بولو إلى الصين وكان هذان الرجلان تاجرين من البنادقة من ذوى المكانة يعيشان فى القسطنطينية ، وحدث فى زمن ما يقارب (١٢٦٠) أنهما رحلا إلى بلاد القرم ومنها إلى قازان ، ومن ذلك المكان المتحلا إلى بخارى ، حيث صادفا جماعه من رسل قوبلاى خان فى الصين موفدين إلى أخيه هولاكو فى فارس . وألح عليهما هؤلاء المندو بون آن يصحباهم لمقابلة الحان العظيم ، الذى لم ير قبل ذلك الزمان أى رجل من الشعوب اللاتينية . فواصلا سيرهما ، وواضح أنهما أحدثا وقعا حسنا جداً لدى قوبلاى ، ومالا صدره بالاهتمام بحضارة النصرانية . فحملهما الخان تلك الرغبة المتعلقة بطلب مئة من المعلمين والعلماء ، ويكونون رجالا أذ كياء ملمين بالفنون السبعة وقادرين أن يخوضوا حومات الحدل والنقاش ، ويستطيعون أن يثبتوا بشكل بين لعبدة الأصنام ومن اليهم من أقوام ، أن شريعة المسيح خير الشرائع » ، وهو الأمر الذى أشرنا إليه من فورنا .

على أنهما عندما عادا كانت المسيحية في دور من الفوضى لم يستطيعا معه إلا بعد سنتين أن يحصلا على التفويض بالرحيل إلى الصين ثانية في صحبة هذين الراهبين الدومينيكيين الجبانين . وأخذا معهما ماركو الصغير ، وإلى وجوده وإلى ما حل به من السأم فيا عقب ذلك من أسره في چنوة ، يرجع الفضل في حفظ هذه الذكريات والحبرات الممتعة وبقائها لنا .

ارتحل أفراد أسرة پولو الثلاثة بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، فيعلّهم في الرحلة السابقة . وكانت معهم لوحة ذهبية وأمارات أخرى من الحان العظيم ، لا بد أن وجودها سهل عليهم رحلتهم أيّما تسهيل . وكان الحان العظيم قد سألهم أن يجابوا معهم شيئاً من الزيت الذي يوقد في سصباح الناووس المقدس ببيت المقدس ومن ثم ذهب الجهاعة إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق قيليقية إلى أرمينية . وقد أوغلوا شهالا إلى هنذا الحد لآن سلطان مصر كان يغير في ذلك الزمان على الممتلكات الإيلخانية (١) . ومن أرمينية انحدروا في أرض الجزيرة حتى هرمز (Ormuz) على الخليج الفارسي ، كأنما كانوا يفكرون في القيام برحلتهم بحراً . والتقوا في هرمز بتجار من الهند . على أنهم لسبب ما لم يسافروا بالسفين ، بل اتجهوا بدل ذلك شالا بعترقين .الصحارى الفارسية ، ومن ثم بطريق بتلاخ إلى قشغر من فوق الهامير ، عمر بطريق قوطان ولنب نوو (٢) (مترسمين بذلك خطى يوان تشوانج) حتى وادى ثهر هوانج هو ومنسه إلى بيكين . ويسمى پولو مدينة پيكين باسم (كامبالوك) ؛ نهر هوانج هو ومنسه إلى بيكين . ويسمى پولو مدينة پيكين باسم (كامبالوك) ؛ كما يسمى الصين الشهالية باسم كاثاى (خيتان) ، والصين الجنوبية صين أسرة منج السابقة باسم « مانزى » .

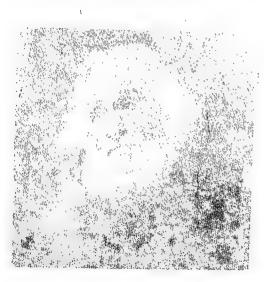
وكان الحان العظيم في پيكين ، فأقيمت لهم وليمة تجلى فيها كرم الضيافة . وسر قوبلاى من ماركو خاصة ، إذ أنه كان صغير السن ذكياً لبقاً ، وواضح أنه أتقن اللسان التترى إتقاناً تاماً . فأسند إليه منصب في الحكومة وأرسل في مهام عديدة ، وخاصة في الجنوب الغربي للصين . والقصة التي رواها تتحدث عن مساحات

⁽۱) الإيليخانية : أسرة مغولية حكمت فارس بين السنه والعراق وآسيا الصغرى فى القرنين ١٣ ، ١٤ م . (المترجم)

[.] ك المب نور (Lobnor) مجمموعة من البحير ات الضحلة في صحراء تكلامكان بالتركستان الشرقية . (المترجم)

منبسطة فسيحة من الأرض البسامة البادية الرخاء « حيث توجد على طول الطريق دور الضيافة للمسافرين » ، « وكرمات الأعناب البديعة والحقول والبساتين المونقة » « وعن أديرة كثيرة » ، « وعن رهبان بوذيين ، وعن صناعات للقماش المصنوع من الحرير والذهب ، وكثير من الديباج (التافتا) البديع ، وعن مجموعة لا آخر لها من المدن والبلدان الكبيرة وهلم جر » ، فأثارت في أوربا لأول وهلة رنة من عدم التصديق ، ثم ما لبثت أن ألهبت خيالها على بكرة أبيها

ثم إنه تحدث عن بورما ، وعن جيوشها العظيمة الحاوية مئات من الفيلة ، وكيف هزم ناشبة (۱) المغول هاته الحيوانات ، وكذلك حدثنا عن فتح المغول لهيجو (Pegu) . وتحدث عن اليابان مبالغاً مبالغة عظيمة في كية الذهب في ذلك القطر . وأدعم من هذا إلى العجب ، حديثه عن المسيحين وعن الحكام المسيحيين في بلاد الصين ، وعن شخص يعبنه هو القسيس يوحنا (Prester John) الذي كان « ملكاً » على شعب نصراني . فأما ذلك الشعب فإنه لم يره . والظاهر أنهم كانوا قبيلة من التر النسطوريين يسكنون منغوليا . والراجح أن عاطفة يمكن إدراكها وقهمها غلبت على رستشانو



(شکل ۱۱۸) مارکو پولو (تصویر تیتیان)

فجعلته يبالغ فى توكيد ما لا بد أنه لاح فى عينيه أعظم أعاجيب القصة جمعاء ، ومن ثم أصبحت قصة بريستر چون (القسيس يوحنا) من أعظم الأساطير إثارة للأذهان أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكان مما شجع روح الإقدام الأوربية نشجيعاً هائلا زعمهم أنه يوجد فى الصين تلك البلاد السحيقة البعد ، مجتمع من إخوانهم فى الدين ، مفروض أنهم مستعدون للترحيب بهسم وبذل العون لهم وظل ماركو متولياً حكم مدينة

⁽اللّه حد)

⁽١) الناشبة رماة النشاب وهو النمل .

بانيج تشو (Yang Chow) ثلاث سنوات ، والراجح أنه لم يختلف كثيراً كأجنبى فى نظر السكان الصينيين عن أى تتارى آخر . ولعله أوفد أيضاً فى بعثة إلى الهند . إذ تذكر السيجلات الصينية اسم شخص معين هو پولو تصفه بأنه ملحق بالمجلس الإمبراطورى فى (١٢٧٧) ، وهو مصداق ثمين جداً يثبت صحة قصة پولو بوجه عام .

استغرقت رحلة آل پولو إلى الصين زهاء ثلاث سنوات ونصف . وظلوا هناك قرابة ستة عشر عاما . ثم أخذ الحنين إلى الوطن يداخلهم . ذلك أنهم كانوا صنائع قوبلاى وموضع حمايته ، ولعلهم أحسوا أن إيثاره إياهم بالرعاية ربما جر عليهم غيرة وخيمة العاقبة بعد مماته . فالتمسوا منه الإذن بالرحيل إلى بلادهم فأبى عليهم ذلك ردحا من الزمان ، ثم سنحت لهم بعد ذلك فرصة . ذلك أن أرجون ملك فارس الإيذخاني وحفيد هو لاكو شقيق قوبلاى ، كان أرمل من زوجته المغولية ، ووعدها وهي على فراش موتها ألا يتزوج إلا مغولية من نفس قبيلتها . فأرسل السفراء إلى ييكين واختيرت له هناك أميرة موائمة ، وهي فتاة السابعة عشرة . ولكي يجينيوها عناء السيفر بالقوافل ، تقرر أن ترسل بطريق البحر مع الحاشية اللائقة . وطلب النبلاء المكلفون بمرافقتها أن يستصحبوا معهم آل پولو لأنهم رحالة مجربون وحكماء حصيفون ، واغتنم آل پولو هذه النهزة التي تتيح لهم ركوب الطريق المتجه وحكماء حصيفون ، واغتنم آل پولو هذه النهزة التي تتيح لهم ركوب الطريق المتجه لهل وطنهم .

أقلعت البعثة من مرفأ ما فى شرق الصين الجنوبية ؛ وأطالت المقام فى سومطرة وسجنوب الهند، ووصلوا إلى أرض فارس بعد رحلة دامت حولين . فسلموا الأميرة النشابة فى سلم الله إلى خليفة أرجون لل لوفاة أرجون قبل وصولهم وتزوجت الأميرة ابنه . وعند ذاك سار آل پولو بطريق تبريز إلى طرابيزون ، شم أبحروا إلى القسطنطينية وعادوا إلى البندقية قرابة (١٢٩٥) .

ويروى أن الرحالة العائدين وهم فى ثيابهم التبرية حيل بينهم وبين الدخول إلى منزلهم . وانقضى بعض الزمان قبل أن استطاعوا أن يثبتوا شخصيتهم . وكان الكثيرون عمن سلموا بأشخاصهم ، ما يزالون يميلون إلى أن ينظروا إليهم شزراً بوصفهم جوالين

حقراء ، ولكى يبددوا عن أذهان الناس مثل تلك الشكوك أقاموا وليمة عظيمة ، وعندما كانت الوليمة قائمة على ساق أمروافأحضرت لهم بدلاتهم القديمة ذات البطائن ثم صرفوا الحدم ، ثم شقوا تلك الثياب ، وإذا بمجموعة لا يصدقها عقل من الياقوت العادى والياقوت الأزرق (Sapphires) والعقيق الأحمر (البهرمان) والزمرد والماس » ، تنهال أمام أعين الضيفان المنبهرين . وحدث حتى بعد هذا كله أن قوبلت بيانات ماركو عن حجم الصين وسكانها بشيء من السخرية الخفية . وأطلق عليه أهل النكتة اسم « المليوني (IL Milione) » لأنه كان دائم الكلام عن الملايين من الناس والملايين من الحنهات الدوقية .

تلك هي القصة جعلت الناس يحملقون بعيونهم دهشا ، في البندقية بادئ بدء ثم في أقطار العالم الغربي كافة بعد ذلك . ويردد الأدب الأوربي وخاصة قصص الرومانس الأوربي في القرن الحامس عشر ، صدى الأسماء المذكورة في قصة ماركو پولو أمثال كاثاى وكامبالوك .

٤ - الأتراك العثمانيون والقسطنطينية

لم تكن رحلات ماركو بولو هذه إلا مقدمة لاختلاط جسيم جداً بين الشعوب. ومع ذلك ، فإنا قبل أن نواصل وصفنا للاتساع العظيم الذي ألم بآفاق أوربا الفكرية والذي أخذت تباشيره تبدو ، والذي كان لكتاب رحلاته عليه فضل جوهري ملموس جداً ، – نرى من المناسب أن نسجل هنا أولا نتيجة جانبية غريبة تمخضت عنها الفتوح المغولية العظيمة : تلك هي ظهور الأتراك العمانيين على ضفاف الدردئيل ، ثم نردف ذلك بأن نذكر في عبارة مجملة تقسيم إمبراطورية چنكيزخان إلى أجزائها العديدة وتطورات كل جزء منها .

كان الآتراك العيمانيون فئة صغيرة من اللاجئين فروا نحو الجنوب الغربي أمام غزوة چنكيز الأولى لبلاد التركستان الغربية . قطعوا ذلك الطريق المديد من آسيا الوسطى ، مخترقين الفيافى والجبال ومارين بأقوام أجانب عنهم لعلهم يعثرون على

أرض جديدة يستطيعون أن يستقروا فيها . يقول السير مارك سايكس : «ثلة صغيرة من رحاة أغراب يهيمون على وجوههم لا بردهم أحد ، ماضين بين الحملة الصليبية من ناحية والصليبية المضادة من ناحية أخرى ، وبين الإمارات والإمراطوريات واللاول . فأين كانوا يخيمون ؟ ، وكيف كانوا يتحركون ويحافظون على قطعانهم ورعلانهم ؟ وأين كانوا يجدون الكلا ؟ وكيف كانوا يحافظون على السلم مع الرؤساء المتنوعين الذين كانوا يخترقون أراضيهم ؟ تلك أسئلة يجوز للإنسان أن يتساعلها متحراً » .

وأخيراً عثروا على مستقر لهم وعلى جيران من ذوى قرباهم وممن يشاكلونهم في الطبيعة والمشرب على هضاب آسيا الصغرى بين ظهرانى الأتراك السلجوقيين . وكان غالب هذا القطر الذى هو بلاد الأناضول العصرية قد أصبح آنذاك تركيا لغة مسلما ديناً ، فيا عدا وجود نسبة كبيرة من الروم واليهود والأرمنيين بين سكان المدن ولامرية في أن النبعات (١) المتنوعة الموروثة عن الحشيين والفريجيين والطرواديين والليديين والإغريق الأيونيين والسمتريين والغلاطيين والإيطاليين (من أزمان برجامة) كانت ما تزال تسرى في دماء الناس ، بيد أنهم نسوا من أمد بعيد تلك العناصر السلفية القديمة . على أنهم كانوا في واقع الأمر نفس الحليط المكون من بيض البحر المتوسط الداكنين (٢) القدماء ، والآريين النورديين والساميين والمغول ، وهو الحليط الذي كان عليه سكان شبه جزيرة البلقان ، بيد أنهم كانوا يظنون أنفسهم شعباً طورانياً خالصاً متفوقاً تفوقاً تاماً على المسيحيين في الضفة المقابلة من البسفور .

وازداد الآتراك العثمانيون أهمية شيئاً فشيئاً ، حتى آلت إليهم آخر الأمر السيادة على الإمارات الصغيرة التي تمزقت إليها الإمبراطورية السلجوقية أى إمبراطورية الروم ، . وظلت علاقاتهم مع إمبراطورية الفسطنطينية المتقلصة علاقات عداء يشوبها شيء من التسامح . فلم يقوموا بأى هجوم على البسفور ، ولكنهم انحذوا لأقدامهم فى أوربا على الدردنيل موطئاً ، فاستخدموا هذا الطريق ــ وهو طريق إجزرسيس وليس

⁽١) النعبة : هي الأصل والنسل والعترة. ﴿ (المترجم)

⁽ ٢) الداكنين : وردت لفظة الأبيض الداكن في مواضع كثيرة بهذا الكتاب ومعناها الفي لأبيض الضارب إلى السمرة قليلا ، الأسود الشعر والعينين . (المترجم)

طريق دارا ... ثم دأبوا يشقون طريقهم متوغلين فى مقدونيا ولمپيروس والليريا ويوغوسلاڤيا وبلغاريا .

ووجد الأتراك في الصربيين (اليوغوسلاف) والبلغار أقواماً شديدى الشبه بهم في الثقافة ، كما وجدوهم فيا يرجع شديدى الشبه بهم في جنسهم المخلط عنصرياً وإن ثم يدرك أى من الطرفين ذلك ، مع فارق بسيط هو أن دماءهم كان يخالطها من نبعة البحر المتوسط الداكنة والنبعة المغولية قدر أقل مما لدى الترك كما يخالطها قدر أكبر قليلا من العنصر النوردى. بيد أن هؤلاء الشعوب البلقانية كانوا مسيحين تفرق بينهم الانقسامات تفريقاً مريراً . وكان الترك على النقيض من ذلك يتكلمون بلسان واحد ، وكان لديهم شعور أعظم بالوحدة وفيهم عادات المسلمين من عدم تناول المسكرات والقصد في الطعام ، كما كانوا في مجملهم جنوداً أفضل . فأدخلوا في ديبهم الإسلامي كل من استطاعوا إدخاله من أفراد الشعوب التي غزوا ، ونزعوا سلاح المسيحيين واختصوهم دون غيرهم بدفع الضرائب. وما لبث الأمراء العمانيون أن وطدوا شيئاً فشيئاً أركان إمبر اطورية امتدت من جبال ظوروس شرقاً حتى حدود هنغاريا ورومانيا في الغرب . وأصبحت أدرنة كبرى مدائهم . وأحاطوا من كل صوب بإمبر اطورية القسطنطينية المتقلصة . ولم تكن القسطنطينية في ذلك الزمان هي حصن أوربا الواقي ودعامها ، وإنما كانت الدعامة هي المجر ؛ فقد استوطنها شعب تركي مسيحي دافع عن أوربا ضد الأتراك المسلمين .

ونظم الأتراك قوة عسكرية مستديمة ، هي الانكشارية (Janissaries) على أساس أشبه ما يكون بسلك الماليك الذين سيطروا على مصر.

«كانت هذه الجيوش تتكون من مجندة من الفتيان المسيحيين لا يرتفع عددهم عن ألف فى كل عام ، وكانوا يُضمون إلى طائفة الدراويش البكتاشية ، ومع أنهم كانوا فى البداية لا يجبرون على اعتناق الإسلام ، فإنهم كانوا بأجمعهم يصبغون صبغاً قوياً بالفكرات الصوفية ومبادى الأخوة التى تعتنقها الجهاعة الدينية التى كانوا يلحقون ها . هولاء الانكشارية الذين كانوا يتقاضون أجوراً عالية وينظمون تنظيا جيداً

ويشكلون جماعة سرية متماسكة غيورة ، أمدوا الدولة العثمانية الحديثة التكوين بقوة وطنية النزعة من الجنود المشاة المدربين ، كانت تعد ثروة لا تُتقوَّم بمال فى عصر سادت فيه الراكبة (الخيَّالة) الخفيفة وفرق المرتزقة المأجورة...

« وكانت العلاقات بين السلاطين العثمانيين والأباطرة فريدة في نوعها في تاريخ الدولة الإسلامية والمسيحة . فإن الترك قد أقحموا في المنازعات العائلية وخلافات الأسرة المالكة في المدينة الامبراطورية ، كما كانت تربطهم بالعائلات الحاكمة وشائج رحم وقربى . وكنيراً ما كانوا يقدمون الجنود للدفاع عن القسطنطينية ، وكانوا يستأجرون أحيانا فريقاً من جنود حاميتها ليساعدوهم في حملاتهم المتنوعة ، يل لقد بلغ الأمر أن رافق أبناء الأباطرة ورجال السياسة البنزنطيون الجيوش التركية في ميادين القتال ، ومع ذلك فإن العثمانيين لم يكفوا قط عن أن يلحقوا بممتلكاتهم الأراضي والمدن الإمبراطورية في كل من آسيا وتراقياً]. وكان لهذا الاختلاط العجيب بين بيت آل عَمَّان والحكومة الإمبراطورية أثره العميق في كل من النظامين : فإن الروم ازدادوا ضعة على ضعة وانحلالا خلقياً على انحلال بسبب التقلبات والحيل التي اضطرهم إلى اللجوء إليها ضعفهم العسكرى حيال جيرانهم ، ودب الفساد إلى الترك مما حولهم من جو أجنبي مشبع بالمؤامرات والخيانات التي تسللت إلى داخلية حياتهم . وكانت عاقبة ذلك أن قتشُل الآخ لأخيه والإبن لأبيه وهما الجريمتان اللتان غالباً ما لطختا تاريخ القصر الإمبر اصورى ، ما لبثتا أن صارتا جزءاً من سياسة الأسرة المالكة العبَّانية . فإن أحد أبناء مراد الأول ينخرط في مؤامرة أندرونيكوس ابن الإمبراطور الرومى ليقتل كل منهما أباه .

« وكان البيز نطى يجد التفاوض مع الباشا العثمانى أيسر من التفاوض مع البابا . وظل الترك والبيز نطيون أعواماً طوالا يتزاوجون ويتآخون معاً فى تصيدهم فى مياه التيارات الملتوية للديبلوماسية والمؤامرات . وكان العثمانيون قد حرشوا البلغار والصرب فى أوربا بالإمبراطور ، على نفس النسق الذى أثار به الإمبراطور الأمراء الآسيويين على السلطان ، وكان الأمراء الملكيون (: أولياء العهد) من الأروام والأتراك يتعاهدون فيا بينهم على أن يحتفظ كل منهم بمنافسي الآخر أسرى ورهائن ؛ والواقع أن

السياسة التركبة والبيزنطية بلغت من التشابك والالتفاف بعضها ببعض حداً يعسر علينا إزاءه أن نقول هل كان الترك يعدون الروم حلفاء لهم أو أعداء أو رعايا . وهل كان الروم ينظرون إلى الأتراك بوصفهم الطغاة المستبدين بهم أو المدمرين للم أو الحاة(١) ؟ . . » .

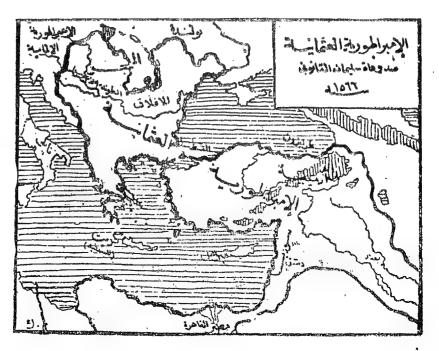
وسقطت القسطنطينية آخر الأمر بيد المسلمين في ١٤٥٧ إبان حكم السلطان محمد الثاني . فإنه هاجمها من الجانب الأوربي ، وبقوة عظيمة من المدفعية . فقتل الإمبراطور الرومي وعظم النهب وكثر الذبح ، ونهبت كنوز الكنيسة العظيمة كنيسة القديسة صوفيا التي بناها چستنيان الكبير (٣٢٥).، وحولت على الفور إلى مسجد . فبعث هذا الحادث موجة هياج شديدة تردد صداها في كل أرجاء أوربا ، وبذلت بعض الجهود لتنظيم حرب صليبية ، ولكن أيام الحرب الصليبية كانت ولتت .



يقول السير مارك سايكس : «كان فتح القسطنطينية لدى الترك نعمة توجت مفرقهم ولكنه كان إلى ذلك ضربة قاضيية . فإن القسطنطينية كانت معلم الترك

Sir Mark Sykes, "The Caliphs' Last Heritage" (1)

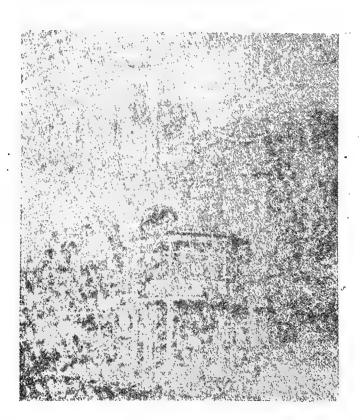
ومهذبهم . فطالماكان الميانيون يستطيعون أن يستقوا العلوم والمهارف والفلسفة والفن والقسامح من نبع للمدنية جياش زاخر بالحياة في صميم بمتلكاتهم ، لم يكن لهم (أعنى العيانيين) القوة الوحشية فحسب بل القوة الذهنية أيضاً . وطالما كان الإمراطورية العيانية في القسطنطينية مرفأ حر ، وسوق ومركز للمالية العالمية ومتجمع مركزى للملاهب ومتبادل للتجارة (بورصة) لم يعوز الميانيين قط المال والعون المالي . وكان عمد الثاني من عظاء رجال السياسة . فما أن دخل القسطنطينية حتى شرع يحاول اليقاف الأضرار التي سببها مطامعه ، فناصر البطرير في وأرضى الروم ، وبذل كل ما في وسعه لنظل القسطنطينية كما كانت لعهد الأباطرة . . . ولكن الخطوة القاتلة كانت تمت ؛ فإن القسطنطينية بوصفها مدينة السلاطين لم تعد هي القسطنطينية بأية حال ، إذ ماتت الأسواق وفرت الثقافة والمدنية وذوت المالية ذات العمليات المعقدة وتوارت عن الأبصار ، وفقد الترك حكامهم وعضدهم القوى . ومن الناحية الأخرى استمرت مفاسد برزطة ، فأما البيروقراطية والحصيان وحراس القصر والجواسيس



(شكل ١٥٠) خريطة الإمبراطورية العثمانية عند وفاة سليمان القانونى سنة ١٥٦٦ تاريخ الإنسانية جـ٣

والرشاة والوسطاء ، فإن العَيَّانِين اتخلفوا هؤلاء جميعاً لأنفسهم ، وظل هؤلاء جميعاً أقوياء زاخرين بالحياة . لقد أضاع الأثراك باستيلائهم على اسطنبول كنزآ ثميناً وأخذوا فى مقابله وباء وبيلا » .

وما كانت أطاع محمد لتقنع بفتح القسطنطينية . فإنه شخص ببصره كذلك إلى روما . فاستولى على مدينة أو رنتو الإيطالية و نهمها . وكان شبه الجزيرة منقسها على نفسه . والراجح أن ما أعده من عدة قوية لفتحها كان سيكلل بالنجاح ، لولا أن وافته منيته في ١٤٨١ . اشتبك أبناؤه من بعده بنزاع يقتل فيه الأخ أخاه . وفي عهد خلفه بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٧) حملت رحي الحرب إلى بولندة ، وفتحت معظم بلاد اليونان . فأما سليم (١٥١٢ - ١٥٢٠) ابن بايزيد ، فإنه وسع الدولة



(شكل ١٥١) داخل كنيسة سانت صوفيا وقد غلت النقوش العربية الفسيفساء الأصلية

العمانية بضم أرمينية وفتح مصر . وكان آخر الخلفاء العباسيين يعيش في مصر في رعاية سلطان المماليك ، ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت شيئاً أصبح في ذمة التاريخ ، فاشترى سليم لقب الخلافة من هذا العباسي الأخير المنتكس ، واستولى على الراية المقدسة وغيرها من المخلفات النبوية . وبذا أصبح السلطان العماني أيضاً خليفة الإسلام كله . وخلف سليما ابنه سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦) ، الذي فتح في الشرق بغداد وفتح في الغرب معظم بلاد الحجر ، وكاد أن يستولى على فيينا ، وكانت المجر في موهاكس (١٥٢٦) وقتل فيها ملك الحجر ، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدى في موهاكس (١٥٢٦) وقتل فيها ملك الحجر ، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدى في موهاكس (١٥٢٦) وقتل فيها ملك الحجر ، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدى في موهاكس (١٥٢٦) وقتل فيها ملك الحجر ، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدى في مؤائم كثيرة . وكان في أثناء معظم حروبه مع الإمبر اطورية متحالفاً مع الفرنسيين . وبلغت الدولة العمانية في عهده أوج عظمها

٥ ـ لماذا لم يعتنق المغول المسيحية

لنظر الآن نظرة موجزة عجلى إلى التطورات التى ألمت بعد ذلك بالأجزاء لكبرى لإمبراطورية الحان الأعظم . ولم تفلح المسيحية قط فى الاستيلاء على أخيمة هاته الدول المغولية لأن المسيحية كانت فى دور إفلاس خلتى وذهنى ، لا يجمع أشتامها البتة أى رابط من إيمان أو همة أو شرف ، وقد سبق أن أخبرناك حديث هذين الراهبين الدومينيكيين التعسين الرعديدين اللذين بعث بهما البابا جواباً على طلب قوبلاى خان ، كما لاحظنا الإخفاق العام الذى ظل يصيب البعثات التى أرسلت مرا فى أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فإن تلك الروح الرسولية الحارة التى كانت تستطيع أن تضم إلى ملكوت السموات شعوباً بأكملها قد ولت من الكنيسة .

و في (١٣٠٥) - كما سبق أن ذكرنا - أصبح البابا وهو الحبر الأعظم رهينة في قبضة الملك الفرنسي . فكأن كل ما لجأ إليه الباباوات من محاتلات وما دبروا من سياسة في القرن الثالث عشر لاستبعاد الإمبراطور من إيطاليا ؟ لم تتمخض إلا عن حلال ملك فرنسا محله . واستمر الباباوات في أثنيون من (١٣٠٩) إلى (١٣٧٧) ؟

وعند ثد لم يكن الجهد الضئيل الذي بدلوه في إرسال البعوث التبشيرية ، إلا مجرد جزء من الحطط الاستراتيجية التي رسمتها السياسة الأوربية الغربية . وفى (١٣٧٧) استطاع البابا جريجوري الحادي عشر أن يعود فعلا إلى روما وأن يبقى بها حتى آخر حياته ، ولكن الكرادلة الفرنسيين انشقوا عن إخوابهم عنسد انتخاب خلفه ، وكانت نتيجة ذلك أن انتخب اثنان من الباباوات ، أحدهما في أثمنيون والثاني في روما . واستدام هذا الانقسام المسمى بالصدع العظيم (١) من (١٣٧٨) إلى روما . وكان كل بابا يلعن الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره . تلك هي حال المسيحية يومئذ . . وهو لاء هم حملة تعاليم يسوع الناصري ! ! كانت آسيا كلها ناضجة دانية القطوف ولكن يدا لم تمتد إليها لتجني ثمارها .

حتى إذا عادت إلى الكنيسة وحدتها آخر الأمر وتجددت فيها طاقتها على إرسال البعثات الدبنية بإنشاء جماعة الجزويت ، كان أوان النهزة قد فات . وولى معه كذلك كل احتمال لتوحيد الشرق والغرب بوساطة المسيحية . فتحول المغول في الصين وآسيا الوسطى صوب البوذية ، واعتنقوا الإسلام في جنوب الروسيا والتركستان الغربية والإمبراطورية الإيلخانية .

٦ ــ أسرتا يوان ومينج في الصين

كان المغول فى الصين متشبعين آنفا بالحضارة الصينية يوم اعتلى قوبلاى عرشه . فبعد (١٢٨٠) تعالج كتب التاريخ الصينية « قوبلاى » بوصفه عاهلا صينيا ، ومؤسسا لأسرة يوان (١٢٨٠ – ١٣٦٨) . ثم شبت حركة قومية صينية خلعت هذه الأسرة المغولية آخر الأمر وأقامت أسرة منج (١٣٦٨ – ١٦٤٤) ، وهي سلالة من أباطرة مثقفين ذوى نزعة فنية ، حكموا البلاد حتى فتحها شعب شمالى ، هو شعب المانشو – وهم نفس شعب الكن الذين هزمهم چنكيز – وأسسوا أسرة مالكة لم تتخل عن السلطان إلا لحكومة أهلية جهورية في ١٩١٧ .

وأسرة المانشو هي التي أجبرت الصينيين على إرخاء ضفائر المانشو إشارة إلى (١) الصدع العظيم أو الانشقاق العظيم (١٠) الصدع العظيم أو الانشقاق العظيم

الخضوع . وعلى ذلك يكون الصينى ذو الضفيرة شخصاً حديثاً تمام الحداثة فى التاريخ. ثم لم تعد الضفائر إجبارية منذ عهد الجمهورية ، كما أنها اليوم مجهولة معدومة أو تكاد . .

إن هذه التغيرات السياسية التي حدثت بالشرق الأقصى والتي ترى لزاماً علينا أن للحظها بمثل هذا الإيجاز هاهنا سارت في طريقها فوق سطح حياة تمدن زاخرة بالوفرة . وكان من دأب الفن الصيني على الدوام أن يختار أوساطاً (Media) هشة قابلة للفناء ، ولذا فليس في حوزتنا من المادة التي تشهد بالتقدم الذي الذي كان في زمن أسرقي صنج ويوان ، ثروة ضخمة مثل تلك الباقية عن فن أوربا المعاصرة لها الذي كان أدنى في التطور كعباً . ولكن القدر الذي في أيدينا كاف لإقناعنا بالصفة الفنية الممثازة لللك العصر . ومع أن أسرة صنج تسجل عصر تراجع سياسي حدث نتيجة لضغط قوى الحيتان والكن والهسيا ، فإنها لفترة نشاط فني عظيم . والناس يتحدثون بأن فن التصوير الصيني وصل إلى أعلى مستوياته في عهد أسرة صنج الحنوبية . كتب المستر لورنس بنيون يقول : « إنها لفاخرة في الفنون فاخرة في الفلسفة ، تلك المدة التي تقف من آسيا في التاريخ موقف عصر پريكليس من أوربا . . فني هيام كلف تقي أمواه البحيرة وطيران الأوز البرى عن أحراش بالطبيعة لا يضارعه قط في أوربا أي كلف حتى أيام وردس ورث(١) ، صور فنانو أسرة صنج جذام بالجبال والمضباب والسيول الغامرة وطيران الأوز البرى عن أحراش القصب ، وأحلام الحكماء سابحين في نجواهم تحت ضياء القمر في الغابات وصائد السمك جالساً في زورقه على أمواه البحيرة أو الجدول » .

وظل دافع أسرة صنح فى التصوير مستمراً بلاانقطاع ولا تغيير جوهرى حتى نهاية أسرة يوان ، حتى إذا ابتدأ حكم أسرة منج ظهر معه قدر معين من الضعف والتنميق . ونحن إنما نصل بظهور أسرة منج إلى فترة خلفت لنا آثاراً وفيرة . إذ يتبقى عنها كثير من الحفر على الحشب والعاج ، وسلاطين حفر فى الكهرباء الأسدود

⁽۱) وليم ورهس ورث (Wordsworth) : (۱۷۷۰ – ۱۸۰۰) شاعو انجليزی عشق الطبيمة حتى بلغ هيامه بها حد العبادة . (المترجم)

حجر اليشم) والبلور الصخرى وعدد وفير من مصنوعات البرونز الممتازة . وإن الشوارع المحفوفة بالتماثيل الحجرية الهائلة والمؤدية إلى قبور أسرة منج ، لمعروفة ذائعة الصيت وإن لم تمثل بأى حال خير النحائت الصينية . وما لبث فن الحفر الصيني أن غزته على التدريج نوبة من المبالغة في التنميق حتى اختنق آخر الأمر تحت وابل من الأفاعين (۱) والأزاهير والأشكال الرمزية .

يقول وليم برتون: «ومع أن خزفاً ممتازاً جديراً باسم البورسلان ، كان يصنع في زمن يرجع في تقدمه إلى عصر أسرة تانج. فإن أقدم ما لدينا من خزف البورسلان الصيبي يرجع إلى عهد أسرة صنج ». وقد شرع البورسلان أن يتخذ طريقه غرباً مع الحرير ، ويسجل التاريخ أن صلاح الدين أرسل هدية من أربعين قطعة منه إلى سلطان دمشق . ويمجىء أسرة منج تلقت صناعة الحزف دافعاً منها هو الرعاية الإمبراطورية المباشرة وتطورت في نشاط ونجاح خارقين للمعتاد . وأخذ الصناع في استخدام الحليات المصبغة . وكان أن وصل الصينيون في القرن الحامس عشر إلى أبدع أنواع البورسلان الخرم ، الأزرق والأبيض . وثمة البورسلان البديع إبداعاً لا يصدق ، وهو البورسلان المخرم ، والبورسلان الرائع ذو اللون الأحمر المغطى يالصقال (under glaze red) وهما من بين مفاخر هذا العصر ، الذي هو العصر الذهبي للخزف الصيبي .

٧ ــ المغول يرتدّون الى الروح القبلية

حدث فى هضبة الهامير ، وفى قسم كبير من التركستان الشرقية والغربية ، وإلى الشيال من ذلك ، ان المغول انحدروا ثانية إلى حال البداوة القبلية التى رقعهم عنها چنكيز . ومن اليسير علينا أن نتعقب إلى ما يكاد يدانى زماننا هذا تضاول شأن كثير من الحانات الصغار أثناء تعاقبهم على الملك ، منذ استقلوا فى غضون تلك الفترة ، وأسس القلموق إمبر أطورية ضعخمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولكن

⁽١) الأفاعين جمع أفعوان . (المترجم)

المنازعات بين أفراد الأسرة المالكة حطمت تلك الإمبراطورية قبل أن تتجاوز رقعتها آسيا الوسطى . واسترد الصينيون منهم التركستان الشرقية قرابة (١٧٥٧) .

وزادت التبت ارتباطاً بالصين ، وأصبحت المثابة العظيمة للعقيدة البوذية والرهبانية البوذية . وما يزال التمييز القديم بين الرحل والمستقرين مستمرا إلى اليوم في معظم آسيا الوسطى الغربية وفارس وأرض الجزيرة . فإن سكان المدن يستعلون على المترحلين ويغشونهم ، كما أن الرحل يسيئون إلى أهل الحضر ويحتقرونهم .

٨ ــــ إمبراطورية القبيجاق و قيصر موسكوڤيا (الروسيا)

طل مغول مملكة القهيجاق العظيمة رحلا يرعون ماشيتهم عبر السهول الفسيحة في جنوبي الروسيا وغرب آسيا الغربية المتاخم للروسيا و وأصبحوا مسلمين غير تامي الإخلاص للإسلام محتفظين ببقايا كثيرة لشامانيتهم المسجية القديمة . وكان خان والحشد الذهبي » هو الحان الأعظم بيهم . وإلى الغرب وفوق أجزاء عظيمة من الأرض البراح ، وعلى الأخص فيا يعرف الآن باسم أوكرانيسا ، ارتد السكان القدامي الإسكيذيون ، وهم من الصقالبة الذين يخالطهم شيء من الدم المغولي ، إلى حياة ترحل مشابهة لهذه . فهولاء الرحل المسيحيون ، أي هولاء العوزاق ، كونوا على الحدود ضد التر ضرباً من الستار الواقى وبلغ من جاذبية حياتهم الحرة الطليقة المليشة بالمخاطرة واستهوائها لأفئدة فلاحي بولندة وليتوانيا ، أن اضطرت الحكومات إلى إصدار القوانين الصارمة لمنع حدوث هجرة واسعة النطاق من أرض المحراث إلى أرض السهوب و ولهذا السبب صارملاك هجرة واسعة النطاق من أرض الحراث إلى أرض السهوب و ولهذا السبب صارملاك الأراضي أصحاب موالى الأرض (Seris) في بولندة ينظرون إلى القوزاق ، كثرتها بين الغراضي العداوة والحقد ، وكثرت الحروب بين الفروسية البولندية والقوزاق ، كثرتها بين العداوة والحقد ، وكبرت الحروب بين الفروسية البولندية والقوزاق ، كثرتها بين العداوة والحقد ، وبين الترو بين التروسية البولندية والقوزاق ، كثرتها بين العداوة والحقد ، وبين الترو بين المروسية البولندية والقوزاق ، كثرتها بين

وبينهاكان الرحمّل في إمبر اطورية القبيجاق كما بلاد التركستان إلى مايكاد يدانى العصر الحاضر ، يضربون في الأرض فوق متسعات فسيعة ، كان هناك عدد من

المدن والأقاليم الزراعية التي يسيش عليها سكان مستقرون ويدفعون في العادة الجزية لخان المترحلين. فني مدن من أمثال كييڤ وموسكو وما إليهما كانت حياة السكان المسيحيين المدنيين الموجودة قبل المغول لا تزال مستسرة تحت حكم دوقات من الروس أو ولاة من التنتار ، ممن كانوا يجمعون الجزية لخان «الحشد اللهمي . . واكتسب غراندوق موسكو ثقة الخان ، وارتفع شأنه شيئاً فشيئاً تحت سلطان الخان حتى ساد كثيراً من زملائه الأتباع . وفي القرن الخامس عشر نبذت موسكو تحت حكم غراندوقها إيڤان الثالث وهو إيڤان الكبير (١٤٦٢ -- ١٥٠٥) ولاءها للمغول وأبتُ أن تدفع الجزية بعد ذلك (١٤٨٠) . ولم يعد خلفاء قسطنطين يحكمون فى القسطنطينية فى ذلك الزمان ، فاستولى إيثان على النسر البيزنطي ذى الرأسين واتخذه شارة له . وادعى أنه وارث بيزنطة بسبب زواجه (١٤٧٢) من الأميرة زوية پاليولوجوس (Zoe Palaeologus) وهي من السلالة الإمبراطورية . وهاجنت هذه الغراندوقية المسكوقية الطموحة جمهورية أهسل الشمال التجارية بنوفجورود إلى الشمال منها وأخضعتها ، وبذا أرسيت أسس الإمىراطورية الروسية العصرية ، وأنشئت حلقة انصال تربطها بالحياة التجارية في عر البلطيق . على أن إيفان الثالث لم يدفع ادعاءه بوراثة حكام القسطنطينية المسيحيين إلى حد اتخاذ اللقب الإمبراطورى بل خطا هذه الخطوة من بعده حفيده ، إيثان الرابع (وهو إيثان الملقب بالرهيب لقساوته الجنونية (١٥٣٣ – ١٥٨٤) . ومع أن حاكم موسكو وصل بذلك إلى التلقب بلقب القيصر (Tsar) ، فإن تقاليده كانت في كثير من الأوجه تتارية أكثر منها أوربية . كان مستبدآ على النسق الأسيوى المطلق السلطان ، وكانت المسيحية التي اتخذها هي الشرقية الأرثوذكسية التي يسيطر عليها البلاط ، والتي وصلت إلى الروسيا قبل الفتح المغولي بزمن مديد على يد مبشرين من البلغار جاءوا من القسطنطينية .

وإلى الغرب من ممتلكات القيمياق خارج مجال الحكم المغولى قام فى بولندة مركز ثان لممّاسك الصقالبة أثناء القرنين العاشر والحادى عشر. أجل اكتسحت الموجة المغولية بولندة ، ولكنها لم تخضعها قط. ولم تكن بولندة أرثوذكسية بل كانت عقيدتها هى الكاثوليكية ، وكانت تستعمل أحرف الهجاء اللاتينية بدل الأحرف الروسية الغريبة ،

ولم يتخذ عاهلها قط سمة الاستقلال المطلق عن الإمبراطور. والواقع أن بولندة كانت من حيث أصولها قسما أمامياً ناتئاً من عالم المسيحية ومن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولم تكن الروسيا في أي يوم من الأيام شيئاً من هذا القبيل.

٩ ــ تيمورلنك

ربما كانت طبيعة وتطور إمبراطورية أسرة إيلخان فى فارس وأرض الجزيرة وسوريا وما ألم بتلك الإمراطورية من تطورات ، أشوق قصص هذه الدول المغولية كافة ، لأن نظام الترحل في هذه المنطقة حاول بالفعل ــ ووفق في الحقيقة أيما توفيق ــ أن يقضى قضاء مبرماً على نظام ممداً ن مستقر . فعند ما غزا چنكيز خان الصن في بداية الأمر، حدثت ـ كما يخبروننا ـ مناقشة خطيرة بن الرؤساء المغول حول ضرورة أو عدم ضرورة تدمير كل المدن وإبادة السكان المستقرين . فإن هؤلاء البسطاء المارسين لحياة الهواء الطلق ، كانوا يرون أن السكان المستقرين فاسدون متزاحمون تنتشر بيهم الرذيلة ويغلبهم التخنث وأنهم خطرون لا يمكن فهمهم ، وأنهم طفح جلدى إنساني جدير بالزراية يعيش على سطح بلاد لولا وجودهم لكانت أرض رعى طيبة . فأما المدن فلم يكن من ورائها أى نفع لهم . ويلوح أن قدامى الفرنجة والأنجلوسكسون غزاة جنوبي بريطانيا ، كان بجول يخاطرهم نفس الشعور حيال سكان المدن . ولكن تلك الفكرات لم تجسد في صورة سياسة متعمدة الاتحت ظل هولاكو في أرض الجزيرة . فإن المغول هاهنا لم يقتصروا على إعمال النار والسيف إحراقاً وتذبيحاً ، بل دمروا نظام الرى الذي استدام ما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة ، وبذلك قضى على المدنية الأم التي ولدت المدنيات الغربية جميعاً . ولقد ظلت هذه الأقاليم الخصبة منذ أيام الملوك الكهنة في سومر تزرع زراعة مستمرة لا تنقطع ، وتواصل تجميع التقاليد ، وحشد عدد عظيم من السكان وإنشاء مجموعة متعاقبة من المدن النشيطة العاسلة : ــ منها إريدو ونبيور وبابل ونينوي وطيشفون (المدائن) وبغداد ، والآن زال الخصب ، وأصبحت أرض الجزيرة أرض رخو السامو حشة وقفار خاوية ، تح ي فيها مهاه عظيمة بددا ، أو تفض على ضفافها مكونة بركاً تمرح فيها الملاريا. ثم حدث فيما بعد ذلك من الزمان أن انتعشت بغداد والموصل انتعاشاً ضعيفاً وصارتا مدينتين من الدرجة الثانية



(شكل ١٠٢) خريطة إمار اطورية تيمورلنك

ولولا هزيمة قطبغا قائد هولاكو ومقتله فى فلسطين (١٢٦٠) لحل بمصر نفس المصير . ولكن مصر كانت عنسد ذاك سلطنة تركية ، تسودها هيئة عسكرية هى الماليك كان يؤخذ أفرادها (شأن مقلديها الانكشارية بالدولة العثمانية) ، وتجدد قوتها ، بمشترى الغلمان الأرقاء وتدريبهم . فإن كان السلطان مقتدراً ذا كفاية أطاعه هذا النوع من الرجال ، وإذا كان ضعيفاً أو شريراً عزلوه وتبدلوا به غيره . وظلت مصر تحت حكمهم دولة مستقلة حتى (١٥١٧) ، عند ما آلت إلى الأتراك العثمانيين .

وسرعان ما ضعفت القوة المدمرة الأولى لدى مغول هولاكو ، ولكن قامت الممترحلين في القرن الحامس عشر نهضة أخيرة أشبه ما تكون بعاصفة هوجاء انبعثت في التركستان الغربية تحت قيادة تيمور الأعرج أو تيمور لنك ، كان نسبه من الناحية النسائية (أمه) يتصل بچنكيزخان . فجعل قصبة ملكه في سمر قند ، ومد سلطانه على القيچاق (التركستان حتى جنوب الروسيا) وعلى سيبريا وبسطه جنوباً حتى حوض نهر

السند. واتخذ لنفسه لقب الحان الأعظم فى (١٣٦٩). كان مترحلا يمت إلى المدرسة الوحشية بسبب. فأنشأ إميراطورية تقوم على الحراب من شمال الهند إلى سوريا ٥ وكائت أشهى تسلية معارية لديه إقامة أهرامات من الجاجم ، فبعد أن فتح أصفهان أقام على هذه الشاكلة هرماً مكوناً من سبعين ألف جمجمة .

وكان يطمع فى أن يستعيد إمراطورية چنكيز خان كما يتصورها هو ، وهو مشروع فشل فيه فشلا تاماً . على أنه بث الخراب والدمار فى طول البلاد وعرضها ، وأدى إليه الجزية الآتراك العبانيون — وكان ذلك قبل فتح القسطنطينية وقبل أيامهم العظيمة — كما أدتها إليه مصر ، ثم أعمل فى الپنچاب تخريباً وعاث فيها فساداً ، واستسلمت له دلهى . وبعد أن سلتمت المدينة أعمل السيف فى أهاليها قتلا وتذبيحاً رهيباً . وعندما حانت وفاته (١٤٠٥) لم يبق له إلا القليل مما يشهد له بالقوة اللهم إلا اسم يقترن بالرعب وإلا الحرائب والاقطار الموحشة المقفرة ومملكة متقلصة الظلال قد عضها الإمحال والعوز فى بلاد فارس .

و بعد خسين سنة قضى فوج آخر من المترحلين التركمان على الأسرة المالكة الى أسسها تيمور الأعرج في فارس .

١٠ ــــــ امىراطورية الهند المغولية

وفي (١٥٠٥) اضطر رئيس تركماني صغير ، اسمه بابر وهوسليل تيمور وبالتبعية چنكيز أيضاً ، أن يفر عابراً جبال الهندوكوش إلى بلاد الأفغان مع ثلة من الأتباع بعد بضع سنين قضاها في حرب الله فيها بعض النجاح الموقوت – إذ وقعت في قبضته سمر قند ردحاً من الزمان ، وهناك تزايد أنصاره ، ونصب نفسه سيداً على كابول ، فحشد جيشاً وأكثر من جمع المدافع ، ثم ادعى لنفسه ملك الهنجاب ، لأن تيمور كان ا غزاها قبل ذلك بمائة وسبعة من السنين . وتقدم ظافراً إلى ما وراء الهنجاب . وكانت الهند في حالة انقسام وهي مستعدة تمام الاستعداد للترحيب بأى فاتح يعدها السلام والنظام . والتي بابر بعد تقلبات عديدة في حظه بسلطان دلمي قرب يابيات (١٥٢٥)

(شكل ١٥٣) تاج محل بآجرا إن تاج محل المفوى الأخبر لشاه جيمان وزوجته المحبوبة يمترف الناس حميماً بأنه أكثر أبنية العالم استيفاء للكمال. وهو مبى من الرخام الأبيض ، ويقال إن عشرين ألفاً من الرجال ظلوا يمملون فيه بلا انقطاع سبعة عشر عاماً

على مبعدة عشرة أميال شالى المدينة ، فانتصر نصراً كاملا مبيناً مع أنه لم يكن معه سوى خمسة وعشرين ألف رجل ولكنهم مع ذلك مزودون بالمدافع مقابل ألف فيل عند أعدائه وعسدد من الرجال يضارع أربعة أمثال عدده، والأعداد ـ لهذه المناسبة ـ كانت من تقديره هو. فكف عن تلقيب نفسه بملك كابول ، واتخسذ لقب إسراطور الهندوستان . كتب يقول : ﴿ إِنْ هَا الْعَالَمُ يَخْتَلَفُ اخْتَلَافًا ۗ بيناً عن بلادنا » ، إذ أنهوجده عالمآ أجمل وأخصب وأغنى غنى مطلقاً . ثم واصل الفتح

حتى البنغال ، ولكن وفاته قبل الأوان (١٥٣٠) أوقفت موجة الفتح المغولى زهاء ربع قرن ، ولم يأخذ مد الفتوح يفيض من جديد إلا عند تولى حفيده و أكبر المعرش . وأخضع أكبر كل بلاد الهند حتى بيرار ، وأصبح ابن حفيده أورانغزيب (١٦٥٨ – ١٧٠٧) سيدا لشبه الجزيرة الهندية بأكملها تقريباً . فهذه الأسرة العظيمة ، المكونة من بابر (١٥٢٦ – ١٥٣٠) وهومايون (١٥٣٠ – ١٥٥١) وأكبر (١٥٥٦ – ١٦٠٥) وحيهان جير (١٦٠٥ – ١٦٢٧) وشاه جيهان (١٦٢٨ – ١٦٥٨) و أكبر (١٦٥٦) و أورانغزيب » (١٦٥٨ – ١٧٠٧) ، التي ظل فيها الابن يخلف أباه أمد ستة أجيال متعاقبات ، هذه الأسرة المغولية تسجل أزهي عصر بزغ فنجره على الهند حتى ذلك الحن . وكان و أكبر » — ولعله الملك الوحيد الجدير بأن يردف

بأسوكا ــ من أعظم عياهل الهناد ، وأحد القليلين من الشخصيات الملكية الذين يرتفعون إلى قريب من مرتبة العظاء بين الرجال .

ويجب أن نولى « أكبر » نفس الاهتمام الخاص الذي أظهرناه نحو شرلمان أو قسطنطين الكبير . فإنه أحد الأقطاب التي يدور حولها التاريخ . ولا يزال الشيء الكثير من عمله في سبيل توثيق الترابط وتوطيد النظام في الهند باقياً إلى يومنا هذا . إذ تناوله البريطانيون وواصلوا العمل به عندما صارت إليهم وراثة مُـلك الأباطرة المغول ، والواقع أن العاهل البريطاني كان يتخد لنفسه لقبا هنديًّا هو لقب الأباطرة المغول ، وهولقب « قيصر الهند » (Kaisar - i - Hind) . ولقد تبـــدت جميع النظم الإدارية الكبرى التي أقامها حفدة چنكيزخان في الروســـيا وفي أرجاء آسيا الوسطى والغربية كافة وفي بلاد الصن ، حيث بادت منذ زمن بعيد وحلت محلها أشكال حكومية أخرى . والحق إن حكوماتهم لم تزد كثيراً عن كونها حكومات تفرض الضرائب ، وأنها نظام لجمع الإيرادات لتكون طعمة لمؤسسة الحاكم المركزية ، شأن « الحشد الذهبي » في جنوب الروسيا ، أو المدينة الإمبر اطورية بقره قورم أو پيكين . فأما حياة الشعب وفكراته فشيء كانوا يهملونه ويدعونه جانباً ، فلا يعنون بطريقة معيشته ما دام يدفع . فليس عجيباً إذن أن يحدث بعد خضوع دام . قرونًا طويلة ، أن يعود كل جزء من أجزاء إمبر اطوريتهم إلى سابق عهده ، فتقوم من جديد موسكو وكييڤ مسيحيتان وتبعث فارس شيعية وصن تامة الصبغة الصيلية بعد أن زال عنهن كابوس المغول وانجلت غمرتهم . بيد أن « أكبر » أقام صرح هند جديدة . ومنح أمراء الهند وطبقاتها الحاكمة بادرات أو على الأقل تلميحات تشير ولو من بعيد ، إلى أن هناك مصلحة مشتركة تجمعهم . فلئن أصبحت الهند اليوم مكونة من شيء أفضل ولو قليلا من مجموعة متنافرة غير مترابطة من الدولات والأجناس أشبه ما تكون بكيس ممتلئ بالحرق البالية ، وأمنع من أن تكون فريسة لكل مغير عرضي من الشيال ، فإن أعظم الفضل ` ذلك يرجع إليه .

وكانت سمته المميزة هي انفتاح ذهنه . فإنه نصب نفسه لجعل جميع أنواع . الرّجال المقتدرين في الهند ، مهما يكن جنسهم أو دينهم ، صالحين لأداء الحدمة

العامة للحياة الهندية . وكان يتصف بسجية رجل الدولة الحق من حيث قدرته على جمع الشمل والتأليف بين محتلف العناصر . وما كان يرضى لدولته أن تكون إمبراطورية مسلمة ولا مغولية ، وماكان برضي لها أن تكون راچپوتية ولا آرية ، ولا دراڤيدية ولا هندوسية ولا منتسبة إلى الطائفة العليا أو الطائفة الدنيا ، بلكان بريدها « هندية » . ﴿ وَأَتَيْحَتَ لَهُ أَثْنَاءَ سَنَّى تَدْرَيْبُهُ فُرْصَ كَثِّيرَةً أَدْرُكُ فَيَّا الصَّفَاتِ الطّيبَــة والوفاء والإخلاص – وفي كثير من الأحيان – نبل التفس التي بتصف بها أولئك الأمراء الهندوك ، الذين كان رجال حاشيته المسلمون يرون في قرارة أذهانهم أن مصيرهم هو العذاب الأبدى لأنهم من أتباع براهما . ثم إنه لحظ أن هؤلاء الرجال والرجال اللَّذِينَ يَفْكُرُونَ عَلَى شَاكُلْتُهُمْ ويؤمِّنُونَ بَعْقَيْدُتُّهُمْ ، كَانُوا هُمُ الْأَغْلَبِيةُ الساحقة من رعاياه . ولحظ فضلا عن ذلك أن الكثير مهم - وكانوا أشدهم اكتساباً لثقته - ظلوا مستمسكين بدينهم الحاص ، وإن تجلى أمامهم ما يعود عليهم من المغانم الدنيوية إن هم اعتنقوا دين البلاط . من أجل ذلك كان ذهنه المتفتح ، يرفض منذ البداية قبول النظرية القائلة بأن الإسلام يجب أن يعتنقه الناس جميعاً لمجرد الصدفة التي جعلته وهو الحاكم والفاتح. ولد مسلماً يومن بمحمد . وأخذت أفكاره تتبلور شيئاً فشيئاً في هذه الكلمات : « منى كان لى أن أدعى إرشاد الناس قبل أن أجد من يرشدنى ؟ » . ثم إنه كلما أصغى إلى التعاليم الدينية الأخرى وإلى العقائد الأخرى ، توقر في نفسه ماكان يجول بها من شكوك شريفة ، وإذ ظل يلحظ في كل يوم ذلك الضيق المرير الذي عليه روح التشيع الطائفي ، مهما يكن شكل الديانة الذي ينتسب إليه ، تزايد تعلقه بمبدأ التسامح مع الحميع » .

يقول الدكتور إميل شميت: «كان ابناً لإمبراطور مخلوع وقد ولد الصحراء، وتربى فى حبس اسمى ؛ فعرف الناحية المريرة من الحياة منذ شبابه فما تلاه من سنين وحباه الحظ بجسم قوى ، دربه على احمال أبعد غايات الإجهاد . فكان التدريب الحمانى لديه غراماً وكلفاً ؛ وكان مولعاً بالطراد ، وبخاصة بالانفعال العنيف المصاحب

لمصيد الحصان الوحشى أو الفيل أو ذبح البر الخطر . وقد حدث ذات مرة عندما كان من الضرورى إقناع را چاجودهور بالتخلى عن اتجاهه إلى إجبار أرملة ابنه المتوفى أن تعتلى كومة النار الحنازية ، أن قطع أكبر مثنين وعشرين ميلا في يومين على ظهر الحيل وكان يظهر في معترك القتال أقصى غاية الشجاعة . فكان يقود جيوشه بشخصه في أخطر أوقات الحملات ، تاركاً لقواده ما دون ذلك من واجبات إنهاء الحرب . وكان يبدى في كل ظفر يناله إنسانية نحو المغلوب ، ويعارض معارضة حاسمة في كل مظهر من مظاهر القساوة ، ولما كان بريئاً من كل أثر لذلك التحامل الذي يقرق المجتمع ويخلق الحلافات ، متساعاً مع ذوى المعتقدات الأخرى ، غير ستحزب إزاء من هم من أجناس أخرى ، سسواء أكانوا من الهندوس أم من الدراڤيدية بن فإنه كان الرجل الذي خصصته الظروف تخصيصاً واضحاً لإيجاد التلاح بين عناصر مملكته المتنازعة بعضها مع بعض وجعلها كلا قوياً مهاسكاً برفرف عليه الرخاء .

« حبس نفسه بكل ما أوتى من جد وقوة على خدمة السلام . وإذ كان معتدلا في كل مسراته ، غير محتاج إلا إلى القليل من النوم ومعتاداً أن يقسم وقته بأقصى دقة ، فإنه كان يجد فسحة من الوقت يكرس فيها نفسه للعلم والفن بعد فراغه من مهام دولته . فكانت الشخصيات النامة الصيت والعلاء المشهورون الذين تزدان بهم العاصمة التي ابتناها لنفسه في فاتيپور سيكرى أصدقاء له في نفس الوقت ؛ فكانت تجتمع من هوالاء حلقة في مساء كل خميس لتبادل المحادثات الفكرية والمناقشات الفلسفية . وكان ألصق أصدقائه به أخوين أوتيا مواهب عالية هما فيضي وأبو الفضل ، وهما ابنا عالم حر القكر (١) (Free-Thinker) . وكان أسن هذين الأخوين عالماً ذائع الشهرة في الأدب الهندوكي ، و بمساعدته و توجيه أمر أكبر فترجمت أهم المؤلفات السنسكريتية إلى الفارسية . فأما أبو الفضل ، وكان صديقاً حميا بوجه خاض لأكبر ، فكان قائداً

⁽١) المفكر الحر الفكر : الشخص الذي لا يقيد تفكيره في المسائل الدينية وغيرها بما تواضيح الثامن عليه من تقاليد أو آراء متواترة . (المترجم)

ورجل دولة ومنظماً صاحب تدبير ، وإلى نشاطه تدين مملكة أكبر بترابطها وبتنظيمها الداخلي بوجه خاص(۱) ، .

وكان أكبر شأن شرلمان وشأن تاى تسنج يوجه إلى الأمور الدينية بعض عنايته ويقيم حلبات جدل مسهبة مع المبشرين اليسوعيين ما تزال تفاصيلها مدونة فىالسجلات.

(على تلك الشاكلة كانت الحلقة التى اعتادت أن تلتم فى قصور فاتيپور سيكرى التى لا تفتأ مبانيها تسبح فى ضياء شمس الهند المشرقة ، والتى أصبحت الآن خاوية موحشة ، ذلك أن مدينة فاتيپور سيكرى شأن مدينة أمبار ، أصبحت اليوم مدينة ميتة . وحدث منذ سنوات قلائل أن قتلت أفعى فى أحد شوارعها الساكنة ابنا لأحد الموظفين الإنجليز) .

وكان أكبر ، شأن كل الرجال جميعاً مهما عظم خطرهم أو هان أمرهم — يعيش في حدود زمانه وفي دائرة فكرات عصره . وكان بوصفه تركمانياً يحتم الهند ، يجهل بالضرورة الشيء الكثير مما ظلت أوربا تنعلمه في ألف سنة بالألم والعناء . كان يجهل كل شيء عن نمو « الوعي الشعبي » في أوربا ، كما كان يعلم الشيء الذي لا يكاد يذكر عن تلك الإمكانات « التعليمية » الرحيبة التي كانت تنتجها الكنيسة في الغزب . إذ كان مثل هذا الأمر يتطلب شيئاً أعظم من جدل عارض مع مبشر مسيحي . وجعلته تربيته على الإسلام وعبقريته الفطرية يعتقد اعتقاداً بيناً أن ليس في الإمكان ربط الهند في شعب واحد عظيم إلا على فكرات عامة تقوم على أساهل ديني ، ولكن أنّى له المعرفة التي يمكن بها خلق مثل هذا التماسك والإبقاء عليه حياً بإنشاء المدارس العامة والكتب الرخيصة وإقامة نظام جامعي يجمع بين خلتي التنظيم وحرية الفكر ؟ وهي أمور ما تزال اللولة المعربة تتحسس طريقها إليها حتى اليوم . لقد كان ذلك كله مستحيلا عليه الدولة المعرفة بالزوارق البخارية والطائرات . وكان شكل الإسلام الذي يجيد معرفته استحالة المعرفة بالزوارق البخان . وكان شكل الإسلام الذي يجيد معرفته المسلمون إلا أقلية بين السكان . وكانت المشكلة التي تواجهه في الواقع شديدة الماثلة التي واجهت قسطنطين الكبير . ولكنها كانت تنطوى على ضعوبات فريدة الممشكلة التي واجهت في الواقع شديدة الماثلة التي واجهت في الواقع شديدة الماثلة التي واجهت في الواقع شديدة الماثلة التي واجهت قسطنطين الكبير . ولكنها كانت تنطوى على ضعوبات فريدة

Dr. Schmit: Helmolt's History of the World (1)

خاصة بها . ولهذا فإن كل ما فعله أنه حاول أن يكيف الإسلام تكييفاً يكفل له عند الناس قبولا أوسع وأشمل بأن يتبدل بعبارتي « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله » عبارة « لا إله إلا الله وأن الإمبراطور رافد(١٠) الله » إذ زعم أن ذلك سيكون دعامة عامة لكل ما حوت الهنا. من ضروب العقائد والنحل . وربط بهذه العقيدة طقساً بسيطاً استلفه من الزرادشتيين الفرس (وهم الفارسيس (The Parsees) ، الذين كانوا ـ ولا يزالون إلى اليوم ــ موجودين بالهند . ومع هــــــــــــــــــا فإن هذه الديانة الرسمية الجديدة ماتت بوفاته ، إذ لم يكن لها جذور مستقرة في أذهان من حوله من الناس. والعامل الجوهرى في تنظيم الدولة النابضة بالحياة ذلك العامل الذي أخذ العالم في إدراكه ، هو إنشاء نظام تعليمي. وذلك أمر لم يفهمه أكبر البتة. ثم إنه لم يتوافر له طبقة من الرجال يوحون إليه بهاته الفكرة أو يعينونه على تنفيذها . فلم يكن المعلمون المسلمون في الهند بمعلمين قدر ماكانوا حرَّاساً لعقيدتهم محافظين على تعصب ديني حاد ، فكانوا لا يرغبون في وجود عقلية مشتركة في الهند بل مجرد تعصب عام للعقيدة الإسلامية وعدم تسامح مشترك في الإسلام . وكان البراهمة الذين كان بيدهم احتكار التعليم بين الهندوك يتصفون بكلما للهيئة ذات الامتياز الوراثى من غرور وتقاعس . ومع ذلك فعلى الرغم من أن أكبر لم ينشى " للهند أية خطة تعليمية عامة ، فإنه أنشأ عدداً من المدارس الإسلامية والهندوكية .

ولا تبرح البقايا الفنية والمعمارية المتخلفة عن المغول وفيرة جداً. وعندما يتكلم الناس عن « الفن الهندى » بدون تحديد ، فإنهم يعنون بدلك تلك الفترة العظيمة . وفن تصوير ذلك الزمن ممتاز جميل ، وهو في طرازه وصنفه وثيق القربي بالإنتاج الفارسي المعاصر له .

فأما فى المبانى فقد كان من نصيب الهند دواماً أن تستورد بذرة الأساليب العالية التطور وأن تفرض عليها تعديلات وتنميقات من عندياتها . ولم يتم لفن العارة الحجرى الانتشار إلا بعد الفتح الهلابي ، وإن انتشار الإستوپا٣٦ والعمد التذكارية والنصب

⁽١) الرافد (Regent) هو النائب . (المترجم)

⁽٢) الإستوپا (Stupa) أثر أو مقصورة مقدسة بوذية على هيئة رابية ذات قبة . (المترجم)، ناريخ الإنسانية جـ٣

الأخرى فى حكم أسوكا ليشهد فى كل مكان يوجود الفنانين الفرس والهلينيين. وفضلا عن ذلك فإن الفن البوذى الذى خلف لنا مثل تلك البقايا العظيمة فى منطقة جندهارا على الحدود الشهالية الغربية ، والراجع إلى القرون الأربعة الميلادية الأولى ، تبدو فيه كذلك الروح الهللينية قوية واضحة . فيرى الإنسان واجهات بها العمود الكورنثي العادى .

ولم يصبح فنا العارة والنحت هندوكيين بشكل طاهر مميز له صفة وكرامة تخصه الا نى حكم أسرة چوپتا وفى القرنين الحامس والسادس الميلاديين. وحالت المؤثرات الدراڤيدية الجنوبية دون انتشار الحطوط الرأسية ، كما أنها أوقرت البناء بكرانيش(١) (Mouldings) أفقية مع نزوع إلى طراز الأهرام المدرجة . والهرم الأسود فى كاناراك من أبدع المعابد الهندوكية وأشدها تمثيلا لطراز تلك المعابد قبل الإسلام .

واستقدم الغزو الإسلامى الأشكال الرئيسية للطراز العربى (Saracenic)وهى المئذنة والعقد المدبب ، وعلى هذا الأساس الجديد اشتغلت الهند فى حفر بديع الإتقان وأنتجت التفريغات التشجيرية الزخرفية للنوافل (Window-tracery) والأستار المخردة . والمسجد الحامع بأحمد آباد (فى القرن الخامس عشر) من أبدع المساجد الهندية ، ولكن لعل أبدع مثال لكل فن العارة المغولى هذا وأشدها تمثيلا لطرازه هو « تاج محل » ، وهو القبر الذى ابتناه شاه چهان (١٦٢٧ – ١٦٥٨) لزوجته . ويتعاون المعماريون الإيطاليون والهنود فى هذا البناء الرشيق .

١١ ــ الغجر (النوّر)

وهناك نتيجة جانبية عجيبة نشأت عن هذه الإضطرابات التي أحدثها مغول القرن الرابع عشر ، الدين كان تيمورلنك رأسهم وقطب رحاهم — هي ظهور شراذم متنقلة في أوربا تتكون من شعب غريب شرقى لاجئ هو الغجر . ظهروا ببلاد اليونان في زمان ما قريب من نهاية القرن الرابع عشر وأوائل الحامس عشر ، حيث زعمهم الناس مصريين (Egyptians) ، (ومنها اشتقت كلمة Qipsy) التي يطلقونها عليهم في أوربا ، وهو اعتقاد عم الناس جميعاً وقبلوه هم أنفسهم وبثوه في كل مكان . ومهما يكن من شيء فإن زعماءهم كانوا يلقبون أنفسهم بلقب «كونتات آسيا الصغرى » .

⁽١) الكرانيش : هي سيات (جمع صبة بتشديد الباء) في قوالب . (المترجم)

والراجح أبهم ظلوا يتنقلون في أرجاء آسيا الغربية قروناً عدة قبل أن دفعهم مذابح نيمورلنك إلى عبور (الهلسّيونت) الدردنيل وربما دفعهم عن أرض أرومهم الأصلية — شأن الأنراك العثمانيين — ذلك الطوفان العظيم الذي أحدثه چنكيز أو حتى قبله . تنقلوا في البلاد كما تنقل من قبلهم الأتراك العمانيون ، وإن كانوا أقل حظاً حسناً مهم . فانتشروا على مهل متجهين غرباً عبر أوربا : حطاماً غريبة من نظام الترحل في عالم قوامه المحراث والمدينة ، مطرودين من وطهم القديم بسهوب (بلخ) نازلين في أراضي الشيوع الأوربية ، وبجوار السباجات المضروبة حول المزارع وفي أراضي العربة والبقاع المهملة . سماهم الألمان باسم « الهنغاريين » و « التتار » وسماهم الفرنسيون « البوهيمين » .

ولا يبدو أنهم حافظوا على تقاليد منبهم الحقة ، غير أن لمم لغة ممزة تشير إلى الريخهم الضائع ؛ فإنها تحتوى على كثير من كلمات شمال الهنسد ، ويرجح أن نكون فى أصولها هندية شمالية أو باكترية . ويحتوى لسانهم على هناصر ضخمة فارسية وأرمنية .

وإنك لتجدهم الآن فى كل أقطار أوربا ، منهم السمكرى والبياع المتجول وتاجر الحيل ومنهم أصحاب دور الملاهى والعرافون والمتسولون . ولقد يلتذكثير من ذوى الأذهان الحيالية التذاذآ قوياً بمخياتهم القائمة على جانب الطريق ، ونير انهم الداخنة ، وخيامهم المدورة ، وخيولهم المقيدة وعجيج أطفالهم الصاخبين الدين لوحت الشمس وجوههم .

والمدنية شيء يبلغ من حداثته في التاريخ ، كما أنها ظلت معظم عهدها ذات صورة علية بالغة ، بحيث لا يزال لزاماً عليها أن تقهر غالب غرائزنا وتتمثلها في نطاق احتياجاتها . فإن عرق الهداوة والترحل المندس في معظمنا يتحرك في سويدائنا كلما مسنا السأم بما عليه المدنية من أوضاع ومعقدات . وما نحن إلا أصحاب بيوت فاترو الحاسة ، غير مخلصين لمعيشتنا المنزلية . والدم الذي يسرى في عروقنا قد تكون في بلاد السهوب كما تكون في أراضي المحراث .

ومن بين الأنواع الأخرى من العدوى التي حملها الغجر من قطر إلى قطر ، ذلك اللون

من الموسيقي الشعبية الذي أشاعوه في الأقطار التي مروا بها ، فإنهم كانوا على الدوام موسيقيين متحمسين لفنهم وإن لم يكونوا مبتكرين خلاقين ؛ ذلك بأنهم حملوا إلى كل مكان حلوا به ضرباً من فن الإنشاد الشعبي ، يضفون عليه نكهة وحيوية صادرة من ذات أنفسهم . ولطالما سرقوا ألحان الشعوب كما سرقوا في بعض الأحيان أطفالهم وجعلوا منهم أغجاراً . وهم لم يستعملوا البتة أي تدوين موسيقي « نوتة » ، ولكن تقاليدهم الموسيقية كانت على الدوام قوية ، وللأغنية الغجرية اليوم أحفاد كثيرة هي موسيقي هنغاريا وأسبانيا والروسيا .

الفصل لمالث والثلاثون نهضة المدنية الغربية

الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

المسيحية والتعليم الشعبى
 الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوهية
 بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب
 العمو الجديد للمدن الأوربية
 النمو الجديد للمدن الأوربية
 النمضة الفنية
 النمضة الفنية
 المضة الفنية
 العالم
 حياة الإمبرطور شارل الخامس
 بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك
 باتيار الفكرى السفل المضاد

١٠ ــ المسيحية والتعليم الشعبي

إن نظرة إلى الحرائط تحدثنا أن القرون الثلاثة منذ بداية الثالث عشر حتى نهاية الخامس عشر كانت عصر تراجع للمسيحية . وكانت هذه القرون عصر الشعوب المغولية . في إبانها كانت البداوة : (الترحل) القادمة من آسيا الوسطى تسود العالم المعروف . وكان على مفرق الدنيا ، وهذه الفترة في ذروتها ، حكام من الجنس المغولى أو ذي قرباه التركى ، ينهضون بالحكم ومعهم تقاليدهم في كل من الصين والهند وفارس ومصر وإفريقيا الشهالية وشبه جزيرة البلقان وهنغاريا والروسيا .

ولقد بلغ الأمر بالتركى العنانى أن جنح إلى البحر ، وقاتل البنادقة على سطح بحرهم المتوسط نفسه . وحاصر الترك فى (١٥٢٩) مدينة ڤيينا ، ولكنهم هزموا إذ ردهم الجو على أعقابهم أكثر مما ردهم الذائدون عنها . ودفعت إمبرطورية شارل

الحامس الهابسرجية الحزية للسلطان. ولم يحدث حتى معركة ليبانتو (١٥٧١)، وهى المعركة التي فقد فيها سرڤانتيز مؤلف دون كيشوت ذراعه اليسرى - « أن كسرت المسيحية (على حد قوله) أنفة العثمانيين وكبرياءهم ورفعت الغشاوة عن عيون العالم الذي كان يعد الأسطول التركي شيئاً لا سبيل إلى قهره ».

وكانت البلاد الوحيدة التي تهيأ فيها للمسيحية التقدم هي أسبانيا . ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر فلعله كان يستنج أنه لن تمضي إلا بضع أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغولياً — وربما أصبح إسلاميا ، على نفس الشاكلة التي يلوح بها أن معظم الناس يسلمون اليوم بأن الحكم الأوربي ونوعاً من المسيحية المتحررة مقدر لهما أن ينشرا ظلالهما فوق العالم أجمع . ويبدو أنه قل من الناس من يدرك مبلغ حداثة هذه العظمة الأوربية ، وربما فاته أيضاً أن يدرك مي وقتية عارضة . ولم تبد أي دلائل واضحة تدل على مبلغ الحيوية الحقيقية لأوربا الغربية إلا عندما أخذ القرن الحامس عشر يدلف يحو نهايته .

ويقترب تاريخنا الآن من زماننا هذا ، ومن ثم تتحول دراستنا أكثر فأكثر إلى دراسة للأحوال القائمة بيننا . فالنظام الأوربي أو المصبوغ بالصباغ الأوربي الذي نعيش تحت ظلاله اليوم هو نفس النظام الذي نراه يتطور في أوائل القرن الخامس عشر بأوربا الداوية المنهارة التي يتهددها المغسول . وما كانت مشاكلها آنداك الا الجنين بالمشاكل اليوم ومن المستحيل علينا البحث في شئون ذلك الزمان دون البحث في شئون زماننا هذا . فترانا نخوض في السياسة بالرغم من أنفسنا . قال السير ج . د . سيلي (١) : بان السياسة بلا تاريخ شجر لا جدور له والتاريخ بلاسياسة شيء لا ثمار له » .

فلنحاول الآن مستمسكين جهد طاقتنا بالبعد عن التحيز ، أن نستكشف تلك الهوجة العظيمة اللهوى التي كانت تفرق طاقات نشاط أوربا بددا وتعرقلها أثناء تلك الهوجة العظيمة التي قامت بها الشعوب المغولية ، وأن نرى كيف يتيسر لنا أن نفسر تجمع الطاقة العقلية والجثمانية التي لا شك أنها مضت في طريقها قدماً أثناء فترة التقهقر الظاهرة هذه ، والتي انفجرت عند نهايتها على تلك الشاكلة الضخمة .

⁽١) هو السير چون روبرت سيل ، المؤرخ الإبجليزى (١٨٣٤ – ٩٠). (المترجم)

فالموقف الآن كمثيله في العصر الميزوزوى: فبيما كانت الزواحف الكبرى تسوده على ظهر البسيطة ، كانت هناك زوايا متوارية منعزلة تتطور فيها تلك الثديبات ذات الشمر وتلك الطيور ذات الريش التي تمكنت في نهاية الأمر أن تحل تماماً محل تلك المجموعة الحيوانية الهائلة متبدلة بها أخرى أكثر مزايا ومقدرة ، وكذلك نرى في المناطق المحلودة مناطق أوربا الغربية ، أنه بينا كانت المالك المغولية تسود العالم من الدانوب المحلودة مناطق أوربا الغربية ، أنه بينا كانت المالك المغولية تسود العالم من الدانوب إلى المحيط الهادى ومن البحار المتجملة الشمالية إلى مدراس ومراكش والنيل ، كانت توضع أسس القواعد الجوهرية في طراز للمجتمع الإنساني جديد أشد صلابة وأكثر كفاية ؛ فهذا الطراز من المجتمع ، الذي ما يزال في دور التكوين لم يتجاوزه بعد ، والذي ما يزال آخذاً بأسباب النمو ولا يزال بمرحلة النجارب ، قد نستطيع أن نطلق عليه اسم « الدولة العصرية » . ونحن ندرك دون أدني ريب أن تلك العبارة مبهمة ، عليه اسم « الدولة العصرية » . ونحن ندرك دون أدني ريب أن تلك العبارة مبهمة ، على أنّا جاهدون أن نبث فيها شيئاً من المعنى مع تقدمنا بمثنا هذا .

وقد سبق أن سجلنا ظهور نواة الفكرات الأساسية لتلك الدولة العصرية في الجمهوريات الإغريقية وبخاصة في أثينا وفي الجمهورية الرومانية العظيمة وفي دين البهودية والإسلام ، وفي قصة الكاثوليكية الغربية . وهسله الدولة العصرية ، كما نراها اليوم وهي تنمو تحت أسماعنا وأبصارنا ، إنما هي بالضرورة مزج تجربي بين فكرتين تلوحان متناقضتين في الظاهر ، وهما فكرة «مجتمع من العقيدة والطاعة » ، على غرار تلك المجتمعات التي كانت عليها ولا ريب المدنيات القديمة ، وفكرة «مجتمع من العزيمة والإرادة » مثل التجمعات السياسية البدائية عند الشعوب النوردية والهونية . فلك أن الشعوب المدنة المستقرة ، وهم الذين ينتسبون في الغالب إلى الجنس القوقازي الأبيض الداكن ، أو إلى الدرافيدين السمر أو المغولين الجنوبيين ، يبدو أنها ظلت آلاف السنين تطوّر فكراتها وعاداتها على أساس العبادة والخضوع الشخصي ، كما يلوح أن المترحلين طوروا فكراتهم وعاداتهم على أساس الاعباد الشخصي على النفس بلوح أن المترحلين طوروا فكراتهم وعاداتهم على أساس الاعباد الشخصي على النفس المتحداد باللذات . وكان من الطبيعي جداً في هذه الظروف أن تدأب الشعوب المترحلة على إمداد المدنيات بحكام جدد وأرستقراطيات جديدة . فذلك هو ه الإيقاع ؛ المذي لبث يدق منتظماً في كل أحقاب التاريخ المبكر . وبعد آلاف من السنين انقضت اللذي لبث يدق منتظماً في كل أحقاب التاريخ المبكر . وبعد آلاف من السنين انقضت



(شكل ١٥٤) خريطة أوريا عند سقوط القسطنطيلية

فى تغيرات دورانية يتعاور فيها الانتعاش بفتح المترحلين فالمدنية فالاضمحلال ثم الفتح الجديد ، ابتدأت العملية الحالية ، عملية المزج المتبادل بين النزعات المتحضرة ، أى العاملة الكادحة الطيعة ، وبين النزعات الحرة أى الأرستقراطية والمغامرة ، مزجاً أنتج طرازا جديداً من المجتمع ؛ يتقلب منا الآن توجيه انتباهنا إليه كما أنه قوام التاريخ المعاصر لنا .

وقفونا في هذا و التاريخ » التطور البطىء لمجتمعات بشرية و ممدنة » أكبر فأكبر، منذ أيام قبيلة العائلة البدائية بالعصر الحجرى القديم . ورأينا كيف أن مزايا الزراعة وضروراتها والحوف من آلهة القبيلة والفكرات القائلة بالملك الكاهن والملك الرب، لعبت دورها في توثيق عرى التماسك داخيل جماعات إنسانية متزايدة الحجم والقوة في مناطق بلغت أقصى غاية الحصب . وراقبنا التفاعل بين الكاهن (وكان في العادة

من الأهالى) وبين العاهل (وكان فى العادة فاتحاً) فى تلك المدنيات القديمة الباكرة ، كارأينا تطور الكنابة والتقاليد المكتوبة وإفلاتها من السيطرة الكهنوتية ، وظهور فوى جديدة تبدو أول أمرها عارضة طارئة ثانوية فى ظاهرها ، وقد سميناها و الفطنة الحرة » و « الضمين الحر » للبشرية ، وشهدنا حكام المدنيات البدائية فى وديان الأنهار يوسعون ممتلكاتهم ويمدون سلطانهم ، وشهدنا فى نفس الوقت فى الأراضى الأقل خصباً ما كان مجرد و همجية » قبلية يتطور إلى «حالية ترحل » تزداد فى كل آن اتعاداً وكفاية سياسية .

ودأبت البشرية على مسيرها فى أحد هذين النهجين أو فى الآخر. وظلت المدنيات جمعاء عصوراً طويلة وهى تنمو وتتطور على أساس الملكية : أعنى فوق أساس من الملكية المستبدّة المطلقة ، وشهدنا كيف حدث فى كل ملكية وأسرة مالكة أن الكفاية والهمة كانتا تخليان مكانهما للترف الباذخ والتراخى والانحلال ، كأنما كان ذلك أمراً إيقاعياً محتوماً لا مفر منه ، ثم رأيناها وقد خضعت آخر الأمر إلى أسرة أحدث منها قادمة من الصحراء أو السهوب .

وتتجسم قصة المدنيات الأولى الزارعة ومعابدها وبلاطاتها الملكية ، ضخمة في التاريخ الإنساني ؛ على أنه من الخير أن نتذكر أن مشهد هذه القصة لم يتجاوز قط رقعة صغيرة جداً من سطح اليابس في الكرة الأرضية . فني القسم الأكبر من الأرض وإلى زمن قريب جداً لا يتجاوز الألفين الأخيرين من السنين ، كانت الشعوب القبلية الأصلب عوداً والأقل عددا النازلة في أراضي الغابات والأحراش الخفيقة ، والشعوب المترحلة ساكنة أراضي الكلاً الموسمية تلزم طرائقها الخاصة بها في الحياة وتطورها .

ربما جاز لنا أن نقول إن المدنيات البدائية كانت لا مجتمعات طاعة ». فكانت الطاعة للملوك الأرباب والملوك الذين فى رعاية الأرباب هى القوة التى تشدهم بعضهم إلى بعض ، فأما نزعة المترحلين فكانت من الناحية الأخرى تتجه على الدوام شطر طراز مخالف من الترابط سوف نسميه هاهنا باسم « مجتمع الإرادة ». إذ يجب فى مجتمع جوال مقاتل أن يكون الفرد جامعاً بين الاعماد على الذات وبين النزام النظام فى الوقت نفسه . و يجب أن يكون روساء مثل هذه المجتمعات روساء عن يتبعون لا سادة يجسرون .

ومن اليسير تتبع أثر «مجتمع الإرادة» ، هسذا في تاريخ الإنسائية بأجمعه ، فنحن نجد في كل مكان أن النزعة الأصلية للمترحلين كافة : النورديين مهم والساميين والمغول سواء ، كانت من الناحية الفردية أكثر نزوعاً وإرادة وأشد ترفعاً وشهامة من نزعة الأقوام المستقرين . هبطت الشعوب النوردية إيطاليا وبلاد الإغريق تحت ملوك قادة ، ولم يستجلبوا معهم أية نحلة معبد نظامية ، بل وجدوا تلك الأشياء في الأراضي المغزوة ثم كيفوها حين استعملوها . ثم تحول الإغريق واللاتين ثانية إلى تكوين الجمهوريات بغاية السهولة ، وكذلك فعل الآريون في بلاد الهند . وكان هناك أيضاً تقاليد للانتخاب في ممالك الفرنجة والجرمان الأولى ، وإن كان القرار يوخف في العادة على عضو أو آخر من أعضاء طائفة أو عائلة ملكية . وكان الخلفاء الأولون ينتخبون ، وكان قضاة بني إسرائيل وملوك قرطاچة وصور ينتخبون ، وكذلك كان شأن الخان وكان قضاة بني إسرائيل وملوك قرطاچة وصور ينتخبون ، وكذلك كان شأن الخان الأعظم المغولي حتى أصبح قوبلاي ملكاً صينياً .

وعلى نفس هذه الشاكلة من الاطراد والاستمرار نجد الفكرة المضادة فى أراضى الاستقرار المسكونة ، فكرة ربوبية الملك غير الانتخابية وفكرة حقه الطبيعى الفطرى فى الحكم .

ولاحظنا في ثنايا تطور تاريخنا ظهور عناصر جديدة أدخلت التعقيد في قصة الجهاعات البشرية ؛ ورأينا أن المترحلين انقلبوا إلى وسطاء ، وبذلك ظهر التاجر ، ولاحظنا أهمية السفن وهي تنمو في العالم . ويلوح أنه لا مندوحة للرحلات والأسفار من أن تجعل الرجال أحراراً في عقولهم وأفكارهم كما أن الاستقرار في داخل أفتي ضيق يجعل الناس جبناء خانعين . . . على أنه بالرغم من كل هذه الأمور المعقدة تجرى المصومة الإجمالية بين طريقة « الطاعة » وطريقة « الإرادة » ، غترقة حقب التاريخ حتى تصل إلى زماننا هذا . ولا يزال التوفيق بينهما ناقصاً غير كامل إلى يومنا هذا .

وقد جرت المدنية على الدوام – حتى ماكان منها في أحط الصور – على سُنة بذل كثير من الأمور الجذابة المريحة للبشرية والموافقة لطبيعتها . على أن بجنسنا ناحية قلقة غير مروّضة تحاول على الدوام أن تنقل المدنية من اعتادها الأصلى على « الطلعة التي لا مشاركة فيها » إلى مجتمع من و إرادات متشاركة ». وإن سمة الترحل الكامنة في دمائنا ، وبخاصة في دماء الملوك والطبقات الأرستقراطية ، تلك السمة التي يرجع إليها ولا مراء قسط كبير من فضل إنتاج الأجيال التالية ، لشيئاً يجب أن ينسب إليه كذلك تلك الرغبة الملحاح المستديمة التي تنزع بنا نحو توسعة الحجال وتضطر كل دولة أن توسع حدودها إن استطاعت ، وأن تمد مصالحها إلى أقصى الأرض . ويظهر أن دوافع القلق الترحلي ، التي تنزع إلى جذب كل الأرض تحت سلطان حكم واحد ، هي بذاتها الروح التي تجعل مراجل معظمنا تغلي في ظل التوجيه والتضييق ، وتدفعنا إلى أن نحاول « المشاركة » في أية حكومة نسمح بوجودها .

ظل هذا الكفاح الطبيعي ، هذا الكفاح المتمشى مع مزاج البشرية الهادف إلى التوفيق بين المدنية والحرية ، – (ظل) حياً عصراً بعد عصر بسبب العجز العسكرى والسياسي في كل «مجتمع طاعة» وجد على ظهر البسيطة حتى اليوم . ومتى أضرع الناس مرة للطاعة ، أمكن القبض عليها بغاية السهولة ونقلها إلى الغير ؛ وما عليك إلا أن تلتى البصر إلى الدور السلبي الذي لعبته مصر وأرض الجريرة والهند: أرض الخضوع الأصلية النموذجية و «مهاد المدنية» – وهي تنتقل من سيد إلى آخر . وما المدنية الخانعة إلا دعوة مستديمة موجهة إلى الرجال الأحرار السلابين .

ولكن « مجتمع الإرادة » يحتم صهر مواد عسيرة بعضها في بعض ؛ وهو مجتمع إيجاده أصعب كثيراً ، وأصعب من إيجاده الإبقاء عليه . ولعلنا لا نزال نذكر أن قصة الإسكندر الأكبر تظهر مجتمع الارادة للقواد المقدونيين وهو يذوب شيئاً فشيئاً تلقاء طلبه إليهم أن يعبدوه . وما حادث مقتل كليتوس إلا دلالة طرازية على الكفاح بين التقاليد الحرة والتقاليد الذليلة الذي كان يجرى كلما وجد فاتح جديد قادم من الأرض البراح والهواء الطلق نفسه متربعاً في قصر ملكية من الطراز القديم .

ويحدثنا التاريخ فى حال الجمهورية الرومانية عن أول « مجتمع إرادة » كبير فى التاريخ أى أول مجتمع حر حجمه أكبركثيراً من حجم مدينة ، ويخبرنا كيف دب الوهن إليه مع نموه وتبددت قواه مع النجاح الذى أصابه ، حتى استسلم أخر الأمر لملكية من

الطراز القديم ، ثم انحل سريما إلى مجتمع من أشد مجتمعات المذلة ضعفا ، منهارا أمام حفنة صغيرة من الغزاة . ولقد أولينا في هذا الكتاب بعض انتباهنا إلى عوامل ذلك الانحلال ، لأن لها أهمية جوهرية في التاريخ الانساني ، ومن أوضح تلك العوامل الافتقار إلى منظمة واسعة النطاق للتعليم لتؤسس وتبني عقول المواطنين العاديين على فكرة حدمة الجمهورية والارتباط بها ، أعنى على الابقاء عليهم راغيين فلا ذوى ارادة » ؛ وثمة عامل آخر هو غياب كل وسيلة للإعلام العام تكفل دوام الانسجام بين أوجه نشاطهم ، وتمكنهم منأن « يصدروا إرادتهم » كهيئة واحدة وشخص واحد ، في أن القيود التي تفرض على إمكانيات « مجتمع للمعرفة » هي التي تحدد حجم « مجتمع الإرادة » . ولم يصبح تركيز الملكية والأملاك في أيد قليلة وإحلال الرقيق عمل العمال الأحرار ، في الإمكان إلا بسبب الحلال الروح الغبرية العامة (٢) (Public Spirit)

وفضلا عن ذلك لم يكن هناك أية فكرة دينية ذات كفاية تستند إليها اللولة الرومانية؛ فإن عقيدة روما الإرورية (الإرسكية) الغامضة الباحثة عن الكبد المختلج (۲) كانت لا تقل في سوء تكيفها والاحتياجات السياسية في مجتمع ضمخم ، عن الشامانية الشديدة الشبه بها لدى المغول. والواقع أن السر فيا بلغته المسيحية والإسلام من الأهمية التاريخية الهائلة إنما يكون أن كلامن العقيدتين على طريقتها المميزة قد وعدت على الأقل أن تملأ لأول مرة في الحبرة الإنسانية تلك الثغرة الواضحة في نظام الجمهورية الرومانية وفي تاريخ المترحلين ، وذلك بتقديم تعليم أخلاقي مشرك لجمهرة من الناس وبتزويدهم تاريخ مشرك للماضي وفكرة مشركة لهدف إنساني ومصير إنساني. وقد حادد كل من أفلاطون وأرسطو كما لحظنا آنفا عدد المجتمع المثالي في حدود بضعة آلاف من المواطنين ، إذ أنهما لم يستطيعا أن يتصورا أن في الامكان أن يترابط بعواطن المعكرة مشركة . إذ لم تكن لديهما أية خيرة بأى نوع من التعليم يتجاوز طرائق التعليم بواسطة العرفاء والمؤدبين الحصوصيين المتبعة في زمانهما . ذلك أن يتجاوز طرائق التعليم بواسطة العرفاء والمؤدبين الحصوصيين المتبعة في زمانهما . ذلك أن التعليم عنا. الإغريق أوشك أن يكون تلقيناً شفوياً (Viva Voce) عضاً ، ومن ثم فمجاله لا يتسع إلا لأرستقر اطية محدودة العدد . على حين أظهر كل من الكنيسة المسيحية لا يتسع إلا لأرستقر اطية محدودة العدد . على حين أظهر كل من الكنيسة المسيحية الا يتسع إلا لأرستقر اطية محدودة العدد . على حين أظهر كل من الكنيسة المسيحية الا يتسع إلا لأرستقر اطية محدودة العدد . على حين أطهر كل من الكنيسة المسيحية المسيحية الماضية المسيحية المسيحية المحدودة العدد . على حين أطهر كل من الكنيسة المسيحية المسيحي

(٢) أنظر في ذلك المجلد الثاني من المعالم . (المترجم)

⁽١) الروح الفيرية العامة : هي تلك الروح التي تدفع الأفراد إلى خدمة المجتمع والمحافظة عليه عن طواعية ورضا . (المترجم)

والإسلام عدم سلامة ذلك التحديد وخطأه . وربما جال بخاطرنا أنهما قاما بواجبهما في التعليم داخل ميادين فرصهما الفسيحة قياماً فجاً أو سيئاً ، ولكن محور الاعتمام عندنا الذي يعنينا في هذا الشأن إنما هو مجرد قيامهما بهذا العمل . ققد قام كل منهما بدعايات تكاد تملأ العالم حول الفكرة والإلهام . واعتمد كل منهما بنجاح على قوة « الكلمة المكتوبة » في ربط جماهير عظيمة من أناس متنوعين مختلفي المشارب ربطاً يضمهم في مساع وجهود مشتركة .

ولما وافى القرن الحادى عشر ، كانت فكرة المسيحية قد فُرِضت كما سبق أن رأينا ، على ذلك الخليط المتقاتل فى الإمبراطورية الغربية المهشمة المتناثرة وعلى أوربا وراء حدود الإمبراطورية بكثير ، بوصفها فكرة موحدة ملهمة . فكونت « مجتمع إرادة » ضحلا رقراقاً ولكنه فعال ، فوق منطقة لم يسبق لها مثيل فى الاتساع ، وبين جمهور من الكائنات الإنسانية لم يسبق له ضريب فى العظم . وكان اليهود يربطون بالفعل شتات مجتمعهم بالتعليم النسقى المنتظم فى بداية الحقبة المسيحية على الأقل . ولم يحدث شيء كهذا لأى شطر عظيم من البشرية فى أى عصر من عصور التاريخ إلا مرة واحدة ، وكان ذلك هو فكرة « مجتمع السلوك الحسن » التى نشرها الأدباء (Literati) فى كافة أرجاء الصن .

وقدست الكنيسة الكاثوليكية ما كان يُعنوزُ الجمهورية الرومانية : وهو نظام من التعليم الشعبي العام ، وعدد من الجامعات وبعض طرائق النواصل الذهني . وبهذا العمل الجليل مهدت السبيل أمام الاحتمالات الجديدة للحكم البشرى التي أصبحت الآن واضحة جلية في هذه « المعالم » ، وهي احتمالات ما تزال موضع الخشية من الناس كما نزال في دوو التكوين في العالم الذي نحيا بين ظهرانيه . وكانت حكومة أية دولة حتى آن ذاك ، إما أن تكون استبدادية يتولاها اتحاد يجمع بين الكاهن والعاهل لا ينتقده منتقد ولا يتحداه متحد ؛ أو ديمقراطية لا تتلتي تعليا ولا إعلاماً ، وتنحل وتنحل وتنتكس حين تبلغ أى قسط جسيم من زيادة سعة الرقعة ، منحطة إلى مجرد حكم للرعاع ورجال السياسة كما فعلت روما وأثينا . ولكن عند ما حل القرن الثالث عشر كانت قد بزغت أول إشارة تلوح بمثل أعلى للحكومات لا يزال إلى الآن يشق طريقه كانت قد بزغت أول إشارة تلوح بمثل أعلى للحكومات لا يزال إلى الآن يشق طريقه (١١ ـ معالم)

نمو التحقيق ، وهو المثل الأعلى العصرى : المثل الأعلى القاضى بإنشاء «حكومة تعليمية » للعالم أجمع ، لا يكون فيها الرجل العادى عبداً لملك مطلق ولا لدولة يحكمها ديماجوج ، بل يكون عضواً فى المجتمع يتلتى الإعلام ويوحى إليه ويستشار . ويجب أن يوجه التشديد والعناية إلى كلمة « التعليمية » هذه ، وإلى الفكرة القائلة بأن « الإعلام » ينبغى أن يسبق الاستشارة .

وتحقيق هذه الفكرة تحقيقاً علياً ، وأعنى بذلك أن التعليم وظيفة جماعية وليس علا خاصاً — نقطة أساسية يكمن فيها أحد الفوارق الجوهرية التى تميز «الدولة العصرية » من أية دولة أخرى سبقها . وقد شرع الناس أن يدركوا أن المواطن العصرى يجب أن يتلتى الإعلام أولا ثم يستشار بعد ذلك ، فلا بد له قبل إعطاء صوته من سماع الأدلة والبينات . ولا بد له أن يعرف قبل أن يمكنه أن يفصل . وليس يكنى أن تقام غرفات الانتخابات وصناديقها ، بل أن توسس المدارس وأن تجعل الكتب والمعرفة والأخبار في متناول الناس جميعاً ، حتى ينفتح الطريق الذي ينقل الناس من العبودية والارتباك إلى تلك الدولة التعاونية بالإرادة والرضا التي هي المثل العصرى الأعلى . فالأصوات الانتخابية في حد ذاتها أشياء لا قيمة لها ولا وزن . فقديماً كان للناس في المطاليا أصوات في زمن أسرة جر اكوس (Gracchi) . ولكن أصواتهم لم تنفعهم بشيء . ذلك أن حيازة الرجل للصوت الانتخابي تكون أمراً خطراً أو شيئاً لافائدة تجني من ورائه حتى يحصل الرجل على تعليمه . وليس المجتمع المثالي الذي نتجه صوبه « يجتمع ألم الذي نتجه صوبه وطاعة » . والتعليم هو المكينف الذي يجمل روح الحرية والاعتماد على الذات عند وطاعة » . والتعليم هو المكينف الذي يجمل روح الحرية والاعتماد على الذات عند البدوى المترحل يستقيم مع ألوان التعاون ومع الثروة والأمن التي تستظل بها الحضارة .

٢ ـ أوربا تشرع في التفكير لنفسها

لا جدال فى أن الكنيسة الكاثوليكية بما اعتمدت عليه من دعايات واحتكامات إلى الرأى العام ومن مدارس وجامعات ـ قد هيأت السبيل لاحتمال قيام الدولة التعليمية المصرية فى أوربا ، غير أن من المحقق كذلك أن الكنيسة الكاثوليكية لم تتعمد قط

فعل ذلك قصداً . فهى لم ترسل المعرفة فى صحبة بركاتها ، بل هى أطلقت سراحها عفواً وعن غفلة وتهاون ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية ترى نفسها وريثة للجمهورية الرومانية ، بل للإمبراطور الروماني . ولم يكن تصورها عن التعليم هو إطلاق السراح له ، ولا الدعوة المشاركة فيه ، وإنما هو إخضاع العقول . وهناك اثنان من كبار المعلمين فى القرون الوسطى لم يكونا فى الواقع من رجال الكنيسة بتاتاً ، بل كانا ملكين ومدبترى دولة هما : شرلمان ، وألفريد الكبير ملك انجلترة ، اللذان استخدما هيئة الكنيسة ومنظاتها . ولكن الحتى أن الكنيسة هي التي أمدتهما بالمنظات . وكان كل من الكنيسة والملك فى صراعهما المتبادل على القوة والسلطان يستنجد بأفكار الرجل العادى . ومن ثم يظهر الرجل العادى على القوة والسلطان يستنجد بأفكار الرجل العادى . ومن ثم يظهر الرجل العادى استجابة لاحتكام هذين الحصمين إليه ، وهو الرجل الخارجي المستقل غير الموظف الذي يفكر لنفسه .

ولقد رأينا فعلا فى القرن الثالث عشر البابا جريجورى التاسع والإمبر اطور فردريك الثانى مشتبكين فى خصومة علنية عامة عنيفة . فكأنه كان هناك بالفعل إذن إحساس بأن قد ظهر فى العالم حكم جديد أعظم من البابا والملكية جميعاً ، أى أن هناك قراءاً ورأياً عاماً . وأفضى خروج البابوات إلى أثينيون وانقسامات البابوية واضطرابها أثناء القرن الرابع عشر إلى تنبيه ذلك « الحكم الحر » على السلطة فى كل أرجاء أوربا تنبهاً هائلا .

وابتدأ الأمر بأن اقتصر النقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية ليس غير . فإن ثراء كبار رجال الإكليروس وترفهم والضرائب البابوية الفادحة . كانت رأس أسباب الشكوى . كما أن المحاولات الأولى التي بذلت لاستعادة البساطة المسيحية الأولى ، كتأسيس جماعة الرهبان الفرنسسكين مثلا ، لم تكن حركات فيرقة وانفصال ، بل حركات نهضة وانتعاش . ولم يتطور النقد فيغدو أكثر عمقاً وأشد تدميراً إلا بعد ذلك بفترة من الزمان يوم أخذ يوجه سهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكنيسة ، ومبررات أهمية القسوس وأعنى بها نقايم القرابين في الصلاة .

وُقد سبق لنا أن رسمنا لك في صورة إجمالية البدايات الباكرة للمسيحية ، كما

بينا كيف أنه سرعان ما حدث لتلك الحاطرة العسيرة المتزمتة ، خاطرة ملكوت الرب التي كانت الفكرة المركزية في تعاليم يسوع النَّاصري ، أن غطى عليها ابتعاث الفكرة القربانية العتيقة . وهي في واقع الأمر مبدأ أصعب فهما ، ولكن التوفيق بينه وبين عادات وميول وخنوع الحياة اليومية فى الشرق الأدنى أيسر وأسهل . ولحظنا كيف أن ضرباً من تمازُج العقائد (الثيوقرازيا) حدث بين المسيحية واليهودية ونحلة السرابيوم والمراثية والنحل الأخرى المتنافسة ، وتم به تطعيم الديانة الناشئة ــ وهي بعد في مراحل التطور – بيوم الأحد المثرائي ، وفكرة اليهود عن الدم بوصفه ضرورة دينية ، والأهمية التي ناطتها الإسكندرية بأم الرب ، والقسيس الحليق الصوّام ، والزاهد المعذب لنفسه ، وأمور أخرى كثيرة من الإيمان والطقوس والمارسة . فهذه التكيفات قد جعلت ولا شك التعاليم أدنى كثيراً إلى الأفهام وأكثر قبولا في مصر وسوريا وما أشبههما من بلاد . كانت أموراً تتمشى مع طريقة تفكس الحنس الأبيض الداكن في البحر المتوسط ؛ كانت موائمة لفطرة ذلك الطراز من العرب _ كما سبق أن أظهرناك على ذلك في قصة محمد (ص) _ بل كانت تلك المظـاهر تجعلها في رأيهم منتَفَّرة كريهة . وكذلك أيضاً يلوح أن الراهب الحليق والراهبة والقسيس أثاروا شيئاً يقارب العداوة الغريزية عند الهمج (البرابرة) النورديين في الشهال والغرب. ولحظنا العداء الغريب الذي أبداه الأنجلوسكسون وأهل الشمال نحو الرهبان والراهبات . ويخيل إلينا أنهم شعروا أن حياة هؤلاء المتبتلين القانتين وعاداتهم كانت شاذة غير طبيعية .

ومما زاد كثيرًا فى أوار الصدام بين ما نسميه العوامل « البيضاء الداكنة » والعناصر الأحدث منها فى المسيحية ، أن البابا جريجورى السابع فرض العزوبة على القسوس الكاثوليك فى القرن الحادى عشر . وقديما عرف الشرق رجال الدين العزّاب منذ آلاف السنين ولكن الغرب كان ينظر إليهم نظرة التشكك والريبة .

وفى القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وبينما عقل الشعوب النوردية ذو النزعة المدنيوية آخذ بأسباب تحصيل العلم وشرع يتعلم القراءة والكتابة والتعبير عن النفس ،

وبيها هو يتصل بما اجتمع للذهن العربى من مناشط منهة ، نجد الكاثوليكية تتلقى بداية نقد أعظم قوة بكثير ، ونلحظ هجوماً عقلياً على القسيس بوصفه قسيساً ، وعلى مراسم القداس بوصفه الحقيقة المركزية فى الحياة الدينية ، هجوماً مصحوباً بطلب العودة إلى تعاليم يسوع الشخصية كما هى مسجلة فى الأناجيل .

أسلفنا إليك ترجمة ويكليف الإنجليزى قرابة (١٣٢٠ – ١٣٨٤) وبينا كيف ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية لكى يقيم سلطة مناهضة لسلطة البابا . وقد شهر ويكليف بمبادى الكنيسة المتعلقة بالقداس ناعتاً إياها بأنها خطأ ذريع ، وبخاصة تلك التعليمة القائلة بأن الحبر المقدس الذى يتناول فى ذلك الطقس يصبح بطريقة ما سحرية هو الجسم الفعلى للمسيح . ولن نحاول أن نتتبع موضوع « استحالة المادة »(١) كما تسمى عملية التغيير السرى للعناصر فى « القربان المقدس » – تتبعاً يتغلغل بنا إلى دقائق معقداتها . فإن هذه أمور تترك للإخصائى فى علم اللاهوت . ولكن من الواضح أن ذلك المبدأ الكاثوليكى الذى يجعل تقديس العناصر « القربان المقسس وحده ، والذى يجعل » القربان المقسس وحده ، والذى يجعل » القربان المقدس » عملية يعجل » القربان المقدس » هو الضرورة المركزية فى النظام الدينى ، إنما يزيد أهمية هيئة القساوسة زيادة هائلة .

على أن وجهة النظر الأخرى – وهى وجهة النظر «البروتستانتية » الأساسية القائلة بأن هذا « القربان المقدس » إنما هو مجرد تناول للخبز وشرب للنبيذ يتخذان على سبيل الذكرى الشخصية ليسوع الناصرى – لا بد أن تقضى آخر الأمر على كل احتياج خاص إلى قسيس متكرس .

ولم يذهب ويكليف نفسه إلى هذا الحد المتطرف، إذ أنه كان قسيساً كما أنه بنى كذلك حتى نهاية حياته ، وكان يرى أن الله حاضر روحياً إن لم يكن حضوره مادياً في الحيز المقدس ؛ ولكن مبدأه أثار مسألة دفعت الناس بقوة حتى أبعلتهم عن

⁽۱) استحالة المادة Transubstantiation : تحول الخبز والنبيذ أثناء طقس « التناول » إلى جسد المسيح ودمه . (المترجم) تاريخ الإنسانية جـ٣

وجهات نظره . وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر المؤرخ رأينا الكفاح مع روما الذي بدأه ويكليف سرعان ما أصبح كفاحاً ناشباً بين ما قد نسميه الديانة العقلانية أو ديانة الرجل العلمإنى ، التي أخذت تحتكم إلى ما للبشرية من ذكاء حر وضمير حر وبين الديانة المستبدة التقليدية الطقوسية الكهنوتية . وكان الاتجاه النهائى في هذا الكفاح المعقد هو تجريد المسيحية حتى تصبح كالإسلام عارية تماماً من كل أثر من آثار الكهانة العتيقة ، والانقلاب إلى وثائق الكتاب المقدس بوصفها حجة يستند إليها وإلى استرجاع تعاليم يسوع الأصلية إن كان ذلك في الإمكان . ولا يزال غالب ما أثير في ذلك الكفاح من خصومات قائماً لم يفصل فيه بين المسيحيين غالب ما أثير في ذلك الكفاح من خصومات قائماً لم يفصل فيه بين المسيحيين عومنا هذا .

ولم تكن كتابات ويكليف أعظم أثراً فى أى مكان منها فى بوهيميا . ففى قريب من (١٣٩٦) ألتى عالم تشيكى اسمه چون هسّ ؛ سلسلة من المحاضرات فى جامعة . پراج تقوم على مبادئ المعلم الاكسفوردى العظيم . وعين هس عميداً للجامعة ، وأثارت تعاليمه الكنيسة حتى أصدرت عليه قرار الحرمان (١٤١٢) .

كان هـ أن إبان و الصدع الكبير » ، قبيل انعقاد مجلس كونستانس (١٤١٤ – ١٤١٨) للبحث فيا ترد تنه الكنيسة من فوضى شائنة . وقد حدثناك آنفا كيف انهى الصدع بانتخاب مارتن الحامس . وكان الحجلس يطمح أن يعيد إلى المسيحية وحدتها إعادة كاملة . ولكن الوسائل التي حاول بها إعادة تلك الوحدة لا تتفتى وضميرنا العصرى . فإنه قضى بإحراق عظام ويكليف . واستدرج هس حتى ذهب إلى كونستانس منخدعاً بوعد منهم بضمان سلامته ، وعثد ذلك قدم للمحاكمة بتهمة الزندقة (الهرطقة) . وأمر أن يسحب بعض آرائه . فأجاب بأنه لا يستطيع أن يسحب شيئاً حتى يقنعوه بخطئه . فأبلغوه أن من واجبه أن يسحب وبالرغم من ضمان الإمبراطور لسلامته ، فإنه أحرق حياً (١٤١٥) ، فذهب شهيداً وبالرغم من ضمان الإمبراطور لسلامته ، فإنه أحرق حياً (١٤١٥) ، فذهب شهيداً من جل مبدأ معين ، بل من أجل ذكاء البشرية الحر وضميرها الحر .

ومن المستحيل أن يعرض الإنسان النزاع بين القسيس وعدو القسيس على صورة أوضح مما تجلى في محاكمة چون هس هذه ، أو أن يوضح شيء أكثر منها الروح الشريرة المنبثة في أساليب رجال الكهنوت . وفي السنة التالية أحرق زميل لهس هو جيروم البراجي .

وتمخضت هذه الاعتداءات عن عصيان قام به أتباع هس فى بوهيميا (١٤١٩) ، وهو أول حلقة فى سلسلة من حروب دينية تسجل انقسام المسيحية . وفى (١٤٢٠) ، أصدر البابا مارتن الخامس مرسوماً يتعلن حرباً صليبية « للقضاء على جميع أتباع ويكليف وهس وكل من عداهم من الحراطقة فى بوهيميا » ، واستهوت هذه الدعوة الجنود المرتزقة العاطلين وكل وغد عاطل من أعوان السوء المتجولين فى أوربا فأطبقوا على القطر الشجاع من كل صوب . فوجدوا فى بوهيميا تحت قيادة زعيمها العظيم زيسكا ، متاعب أكثر وغنائم أقل مما يطمع الصليبيون أن يلقوه . وكان أتباع هس يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية متطرفة ، وانبعثت الحاسة متأججة ضراماً فى يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية متطرفة ، وانبعثت الحاسة متأججة ضراماً فى واللاد جمعاء . وحاصر الصليبيون مدينة پراج ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها : ولقوا سلسلة من الهزائم انتهت براجعهم عن بوهيميا . وجرت حرب صليبية تائية ولقوا سلسلة من الهزائم انتهت براجعهم عن بوهيميا . وكذلك أخفقت حربان صليبية تائية أخريان ، ثم حدث لسوء الحظ أن دب بين الهسيين دبيب الخلافات الداخلية . وتشجع الصليبيون بهذا النزاع فعرت الحدود قوة خامسة (١٤٣١) بقيادة فردريك مارجريڤ (١٤٢١) براندنرخ .

وكان جيش هؤلاء الصليبين يتكون - حسب أقل التقديرات - من ٩٠ ألفاً من المشاة ، و٤٠ ألفاً من الفرسان ولما كانوا يهاجمون بوهيميا من الغرب فإنهم ألقوا الحصار أولا على تاخوف (Tachov) ، ولكنهم وقد فشلوا فى الاستيلاء على تلك المدينة المنيعة التحصين ، فتحوا عنوة مدينة موست الصغيرة ، وفها وفى الريف المحيط بها ، اقترفوا من الفظائع أنكرها ، مع سكان كان قسم كبير منهم بريئاً تمام البراءة من التشيع لأى لاهوت .

⁽١) مارجريث (Margrave) لقب لأمراء بأعيانهم في للدولة الرومانية المقدسة . (المترجم)

وواصل الصليبيون توغلهم فى بوهيميا وهم يسيرون سيراً بطيئاً ، حتى أصبحوا على مقربة من مدينة دومازليك (تاوس) . « وكان أن حدث في الساعة الثالثة من اليوم الرابع عشر من أغسطس (١٤٣١) ، أن تلتى الصليبيون وقد عسكروا في السهل الواقع بين دومازليك وهورسوڤ تاين ــ الأخبار بأن أتباع هس يقتربون تحت قبادة پركوپ الكبير . ومع أن البوهيميين كانوا ما يزالون على مبعدة أربعة أميال ، فإن جلجلة عرباتهم الحربية وأغنيتهم : أيها المحاربون في سبيل الله ــ التي كان تبخرت حماسة الصليبيين بسرعة مدهشة . ويصف لوتزو(١) كيف اعتلى مندوب البايا ودوق سكسونيا تلا يستطيعان منه الاطلاع على الميدان . فعرفا من بوادره أنه لن يكون معترك قتال . ذلك أن المعسكر الألماني كان في اضطراب تام . فكان الخيالة ينثالون منصرفين عنه في كل صوب ، وكانت جلجلة المركبات الخالية وهي تساق خارج الميدان ، تكاد تطغى على ذلك الغناء الرهيب . وكان الصليبيون يتخلون عن كل شيء حتى غنائمهم . وجاءت رسالة من مارجريڤ براندنبرج ينصح فيها بالهرب ؛ فلم يعد هناك من سبيل إلى السيطرة على أى فريق من جنودهم . فَكَأْنَهُم لَم يعودوا الآن خطرين إلا على جانبهم هم دون غيرهم . وقضى مندوب البابا ليلة غير سعيدة مختبئاً منهم في الغابة . . . وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية البوهيمية .

وفى (١٤٣٤) نشبت الحرب الأهلية مرة ثانية بين أتباع هس وانتهت بهزيمة القسم المتطرف الأشد شجاعة ، وعقد اتفاق فى (١٤٣٦) بين مجلس بال وبين المسين المعتدلين ، سمح فيه للكنيسة البوهيمية بأن تحتفظ بفروق معينة تميزها عما يمارسه الكاثوليك عامة ، وهي تسوية ظلت سارية حتى أوان الإصلاح الديني الألماني في القرن السادس عشر .

⁽١) كتاب بموهيميا تأليف لوتزو .

٣ ـ الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية

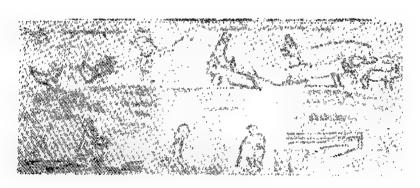
كان الانقسام بين أتباع هس راجعاً في معظم أمره إلى انجاه القسم المتطرف منهم إلى اعتناق نوع بدائى من الشيوعية أزعج طبقة النبلاء التشيكيين الأوفر ثروة ونفوذاً. ومن قبل ذلك ظهرت نزعات مشابهة لهذه بين أتباع ويكليف من الإنجليز. ويلوح أن تلك النزعات تجيء كنتيجة جد طبيعية لمبادئ المساواة والأخوة الإنسانية التي تنبعث حيمًا حدثت محاولة للعودة إلى القواعد الأساسية للمسيحية.

ومما ساعد على زيادة التطور في هاته الفكرات زيادة عظيمة كارثة هائلة اجتاحت العالم وكشفت عن أسس الجاعة الإنسانية كشفاً ذريعاً جردها تماماً للعيان . وهي وباء لم يسمع الناس بمثل ذراعته وفتكه . أطلق عليه الناس اسم الموت الأسود ، وقد أوشك أن يقضى على البشرية أكثر من أى شر أصابها قبل ذلك. كان أشد فتكاً بكثير من طاعون يريكليس ، أو طاعون ماركوس أوريليوس ، أو موجات الطاعون في أيام چستنيان وجريجورى العظيم التي مهدت السبيل أمام اللومبارد في إيطاليا . نشأ ذلك الوباء في جنوب الروسيا أو آسيا الوسطى ، وانتقل بطريق بلاد القرم وبوساطة سفينة چنوية إلى چنوة وأوربا الغربية . ومرَّ من أرمينية إلى آسبا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا . ووصل إلى إنجلترة في (١٣٤٨) . فمات به كما يحدثوننا ثلثا الطلاب بأوكسفورد ، ويقدر عدد من هلك به في ذلك الأوان بما يتراوح بين ربع ونصف سكان انجلترة . وكان عدد الوفيات في كل أرجاء أوربا كافة يقارب هذا المقدار في العظم . ويقدر هيكُمْر مجموع الموتى بخمسة وعشرين مليوناً . وانتشر الوياء شرقاً إلى المصين حيث تقول السجلات الصينية إن ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس هلكوا . ويقول الدكتور ك . ستاليبر اس : إن هذا الطاعون وصل الصن بعد ظهوره لأول مرة في أوربا بثلاثين أو أربعين سـنة . ولقيه ابن بطوطة الرحالة العربي الذي أقام في الصين من (١٣٤٢ إلى ١٣٤٦) ـ لأول مرة وهو في طريق عودته إلى دمشق . والموت الأسود هو الصورة البشرية لمرض متوطن بين اليرابيع^(١) والقوارض الصغيرة

⁽١) اليربوع : دويبة نحو الفارة لكن ذنبه وأذناه أطول سَها ورجلاه أطول من يديه . (المرجم)

الأخرى في المناطق المحيطة برأس بحر قزوين . وبلغ من شدة الاضطراب الاجتماعي المترتب عليه في الصين أن أهملت جسور الأنهار: فغمرت الفيضانات العظيمة - نتيجة لهذا - الأراضي الزراعية المزدحة بالسكان .

ولم يسبق الإنسانية أن تلقت قبل ذلك تحذيراً على مثل هذه الدرجة من الوضوح يحدوها على طلب المعرفة والكف عن المنازعات وإلى الاتحاد ضد قرى الشرق الطبيعة . وما كانت جميع مذابح هولاكو وتيمورلنك تعد شيئاً بالقياس إلى هذا . ويقول ج . ر . جرين « إن فتكاته كانت أشد ما تكون عثفاً في المدن الكبرى حيث كانت الشوارع القذرة التي لا تصريف لمياهها تهيئ للجزام والحمى مباءة لا ينضب معينها . ويقال إنه دفن أكثر من خسين ألف جثة في الجبانة التي اشتراها السير والتر مائي بدافع التقوى لسكان مدينة لندن ، وهي التي يحدد موضعها فيا بعد بموضع الشارتر هاوس (١) (Charter House) . وهلك آلاف من الناس في نورويتش الابشق الأنفس .



(شكل ١٥٥) مشاهد من حياة الفلاحين منقولة عن أحد كتب الأدعية

« على أن الموت الأسود قد انقض على القرى بقوة تقارب فى عنفها حالته فى المدن . والمعروف أن أكثر من نصف قسوس يوركشير لقوا حتفهم ؛ وخلت

⁽١) ملجاً بلندن للمسنين المتقاعدين . (المترجم)

مناصب ثلثى الأبروشيات فى أسقفية نورويتش فشغلها آخرون ؟ وفسد نظام العمل بأكمله . وصار من العسبر على صغار المستأجرين أن يقوموا بالخدمات اللازمة لأراضهم لقلة اليد العاملة ، ولم يحمل الفلاحين على الامتناع عن هجر مزارعهم إلا تنازل أصحاب الأراضي تنازلا مؤقتاً عن نصف الإيجار . وأصبحت الزراعة مستحيلة ردحاً من الزمان . ويقول معاصر : إن الأغنام والماشية كانت تهيم على وجوهها في الحقول والقمح لا تجد من يتصدى لدفعها » .

ومن هذه النوازل نشأت حروب الفلاحين في القرن الرابع عشر . إذ حدث هناك نقص كبير في اليد العاملة ونقص كبير في السلع ، وكان الرهبان الأغنياء والأدبرة الثرية الذين كانوا يملكون قدراً عظيما من الأراضي ، والنبلاء والتجار الموسرون ، من الجهل بالقوانين الاقتصادية بحيث لم يدركوا أنه لا يحسن بهم أن يضغطوا على العمال ، الكادحين في زمان المحنة العامة ذاك . فرأوا أملاكهم تتداعي ورأوا أراضيهم تبور ولا تزرع ، وأصدروا اللوائح القاسية لإجبار الرجال على العمل دون أي زيادة في الأجور ولمنع فرارهم بحثاً عن عمل أفضل . وطبيعي جداً أن يستثير هذا « تمرداً جديداً على نظام عدم المساواة الاجتماعي بأكمله وهو الذي ظل حتى ذلك اليوم معمولا به لا يناقشه أحد حساباً بوصفه النظام الذي قضت به الإرادة الإلهية للعالم . ووجدت صيحة الفقراء ترجماناً فظيماً هو قسيس « قسيس مجنون من كنت » – كما يسميه فرو اسار(١) (Froissart) المؤرخ (١٣٦٠-١٣٨١) - فإنهذا القسيس ظل عشرين سنة يلتي بالفلاحين الأشداء الذين كانوا يجتمعون في أفنية كنائس كنت ويجد فيهم جمهوراً يستمع لمواعظه التي تحدى بها الحرمان الديني والسجن . ومهما يكن مجنوناً ، كما كان أصحاب الأراضي يسمونه ، فلقد أصغت إنجلترة لأول مرة في مواعظ چون بول (John Ball) إلى إعلان بالمساواة الطبيعية وحقوق الإنسان وكان ذلك الواعظ يصيح : «أمها الناس الطيبون ، لن تستقيم الأمور في إنجلترة ما ظلت السلع في غير متناول الجميع ، وطالما كَانَ هَنَاكُ سُوقَةً وَسَادَةً ﴿ چَنْتُلَمَانِيةً ﴾ . فبأىحق يكون من نسميهم لوردة (٢) أناساً أعظم منا ؟ وعلى أي أساس استحقوا ذلك ؟ ولماذا يتخذون منا موالى للأرض؟ وما دمنا

⁽۱) هو چان فرواسار (۱۳۳۸ -۱۲۱۰ ؟) المؤرخ الفرنسى ، الذي عاش بفرنسا و انجلترة ومات قسيسا لشيماى . (المترجم)

(۲) اللوردة : جمع لمورد ، كما أن الجنتلمانية جمع چنتلمان . (المترجم)

جميعاً ننحدر من أب واحد وأم واحدة ، من آدم وحواء ، فأنى كان لهم أن يقولوا أو يقيموا البرهان على أنهم خير منا ؟ إن لم يكن لأنهم يجعلوننا نكسب لهم بكدحنا ما ينفقونه في كبريائهم ؟ فهم برتدون القطيفة ويستدفئون بفرائهم وقاقمهم (١) النمين ، على حين لا يستر أبداننا إلا الأسمال ؟ لهم الحمر والأفاويه والحبز الأبيض ، فأما نحن فأقراص الشوفان مطعماً والوقش مرقداً والماء شراباً . ولديهم أوقات الفراغ والمنازل الجميلة . ولدينا الألم والنصب والعمل ، والريح والمطر في الحقول . ومع ذلك فنا وعلى أكتاف كدحنا يحتفظ هو لاء الناس بما هم عليه من أبهة » . وثمة نغم قتمال لنظام العصور الوسطى بأكله انطلق في أغنية شعبية فبلور مبدأ التسوية نغم قتمال لنظام العصور الوسطى بأكله انطلق في أغنية شعبية فبلور مبدأ التسوية الذي قال به چون بول وهو «عندما كان آدم يعزق الغيطان وتغزل حواء الخيطان من ذا كان الجنتلمان ؟ » .

واغتيل ، وات تيلر (Wat Tyler) زعيم العصاة الإنجليز على يد عمدة لندن بحضرة الملك الشاب ريتشارد الثاني (۱۳۸۱) فانهارت حركته .

وكانت الناحية الشيوعية في حركة أتباع هس فرعاً من تلك المجموعة من الإضطرابات. وحدث قبيل شبوب الثورة الإنجليزية ، أن شبت نار « المجاكرى الفرنسية Jacquerie (١٣٥٨) وهي ثورة الفلاحين الفرنسيين التي قاموا فيها بإحراق القصور والعيث فساداً في نواحي الريف المحيطة بهم . وقدر لنفس ذلك الدافع الملح أن يجتاح ألمانيا بعد ذلك بقرن من الزمان جارفا إياها في سلسلة من حروب الفلاحين الدامية . وابتدأت هذه الحروب متأخرة في القرن الحامس عشر . وكانت الاضطرابات الاقتصادية والدينية نحتلطة بعضها ببعض حالة ألمانيا على صورة أوضح منها في حالة إنجلترة .

وهناك دور بارزلهذه الاضطرابات الألمانية هو ثورة التعميديين(٢) . ظهرت شيعة التعميديين في وتنبرج (١٥٢١) برياسة ثلاثة « أنبياء » وانقلبت إلى عصيان

⁽١) القاقم : فواء حيوان من فصيلة بنات عرس . (المترجم)

⁽٢) النعميديون Anabaptists : طائفة دينية كانت تعتقد بوجوب التمميد بالنمر الكامل في الماء المقدس ، ووجوب إعادة التعميد عند سن الشباب . (المترجم)

(١٥٢٥) . وظل العصاة بين (١٥٣١ – ١٥٣٥) قابضين على مدينة مونسر (Munster) بمقاطعة وستفاليا ، وبذلوا قصاراهم لتحقيق فكراتهم الخاصة بشيوعية دينية . فحاصرهم أسقف مونستر ، ودب فى المدينة تحت ضغط ويلات الحصار ضرب من الجنون ، فيقال إنهم أكلوا لحوم البشر ، وقبض على السلطة شخص معين بدعى چون الليدني (Leydén) ، وأعلن نفسه خليفة للملك داود ، واقتدى بقدوة ذلك العاهل السيئة بمارسته تعدد الزوجات . وبعد تسليم المدينة أمر الأسقف المظفر بزعماء التعميدين فعذبوا نعذيباً مرعباً جداً ، ثم أعدموا فى ساحة السوق ، وعلقت جشهم بعد التمثيل بها فى أقفاص مدلاة من برج إحدى الكنائس لتشهد أمام العالم أجمع أن الوقار والنظام قد أعيدا إلى مونستر !!

هذه الثورات التي قام بها العالى العاديون في الأقطار الأوربية الغربية في القرنين الرابع عشر والحامس عشر ، كانت أكثر خطورة وأطول أمداً من كل ما سبقها من أحداث التاريخ . وأقرب الأحداث السابقة شبهاً بها ، حركات إسلامية شيوعية حدثت في فارس . وقد حدثت ثورة للفلاحين في نورمائدي قرابة (١٠٠٠ م) ، كما حدثت ثورات للفلاحين (باجوداي Bagoudae) في الإمبر اطورية الرومانية الشرقية ، ولكن هذه لم تقارب تلك في ضخامتها وشناعتها ، وهي كلها تظهر روحاً جديدة تنمو في الشئون الإنسانية ، وهي روح محالفة تمام المخالفة لبلادة الإحساس المستسلمة التي طبع عليها موالي الأرض والفلاحون في الأراضي الأصلية للمدنية ، أو لحالة اليأس الفوضوية لدى موالي الأرض والأرقاء العال عند الرأسمالين الرومان .

كانت كل هذه من عصيانات العال المبكرة التي ذكرنا تقمع بقساوة بالغة ، بيد أن الحركة نفسها لم تخمد قط إخماداً تاماً . فمنذ ذلك الحين إلى هذا الزمان وروح التمرد موجود في المستويات الدنيا من هرم المدنية . نعم كانت هناك أدوار عصيان ، وأدوار كبح ، وأدوار تفاهم ومسالمة نسبية ، ولكن الكفاح لم ينقطع قط انقطاعاً تاماً منذ ذلك الأوان إلى وقتنا هذا فلسوف نراه مندلعاً أثناء الثورة الفرنسية في بهاية القرن

⁽۱) الباجوداى هم خماعات الفلاحين الذين ثاروا على دولة الروم الشرقية بين القرن الثالث والحامس الميلادي . (المترج

الثامن عشر ، وسشتعلا مرة ثانية فى منتصف القرن التاسع عشر وعند مفتتح الربع الأخير منه ، ونراه يصل إلى نسب ضخمة فى عالم اليوم . ولم تكن الحركة الاشتراكية فى القرن التاسع عشر إلا صورة من ذلك التمرد المتواصل .

وقد حدث فى بعض الأحيان أن حركة العال هذه انخذت فى كثير من الأقطار ، كفرنسا وألمانيا والروسيا مثلا خطة العداء للمسيحية ، ولكن لا مجال للشك أن هذا الضغط المستمر المتزايد إجمالا الذى يظهره الرجل العادى فى الغرب ضد حياة المشقة والنصب والتبعية للغير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعاليم المسيحية . وربما لم تقصد الكنيسة ولا المبشرون المسيحيون أن ينشروا مبادى المساواة ، ولكن كان من وراء الكنيسة شخصية يسوع الناصرى التى لا يمكن إخماد نارها ولا إخفاء ضيائها ، فالواعظ المسيحى كان يجتلب معه وإن بالرغم منه ، بذور الحرية والمسئولية ، ولا بدلما إن عاجلا أو آجلا من أن تنبت وتربو حيثها بشر .

ولا شك أن هذا الجيشان المتواصل المطرد الزيادة في نفوس «العمال» ، وإنماء فيهم وعياً بأنفسهم كطبقة خاصة وبثه فكرة مطالبة العالم في جملته بمطالب محددة ، فضلا عن كثرة وجود الكتب المطبوعة فضلا عن كثرة وجود الكتب المطبوعة ووفرتها ، وفضلا عن قيام عمليات للبحث العلمي متطورة متوسعة ، هذه كلها أمور تفرق بين طراز مدنيتنا الحاضرة « المدنية العصرية » وبين أية حالة سابقة مرت بها الجماعة الإنسانية ، كما أنها تسجل عليها أنها شيء موقوت غير متقن بالرغم من كل ما نالته من نجاح عارض جاء وليد الصدفة . فهي جنين لم يتخلق بعد صورة سوية أو لعلها شيء محتوم عليه الموت . ذلك بأنها ربما استطاعت أن تحل هذه المسألة المعقدة . مسألة التوفيق بين الكدح والسعادة ، وبذلك توفق بين تفسها واحتياجات الروح الإنسانية ، أو هي ربما فشلت وانتهت بكارثة شأن النظام الروماني . وربما كانت طريقة دور افتتاح لنظام للجماعة البشرية أكثر اتزاناً وأوجب للرضي ، وربما كانت طريقة مقدراً لها أن تنمزق ، وأن تحل محلها طريقة ما من الترابط الإنساني مدبيرة بشكل عقائل لهذا .

وربما لم تزد مدنيتنا الراهنة شأن سابقتها ، عن واحد من تلك المحصولات التي يزرعها الفلاحون لتحسين تربة أراضيهم بواسطة تثبيت الأزوت (النتروچين) المستخلص من

الهواء. وربما لم تنم ُ - ' مجمّعة تقاليد بأعيانها إلا لكى تحرث فى الأرض ثانية طلباً يتلو ذلك من نبت أفضل منها . إن هذه المسائل إنما هي حقائق التاريخ العملية . وسنجدها فى كل ما يتلو هذا فى صحورة أكثر وضوحاً وأعظم أهمية حتى تنهى فى فصلنا الأخير ، كما تنتهى أيامنا وأعوامنا ، باستعراض لآمالنا ومخاوفنا - وبعلامة استفهام .

٤ _ كيف حرر الورق عقل الإنسان

كان ظهور الكتب المطبوعة عوناً هائلا لتطور البحث الحرفى أوربا أثناء هذا العصر المترع بالقلق والتخمر وكان استقدام الورق من الشرق هو الذى جعل فى الإمكان الوصول إلى طريقة الطباعة التى كمنت كموناً طال أمده . وما يزال من العسير علينا تعيين صاحب شرف السبق إلى استعال الوسيلة البسيطة ، وسيلة الطباعة لتكثير الكتب . وإنه لأمر تافه جرى حوله جدل طويل وعقيم . على أن ظواهر الأمور توئ إلى أن ذلك المجد أينًا ما كان أمره من نصيب هولندة إذ كان فى هارلم شخص يدعى كوستر يطبع بحروف متحركة فى زمان ما يسبق (١٤٤٦) . على أن جو تنبرج كان يقوم بأعمال الطباعة فى ماينز (Mainz) فى نفس ذلك الوقت تقريباً . وكان هناك طابعون فى إيطاليا فى (١٤٦٥) ، كما أن كاكستُن أقام مطبعته فى وستمنستر (١٤٧٧) . وتاريخ أول كتاب طبع فى هنغاريا هو (١٤٧٣) . على أنه كان يجرى قبل ذلك الزمان بأمد مديد استعال جزئى للطباعة . فإن مخطوطات على أنه كان يجرى قبل ذلك الزمان بأمد مديد استعال جزئى للطباعة . فإن مخطوطات مطبوعة عن اختام خشبية .

وأهم من هذا كثيراً موضوع صناعة الورق . ولا يكاد يكون من المبالغة ، القول بأن الورق جعل إحياء أوربا أمراً في حيز الإمكان . اخترع الورق في الصين ، حيث يرجع استعاله في الراجح إلى القرن الثاني ق . م . وفي (٧٥١) قام الصينيون بهجوم على العرب المسلمين في سمرقند ؛ فصدهم العرب وأسروا بعضهم ، وكان بين الأسرى جماعة من مهرة صناع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال هناك محطوطات على ورق عربي يرجع إلى القرن التاسع فما تلاه . و دخلت الصناعة في البلاد المسيحية إما بطريق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصانع الورق العربية (المغربية) إبان استعادة المسيحين بطريق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصانع الورق العربية (المغربية) إبان استعادة المسيحين

أرض أسبانيا . ولكن الإنتاج انحط ظلال الأسبان المسيحين انحطاطاً محزناً . ولم يصنع الجيد من الورق في أوربا المسيحية حتى قريب من نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا زعيمة العالم في صناعته . ولم تصل تلك الصناعة إلى ألمانيا إلا عند القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تصل إلا في نهاية ذلك الترن إلى الحد الكافي من الوفرة والرخص الذي بجعل من ممارسة طباعة الكتب حرفة تجارية ناجحة . وسارت الطباعة منذ ذلك الحين سيرها الطبيعي الضروري ، ودخلت الحياة الفكرية للعالم في دور جديد أكثر قوة بكير ، وكفت عن أن تكون رشحاً طفيفاً تنتقل قطراته من عقسل إلى عقل ، وأصبحت فيضاناً عميا ، تساهم فيه آلاف من العقول ما لبثت أنصارت وأصبحت فيضاناً عميا ، تساهم فيه آلاف من العقول ما لبثت أنصارت حلى الفور – عشرات آلاف ثم مئات آلاف .

وكانت هناك نتيجة مباشرة لهذا النجاح في مضهار الطباعة هي ظهور عدد موفور من نسخ الكتاب المقدس في العالم . وثمة أخرى هي جعل ثمن الكتب المدرسية زهيداً . وانتشرت المعرفة بالقراءة انتشاراً سريعاً . إذ لم يقتصر الأمر على زيادة عظيمة في عدد الكتب في العالم ، بل إن الكتب التي أصبحت تصنع عند ذاك ، أضحت أوضح قراءة وبذلك كانت أيسر فهماً . وبدلا من العناء والكدح فوق نص عويص (معقرب) الحط ثم التفسكير في معناه ، أصبح القراء عند ذاك يستطيعون أن يفكروا وهم يقرأون ـ دون أن يعوقهم عائق عن التفكير . ومهذه الزيادة في سهولة القراءه ويسرها ، نما عدد الجمهور عائق عن التفكير . ومهذه الزيادة في سهولة القراءه ويسرها ، نما عدد الجمهور علقارئ الكتاب عن أن يكون لعبة شديدة الزخرفة أو أحد الخفايا التي يخفيها عالم من العلماء . وشرع الناس يكتبون الكتب ليقرأها الناس العاديون مثلما يستمتعون بالنظر إلها .

ويؤذن القرن الرابع عشر بفاتحة التاريخ الحقيقي للأدب الأوربي . إذ سرعان ما نجد أن اللهجات المحلية تحل محلها الإيطالية المثلي والإنجليزية الفصحي والفرنسية المثلي والأسبانية الفصحي ثم تتبعهن الألمانية المثلي فيها بعد . وأصبحت تلك اللغات لغات أدبية كل في موطنها ، فعولجت وجربت وصقلها الاستعال وجعلها دقيقة قوية .

وأصبحت آخر الأمر على درجة من الكفاية للهوض بعبء النقاش الفلسني تعاذل ما للإغريقية أو اللاتينية من كفاية .

ه ــ بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب

هنا نوردكلمة موجزة عن الحركة التي حدثت في فكرات الناس الديئية أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهي مقدمة لا بد منها للتاريخ السياسي الذي بعقب ذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

غير أنه لا بد لنا أن نميز تميزاً واضحاً بن طريقتين مختلفتين كل الاختلاف لمعارضة الكنيسة الكاثوليكية . وهما تتشابكان على مر الآيام تشابكاً يورث التبلبل والحيرة كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضائر الأمراء وذوى اليسار والاقتدار من الناس ، كذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وثقتهم فيها . وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحى على الطبقة الأولى أن جعلهم ينكرون تدخلها فى شئونهم وقيودها الخلقية عليهم ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم وادعاءها الحق فى فرض الضرائب وفى حل ارتباطات الولاء . لذلك كفتوا عن احترام ما لها من سلطان وممتلكات . ولقد ظل هذا الحروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال العصور الوسطى بأكملها ، بيد أن الأمراء لم يشرعوا فى التفكير جدياً فى الانفصال عن المذهب الكاثوليكي وإقامة كنائس جزئية منفصلة ، إلا عند ما أخذت الكنيسة في القرن السادس عشر تنضم علناً لحصمها القديم : الإمبراطور ، عند ما قدمت إليه التأييد وقبلت منه المساعدة لها في حلها على الهرطقة . وما كانوا ليقدموا على ذلك أبداً لولا أمهم أيقنوا أن سبطرة الكنيسة على أذهان الجاهر قد ضعفت .

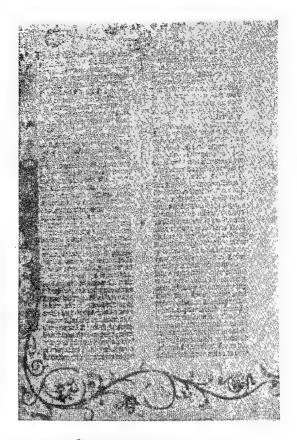
وكان تمرد الأمراء بالضرورة تمرداً لا دينياً على حكم الكنيسة الشامل للعالم أجمع . وكان الإمراطور فردريك الثانى هو الطليعة السباق إلى ذلك برسالاته إلى نظرائه الأمراء . وكانت ثورة الشعب على الكنيسة من الناحية الأخرى ، دينية بالضرورة كذلك . فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساويها ونواحي الضعف فيها . كذلك . فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساويها ونواحي الضعف فيها .

وكانوا يريدون كنيسة شديدة الصلاح والشجاعة لكى تعينهم وتنظمهم ضد شرور الأقوياء . وكانت حركات تمردهم على الكنيسة سواء أكانت فى داخلها أو خارجها حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب رقابة دينية أتم وأوف . لم يطلبوا رقابة ديئية أقل بل طالبوا بالمزيد منها – ولكنهم أرادوا أن يتحققوا من أنها دينية وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالم بل لأنه لم يكن كذلك ، أى لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً بينها كان يجب أن يكون قائدهم الروحى .

من أجل ذلك كان النزاع فى أوربا منذ القرن الرابع عشر نزاعاً ذا ثلاثة أركان ، فالأمراء يريدون أن يستعملوا القوى الشعبية ضد البابا ، على ألا يسمحوا لتلك القوى أن تقوى وتطغى على قوتهم ومجدهم وظلت الكنيسة زمناً مديداً تنتقل من أمير إلى أمير طلباً لحليف يحالفها دون أن تدرك أن الحليف المفقود الذى عليها أن تسترده إنما هو توقير الشعب لها .

ومن أجل هذا الوضع الثلاثي للمنازعات الفكرية والخلقية التي تواصلت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، فإن سلسلة التغييرات المترتبة عليها ، تلك التغييرات التي يعرف مجموعها في التاريخ باسم الإصلاح الديني كما يراة (Reformation) اتخذت وضعاً مثلث الأشكال . فكان هناك الإصلاح الديني كما يراة الأمراء ، الذين كانوا يريدون أن يقفوا انثيال النقود إلى روما ، وأن يستولوا على السلطة الحلقية ، والنفوذ التعليمي ، وما للكنيسة من ممتلكات مادية داخل إماراتهم . وكان هناك الإصلاح الديني كما يراه الشعب الذي كان يبتغي أن يجعل المسيحية قوة تناهض الفسوق وعدم التقوى ، وتناهض بخاصة فسوق أهل الثراء والقوة . وأخيراً كان هناك الإصلاح الذي كان القديس فرنسيس الأسيسي بشيراً به ورائداً ، والذي جهد في استرجاع صلاح الكنيسة وفي استرجاع قوتها بوساطة ذلك الصلاح .

واتخذ الإصلاح الديني حسبا يراه الأمراء صورة إحلال الأمير ، بوصفه رأس الديانة والرقيب على ضائر شعبه ، محل البابا ولم يكن يخالج الأمراء أية نية ولا فكرة عن إطلاق سراح عقول رعاياهم كي تتولى الحكم على الأشياء ، وبخاصة وقد مثل أمام أعينهم



(شكل ١٥٦) صفحة من طبعة جوتنبرج للكتاب المقدس

نموذج الهستيين والتعميديين مجسماً قوياً ، فحاولوا أن يؤسسوا كنائس قومية تعتمد على صاحب التاج . ولما أن انفصلت إنجلترة واسكتلندة والسويد والترويج والدانمارك وشهال ألمانيا وبوهيميا عن الارتباط بروما ، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزراء أقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة في قبضة أيديهم . ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الإصلاح إلا بالقدر الذي يمكنهم من فصم العلاقة مع روما . فأما ما تجاوز ذلك ، وأما أي انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعاليم يسوع البدائية ، أو التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس ، فأمور كانوا يقاومونها . والكنيسة الإنجليزية

الرسمية مثال لواحد من أبرز وأنجح ما ترتب على ذلك من تسويات. وهي ما تزال كهنوتية قطب رحاها قسيس متكرس وتدين بالقربان المقسدس⁽¹⁾. ولكن هيئها التنظيمية تتركز في البلاط وفي قاضي القضاة. ومع أنه ربما صدرت عن الصفوف الدنيا لرجال الكهنوت فيها الأقل ثراء آراء هدامة – بل الواقع أن ذلك كان يحدث فعلا – فإن من المستحيل عليهم أن يرتفعوا كفاحاً حتى يصاوا إلى مناصب النفوذ والسلطان.

على أن الإصلاح الديبي حسما براه الرجل العادي شيء ، والإصلاح لدي الأمراء شيء آخر مختلف جداً في روحه . وقد أسلفنا القول في المحاولات الشعبية في سبيل الإصلاح الديني بكل من بوهيميا وألمانيا . وكانت الفورات الروحية الفسيحة النطاق (أعنى الشعبية) في ذلك الزمان أشرف نفساً وأشد اضطراباً وأثبت أثراً وأطول عمراً وأقل نجاحاً مباشراً عاجلا من إصلاحات الأمراء . فقد ندو بين ذوى الأرواح المتدينة من الرجال ، من بلغ من الجوأة أن يخرج على كل تعاليم استبدادية أو بلغ من القحة أن يعترف بأنه خرج على ذلك النوع من التعاليم ، وأنه أصبح عندئذ يعتمد اعهاداً كلياً على عقله وضميره . فإن ذلك كان يحتاج إلى شجاعة فكرية عالية جداً . وكان الاتجاه العام للرجل العادى في تلك الفترة في أوربا هو أن يتخذ من ذلك النبيء الذي أحرزه حديثاً ، وأعنى به الكتاب المقدس ، حجة وقوة مضادة للكنيسة . وكان هذا بصفة خاصة ، حال زعيم البروتستانتية الألمانية العظيم مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) . فإن الذي كان يجرى Tنذاك في كل أرجاء ألمانيا ، بل في الواقع في كل أنحاء أوربا الغربية ؛ أن الناس قد أكبوا على صفحات الحروف السوداء للكتاب المقدس المنرجم حديثاً والمطبوع حديثاً ، وعلى سفر اللاويين ونشيد الإنشاد لسليان ورويًا القديس يوحنا الرسول ـ وهي كتب غريبة محمرة ـ يكبون علما قدر ما يكبون على سيرة يسوع البسيطة الملهمة في الأناجيل ؛ وطبيعي أنهم كانوا يستنتجون آراء عجيبة وتفسيرات مضحكة

⁽١) ومعنى ذلك أنه ليس هناك فارق تقريباً بين الكنيسة الإنجليزية والكاثوليكية في العقيدة والمذهب والطقوس وإن اختلف الاسم والرثاسة . (المترجم)

غريبة ، بل إن مما يدهش له الإنسان أمها لم تكن عجيبة أكثر وأشد إضحاكاًوغرابة . ولكن العقل البشرى شيء عنيد ولا بد له من أن ينتقد وينتني بالرغم من كل ما يعقد عليه العزم من تصميم . وقد أخذت جمهرة دارسي الكتاب المقدس هؤلاء ما تستحسنه ضمائرهم من الكتاب وتجاهلوا ألغازه ومتناقضاته .

وفى كل أرجاء أوربا ، وحيمًا أقبصت كنائس الأمراء الروتستانية : كانت تقبق للبروتستانت الأقبحاح بقية حية ناشطة تأبى أن تصاغ لها ديانها على تلك الشاكلة . وكان هولاء هم « المخالفون أو المنشقون Nonconformists » وهم خليط من الشيع ، لا يجمعهم جامع إلا مقاومتهم لديانة أصحاب السلطان الاستبدادية سواء أكان مصدرها البابا أم الدولة . فأما في ألمانبا فقد قضى الأمراء على الانشقاق والمنشقين قضاء تاماً في معظم الحالات . فأما بريطانيا فإن حركتهم فيها ظلت قوية ومتنوعة الأشكال . ويلوح أن الكثير من الفوارق بين سلوك الشعبين الألماني والبريطاني يمكن تتبعها ولرجاعها إلى ما تلقاه حرية الرأى وحرية إصدار الأحكام على الأشياء من كبت بألمانيا .

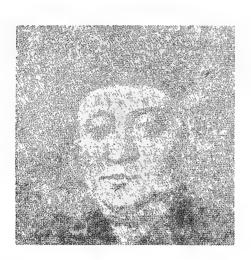
وكان جل هو لاء المنشقين ، ولكن ليس كلهم ، يستمسكون بالكتاب المقدس بوصفه مرشداً حافلا بالإلهام القدسي جديراً بالاعتماد عليه بوجه قاطع. وكان موقفهم هذا موقفاً استراتيجياً لا موقفاً ثابتاً . والاتجاه العصرى للمنشقين يبتعد يوماً بعد يوم عن تلك النزعة الأصلية إلى المغالاة في إجلال الكتاب المقدس ، ويتجه نحو التركيز على تعاليم يسوع الناصرى المجردة تركيزاً معتدلا محففاً ملوناً باللون العاطني . وتوجد في الحضارات العصرية في هذه الأيام أيضاً وراء مجال الانشقاق والمنشقين ووراء مجال المسيحية المعترف بها ، كتلة عظيمة ونامية من أقوام يؤمنون بالمساواة والتكافؤ بين البشر و تمتليء نفوسهم بالدوافع الغيرية ، كتلة لا شك أنها تدين للمسيحية بروحها كما البشر أن أكدنا .

ولنقل الآن كلمة عن الدور الثالث لعملية الإصلاح الديني ، وهو الإصلاح الديني داخل الكنيسة (۱) . فقد بدأ ذلك الإصلاح فعلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بظهور جماعتي الرهبان السود والشهب (الفصل ۳۱ القسم ۱۶) . وظهر في القرن

⁽١) ويسمى أيضاً بحركة الإصلاح الديني المضاد Anti-Reformation (المترجم)

السادس عشر دافع جديد من نفس النوع ، جاء والحاجة إليه أشد ما تكون . وكان ذلك الدافع الجديد هو جمعية يسوع التي أسسها إينيجولوپېزدى ريكالدى الشهير في عالم اليوم باسم القديس أغناطيوس لويولا .

استهل إغناطيوس حياته العملية شابا أسبانيا مجتمع القوة عظيم الشجاعة وكان ذكياً



(شكل ١٥٧) مارتن لـوثر نفلا عن صورة من عمل هولبين)

حاذقاً تملؤه الحمية همة وصبراً على المكاره ؛ وحباً للمجد في شيء من التفاخر ؛ وكانت مغامراته الغرامية كثيرة خلابة . وفي ١٥٢١ انتزع الفرنسيون من الإمبراطور شارل الخامس مدينة پامپيلونا في أسبانبا ، وكان إغناطيومي أحد الذادة عنها . وكان إخدا أسرا . ورُمت عظام إحدى ساقيه ، أخذ أسرا . ورُمت عظام إحدى ساقيه على خطأ ، وكان لزاماً أن تكسر من جديد : وأوشكت هذه العمليات المعقدة

الأليمة أن تقضى على حياته ؛ حتى لقد تلتى السر المقدس الأخير . ولكنه حين امتد به الليل بعد ذلك أخذ يتحسن وما لبث حتى أصبح فى دور النقه ، وأخذ يواجه مقدماً حياة ربما عاش فيها مقعداً على الدوام . فاتجهت أفكاره إلى خوض تجربة دينية . وتطيف بخاطره فى بعض الأحايين صورة سيدة ما عظيمة ؛ ويخيل إليه أنه سيفوز بإعجابها بالرغم مما به من سوء حال ، بعمل رائع عظيم ؛ ويطيف به فى أحايين أخرى أن يكون فارس المسيح بطريقة ما خاصة شخصية . وهو يحدثنا أنه بينما هو يضرب فى أسداس هذه الحيالات والحيرات ؛ إذ استرعت انتباهه فى إحدى الليالى وهو راقد فى يقظة تامة سيدة عظيمة جديدة ، وتمثلت أمامه فى الرؤيا العذراء المباركة مريم وهى تحمل المسيح الطفل بن ذراعها . « وتملكته على الفور كراهية عظيمة لما قد مت يداه

فى حياته ، . فعقد النية على أن يهجركل فكرة عن نساء الدنيا ، وأن يحيا حياة عفة مطلقة وإخلاص تام لأم الرب . وقرر الإكثار من الحج إلى مختلف الأماكن المقدسة وأن ينذر نفسه لحياة الرهبنة .

والطريقة التي حلف بها يمين الترهب تظهر أنه كان بحق أخاً ومواطناً صمياً للدون كيشوت!! فبعد أن استرد عافيته ، خرج هائماً على وجهه في أرجاء العالم لا يكاد يكون له هدف معين ، جندياً مرتزقاً مفلساً لا يملك من حطام الدنيا إلا سلاحه والبغل الذي يركب ، فألقته المقادير في صحبة أحد المغاربة (من عرب أسبانيا). وسارا معاً يتجاذبان الحديث ، ثم تنازعا للفور على الدين . وكان المغربي أحسن الرجلين تعليما ، فأفحم صاحبه في الجدل ، وتفوه بعبارات جارحة عن العذراء مويم وجد من العسير أن يرد عليها ، ثم افترق عن أغناطيوس فرحاً بفوزه عليه . وكانت نفس الشاب فارس « مولاتنا مريم » تغلى خبط وسخطاً . فتردد بين أن يقفو المغربي ويقتله ، وبين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج . ولكنه ترك يقفو المغربي ويقتله ، وبين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج . ولكنه ترك الأمور لبغله عند منشعب الطريق فكان في ذلك نجاة المغربي .

ووصل إلى الدير البندكتيني في مونتي سيرات بالقرب من مانريسا ، وهناك قلد البطل الذي لا نظير له ، أماديس دى جول (١) بطل قصة المغامرة الرمانسية في القرون الوسطى ، وظل طول ليله ساهراً أمام مذبح العذراء المباركة . ثم أهدى بغله للدير ، وأعطى ثيابه الدنيوية لأحد المتسولين ، ووضع سيفه وخنجره على المذبح وارتدى ثياباً خشنة من قماش الجوالق وحذاء من الحيش . ثم عمل نفسه إلى إحدى التكايا حيث استسلم لضروب جمة من التعذيب والتقشف . واستمر أسبوعاً كاملا وهو صائم صوماً مطلقاً ، ثم نهض ليحج إلى الأراضي المقدسة .

وظل بضع سنوات يتجول على غير هدى ، وهو مستغرق اللب بفكرة تأسيس عقد جديد من الفروسية الدينية ، دون أن يدرى كيف يبدأ هذا المشروع . وأخذ يزداد إحساسا بأميته وجهله . وحظرت عليه محاكم التفتيش (Inquisition) – وقد أخذت تهتم بتصرفاته – أن يحاول تعليم الآخرين حتى يقضى ما لا يقل عن أربع

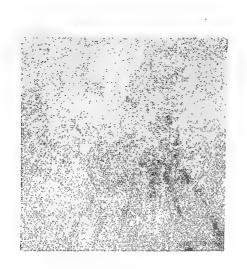
⁽١) أماديس ديجول أو (أماديس الغال) : قصة رومانسية تصور الفارس المثالي ألفت في القرن ١٤ ٤ ١٤ في أسبانيا أو البوتغال.

سنوات في الدراسة . وإن الناريخ ليلتي على كاهل محاكم التفتيش من موفور القساوات وعدم التسامح ما يلذ لنا معه أن نسجل أنها في معاجلها أمر ذلك المتحمس الشاب العنيد الواسع الخيال ، أظهرت نفسها بمظهر العاطف عليه المترن التصرف . ذلك أنها أدركت قوته وما يرجى منه من نفع ، ورأت أخطار جهالته . فجد في الدرس والتحصيل في سلامنكا وباريس وغيرهما . ونصب قسيسا (١٥٣٨) ، وبعد ذلك بسنة تأسست جمعيته التي طالما حلم بها تحت اسم « جمعية يسوع » . وقد رأت ـ شأن جيش الخلاص في انجلترة العصرية ـ انتهاج أقرب السبل لوضع التقاليد الكريمة لطريقة تنسيق الجيوش ونظامها في خدمة الدين .

كان عمر هــذا الرجل إغناطيوس لويولا مؤسس جمعية الجزويت (اليسوعيين) ؛ سبعا وأربعين سنة ، وكان أبعد ما يكون وأشد حكمة وأثبت روية من ذلك الشاب الأحمق الذى قلد أماديس دى جول تقليد القردة وقام الليل كله فى دير مانريسا ، وكانت الهيئة التبشيرية والتعليمية التى أنشأها آنذاك ووضعها تحت تصرف البابا من أقرى الوسائل التى تهيأت للكنيسة .

كان هؤلاء الرجال يقدمون أنفسهم بكليتها مختارين لتستخدمهم الكنيسة . وكانت جماعة اليسوعيين (الحزويت) هي التي حملت المسيحية إلى الصين للمرة الثانية بعد سقوط أسرة منج ، وكان اليسوعيون أهم إرساليات المبشرين المسيحيين في الهند وأمريكا الشهالية . ولسوف نشير من فورنا إلى ما بذلوه من جهود لنشر الحضارة بين ظهراني الهنود في أمريكا الجنوبية ، ولكن أجل ما قاموا به من عمل بنحصر وفعهم مستوى التعليم عند الكاثوليك . فأصبحت مدارسهم – وظلت زمانا طويلا – خير المدارس في العالم المسيحي . يقول اللورد فيريولام (السير فرانسيس باكون) : « فأما عن الناحية البيداجوجية (التربوية) فارجيع إلى مدارس اليسوعيين ، إذ لم يمارس في التعليم شيء أحسن مها » . رفعوا مستوى الذكاء ، وأثاروا ضمير أوربا الكاثوليكية بالمعهم ، واستثاروا أوربا البرتستانتية إلى بذل الجهود لمنافسيهم في مضار التعليم .

ولعلنا نشهد في أحد الأبام جمعية جديدة لليسوعيين ، ممن ينذرون أنفسهم لا لخدمة البابا ، بل لخدمة البشرية .



(شكل ١٥٨) لويولا

وفى نفس الوقت وبإزاء تلك الموجة العظيمة موجة المجهود التعليمي ، تنصلح نغمة الكنيسة وسمها انصلاحاً عظيا بفضل ما قام به مجلس ترنت من تنقية المبادئ وما أدخله من إصلاحات في هيئتها ونظامها . كان هذا المجلس يجتمع بين الفينة والفينة إما في ترنت وإما في بولونيا بين سنتي (١٥٤٥) و و (١٥٤٣) ، وكان عمله يضارع في الأهمية عمل الحزويت في إيقاف

الحرائم والأخطاء التي كانت تحمل الدولة تلو الدولة على الانفصال عن مجتمع الكنيسة الكاثوليكية . والتغيير الذي أحدثه الإصلاح الديني داخل كنيسة روما يضارع في عظمه التغيير الذي حدث في الكنائس البروتستانية التي انفصلت عن الكنيسة الأم . فليس هناك منذ ذلك التاريخ أية فضائح علنية ولا أي صدع ولا انقسامات يسجلها التاريخ . ولكن مهما يكن من شيء فإن ضبق الأفق في مبادئ الدين قد اشتد ولم تعد أدوار الخيال القوى الناشط التي يمثلها جريجوري مبادئ الكبير ولا تلك المجموعة من البابوات المرتبطة بجريجوري السابع وإربان الثاني، أو المجموعة التي ابتدأت بإنوسنت الثالث ، تنعش قصة التاريخ الهادئ العادي . واستقرت الكنيسة إلى ما هي عليه اليوم بوصفها هيئة دينية منفصلة عن السياسة ، وهيئة دينية بحتة كغيرها من الهيئات الدينية ، لقد رحل الصوبحان من روما .

٦ - العلم يستيقظ من سباته

ينبغى ألا يظن القارئ أن النقد المدمر الذى وجه إلى الكنيسة الكاثوليكية والمسيحية الكاثوليكية ، وأن طبع الكتاب المقدس ودراسته ، كانت المناشط الفكرية الوحيدة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا هي كانت أهم عمليات النشاط الفكرى .

فإن ذلك كله لم يكن إلا الناحية الشعبية البارزة بقوة فى الانتعاش الفكرى فى ذلك الزمان . إذ كانت تجرى هناك خلف ذلك التيقظ البارز الشعبى الذى ألم بالفكر و البحث تطورات عقلية أخرى أقل استرعاء مباشراً للأنظار ولكن أهميتها النهائية أعظم . وسندلى إليك الآن بإشارة موجزة عن انجاه تلك التطورات . فإنها ابتدأت قبل طبع الكتب بزمن طويل ، ولكن الطباعة هى التى نفضت عنها غاشية الظلمات وكشفتها للأنظار .

ولقد أسلفنا لك كلمة عن ابتداء ظهور الذكاء الطليق أو الفطنة الحرة: روح التحرى والاستعلام ، والإدلاء الواضح الصريح بالرأى — فى الشئون الإنسانية . وهناك اسم يعد أساسباً فى سجل تلك المحاولة الأولى الرامية إلى جمع المعرفة المنظمة ، وهو اسم الفيلسوف أرسطو . وهناك أيضاً كما لحظنا آنفاً ذلك الدور الوجيز للإنتاج العلمى الإسكندرية . ومنذ ذلك الحين عاقت المتازعات الاقتصادية والسياسية والدينية المعقدة فى أوروبا وآسيا الغربية ، كل تقدم فكرى آخر . فإن تلك المناطق كما رأينا ، وقعت أمد عصور طويلة تحت سلطان الملكيات ذات الطراز الشرقي وسلطان التقاليد الدينية الشرقية . وقديماً جربت روما فى الصناعة نظاماً عماده الرقيق ثم عادت فنبذته وفيها تطور أول الأنظمة الرأسمالية ، ثم مزقته الفوضى بسبب ما جبل عليه من عيوب متأصلة . وارتدت أوربا إلى حالة عامة من عدم الاستقرار . وثار الساى على الآرى ، وأحل ثقافة عربية على المدنية الملكينية فى كل أرجاء آسيا الغربية ومصر . ثم وقعت آسيا الغربية كلها ونصف أوربا فى قبضة الحكم المغولى ه ولم يحدث الا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن الذكاء الآرى شرع يكافح من جديد التماسا التعبير الواضح الصحيح عن ذات نفسه .

وإنا لنجد عند ذلك في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا النامية قدراً متزايداً من البحث الفلسني . ومن حيث الشكل كان الطالع الغالب على ذلك البحث هو الموضوعات المنطقية . والأساس الذي قامت عليه هذه الأبحاث إنما هو جزء واحد من تعاليم أرسطو، وهو «منطقه» فحسب وليس مجموع ماخلف من كتابات . ثم زادت معرفة الناس فيا بعد بتواليفه بواسطة الترجمات اللاتينية المنقولة عن النسخة العربية التي علق علمها ابن رشد . وفها عدا هذه الترجمات لأرسطو — وكانت كلها رديئة الترجمة إلى

أبشع حد – لم يكن الناس يقرأون في أوربا الغربية حتى القرن الخامس عشر إلا النزر الطفيف من الأدب الفلسفي الإغريقي .

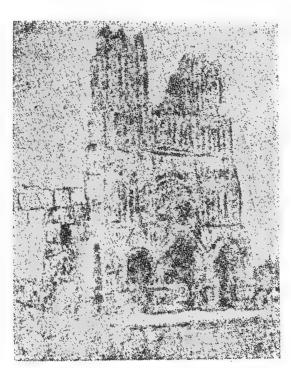
ولم يكد الناس يعرفون شيئاً عن أفلاطون ذى العقلية المبتكرة الحلاقة المختلفة تماماً عن أرسطو ذى النزعة العلمية . فكأن أوربا كانت تملك النقد الإغريبي دون الروح والدافع الإغريبي . أجل إن بعض كتاب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كانوا معروفين بها ، ولكن شتان بين الأفلاطونية الحديثة وبين أفلاطون ، إذ أن شقة الحلاف بينهما كشقة الحلاف بين العلم في البلاد المسيحية وبين العقيدة المسيحية نفسها .

له جوت عادة الكتاب المحدثين بالتشهير بالأبحاث الفلسفية لعلماء القرون الوسطى المدرسانيين برميها بالإملال وعدم الغنناء . ولكنها لم تكن كذلك بأى حال . وإنما كان لزاماً عليها أن تحتفظ بقالب في شديد الجمود ، لأن كبار رجال الكنيسة ، وهم على ما هم من الجهالة وعدم التسمح ، كانوا على أهبة الترقب لأية بادرة للزندقة . لهذا ، كان يعوزها ذلك الصفاء الحلو الناشئ عن الفكر الذي لا يعوقه خوف . وكثيراً ما كانت تلك الأبحاث تلمح إلى ما لم تكن تجرو أن تقوله صراحاً . على أنها كانت تعالج موضوعات جوهرية الأهمية ، وكانت كفاحاً طويلا ضرورياً لا بد منه لتصفية وإصلاح عيوب معينة متأصلة في العقل البشرى ، وإن الكثير من الناس اليوم ليخطئون وإصلاح عيوب معينة متأصلة في العقل البشرى ، وإن الكثير من الناس اليوم ليخطئون أفحش الأخطاء بسبب إهمالهم للمسائل التي كان علماء القرون الوسطى المدرسانيون أفحش الأخطاء بسبب إهمالهم للمسائل التي كان علماء القرون الوسطى المدرسانيون

وهناك ميل طبيعي في العقل البشرى إلى المبالغة في الفروق وأوجه الشبه التي تنبي عليها عملية الترتيب والتصنيف ، وإلى الظن بأن الأشياء ذوات الأسماء المحتلفة متباينة مختلفة . وأن الأشياء المسماة بنفس الاسم ، تكاد تكون متطابقة . وغني عن البيان أن هذا الميل إلى المبالغة في التصنيف ينتج ألف شر وظلم . فني عجال العنصر (Race) أو القومية (Nationality) مثلا ، كثيراً ما يعامل « الأوربي » أخاه و الأسيوى » كأتما هو حيوان مختلف ، على حين تراه يميل إلى اعتبار « أوربي » آخر كأنما هو بحكم الضرورة معادل له في الفضيلة والروعة . وإنه لينضم تبعاً لهذا إلى الأوربي بين ضد الأسيويين . ولكن الواقع — كما يجبأن يدرك ذلك قارى * هذا الكتاب — الأورب بهن ضد الأسيويين . ولكن الواقع — كما يجبأن يدرك ذلك قارى * هذا الكتاب —

هذه الفوارق التي يدل عليها التضاد بين تلك الأسماء أمر لا وجود له . وإنما هو طيف فارق خيالى خلقه وجود الاسمين .

وكانت الحصومة الكبرى فى القرون الوسطى قائمة بين الواقعيين (Realists) والاسميين (Nominalists) . ومن الضرورى أن ننبه القارئ أن كلمة « الواقعى » فى أبحاث العصور الوسطى لها معنى يكاد يكون مضادا على خط مستقيم للفظة « الواقعى » فى استعالها فى اللغة العادية للنقد العصرى . فإن « الواقعى » العصرى إنما هو من يصر على



(شكل ۱۵۹) كاتدراثية ريمس (رانس) مثال رائع للكنائس القوطية الكبرى التي بنيت في القرنين ۱۳ ، ۱۴

التفاصيل المادية ، بيها كان « الواقعي » في القرون الوسطى أقرب كثيراً إلى ما قد نسميه ، اليوم « بالمثالي » ، وكان احتقاره للتفاصيل العارضة شديداً وعميقاً . وكان الواقعيون أشد

الناس تمسكاً بذلك الميل البشرى الشائع إلى المبالغة فى أهمية «الصنف class» أو الطبقة . وكانوا يعتقدون بأن هناك شيئاً فى الاسم (أى فى التسمية العامة) له بالضرورة ظل من الحقيقة . مثال ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك «أوربيا» تموذجياً ، أوربياً مثالياً ، وجوده حقيقى أكثر بكثير من أى أوربى فرد . ومن ثم يكون كل أوربى عينة معيبة ونكوساً ظاهراً ، وابتعاداً عن تلك الحقيقة الأكثر عمقاً إن صح هذا التعبير . ومن الناحية الأخرى ، كان الاسميون أصحاب المذهب الاسمى يرون أن الحقائق الوحيدة فى الأمر إنما هى الأوربيون الأفراد ، وأن الاسم «أوربى» يرون أن الحقائق الوحيدة فى الأمر إنما هى الأوربيون الأفراد ، وأن الاسم «أوربى» أنما هو مجرد اسم ، ولا يتجاوز أن يكون اسها ، يطبق على كل هاته الأفراد .

وليس هناك شيء أصعب من ضغط واختصار المجادلات الفلسفية التي هي بطبيعتها ضخمة الحجم منوعة ، كما أنها مصطبغة بالصباغ العقلي لمجموعة منوعة من العقول . والقاري ُ العصرى غير الملم بالأبحاث الفلسفية ربما جنح ــ وقد قدمنا له الفارق بن الواقعيين والأسميين على هذه الشاكلة الساذجة الجرداء ــ إلى الوثوب من فوره إلى تأييد رَّأَى الْإِسميِّين . ولكن ليس الأمر من البساطة بحيث يكني مثال واحد للحكم عليه ، وقد تعمدنا هنا اختيار مثال متطرف . وتختلف الأسماء والتصنيفات في قيمتها وحقيقتها . فبينا ترى أنه من السخف أن يظن الناس أن هناك عمقاً كبيراً في الفارق الصنفى بين رجال اسمهم توماس وآخرين اسمهم وليم ، أو أن هناك مثلا أعلى أو خلاصة نقية لتوماس أو لوليم ، إلا أنه قد تكون هناك من الناحية الأخرى فوارق أعمق بكثير بين رجل أبيض وبين زنجي من الهوتنتوت ، فضلا عن أخرى عميقة بين الإنسان العادى (Homo Sapiens) وبين الإنسان النياندرتالي . وكذلك بينا التمييز بين صنف الحيوان المدلل وصنف الحيوان النافع يعتمد على فوارق طفيفة في العادات والتطبيق ، فإن الفارق بن القط والكلب من العمق بحيث يستطيع المجهر الميكروسكوب) أن يقفوه ويكتشفّه ولو في قطرة دم أو شعرة مفردة . وبَيّنا تكون بعض التصنيفات تافهة ، إذا بالبعض الآخر جوهرى حقيقى . فإذا نحن تأملنا هذه الناحية من المسألة أمكننا أن نفهم كيف أن الاسمية و « الأسميين » اضطروا فى النهاية إلى التخلي عن الفكرة القائلة بأن الأسهاء تعادل في قلة أهميتها "بطاقات الزجاجات، وكيف أن تنقيح المذهب الاسمى وتصحيحه تمخض عن المحاولة المنظمة للعثور على التصنيف « الحق » ــ أشد التصانيف أهمية وأعظمها فائدة ــ للأشياء والمواد وهو الذي يسمى بالبحث العلمي.

ولسوف يقارب هذا فى الوضوح أنه يينها ميل الواقعين والمذهب الواقعى الذى هو الميل الطبيعى لكل عقل غير مثقف ، كان متجها إلى الاعتقاد الحتمى (Dogma) والتقسيات الحشنة الفجة والأحكام الحشنة الساذجة والمواقف والاتجاهات الحالية من كل تساهل ، فإن ميل المذهب الاسمي والاسميين القدامى والمتأخرين كان متجها نحو الأقوال المحددة بالأوصاف ، ونازعاً نحو اختبار الأمثلة الفردية ونحو البحث والاستعلام والتجرية والتشكك .

وعلى ذلك فإنه بينا من فى الأسواق والحياة العامة من الناس يتشككون فى أخلاق رجال الدين وصلاحهم ومدى إخلاصهم فى عزوبهم وصدق يقيمهم فيها ونقاء سيرتهم بها ، ومبلغ العدالة فيا يفرضه البابا من ضرائب ، وبينا تنشغل أذهان من فى الدوائر اللاهوتية بمسألة الاستحالة ومسألة قدسية أو عدم قدسية الخبز والنبيذ فى القداس ، كان يصدر عن دور الدراسة وقاعات المحاضرات نقد أوسع مدى لطرائق التعليم الكاثوليكية العادية .

وليس في استطاعتنا أن نقدر في هذا المقام مبلغ الأهمية التي اجتمعت أثناء تلك العملية لأشخاص من أمثال بطرس أبيلارد(١) (١٠٧٩ – ١١٢٧) ، وألبر توس ماجنوس (١١٩٣ – ١٢٧٠) ، وتوماس أكويناس (١٢٢٥ – ١٢٧٤) . فإن هؤلاء الرجال حاولوا أن يعيدوا بناء العقيدة الكاثوليكية على أساس عقلي أسلم ؛ فاتجهو صوب مذهب الاسميين . ومن بين أبرز نقادهم وخلفائهم دنز سكوتوس (؟ – ١٣٠٨) ، وهوراهب فرنسسكي من اكسفورد ، لن يشك القارئ في أنه اسكتلندي قح لواطلع على اجتهاده في التفكير وخفاء عباراته المتعمد ، ومن بينهم كذلك اكتام وهو إنجليزي (؟ – ١٣٤٧) .

وقد أقام كلاهذين الأخبرين – شأن ابن رشد – حداً فاصلا مميزاً بين الحق اللاهوتي والحق الفلسفي ، فوضعا اللاهوت من فوق قبة عالية ، ولكنهما وضعاه حيث لم يستطع أن يعترض بعد ذلك طريق البحث: فأعلن دنز سكوتوس أن من المستحيل أن يثبت المرء بالتفكير العقلي وجود الله أو وجود الثالوث أو إمكان تصديق عملية الحلق ، وكان أكام أشد إصراراً على فصل اللاهوت من الحق العملي – وهو فصل وأطلق سراح البحث العلمي إطلاقاً بيناً من تحكم الاعتقاد الحتمى (Dogma) . ولكن خلف من بعدهم جيل تال

⁽١) أنظر ، للمترجم ، كتاب أعلام وأفكار (الهيئة العاء للتأليف والنشر). (المترجم)

فاته وقد أخذ بستفيد من الحريات التي هدفت إليها جهود هو لاء الرواد ، إدراك العلم بمصادر حريته – فبلغ من كفرانه بالجميل أن يتخذ من اسم سكوتوس رمزاً للغباء ، ومن ثم نشأت كلمة (Dunce) الإنجليزية التي معناها الغبي مشتقة من اسمه (Duns) . يقول الأستاذ پرنجل پاتيسون (۱) : « إن أكبام الذي كان مع ذلك عالما مدرسانياً (۲) ليعطينا التبرير المدرساني للروح الذي استولى بالفعل على روجر باكون ، والذي قدر له أن ينضج ويستكمل نموه في أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر ».

وروجر باكون هذا يقف وحيداً بارزاً لما له من عبقرية مميزة (قرابة ١٢١٠ – ١٢٩٣) وكان كذلك إنجليزياً . كانراهباً فرنسسكياً من أكسفورد ، كما أنه في الواقع رجل إنجليزى نموذجي حقاً ، إذ هو سريع الهياج متسرع شريف حصيف العقل . وكان يسبق عالمه بقرنين من الزمان . يقول عنه ه . ١ . تايلور (٣) :

«كانت حياة باكون مأساة ذهنية ، تطابق الأصول القديمة لفن المآسى : القاضية بأن تكون أخلاق البطل كريمة نبيلة ، وإن لم تخل من العيوب ، وذلك نظراً لأن النهاية القاضية المحتومة بجب أن تصدر عن الخلق ، وألا تحدث نتيجة للصدف . ومات شيخاً في سن عالية . وكان في شيخوخته شأنه في صباه محباً مخلصاً للمعرفة الملموسة . وكان طلبه المعرفة التي لا تصل إلى مرتبة العلم بمعناه التام ، يلقي اعتراضاً من تلك الهيئة التي انتمى إلى عضويتها وكان فيها عضواً تعساً ثائراً ؛ كما أضر به من الناحية الأخرى ، أن ما حصله من منجزات قد نخر فيه من الداخل المبادئ التي تقبلها نقلا عن عصره . ولكنه يعد مسئولا عن قبوله للآراء السارية ؛ واستثارت آراؤه شكوك إخوانه الرهبان ، كما جر عليه خلقه العكمي الشموس عداءهم . فإن القدرة على الإقناع واللباقة شرطان ضروريان لمن برغب في التأثير بمثل هذه الآراء الجديدة على الإقناع واللباقة شرطان ضروريان لمن برغب في التأثير بمثل هذه الآراء الجديدة على

⁽١) الموسوعة البريطانية ، العلبمة الثانية عشرة ، مادة المدرسانية Scholasticism .

⁽ ٢) كلمة المدرسانى تطلق على معلمي القرون الوسطى وعلى كل فيلسوف متحذلق ، بفلسفة العصور الوسطى التي تسمى أيضا بالفلسفة المدرسانية أو الإسكولائية . (المترجم)

⁽٣) The Med eval Mind تأليف منرى أوسبورن تايلود .

أقرانه ، أو لمن شاء الفرار في القرن الثالث عشر من الاضطهاد لإذاعته إياها فقد هاجم باكون فوى المكانة والفضل من الرجال ، الأحياء منهم والأموات في غير حنكة ولا عدل وفي حماقة ونزق . ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته البتة ، اللهم إلا من إشاراته إلى نفسه وإلى الآخرين ، وهي إشارات لا تكني لتكوين صورة طفيفة متصلة الحلقات لحياته . ولد ودرس في أكسفورد ، وذهب إلى باريس ودرس وأجرى التجارب ، ثم عاد إلى أكسفورد ثانية ، وأصبح مند جماعته وأصبح راهباً فرنسكيا ؛ وتابع دراساته ثم تولى التدريس وأصبح عند جماعته بمنزلة الظنة والريبة ، ثم يُبعَثُ به ثانية إلى پاريس ، ويوضع تحت الرقابة ، ويتلتي رسالة من البابا ، ويكتب ، ويكتب ، ويكتب — مؤلفاته الثلاثة الأبعد شهرة ، ثم تعود المتاعب فتغشي حياته ، وإذا هو يسجن سنوات كثيرة ويطنق سراحه ويموت ، يموت كل الموت بجسده وبشهرته على السواء حتى يبعث ويطنق سراحه ويموت ، يموت كل الموت بجسده وبشهرته على السواء حتى يبعث بعثاً جزئياً بعد ذلك بخمسة قرون » ،

والمادة الرئيسية في هذه « المؤلفات الثلاثة الأبعد شهرة » إنما هي هجوم لاذع العبارة يكون في الأحايين مفعماً بالسباب. ولكنه هجوم عادل تماماً على ما يريم على عصره من جهالة ، يخالطه مجموعة ثرية من المقترحات لزيادة المعرفة. وإن روح أرسطو لتتبدى فيه حية من جديد في إلحاحه الحار على الحاجة إلى التجربة وإلى جمع المعارف. فلقد كانت الصيحة التي طالما حملها روجر باكون على عاتقه هي التجربة ، التجربة ».

ومع ذلك فإن روجر باكون اختصم أرسطو نفسه وهاجمه . اختصمه لأن الرجال بدل أن يواجهوا الحقائق فى جرأة ، كانوا يجلسون فى حجرات ويكبون على الترجمات اللاتينية الرديئة التى كانت عند ذلك كل ما يسطاع للوصول إليه عن «المعلم» . كتب يقول بلهجته غير المعتدلة « لو كان الأمر بيدى لأحرقت كل كتب أرسطو ، لأن دراستها لا يمكن أن تؤدى إلا إلى مضيعة الوقت وإنتاج الخطأ وزيادة الجهالة » ، وهو إحساس ما كان أرسطو فى الراجح الالير دده لو أنه عاد إلى عالم لم مكن فيه مؤلفاته تقرأ قدر ما تُعبد — وكان ذلك التقديس كله موجها لهذه الترجمات غير الجديرة تماماً بأية ثقة كما بيتن ذلك روجر باكون .

وروجر باكون في كل مؤلفاته متنكر بعض التنكر بسبب ضرورة ظهوره في كل أموره بمظهر من يطابق بين آرائه وبين العقيدة السلفية الصحيحة خشية السجن أو ما هو شر من السجن ، لذا كان يصيح بالإنسانية من وراء هذا التنكر والتقية «أن كني عن أن تحكمك الاعتقادية (الدوجما) والسلطات الاسستبدادية ، وانظرى إلى العالم ».

وقد شهر بأربعة أسباب للجهل هي : احترام السلطة ، والعرف والعادة ، وروح الجمهور الجاهل ، وما عليه ميولنا من عدم قابلية للتعلم تتسم بالغرور والكبرياء . فلو تغلب الناس على هذه وحدها لانفتح أمامهم عالم من القوة . « فإن في الإمكان أن توجد آلات للملاحة البحرية تسير السفن من غير مجدفين بعيث أن سفناً ضخمة تناسب البحر والنهر جميعاً ، ويقودها رجل فرد ، يمكن أن تُسيتر بسرعة أعظم مما لو كانت غاصة بالرجال . وعلى هذا النحو يمكن أن تُصنع العربات التي تتحرك بلا حيوان يجرها (cum impetu inoestimabili) ، شأن العربات ذات المناجل التي كان يحارب عليها الأقدمون فيا يقال . وفي الإمكان استحداث ذات المناجل التي كان يحارب عليها الأقدمون فيا يقال . وفي الإمكان استحداث الآلات الطيارة ، حتى أن الرجل ليستطيع أن يجلس في وسطها يدير آلة ما فتضرب الهواء أجنحة اصطناعية على مثال جناحي الطائر » .

وإن أُكتّام وروجر باكون لهما البشيران الباكران بحركة عظيمة في أوربا تنبذ المذهب الواقعي (Realism) وتتجه إلى الواقع (Reality) وانقضت فترة من الزمن اشتد فيها الصراع بين المؤثرات القديمة وبين «الطبيعية »(1) عند أصحاب المذهب الاسمى الجديد . وفي (١٣٣٩) حرمت كتب أكّام وصدر قرار جدى وقور باستنكار المدهب الاسمى وتسفيه . وبذلت في عام (١٤٧٣) ، محاولة متأخرة فاشلة ، لحمل معلمي باريس على تدريس المذهب الواقعي بقسم يقسمونه . وفي القرن السادس عشر ابتدأ طبع الكتب وزاد الذكاء . وعندئذ أصبحت حركة الانتقال من مذهب التجريد بعضهم بعض .

⁽١) الطبيعة أو الطبعانية Naturalism هي مذهب مجاراة الطبيعة ومطابقتها . (المترجم) (١) معالم)

وكان التجريب على الأشياء المادية آخذاً بأسباب الزيادة طوال القرنىنالثالث عشر والرابع عشر ؛ فأخذ الرچال يفوزون بكميات متتابعة من المعرفة ، ولكن لم يكن هناك تقدم تعاوني يقوم على العلاقة المتبادلة بن رجال العلم ، بل كان العمل يتم بصورة انعزالية متدابرة وخفية غير كريمة . فقد أخذت أوربا عن العرب تقاليد البحث المنعرل ، وكان هناك قدر كبير من الأبحاث العلمية التي تتم بشكل خاص وسرى والتي يقوم بها الكياويون القدامي (Alchemists) الذين يجنح العصريون إلى المبالغة في احتقارهم إلى حدما . على أن هؤلاء الكياويين القدامي كانوا على اتصال وثيق بصناع الزجاج والمعدن وبأصحاب صناعة الأعشاب والعقاقير وصناع الأدوية في زمانهم ، وقد تدسسوا في أسرار كثيرة للطبيعة ، ولكن كانت نفوسهم مشبعة بفكرة « المنافع العملية » ذلك أنهم لم يكونوا يطلبون المعرفة ، بل القوة . وكانوا يرغبون في أن يصطنعوا الذهب من المواد الأزهد منه ثمناً ، وأن يجعلوا الناس من أهل الحلود بوساطة إكسر الحياة ، وما إلى ذلك من الأحلام السوقية المبتذلة. وحدث أنهم عرفوا عرضاً أثناء أبحاثهم ، الشيء الكثير عن السموم والأصباغ وعلم المعادن وما إليها ؛ واكتشفوا مواد منوعة تسبب إنكسار الأشعة ؛ وشقوا طريقهم صوب الرجاج الصافى ، ومن ثم إلى العدسات والآلات البصرية . ولكن الواقع كما يخبرنا رجال العلم على الدوام ، وكما لا يزال العمليون ورجال الأعمال يرفضون أن يتعلموه ـــ هو أن المعرفة لا تحبو خدامها مهبات غالية وعطايا غير متوقعة في أي قدر من الوفرة إلا عند ما تُطلب المعرفة من أجل المعرفة نفسها .

وما يزال عالم اليوم أميل كثيراً إلى إنفاق المال على البحث الفنى العملى (التكنيكى) منه على العلم البحت. وما يزال نصف من فى معاملنا ومحتبراتنا العلمية من الرجال يحلمون بالمختر عات المسجلة (Patents) والعمليات السرية . وعمن إنما نعيش البوم فى معظم أمرنا فى عالم الكيمائيين القدامى بالرغم من كل هزئنا بذكراهم . وما يزال «رجل الأعمال » فى عصرنا هذا يفكر فى البحث بوصفه نوعاً من الكيمياء القديمة .

والمنجمون الذين كانوا يرتبطون بالكيماويين القدماء ارتباطاً وثيقاً ، كانوا هم كذلك فئة تطلب «المنافع العملية » فكانوا يدرسون النجوم لينيئوا الناس بطوالعهم ،

وكان يعوز هم ذلك الإخلاص والتفهم الأوسع أفقاً اللذان يحملان الناس على مجرد دراسة النجوم في حد ذاتها .

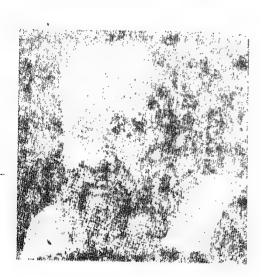
ولم تشرع الفكرات التي ترجم عنها روجر باكون في أن توتى تمارها الأولى من المعرفة الجديدة والنظرة الشاملة والأفق المتسع إلا في القرن الخامس عشر . ثم حدث على حين بغتة مع بزوغ فجر السادس عشر ، ومع قيام العالم من كبوته في عاصفة الفتن الاجتماعية التي أعقبت أوبئة القرن الرابع عشر ، أن تفجرت أوربا الغربية عن مجموعة من الأسماء اللالاءة كسفت بضيائها أصحاب أبعد الناس صيتاً علمياً في أزهى عصور الإغريق . وأسهمت في ذلك كل الشعوب تقريباً ، كما سوف يلحظ القارئ ، وذلك لأن العلم لا يعرف القومية .

ومن أبكر أفراد هذه المجموعة اللألاءة من الكواكب ، وأعظمهم جلالا ، ذلك الفاورنسي ليوناردو داڤنشي (١٤٥٢ – ١٥١٩) ، وهو رجل تكاد تكون له « بالحقيقة » بصبرة إعجازية . كان عالما بالطبيعة والتاريخ الطبيعي وبعلم التشريح ، وكان مهندسا ، كما كان فنانا عظيم الشأن جداً ، وهو أول رجل عصرى أدرك الطبيعة الحقة للحفريات ، فأنشأ دفاتر مذكرات ملأها بملاحظات ما تزال تذهل ألبابنا إلى اليوم ، وهو يظهر اقتناعا بإمكان الطيران الميكانبكي إمكانا عمليا . وثمة اسم عظيم آخر هو اسم كوپرنيكوس وهو پولندى (١٤٧٣ – ١٥٤٣) ، قام بأول تحليل واضح لحركات الأجرام الساوية وأبان أن الأرض تدور حول الشمس . وقد رفض تلك الفكرة تيخوبراهي (١٥٤٦ – ١٦٠١) وهو دانمركي كان يشتغل في جامعة پراج ، ولكن ملحوظاته عن الحركات السهاوية كانت على أقصى غاية القيمة لخلفائه ، وبخاصة للألماني كپلر (١٥٧١ – ١٦٣٠) . وكان جاليليو جاليلي (١٥٦٤ – ١٦٤٢) هو مؤسس علم الديناميكا . فكان الاعتقاد السائد قبل زمانه أن وزنا يكبر عن وزن آخر مئة مرة يسقط أسرع من الثاني بمئة مرة . فأنكر جاليليو ذلك . وبدلا من أن يناقش الأمر بالمجادلة على طريقة المدرسانيين والجنتلمانية في عصره ، وضعه تحت الاختبار التجريبي الخشن بإسقاط كتلتين غير متعادلتین من طابق علوی من برج پیزا المائل ــ مثیرا بذلك انزعاجا فی قلوب كل الرجال اللوذعيين من علماء عصره . وأنشأ جاليليو ما يكاد يكون أول مرصاد (تلسكوب) ، وكذلك طوّر آراء كو پر نيكوس الفلكية ، ولكن الكنيسة قررت ـ وهي تكافح النور بشجاعة !! _ أن الاعتقاد في أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى منها مرتبة ، لا يجعل للإنسان والمسيحية وزنا ؛ ولذا حمل جاليليو على التراجع عن هذا الرأى ، وعلى إرجاع الأرض إلى مكانها الأول كمركز ثابت للكون لا يتحرك !!! . . وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان ، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال سنوات ثلاث .

ولد نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧) فى السنة التى توفى فيها جاليليو. فأتم باكتشافه قانون الجاذبية ، إزاحة الستار تماماً عن عالم النجوم الذى بين أيدينا اليوم. على أن نيوتن يحملنا إلى صميم القرن الثامن عشر. فهو يحملنا إلى ما يتجاوز مدى الفصل الحالى كثيراً.

ومن بين أقدم الأسماء اسم الدكتور جلبرت (١٥٤٠ -- ١٦٠٣) من كولشستر

اللى يىرز خالداً أبدياً . كان روجر باكون قد بشر بالتجريب ، وكان جلبرت من أوائل من مارسوه . ولا سبيل إلى الشك في أن عمله ، الذي كان موجهاً في جل شأنه إلى المغناطيسية ، ساعد على تكوين فكرات فرنسيس باكون ، لورد فريولام (١٥٦١ – ١٦٢٦) ، فريولام (١٥٦١ – ١٦٢٦) ، وهو قاضى القصاة في عهد چيمس وهو قاضى القصاة في عهد چيمس فرنسيس باكون هذا باسم « أبي الفلسفة النجريبية » ، ولكن ما أثر



(شكل ١٦٠) جاليليو

حول نصيبه في تطوير الجهد العلمي كان أعظم من حقه (١). يقول السير ر . ١ . جريجوري

⁽١) انظر كتاب « الاكتشاف Discovery » تأليف جريجوري الفصل السادس .

ه لم پكن المؤسس للطريقة العلمية بل الرسول المبشر بها ». وكانت أعظم خدمة أداها للعلم ، كتاباً خيالياً عجيباً ، هوكتاب الأطلانطيس الجديد (The new Atlantis) . وفرنسيس باكون في كتابه الأطلانطيس الجديد يصمم في لغة كثيرة الزخرفة حافلة بالخيال شيئاً ما ، خطة قصر للاختراع ، ومعبد عظيم للعلوم ، حيث ينظم طلب المعرفة بجميع فروعها على أسس ومبادئ في الذورة العليا من الكفاية » .

وعن ذلك الحلم اليوتوبي المثالي نشأت الجمعية الملكية في لندن (١) ، التي تلقت مرسوماً ملكياً من شارل الثاني ملك انجلترة في (١٩٦٢) . والفائدة بيل الميزة بالحوهوية لهذه الجمعية كانت وما تزال «نشر العلم وإذاعته» . ويسجل إنشاؤها خطوة محددة تنتقل بالعلم من البحث المنعزل إلى العمل التعاوني بين العلماء ، ومن أبحاث الكياويين القدامي السرية المنفردة إلى التقرير الصريح والبحث الجهري ، الذي هو عصب الحياة في الطرائق العلمية العصرية ، ذلك أن المنهج العلمي الحق يقوم على : به ألا يفترض أي الطرائق العلمية مستطاعة ، ألا يقبل أي خير أو بيان من غير تحقيقه ، أن تختبر كل الأشياء بأشد دقة مستطاعة ، ألا يحتفظ بأي أسرار ، ألا يحاول أحد أي احتكار ، وأن يقدم الإنسان خير ما لديه في تواضع ووضوح ، وألا يخدم أية احتكار ، وأن يقدم الإنسان خير ما لديه في تواضع ووضوح ، وألا يخدم أية غاية أخرى غير المعرفة » .

وأنعش هارڤى (١٥٧٨ – ١٦٥٧) علم التشريح الذي طال نعاسه ، كما كشف المدورة الدموية . وما لبث الهولندى ليڤنهوك (١٦٣٧ – ١٧٢٣) أن استخدم أول مجهر (ميكروسكوب) ساذج في الكشف عن الدقائق الخفية للحياة .

وما هؤلاء إلا قليسل من كثير من أسطع النجوم فى ذلك الجمع المتزايد من الرجال الدين نهضوا منذ القرن الخامس عشر إلى زماننا هذا ، بهمة وثابة ونشاط تعاونى إجماعى لم يبرحا يتزايدان على كر الآيام ... نهضوا بإنارة الكون أمام ابصارنا ، وزادرا من سيطرتنا على ظروف الحياة .

⁽ المترجم) هي أقدم حمية بريطانية للعلوم وأبرزها مكانة وتمد زمالتها شرفا عظيماً . تاريخ الإنسانية جـ٣

٧ ــ النمو الجديد للمدن الأوربية

قد توسعنا فى معالجة تجدد نشاط الدراسات العلمية فى العصور الوسطى ، كما له من أهمية قصوى فى الشون الإنسانية . ولا شك أن روجر باكون كان فى جملة أمره أعظم أهمية للجنس البشرى من أى ملك فى زمانه . ولكن العالم المعاصر ظل فى معظم أمره لا يعرف شيئاً عن ذلك النشاط المتقد تحت الرماد فى غرفات البحث وقاعات المحاضرات ومعامل الكياويين القداى ، ذلك النشاط الذى قدر له أن يغير كل أحوال الحياة . والواقع أن الكنيسة أدركت ما كان يجرى ، ولكن لم يكن مرد ذلك إلا شعورها بعدم احترام قراراتها الحاسمة . فإنها كانت قررت أن الأرض هى مركز خليقة الله ، وأن البابا هو حاكم الأرض الذى ندبته السياء لهذه المهمة . وقد أصرت الكنيسة على أن فكرات الناس عن هذه النقاط الجوهرية ، يجب ألا يعترضها أى تعليم يناقضها . ومع ذلك فإنها ما كادت تجبر جائيليو على القول بأن الأرض لا تتخوك حتى قنعت بذلك ورضيت . والظاهر أنها لم تكن تدرك أن الأرض برغ كل ما تبذل كانت تتحرك فعلا وأن موقفها من تلك المسألة كان نذمر ثبور علها .

ذلك أن أوربا الغربية كانت مسرحا لتطورات اجتماعية عظيمة جداً وأخرى فكرية في كل هذه الفترة من العصور الوسطى المتأخرة . ولكن العقل البشرى يفهم الحوادث بصورة أوضح كثيراً مما يفهم التغييرات ، كما أن الناس واصلوا آنذاك كفعلهم اليوم – التمسك بتقاليدهم الخاصة بالرغم مما يلم بما حولهم من المناظر من تغيرات وتقلبات .

ومن المحال علينا في كتابنا هذا أن نكدس أحداث التاريخ المتراصة التي لا تبين بوضوح العملية الرئيسية لتطور الإنسان ، مهما بلغت من بريق وجمال . ولا بد لنا من أن نسجل النمو المتواصل للمدن كبيرها وصغيرها ، وانتعاش قوة التجارة والنقود ، وعودة القانون والعرف إلى نصابهما شيئاً فشيئاً ، وانتشار الأمان ، والقضاء على الحرب الخاصة التي دامت في أوربا الغربية في الفترة بين الحرب الصليبية وبين القرن السادس عشر .

وهناك أشياء كثيرة ، تتراءى لنا ضخمة فى تواريخنا القومية ولكننا سنضرب عنها صفحا

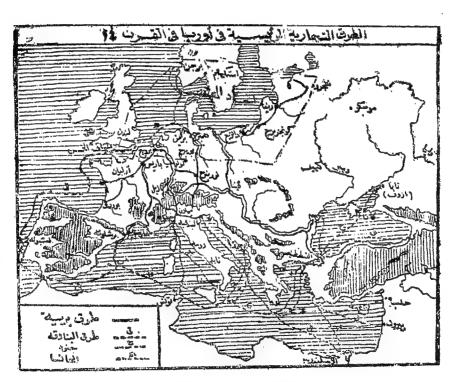
وليس لدينا متسع نذكر فيه قصة المحاولات المتكررة التي بذلها الملوك الإنجليز لفتح اسكتلندة وتنصيب أنفسهم ملوكاً لفرنسا ، ولا عن كيف استقر الإنجليز النورمانديون في إدلندة استقراراً غير وطيد في القرن الثاني عشر ، وكيف ألحقت ويلز بالتاج الإنجليزي (١٢٨٢). وقد تواصل كفاح انجليرة مع اسكتلندة وفرنسا طوال العصور الوسطى جميعاً . وجاءت أزمان بدا فيها أن اسكتلندة قد أخضعت إخضاعاً نهائياً ، وحدث إبانها أن ملك انجليرة كان يتملك في فرنسا من الأرض أكثر من عاهلها الإسمى . وغالباً ما تصور كتب التاريخ الإنجليزية هذا الكفاح مع فرنسا في صورة محاولة حاولت فيها إنجليرة بمفردها أن تقهر فرنسا وكادت أن تبلغ التوفيق . والواقع أنها كانت مشروعاً مشتركاً قامت به مجتمعة مع الفلمنك والباڤاريين أولا ، ثم بعد ذلك مع ولاية برجنديا الفرنسية القوية لغزو تراث هيوكاييت واقتسامه . . .

ولسنا على أن تحدثك عن تشتيت شمل الإنجليز على يد الاسكتلنديين في بانوكبرن (١٣١٤) ولا عن وليم والاس وروبرت بروس البطلين الوطنيين الاسكتلنديين ، ولا عن معارك كريسي (١٣٤٦) و پواتييه (١٣٥٦) وأجينكور (١٤١٥) في فرنسا ، التي يشرق ضياؤها في الحيال الإنجليزي ، وهي معارك صغيرة قام فيها رماة نبال أقوياء المراس في بعض الساعات المشرقة بإنزال هزيمة منكرة بالفرسان الفرنسيين في دروعهم السابغة ؛ ولا عن الأمير الأسود (١٤٥٥ هنري الخامس ملك إنجليرة ، ولا عن كيف دفعت فتاة ريفية هي چان دارك ، عدراء أورليان ، الإنجليز مرة ثانية عن وطنها (١٤٢٩ – ١٤٣٠) – فلن يقص هذا الكتاب عن ذلك كله شيئاً . ذلك أن لكل قطر مثل تلك الأحداث القومية التي يعتز بها . فهي طنافس التاريخ التي تعلق للزينة والمجور والروسيا وأسبانيا وفارس والصين تستطيع كلها أن تباري أو تبز أقصي ما دار على مسرح التاريخ الأوربي الغربي من مغامرات رومانسية يظهر فيها فرسان لا يقلون عن والأوربيين مغامرة ، وأميرات لسن أقل من الأوربيات إقداماً ، وقتالا وصيناً لا يقل قوة شكيمة في هذه عن تلك .

ولن نحدثك في أي تفصيل كيف أن لويس الحادى عشرالفرنسي (١٤٦١ – ١٤٨٣)،

⁽١) هو إدوارد : الأميرالأسود (١٣٣٠ - ٧٦) ابن إدرارد الثالث ملك اتجليرة . (المترجم)

وابن شارل السابع صديق جان دارك ، أذل برجنديا ووضع أساساً لملكية مركزية يفرنسا . إذ أن الذي يهمنا أكثر من ذلك أنه حدث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن البارود ، تلك الهبة المغولية ، وصل إلى أوربا ، فاستطاع بفضله الملوك (يما فيهم لوبس الحادي عشر) والقانون – معتمدين على نصرة المدن النامية ، أن يحطموا قلاع الفرسان والبارونات اللصوص نصف المستقلين في العصور الوسطى الأولى وأن يجمعوا في أيديهم أشتات سلطان أشد تمركزاً .



(شكل ١٦١) خريطة الطرق التجارية الرئيسية باوربا بي القرن الرابع عشر

ويختنى نبلاء وفرسان الفترة الهمجية المتقاتلون من التاريخ فى بطء أثناء تلك القرون ، ذلك أن الحروب الصليبية استنفدتهم ، كما أفنتهم أيضاً أمثال حرب الوردتين من الحروب بن الأسر المالكة ، فكانت الأسهم المرسلة من القسى الإنجليزية الطويلة

تنفذ من أجسامهم ناشبة فيما وراءهم بياردة ، وكان المشاة المسلحون بهذا القوس يجتاحونهم ويقذفون بهم إلى ميادين الهزيمة ، فأخدوا يروضون انفسهم على التجارة وغيروا من طبعهم . واختفوا من الوجود وزال كل أثر لهم إلا وجود اسمى في غرب وجنوب أوربا . قبل أن اختفوا من ألمائيا . وذلك أن الفارس في ألمانيا ظل محارباً محترفاً حتى صميم القرن السادس عشر .

وحدث إبان الفترة المنصرمة بين القرنين الحادى عشر والحامس عشر في أوربا الغربية ، وبخاصة في فرنسا وإنجلترة ، أن نشأت كالزهرات باقة كبيرة من المبانى والكاتدرائيات والأديرة وما إليها طرازها شديد التميز والجال وهو فن العارة القوطي. وقد سبق أن أشرنا إلى أهم خصائص ذلك الطراز . ويسجل هذا الازدهار البديع ظهور هيئة من أرباب الحرف ترتبط بدايات نشوشها ارتباطاً وثيقاً يالكنيسة ، وشرع العالم الممرة الثانية في إيطاليا وأسبائيا كذلك ، يكثر من تشييد المباني بوفرة وجمال . وفي بداية الأمر كانت أموال الكنيسة وثروتها هي التي تقوم بمعظم هاتيك المباني ، ثم أقبل الملوك والتجار أيضاً على البناء . ومن ثم فإلى جوار الكنسة والقلعة يظهر القصر الريني والمنزل

وقد حدث فی كل أرجاء أوربا مع زيادة التجارة ، انتعاش كبير فی حياة المدن منذ القرن الثانی عشر فما تلاه . ومن أبرز هذه المدن البندقية وتابعتاها راجوزا وكورفو ، ثم چنوة وڤيرونا وبولونيا وپيزا وفلورنسا وناپولی وميلانو ومرسيليا ولشبونة وبرشلونة وناربونه وتور واورليان وبوردو وباريس وغنت وبروچ وبولوفی ولندن واكسفورد وكمبردچ وسوتهمبتون ودوڤر وانتورب وهمبورج وبريمن وكولونيا وماينس ونورمبرج وميونخ وليبزيج ويجدبرج وبرسلاو وستتن ودانزج وكونچزبرج وبريجا وپسكوف ونوڤجورود وويسيي وبرجن .

« وكانت المدينة بألمانيا الغربية بين علمى (١٤٠٠) ، (١٥٠٠) تضمكل ألوان التقدم التي اكتملت للناس في ذلك الأوان ، وإن كانت ــ من وجهة النظر العصرية ــ

⁽١) نفلا عن الدكتور تيل فى كتاب « تاريخ العالم » لهلموت.

يعوزها الشيء الكثير . . . فكانت معظم الشوارع ضيقة ، غير منتظمة المباني . وكانت المنازل تبني في الغالب من الخشب ، على حين كاد كل ساكن من سكان المدينة يحتفظ عاشيته في منزله ، كما أن قطيع الخنازير الذي يسوقه في كل صباح راعي المدينة إلى المرعى كان جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة » . ويذكر شارلز ديكنز في كتابه ه مذكرات أمريكية » أن الخنازير كانت موجودة في برودواي ونيويورك في منتصف القرن التاسع عشر . وذلك بينها كان القانون يحرم ، في فرانكفورت على نهر المين بعد (١٤٨١) ، تربية الحنازير في المدينة القديمة (Altstadt) . ولكن هذه العادة ظلت قائمة في المدينة الجديدة (نيوستاد) وفي ساخسنهاوزن – كأمر عادي بحت . ولم تتمكن السلطات من هدم حظائر الحنازير في المدينة الداخلية في ليبزج إلا في (١٦٥٥) بعد عاولة فاشلة قامت بها في (١٦٥٥) . وكان سكان المدن الأغنياء الذين كثيراً عادي أنها التجارة العظيمة من أصحاب الأراضي الواسعي الثراء ، وكان شم أفنية فسيحة بها أجران كبيرة داخل أسوار المدينة . وكان أوسعهم ثراء يملكون تلك البيوت الضخمة الفاخرة التي ما نزال نعجب بها إلى يومنا هذا .

«ولكن جل بيوت القرن الخامس عشر قد اندثرت حتى فى المدن القديمة نفسها ، ولم يعد باقياً إلا بناء هنا أو هناك يتجلى فيه الخشب والطوابق البارزة بعضها فوق بعض ، كما فى مدينة بخاراخ (Bacharach) أو ملتنبورج ، وهى تذكرنا بطراز العارة المألوف آنذاك فى ييوت سكان المدن . فأما الأغلبية الغالبة من الطبقة الدئيا من السكان ، الذين كانوا يعيشون عيش التسول ، أو يحصلون على معاشهم بمارسة الصناعات الدنيا ، فكانوا يسكنون أكواخاً قلرة خارج المدن . وكثيراً ما كانت أسوار المدينة هى الدعامة الوحيدة لهذه المبانى التعسة . وتعتبر تنظيات ومرافق المنزل الداخلية حتى عند السكان الأغنياء ، ناقصة ومعيبة جداً من وجهة النظر العصرية ، كما أن الطراز القوطى كان مكيفاً بشكل رائع لبناء الكنائس وقاعات البلديات بقدر ما كان أقل الطرز صلاحية لإبراز التفاصيل الصغيرة فى وساتل الترف . على أن عصر النهضة أضاف الشيء الكثير من وسائل الراحة إلى البيوت .

لا وشهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بناء عدة كنائس للمدن وقاعات للبلديات (1) قوطية الطزاز في كل أرجاء أوربا ، ما تزال في كثير من الحالات تخدم الغرض الأصلى المنشود منها . ولا أدل على قوة المدينة ورغدها من هذه المبانى والتحصينات ، بما حوت من أبراج قوية وبوابات ضخمة . وما من صور لمدينة في القرن السادس عشر أو ما يتلوه من قرون إلا وتظهر بشكل بيتن هسده المنايات الأخرة المبتناة لحاية المدينة وتشريفها .

« وكانت المدينة تتولى أشياء كثيرة تقوم بها الدولة فى زماننا هذا . فإن إدارة المدينة كانت تتولى المسائل الاجتاعية أو يتولاها ما يقابل ذلك من مجالس بلدية . وكان تنظيم الحرف من اختصاص النقابات بالاتفاق مع المجلس ، على أن العناية بالفقراء من شأن الكنيسة ، على حين كان من واجب المجلس وقاية أسوار المدينة والعناية بفرق المطافئ العظيمة الضرورة والأهمية . وتذبها من المجلس إلى عنايته بواجباته الاجتماعية ، فإنه يشرف على ملء مخارن الحبوب التابعة للبلدية ، لكى يكون بواجباته اللاجتماعية ، فإنه يشرف على ملء مخارن الحبوب التابعة للبلدية ، لكى يكون تقريبا إبان القرن الحامس عشر . ولم ينقطع قط صدور تعريفات لأسعار بيع السلع تقريبا إبان القرن الحامس عشر . ولم ينقطع قط صدور تعريفات لأسعار بيع السلع كلها ، وهي على درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتسب رزقاً طيباً ؟ وتضمن للمشترى جودة صنف السلعة وكانت المدينة كذلك هي الممول الرأسمالي ؟ وبالتزامها بيع المرتبات السنوية على الحياة وعند المراث ، أصبحت تقوم بعمل البنوك وتحظى بثقة لا حد لها . وكانت تحصل مقابل تلك أصبحت تقوم بعمل البنوك وتحظى بثقة لا حد لها . وكانت تحصل مقابل تلك الحدمات على المال اللازم لابتناء التحصينات أو الحصول على حقوق السيادة من الدى أمر مفلس » .

وكانت هذه المدن الأوربية فى معظم شأنها جمهوريات أرستقراطية مستقلة أو شبه مستقلة . وكان معظمها يعترف بسيادة عليا مبهمة من جانب الكنيسة ، أو الإمبراطور أو أحد الملوك . على أن بعضها الآخركان جزءاً من ممالك، أو حتى عواصم

⁽١) قاعة البلدية Town Hall : سبى مام يستعمل لاجتماع مجلس المدينة ولأعمال أخرى . (المترجم)

دوقات أو ملوك . وفى مثل هذه الحالات كانت حرياتها الداخلية مكفولة الاستمرار بأمر ملكى أو إمبراطورى . وفى انجلترة قامت على نهر التاميز مدينة وستمنستر الملكية ملاصقة تمام الملاصقة وندا مساويا لمدينة لندن المسورة ، التى كان الملك لا يدخلها إلا بإذن ومراسم خاصة .

وحكمت جمهورية البندقية المستقلة إمبراطورية من الجزر التابعة والنغور التجارية ، على طريقة تقارب طريقة الجمهورية الأثينية . كذلك كانت جنوا منفصلة وحدها .

وكانت المدن الألمانية في منطقة البلطيق وبحر الشال من ريجا إلى ميدلبرج في هولندا ودرنمولند وكولونيا متحدة اتحادا كنفدراليا مفككا ، هو اتحاد مدن ألهانسا ، تحت زعامة هامبرج وبريمن وليوبك ، وهو اتحاد كان ارتباطه بالإمبراطورية أضعف واشد تفككا . وقام هذا الاتحاد الذي يحتوى على أكثر من سبعين مدينة في مجموعه ، والذي كانت له مستودعات في نوڤجورود وبرجي ولندن وبروچ ، يبذل الجهد الكثير للاحتفاظ بالبحار الشمالية خالية من القرصنة ، تلك اللعنة التي نكب بها البحر المتوسط والبحار الشرقية .

وكانت الإمبراطورية الشرقية إبان دورها الآخير بأكمله ، منذ الفتح العباني لأراضيها الأوربية بالبلقان في القرنين الرابع عشر وأوائل الخامس عشر حتى سقوطها في (١٤٥٣) ، تكاد تقتصر على مدينة القسطنطينية التجارية ليس غير ، فكانت من ثم « دولة مدينة » مثل چنوا أو البندقية ، لا يفرقها عنهما إلا وجود بلاط إمراطوى فاسد يرهقها ويثقل كاهلها .

وقد بلغت حياة المدن تلك فى العصور الوسطى المتأخرة ، أعلى ذرى تطورها وفيخامتها فى إيطاليا . فبعد انقراض أسرة هوهنشتاوفن فى القرن الثالث عشر ، ضعفت قبضة الإمبراطورية الرمانية المقدسة على شمال ووسط إيطاليا ، وإن ظل الأباطرة الألمان _ كما سنذكر فيا بعد _ يتوجون ملوكاً وأباطرة لإيطاليا حتى زمان شارل الخامس (قرابة ١٥٣٠) . ونشأ عدد من دول مدن شبه مستقلة ، إلى الشال

من روما العاصمة البابوية . ولكن جنوب إيطاليا وصقلية ظلتا مع ذلك تحت السيادة الاجنبية . وكانت جنوة ومنافسها البندقية أكبر الثغور التجارية في ذلك العصر ؛ وما تزال قصورهما الفخمة ونقوشهما الفاخرة تحظى بإعجابنا . وانتعشت كذلك ميلانو عند سفح ممر سان جوثارد ففازت بالثراء والقوة . ولعل أسطع المدن ضياء في كل تلك المجموعة من النجوم الإيطالية ، مدينة فلورنسا ، وهي مركز نجارى مالي ، حظيت بعصر كعصر « بريكليس » تحت حكم عائلة ميديتشي شبه الملكي في القرن الحامس عشر . على أن فلورنسا انتجت قبل زمان هؤلاء « الكبراء » الميديتشيين المحامس عشر . على أن فلورنسا انتجت قبل زمان هؤلاء « الكبراء » الميديتشيين ومبنى ديومو (الذي عمله برونللسكو ، ١٣٧٧ – ١٤٤٢) كانا موجودين قبل ومبنى ديومو (الذي عمله برونللسكو ، ١٣٧٧ – ١٤٤٦) كانا موجودين قبل عهدهم . وقله أصبحت فلورنسا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، مركز اكتشاف فنون القدماء واسترجاعها ومحاكاتها . على أن نهضة الفنون التي قامت فيها فلورنسا بدور عظيم كبير ، من الأوفق أن نتكلم عنها في قسم تال .

٨ - النهضة الأدبية

يرتبط بهذا التيقظ العام الجديد الذي ألم بالذكاء الأوربي الغربي انفجار عظيم في الأدب الابتداعي الحلاق. ولقد سبق أن لحظنا ظهور الآدب في اللغة الإيطالية بفضل مبادرات الإمبراطور فردريك الثاني. وفي نفس الوقت كان المنشدون التروبادور (٢) في كل من شمال فرنسا وپروڤانس (٣) يدفعون الناس إلى نظم الشعر باللهجات الشمالية والبحنوبية ، ومنها أغاني الحب والأغاني القصصية وما شاكلها. وقد انفجرت هذه الأمور جميعاً ، إن صح لنا هذا التعبير ، كتيار سفلي يجرى تحت ميل إلى كتابة اللاتينية وقراء بها . وكان صدورها عن العقل الشعبي وعن العقل المهاون المرسل على سجيته وليس عن العقل المنعلم . وولد بفلورنسا في (١٢٦٥) ، دانتي ألبيجيرى ، الذي انتهى أمره إلى عن العقل المنعلم . وولد بفلورنسا في (١٢٦٥) ، دانتي ألبيجيرى ، الذي انتهى أمره إلى

⁽۱) برج چوتو (Giottotower) : هو برج الحرس الكبير بكاتدرثية فلورنسا . (المترجم)

⁽٢) التروبادرر : مغنون جوالون فى القررن الوسطى ينشدون أغانى الحب . (المترجمُ)

⁽٣) يروڤانس : القسم الحنوبي من فرنسا المطل على البحر المتوسط . (المترجم)

المنفى بعد نشاط سياسى عنيف ، ثم كتب بين ماكتب من أعمال ، قصيدة رصينة جزلة في شعر إيطالى مُقفَى ، هى « الكوميديا » ، وهى وشى من الإشارات الرمزية والأحداث المتقطعة غير المترابطة والبحث الدينى . وهى تصف زيارة للجحيم والمطهر والفردوس . ومما يلوّح بعلاقتها بأدب الأجداد اللاتينى انخاذ دانتى من قرچيل دليلا مديه فى المناطق السفلى (أعنى الجحيم) . وهى فى ترجماتها الإنجليزية المختلفة تسبب للقارئ مللا وسآمة ، ولكن أهل الفكر الذين أوتوا من العلم ما يسمح لهم بالحديث فى الموضوع لا يكادون لفرط إعجابهم يستطيعون أن يعروا عما يحسونه إزاء الجمال الراقع ، والمذة والحكمة التي تنجلي فى الأصل . وقد كتب دانتي أيضاً باللاتينية فى المسائل السياسية وفى الدفاع عن حتى اللسان الإيطالي بأن يعد لغة أدبية . فوجه إليه نقد لاذع لاستعاله اللغة الإيطالية ، واتهم بعدم المقدرة على كتابة الشعر باللاتينية .

وبعد ذلك بزمن وجيز أخل پترارك (١٣٠٤ – ١٣٧٤) كذلك يكتب الأهازيج (١٥٥٥) (١٥٥) والقصائد الغنائية Odes باللغة الإيطالية بما أثار حمية جميع من بلغ من الثقافة حداً يمكنه من التأثر بهما . مثال ذلك ما كتبه چون أدينجتون سيموندس : « إن القافية في قصيدة حياة المادونا لورا ووفاتها (Vita e Morte di Madonna Laura) لا يمكن أن يتقادم عليها العهد مهما طال الزمن ، وذلك لأن الصيغة العروضية البالغة حد الكمال قد قرنت فيها إلى الألفاظ المنتخلة الصافية » . على أن القصائد تتركنا في شك من أمر وجود المادونا لورا . وكان پترارك أحد جماعة من الإيطالين الذين دأبوا جاهدين في استرجاع أمجاد الأدب اللاتيني . وإن كتاب معالم تاريخية كهذا قد لا تستطيع فيه هذه الأمجاد أن تبلغ حد السمو المذى لاحت به في عين جيل من الإيطاليين أخد يفتح عينيه ثانية على ما للجمال الأدبي من روعة تهز الأنفس . ثم ذوت عملية الكتابة بالإيطالية ردحاً من الزمان انتعش أثناءه التأليف باللاتينية . فكتب پترارك ملحمة باللاتينية هي وهي ملاحم وماسي (تراجيديات) زائفة ومهازل (كوميديات) زائفة باللاتينية ، لاشك

⁽١) الأهازيج أو السونيتات : ضرب من القصائد الأوربية مكون من ١٤ بيتاً وله بحر خاص . (المترجم)

فى شبهها الكبير بالأشعار والنثر البيانى المنمق الذى يصدر فى الإنجليزية من بعض الموهوبين من شباب الهنود. ولم يحدث أن عاد الشعر الإيطالى من جديد إلى رفعته وتميزه إلا بعد ذلك بزمن ، بظهور بوياردو ثم آريوستو (١٤٧٥ – ١٥٣٣). ولم تكن قصة آريوستو المسهاة (أورلاندو فوريوسو) إلا الآية المتوجة لعدد جم من القصائد الرومانسية القصصية التي كانت تدخل البحة إلى قلوب قراء عصر البهضة القليلى الاطلاع. وكانت هذه القصائد القصصية تعترف على الدوام بالفضل لذويه بإشارتها ومحاكاتها بشكل ما لتقاليد الملحمة القرچيلية المصطنعة ، التي هي في حد ذاتها عمل جليل ينطوى على المحاكاة وموفور الاطلاع. وتتكون كنلة هذا الأدب من الكوميدبات والقصيدة القصصية ، والقصائد القصيرة في أشكالها المتنوعة . ولم يبلغ النثر من التكلف والدمائة الدرجة التي تجعله موضع استحسان النقاد.

وكذلك رانت على تيقظ الحياة الأدبية في المجتمع الناطق بالفرنسة ذكريات للأدب الملاتيني . وكان هناك بالفعل أدب من الأغاني المرحة كتب في فرنسا بلاتينية القرون الوسطى ، وهي أغاني الحان والطريق (وهي ما يسمى بالشعر الجولياردي في القرن الثالث عشر) ، وظلت روح هذه الكتابة الأصيلة تعيش في الأشعار الصادقة التعبير الشعراء مثل فيتون Villon (١٤٣١ – ١٤٣١) ؛ ولكن انتعاش الدراسات اللاتيئية انتقل من إيطاليا وفرض التكلف على الناس عامة اللهم الا أصحاب أقوى العقول وتأسس أسلوب محكم فيه شيء من جلال المباني الحجرية الأثرية . وأنشئت قصائله فاخرة وروايات تمثيلية كلاسيكية قصد منها إلى استثارة إعجاب الحلف (الأجيال التالية) أكثر من إدخال السرور عليهم . ومع هذا فإن عبقرية الحياة الفرنسية لم تقتصر اقتصاراً تاماً على هذه المارسات الرفيعة ؛ فإن نثراً يتصف بالامتياز والمرونة قد ظهر . وكتب مونتن (١٥٣٣ – ١٥٩٢) ؛ وهو أول كاتبي المقالات ، كتابات لطيفة عن الحياة وكربهة عن العلماء ، وانفجر رابليه (١٤٩٠ ؟ – ١٥٥٣) كسيل من الحيم المحرق الصاخب الضاحك ، انفجر محطا ما للعلماء المتحدلقين في عصره من مظاهر الكرامة واللياقة .

فأما فى ألمانيا وهولندة فإن الدوافع الفكرية الجديدة جاءت فى نفس الوقت تقريبا الذى تجلت فيه الآثار السياسية والدينية الضخمة للإصلاح الدينى ، كما أنهما أنتجتا أشكالا روحها الفنية أقل نقاء . يقول چ . أدينجتون سيموندس : إن إبراسموس (إبرازم)

هو الممثل العظيم لعصر النهضة في هولندة مثلها كان لوثر في ألمانيا ، ولكنه لم يكتب بالهولندية بل باللانينية .

وحدث في انجلترة انفجار في النشاط الأدبي يرجع إلى القرن الرابع عشر. فأنتج جفری شوسر (۱۳٤٠؟ ــ ۱٤٠٠) شعراً قصصیاً ممتعاً نهیج فیه بشکل ظاهر نهیج النماذج الإيطالية ، على أن قدراً كبيراً من الشعر القصصي الرومانسي كان موجوداً من قبل. ولكن الحروب الأهلية وحروب الوردتين والوباء والمنازعات الدينية قضت على هذه البداية الأولى ، ومن ثمة لم يدخل الأدب الإنجليزى مرحلة الحياة القوية إلا مع استهلال القرن السادس عشر بعد عهد هنرى الثامن . فحدث في مستهل الأمر انتشار سريع للدراسات الكلاسيكية وسيل من الترجمات عن اللاتينية والإغريقية والإيطالية بعث الحصب في الأذهان . وظهر محصول فجائى من الكتابات الإنجلزية المتازة . وأخذ الكتاب يداعبون اللغة الإنجلىزية ويختبرونها ويصقلونها . وكتب سهنسر قصته (الفهرى كوين) ، وهي عمل رمزى ممل له جمال زخرف عظيم . ولكن الدراما في أيام الملكة إلىزابث ، كانت المضمار الله وجدت فيه العبقرية الإنحليزية خير مجال للتعبير من تفسها . لم تخضع قط للتقاليد الكلاسيكية ، بل كانت الدراما في عصر إليزابث شكلاً أو قالباً أدبيًا جديداً أـ لـ اكتمالاً وأتم تحرراً وأعظم قوة وأحفل بالسمة الطبيعية التامة . ووجدت في شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) خير من مجلسَّها إلى أقصى حد ؛ وهو رجل كان لديه لحسن الحفل « القليل من اللاتينية والأقل من الإغريقية » ، وكانت أجزل فقراته وأحفلها بالبراعة مستقاة من الحياة المتواضعة بل حتى السوقية ، كان رجلا ذا فكاهة حادة وحلاوة ذهنية عظيمة ، يحول كل جملة يكتبها لحناً شجياً ، وولد ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) قبل وفاة شكسير بثمانية أعوام . وقد أسبغت دراساته الكلاسيكية الأولى في صباه على كل من شعره ونثره سمـة شتالة من الكبرياء والفخامة لم تزل مهما قط زوالا تاماً . رحل إلى إيطاليا وشهد رواثع التصوير فى عصر النهضة . وترجم تصاوير رافاييل وميشيل انجلو شعراً إنجلبزياً فاثقاً دوّنه في ملحمتيه العظيمتين « الفردوس المفقود » و « الفردوس المستعاد » . ومن حسن-حظ الأدب الإنجلنزي أن شكسبىر جاء ليوازن ملتون وينقذ قدراً كبيراً من الروح الجوهري المُلكُ الأدب من التشبع بالروح الكلاسيكي .

وأنتجت البرتغال بلمسة نالمها من الهضة الأدبية ، ملحمة اللوسيادة التي وضعها كاموينس (١٥٢٤ – ١٥٨٠) ولكن كان من حسن حظ أسبانيا – شأن انجلترة ، أن وجدت رجلا ذا عبقرية فائقة ، لا يثقل فرط العلم كاهله ، يعبر لها عن روحها . فإن سر قانتيز (١٥٤٧ – ١٦٦٦) تناول بسخريته الفكاهات والسخافات التي أثارها في رأس رجل هزيل فقير نصف مجنون ، نزاع نشب بين تقاليد الفروسية في العصر الوسيط وبين احتياجات الحياة السوقية ودوافعها . وإن بتطلبية دون كيشوت وسانكوپانزا – شأن بطل شكسير السير چون فالستاف وبطلة شوسر زوجة باث ، وبطل رابيليه جارجنتوا – ليقتحان كرامه الأدب الشكلي القديم وبطولاته مدخلين عليهما الحرية والضحك . وإنهما ليقتحان خلالها كما اقتحم روجر باكون والرجال العلميون علم العلماء المدرسانيين المعتمد على الكتب وحدها ، وكما اقتحم المصورون والمثالون الذين سنتكلم عنهم فيا بعد ، القيود والتضييقات الزخرفية والزام الاحتشام الديني في فنون العصور الوسطى . ولم تكن الحقيقة الحوهرية التي اجتذبها عصر البهضة هي الروح الكلاسيكية بل إطلاق السراح وتعظيم القيود ؛ ولم يكن إحياء العلوم اللاتينية والإغريقية إلا إسهاماً في القيم الإيجابية لعصر النهضة ، لما لتلك القيم من تأثير مدمر للتقاليد الكاثوليكية والقوطية والإمراطورية .

٩ - النهضة الفنية

لا شك أن مما يتجاوز مجالنا وحدودنا أن نقفو النهضات المتعددة فى الفنون المحلية والزخرفية فى هذه الفترة العظيمة من الانتعاش البشرى العام ؛ وأن ننبتك كيف كيت الفن القوطى الشهالى لمبانى البلديات والمبانى الخاصة ، ثم كيف أدخلت عليه التعديلات ، واستبدل إلى حد كبير بأشكال مستقاة من الفن (الرومانسكى) الإيطالى ، ومن إحياء التقاليد القديمة فى إيطاليا . ولم يحدث قط أن مالت إيطاليا إلى الفن القوطى الذى اجتاحها من الشهال ، أو إلى الأشكال العربية انتى دخلتها من الجنوب. وفي القرن الحامس عشر تم اكتشاف الكتابات اللاتينية التى سطرها قمرو فيوس وفي القرن الحامس عشر تم اكتشاف الكتابات اللاتينية التى سطرها قمرو فيوس (Vitruvius) فى فن العارة ، وكانت منها قوياً زاد فى عليات التغيير التى كانت تجرى فعلا.

فانتشرت المؤثرات الكلاسيكية القديمة الى كانت تنهمر في الأدب بقوة ، منتقلة إلى عالم الحلق والابتكار الفني المتفزز بالنشاط آنفاً .

ولكن كما أن الانتعاش الأدبى قد سبق إحياء الدراسات الكلاسيكية (إحياء العلوم القديمة) ، فقد جرى كذلك أن اليقظة الفنية بلغت أقصى مراتب تقدمها قبل اتجاه الأنظار إلى الفن التمثيلي (١) الكلاسيكى . فإن أوربا أخذ يشتد فيها على التدريج منذ أيام شرلمان بروز الميل إلى المحاكاة التمثيلية للطبيعة وإيثارها على الفن الزخرف . فحدث بألمانيا إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر تطور قوى فى فن التصوير ، وأعنى به تصوير أشياء حقيقية على الحشب . فأما فى إيطاليا _ حيث كانت الأشكال المعمارية تتيح لأهل الفن براحاً أرحب مما يتيحه الفن القوطى ، فإن أهمية التصوير على الجدران كانت تتزايد . وقامت أول مدرسة محددة التصوير الألماني فى مدينة كولونيا (١٣٠٠ فما تلاها) . وبعد زمن غير كبير ظهر فى هولندة الأخوان هوبارت وجان قان آيك (قرابة ١٣٨٠ – ١٤٤٠) . ويمتاز عملهما بالإشراق والنضرة والمهيجة وهو يشبه ما فى كتاب القد اس (الحولاجي) من تصويرات . ولكنها حية تتنفس الهواء على السطوح الأرحب للوحات المصورة (Panels) .

وكان تشيابويه (Cimabue) يصور فى القرن الثالث عشر ، وهو أستاذ چوتو (١٣٦٦ – ١٣٣٧) ، الذى يبرز بوصفه الشخصية الضليعة المبكرة فى تلك المرحلة الأولى من مراحل نهوض الفن إلى سابق عهده . وهى مرحلة بلغت ذروتها فى شخص فرا أنجليكو دا فيسولى (١٣٨٧ – ١٤٥٥) وختمت به .

وعند ذاك ابتدأ في إيطاليا وبخاصة في فلورنسا ، بحث علمي بالمعنى الدقيق في الوسائل الفنية للفن التمثيلي الواقعي . ولا حاجة بنا أن تؤكد بقوة أن جوهر التغيرات التي كانت تحدث في الفن والنحت في أوربا في عصر النهضة هو التخلي عن الاعتبارات العلمية ، وهي حقيقة تجاهلتها على الدوام

⁽١) الفن التسثيل Representative art : هو مجموعة فنون الرسم والتصوير والتشكيل وسمى التمثيل لأنه يمثل الطبيعة والحياة . (المترجم)

جميع الكتب التي تبحث في الفنون . فنشأ في مكان تصميم الحليات وصوغ أشكال الزخارف بما فيها من شكلية وتجريد وجمال ، بحث وراء الواقع كان في خير أحواله جريثاً بديعاً وغالباً ما كان خشناً صبحاً إلى حد موالم . فعلى الجدران والأحجار ظهر من جديد ما للجسم الإنساني في هيئته الساذجة من تمايس ولدونة حركة بعد أن قضى عليهما الفن العربي وجمدها الفن البيزنطي . فقد أخلت الحياة تدب ثانية في الفن وأخلت من فورها تتنفس وتتحرك وتتصبب عرقاً وتوادي الإشارات المعبرة ، ودرست مشاكل المنظور ووجدت لها الحلول ، وشرع المصورون الأول مرة مع التمكن والاطمئنان في أن يمثلوا «العمق » في الصورة . وأخذ الفنانون يدرسون التمكن والاطمئنان في أن يمثلوا «العمق » في الصورة . وأخذ الفنانون يدرسون مناتكرين التشريحي للبدن دراسة استقصاء مدققة . وقد ظل الفن فترة من الزمان التحوين التشريحي البدن دراسة استقصاء مدققة . وقد ظل الفن فترة من الزمان عليه تعادةاً حادقاً حادقاً حادقاً حالية الفن إلى دور من الجمال الزخرف المتطرف وتجاوزه .

وظهر مع القرن السادس عشر ليوناردو دافنتشي (١٤٥٢ – ١٥١٩) الذي أسلفنا لك القول في آرائه العلمية . وكان هناك في نورمبرج شخص ذوروح قريبة من روحه هو ألبرخت دورر (١٤٧١ – ١٥٢٨) . وارتفع فن البندقية إلى ذروة مجده ،

⁽١) الأمبريانيون (Umbrian) : نسبة إلى أمبريا وهي منطقة بوسط إيطاليا . (المترجم)

بفضل کل من تتیان (۱۲۷۲ ؟ – ۱۹۷۸) وتنتورتو (۱۰۱۸ – ۱۰۹۶) وپول قمرونیزی (۱۵۸۲ – ۱۵۸۸) . ولکن لیس یعنی القارئ فی کثیر ولا قلیل أن نقوم بسرد الأسماء له ، ولن تستطيع أجود صور مستنسخة لهم ، نقدمها للقارئ ، أن تقدم إليه إلا إشارات قليلة عن «كنه وكيف»هؤلاء الأساتذة ، وما نستطيع بواسطة المطبعة إلا أن نذكر علاقتهم العامة بالفن والحياة بوصفهم عوامل في اتجاه جديد نحو الجسم والأشياء الملموسة . ولا بد للقارئ الدارس من الرجوع إلى صورهم الأصلبة يطلب فيها بنفسه إدراكاً واقعيا لسهاتهم المميزة . وربما أشرنا له إلى صورة تتيان المعروفة بالاسم غير المطابق لها ، وهو « الحب الطاهر والحب الدنس » ، أو إلى مختلف صور العرافات (Sibyls) وإلى « خلق آدم » التي رسمها مايكلا نجلو على سقف كنيسة السستين ، بوصفهن من أبدع أزاهير تلك الروضة فتنة وجمالاً . وانتقل فن التصوير إلى انجالترة على يد هانز هولبين الألماني (١٤٩٧ – ١٥٤٣) ، وذلك لأن انجلمرة قد بِلغ بِهَا النَّزْقُ فِي الحربِ الْأَهْلِيةِ حِداً لم تستطع معه أنْ تَظْلُ فِي كَنْفُهَا أَيَّةِ مُدرسة للفن كان مجيئه مجرد زيارة عابرة . بل إن عصر الملكة اليزابث نفســه ــ وناهيك بتراثه في الأدب وبخصبه في الموسيقي – لم ينتج أي تصوير أو نحت يمكن أن يقارنا بمثيليهما في إيطاليا وفرنسا . ولم تلبث الحروب والشغب السياسي أن عوقت فن ألمانيا عن التتمدم ، واكن الدافع الفني الفامنكي استمر إلى روبينز (١٥٧٧ – ١٦٤٠) ، وراميراندت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) ، وإلى عدد عظيم من مصورى الخرى(١) البهيج والمناظر الطبيعية البرية الذين أنتجوا صوراً زيتية في غرب أوربا الأقصى ، واللدين كان إنتاجهم شبيها في روحه وموضــوعه شبها عجيبا بطائفة من أقدم الصـــور الصينية دون أن يكون هناك أى احتمال لوجود علاقة أو نقل أو محاكاة . وربما كان هذا التماثل راجعا إلى وجود تماثل ما غامض فى الظروف الاجتماعية ،

و أخذت عظمة مصورى إيطاليا تنحدر وتخبو منذ نهاية القرن السادس عشر. فذوت حماسة الناس وإحساسهم بطرافة تصوير الجسم الإنسانى المغمور بالضياء بكل. ما يحتمل أن يحتويه من ثنيات، ومن امتداد ومن التقصير الأماى (Exiension & Foreshortening)

⁽١) الحمنزى (Genre) : نوع وطران من تصوير مناظر الحياة العادية . (المترجم)

مِين أحضان خلفيات (Backgrounds) لها نصاعة وإشراق يفوق ما للطبيعة من إشراق . كما أن مبررات أنحاذ النحت والأساطير (الميثولوچيا) الكلاسيكية موضوعات للماثيل التي تمثل التمرينات الجمَّانية قد استنفدت أغراضها إلى حدكبير . ولم تعد تستثير العقواء الأصيلة الصور التي تقوم بتمثيل الفضائل والرذائل والفنون والعلوم والمدن والأمم وما إليها بأشكال نسائية مكشوفة كشفاً حراً ومقدمة في هيئة تسر الأعين ؛ وظهر طراز من المحترفين أقل ميلا للاجتهاد وأخذ في ممارسة الفن قانعاً بتصوير صور كانت فى خير أحوالها مجرد مطاولة لصور موجودة من قبل . فأما فن النحت الأورى الذي تطور بهيئة بطيئة طبيعية في ألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادى عشر فما أعقبه من قرون ، والذي كان أنتج أعمالا ممتازة من أمثال ملائكة الكنيسة المقدسة بباريس ، تمثال الفارس لكان جراندى في قبرونا ، وتمثال كُليوني في البندقية (الذي صنعه ڤیروتشیو ولیوپاردی) – فلم یلبث أن جرفته أمامها المحاولات التی أنفقت الإحياء الصفات الخاصة التي تمتاز بها صناعة التماثيل الكلاسيكية التي كان الناس عند ذلك قد استخرجوها من الأرض وأخذوا ينظرون إليها معجبين . فأنتج مايكلا نجلو وهو سكران بنشوة هذا الإلهام أعمالا بالغة الذروة في القوة والكرامة مع تمكن في تكوينها التشريحي لا يشق له غبار وهي أعمال أذهلت خلفاءه ودفعتهم إلى التقليد ، فأوردهم ذلك موارد التدهور . ومع تقدم الزمن بالقرن السابع عشر أخذ فنا التصوير الأوربي والنحت يتخذان لنفسيهما سمة الرياضي الذى أفرط تمريناً حتى بلغ حد الإعياء ، أو الوردة التي أفرطت في التفتح .

على أن حاجات الناس المادية تدعم فن العارة عند ما تضمحل الفنون الأقل منه ضرورة ، ولذلك تواصل إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتاج مستمر منوع لمبان رقيقة جميلة في كل أرجاء أوربا . ولن نذكر لك إلا اسم پالاديو (١٥١٨ – ١٥٨٠) ، الذي تملأ أعماله مدينة فيشنزا مسقط رأسه ، والذي نشرت كتبه وتعاليمه في كل أقطار أوربا تقريباً أسلوبه الكلاسيكي المبتعث حياً . وإنه ليحاكي ينبوعاً عظيا يفيض بالأفكار المعارية . ولسنا بمستطيعين هاهنا أن نقص أثر التفريعات والتغيير ات المعقدة التي ألمت بعارة عصر النهضة والتي استمر تطورها استمر اراً طبيعياً ومتواصلاً حتى زماننا هذا .

ولم يكن فن التصوير في أسبانيا نباتاً أصيلا في أراضيها كما كان حاله ألمانيا وإيطاليا. فإن المصورين الإسبان كانوا بببطون إيطاليا للدراسة ثم يعود بفتهم . ولكن حدث في النصف الأول من القرن السابع عشر ، في البلاط المتقلص الذي كان ما يزال محتفظاً بثراثه ، أن ازدهر التصوير الإسباني فيلاسكويز (١٥٩٩ – ١٦٦٠) العظيم الأصيل . فكانت له إلى الأشياء نظ بالطرافة والقصد المباشر إلى الغاية ، وكانت في مرقاشه قوة جديدة ؛ فهو بالطرافة والقصد المباشر إلى الغاية ، وكانت في مرقاشه قوة جديدة ؛ فهو في ذلك رامبر اندت الهولندي بيرز متفوقاً على بقية مصوري عصر النهصة في ذلك رامبر اندت الهولندي عبرز متفوقاً على بقية مصوري عصر النهصة والكيف كما أنه يسير في طريق أقوى ما أنتجت أخريات القرن التاسع عشر و زماننا هذا من أعمال .

١٠ ــ أمريكا تدخل التاريخ

سقطت القسطنطينية في (١٤٥٣) كما أسلفنا إليك القول. وظل الضغ على أوربا طوال القرن التالى قوياً لا ينقطع. فإن الحد الفاصل بين المغولى و الذي كان يمتد في مكان ما شرقي هضبة الهامير في أيام پريكليس ، تراجع إلى هنغاريا . وتحولت القسطنطينية ردحاً طويلا من الزمان إلى مجرد جالمسيحيين تحيط مها شبه جزيرة البلقان الذي يحكمه الترك ، وأفضى سقوطها التجارة مع الشرق إلى حد كبير .

فأما مدينتا البحر المتوسط المتنافستان چنوة والبندقية ، فكانت الأخيرة وجه الإجمال أحسن علاقة بالترك من الأولى . لذا كان كل ملا ح چنوى خمن احتكار البندقية . نجارة فى الهجر المتوسط ، ويحاول أن يستنبط طريقة نطاق ذلك الاحتكار أو الدوران من حوله . وظهرت عند ذاك شعوب جه هويت التجارة البحرية ، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تؤدى إلى القديمة ، وذلك لأن الطرق العتيقة كانت مغلقة وجوههم .

فكان البرتغاليون مثلاً يطورون تجارتهم بإزاء شواطئ المحيسط وبذا أخذ ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إهمال مترامية ترجع إلى أو ا قرطاچة على يد الرومان . ومن العسر علينا الفصل فيا إذا كان الأوربي الغربي يندفع إلى المحيط من تلقائه أم كان يدفعه الأثراك إليه دفعاً ، وهم الذين كانت لهم السيادة في البحر المتوسط حتى يوم معركة ليپانتو (١٥٧١) . فإن السفائن البندقية. والجنوية كانت تتسلل بمحاذاة الشواطئ حتى تبلغ انتورب(١) ، وكان ملاحو مدن الهانسا أخذوا ينحدرون جنوبا ويوسعون مجالهم . وحدثت أثناء ذلك تطورات ضخمة في فنون الملاحة وبناء السفن . ولا يخنئ أن البحر المتوسط بحر قوادس(٢) وملاحة ساحلية . ولكن المحيط الأطلسي و بحر الشهال ، أكثر رياحاً وأشد موجا والشواطئ فيهما في كثير من الأحيان مصدر خطر أكثر منها كنفا يحتمى به . فاستدعت البحار العالية وجود السفينة الشراعية الضخمة ، ومن ثم يتم ظهورها في القرنين الرابع عشر والحامس عشر ، وتمخر البحر مسترشدة في طريقها بالبوصلة والنجوم .

وكان تجار الهانسا عندما وافى القرن الثالث عشر يقلعون بانتظام عبر البحار الباردة الشهباء ، من يرجن إلى أهل الشيال سكان أيسلندة . وعرف الناس من أيسلندة خبر جرينلندة ، وكان الرحالة المغامرون قد وجدوا من زمان مديد أرضاً أخرى خلفها ، هى ثينلندة ، حيث المناخ لطيف معتدل وحيث يستطيع الناس أن ينزلوا ويستقروا إن آثروا أن يقطعوا الصلة بينهم ويين بقية الجنس البشرى . وثينلندة هذه إما أن تكون نو قاسكوتشيا أو ، نيو انجلند(؟) وهو الأرجح .

وكان التجار والبحارة فى كل بقاع أوربا فى القرن الحامس عشر يقلبون الفكر فى شأن طرق جديدة تفضى إلى الشرق . وكان البرتغاليون يتساءلون غير عالمين بأن الفرعون نخاو قد حل المشكل قبل زمانهم بعصور مديدة : أليس فى الإمكان أن يصل الناس إلى الهنسد بالدوران حول ساحل أفريقيا ؟ . واتبعت سفنهم (١٤٤٥) نفس الطريق الذى سلكه هانو إلى رأس قردى ، فانطلقوا فى البحر غرباً ووجدوا جزائر الكانارى وماديرا والأزورس . وكانت تلك خطوة طويلة نوعاً ما عبر الأطلسى . يقول السير هارى چونستون متحدثاً عن هذه المغامرات البحرية فى المحيط الأطلسى الشرقى و بمحاذاة الشاطى الإفريقي الغربى : « إن البرتغالين قد سبقهم فى القرنين الشرقى و بمحاذاة الشاطى الإفريقي الغربى : « إن البرتغالين قد سبقهم فى القرنين

⁽١) وهي بالفرنسية أنفرس ، وتقع الآن في بلجيكا . وكانت لها أهمية تجارية عظيمة . (المترجم)

⁽٢) القادس أو الغليون Galley : طراز قديم من السفينة الشراعية الكبيرة ذات المجاديف . (المترجم)

⁽٣) هو الإسم الذي يطلق على المنطقة الشهالية الشرقية من الولايات المتحدة ويضم ولايات : ماين ونيوهمشير وفرمونت وماساشوستس ، ورود ـ آيلند ، وكونيكنيكت . (المترجم)

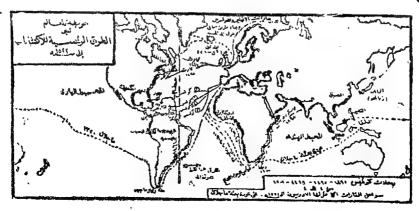
الثالث عشر والرابع عشر وأوائل الخامس عشر كل من النورمان والقطالونيين والجنويين. ولكن مناشط البرتغاليين سمت إلى اللروة فى القرنين الرابع عشر والحامس عشر ، ومهما يكن الأمر فهم وحدهم الذين ثبتوا المكتشفات ، وركزوها بعد أن كانت حتى ذلك الحين مجرد زبارات مهمة عارضة . فكانوا رواد علم الفلك البحرى » . وفى (١٤٨٦) أعلن برتغالى اسمه برثولوميو دياز أنه دار حول جنوب أفريقيا . وبذلك انفتح السبيل أمام مغامرة فاسكودا جاما الكبرى بعد ذلك بإحدى عشرة سنة . وقبل أن يتجه الأسسبان إلى الغرب كان البرتغاليون ينشئون طريقهم إلى الشرق فعلا .

وشرع چنوى اسمه حرستوف كولمبس يمعن في التفكير فيا نعتبره الآن مشروعاً واضحاً وطبيعياً جداً ، ولكنه مشروع أجهد خيال القرن الخامس عشر إلى أقصى حد ، وهو الإبحار نحو الغرب مباشرة عبر الأطلسي . ولم يكن أحد يعرف في ذلك الزمان بوجود أمريكا بوصفها قارة منفصلة . كان كولمبس يعرف أن العالم كروى الشكل ، ولكنه أخطاً في تقدير حجمه ، فزعمه أقل من حقيقته ، وذلك لأن رحلات ماركوپولو أدلت إليه بفكرة مبالغ فيها عن مدى اتساع آسيا ، فظن تبعاً لذلك أن اليابان بما لها من صبت بعيد في ثروة عظيمة من الذهب كانت تقع عبر الأطلسي في ما يقارب موقع المكسيك . وقد قام برحلات متنوعة بالمحيط الأطلسي ، ووصل في ما يقارب موقع المكسيك . وقد قام برحلات متنوعة بالمحيط الأطلسي ، ووصل لل أيسلندة و لعله سمع هناك شيئاً عن فينلتدة ، وهو أمر لابد أنه شجع في نفسه فكراته لل أيسلنط على حياته .

كان رجلا مملقاً ، تقول بعض الروايات عنه إنه كان مفلساً ، ولم تكن أمامه من وسيلة للحصول على سفينة إلا أن يحمل أحد الناس على أن يسند إليه قيادة سفينته . فلهب بادى " ذى بدء إلى الملك چون الثانى البرتغالى ، فأصغى إليه وأقام فى سبيله الصعاب، تم دبر أمر رحلة تقوم بغير علم منه ؛ وتكون رحلة برتغالية صرفة . وأخفقت هذه المحاولة المغرقة فى « الدبلوماسية » الملتوية والتى قصد بها استراق السبق إلى السفر خفية عن رجل عبقرى أصيل ، وبحق ما أخفقت ، فإن الملاحين تمردوا ،

ولكنه لم يتمكن فى بادى الأمر أن يحصل لا على سفن ولا على تفويض . وذلك لأن أسبانيا كانت تهاجم غرناطة ؛ آخر معقل للمسلمين فى أوربا الغربية . وكان المسيحيون قد استردوا معظم أسبانيا إبان الفترة بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر ، ثم تلا ذلك فترة توقف . فلما أن أصبحت كل أسبانيا المسيحية كتلة واحدة بزواج فرديناند الأرجونى من إبزابلا القشتالية ، نهضت لاستكمال الفتح المسيحى . حتى إذا غلب اليأس على نفس كولمبس من مساعدة أسبانيا له ، بعث بأخيه بار ثولوميو إلى هنرى السابع ملك انجلترة ، ولكن المغامرة لم ترق فى عين ذلك الملك الحنر . وأخيراً سقطت غرناطة (١٤٩٢) . وهى شيء طفيف من التعويض عن فقدان المسيحية لمدينة القسطنطينية قبل ذلك بخمسين سنة . وما عتم كولمبس أن حصل فقدان المسيحية لمدينة القسطنطينية قبل ذلك بخمسين سنة . وما عتم كولمبس أن حصل على سفائنه بمساعدة بعض تجار مدينة پالوس ، وهى ثلاث سفن لم يكن منها إلا واحدة ذات سطح هي « السانتاماريا » وحمولتها مئة طن . وكانت السفينتان الأخريان زورقين مكشوفين لهما نصف الحمولة .

وانحدرت الحملة الصغيرة – وكان مجموع عدد أفرادها ثمانية وثمانين رجلا! – جنوباً إلى جزائر الكنارى ، ثم انطلقت تعبر البحار المجهولة ، فى جو جميل وتحت ريح مواتية .



(شكل ١٩٢) خريطة للعالم تبين رحلات الاستكشاف الرئيسية إلى سنة ١٥٢٢

ولا بد القارئ من أن يقرأ بالتفصيل قصة تلك الرحلة الجليلة الشأن التي دامت شهرين وتسعة أيام حتى يقدرها قدرها . كانت نفوس البحارة تفيض بالمخاوف والشكوك ؛ فكانوا يخشون أن يظلوا يسيرون في البحر إلى الأبد ، ولكن رويتهم بعض الطيور وعثورهم على قضيب من الحشب فيه آثار بعض الآلات ، وعلى غصن يحمل بعض ثمار غريبة أدخلت الطمأنينة على أفئدتهم . وفي الساعة العاشرة من ليلة يحمل بعض ثمار غريبة أدخلت الطمأنينة على أفئدتهم . وفي الساعة العاشرة من ليلة ونزل كولمبس والصبح ما يزال يتنفس ، إلى أرض العالم الجديد في ثياب فاخرة وهو يحمل راية أسبانيا الملكية .

وعاد كولمبس إلى أوربا في مستهل (١٤٩٣) ، مجتلباً معه ذهباً وقطناً وحيوانات وطيوراً غريبة وهنديين هائجين منقوشي الجسم ما لبث أن عمدهما في الكنيسة ، وزعم أنه لم يجد اليابان ، بل وجد الهند . ولذلك سميت الجزر التي اكتشفها باسم جزر الهند الغربية . وفي نفس السنة رحل مرة أخرى تصحبه حملة عظيمة من سبع عشرة سفينة وألف وخسمئة رجل ، بإذن خاص من البابا بأن يتملك تلك الأراضي الجديدة للتاج الأسبائي .

ويضيق بنا المقام عن الحديث عما مر" به من الحوادث وهو حاكم لهلمه المستعمرة الأسبانية ، ولا عن كيف عُنزل وكبل بالأصفاد . ولم يمض زمن طويل حتى كان حشد من المغامرين الأسبان يرتادون الأراضي الجديدة . ولعل من الشائق أن نسجل أن كولمبس مات وهو يجهل أنه اكتشف قارة جديدة . فإنه ظل يعتقد حتى يومه الأخير أنه دار حول العالم إلى آسيا .

وأحدثت أخبار اكتشافاته هزة عظيمة كل أرجاء غرب أوربا . وحفزت البرتغاليين أن يجددوا محاولاتهم الوصول إلى الهند بطريق جنوب إفريقيا . وفي (١٤٩٧) أقلع فاسكودا جاما من لشبونة إلى زنجبار ، ثم سار من هناك بهداية دليل عربي فاخترق المحيط الهندي إلى قاليقوط في الهند .

وأصبحت للبرتغال (١٥١٥) سفائن في جاوه وجزر مولوقا(١) (مُلككّنا) . وفي

⁽١) جزر مولوقا أو جزر الهارات : مجمليع من الحزر البركانية تقع في اندونسيا الشرقية . وتشهر - بالتوابل . (المترجم)

(١٥١٩) سار ملاح برتغالى اسمه ماجلاً ن، يعمل فى خدمة ملك أسبانيا جنوباً محاذياً لشاطئ أمريكا الجنوبية ، فاجتاز (مضيق ماجلاً ن » المظلم المخيف ، وبذا وصل إلى المحيط الهادى الذي سبقه إلى مشاهدته المكتشفون الأسبان الذين عبروا برزخ بنا .

وواصلت بعثة ماجلان سيرها قدُدُماً إلى الغرب عبر المحيط الهادى. وكانت تلك رحلة يتجلى فيها من آيات البطولة قلىر أوفى كثيراً بما فى رحلة كولمبس ، إذ ظل ماجلاً ن و تسعين و ثمانية من الأيام » يسير بسفائنه غير هياب ولا متردد على أمواه ذلك المحيط الهائل الحال المتراى الأطراف ، دون أن يرى فيه شيئاً إلا جزيرتين صعراويتين صغيرتين . وتفشى مرض الإسخربوط وعمل عمله فى البحارة ، ولم يبق إلا القليل الفاسد من الماء والتالف من البسكوت . وكان البحارة يصيدون الفئران بلهفة شديدة ويقرضون جلود البقر ويلتهمون نشارة الحشب لكى يتقفنوا عضات الجوع فى أحشائهم . وصلت البعثة إلى جزائر اللادرون وهى على هذه الحال السيئة و فاكتشفوا جزر الفلين ، وهناك قتل ماجلاً ن أثناء عراك مع الأهالى . وقتل كذلك فاكتشفوا جزر الفلين ، وهناك قتل ماجلاً ن فى أغسطس (١٥١٩) بخمس سفن عليها مئتان وثمانون رجلا ، ولكن لم تعد مها إلا « القيتوريا Vitoria » فى يولية (١٥٢٢) وعليها البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلا . عادت مصعدة فى المحيظ الأطلسي وعليها البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلا . عادت مصعدة فى الحيظ الأطلسي حول هذا الكوكب .

فأما الإنجليز والفرنسيون والهولنديون ونوتية مدن الهانسا ، فإنهم هبطوا إلى ميدان بمغامرة الارتياد هذه متأخرين نوعاً ما . إذ لم يكن يخالجهم نفس الاهمام الشديد بالتجارة مع الشرق . فلما أن انحدروا إلى الميدان فعلا ، انجهت أوائل جهودهم إلى المسير بسفهم حول شمالى أمريكا ، مثلما سار ماجلاً ن حول جنوبها ، وإلى الانجار من حول شمالى آسيا ، كما أبحر قاسكودا جاما حول جنوب أفريقية . ولكن طبيعة الأشياء قضت على هذبن المشروعين بالإخفاق التام . فسبقت كل من البرتغال وأسبانيا في أمريكا والشرق ، إنجلترة وفرنسا وهولندة بنصف قرن .

ولم تبدأ ألمانيا قط ، ذلك أن ملك أسبانيا كان إمبراطوراً على ألمانيا فى تلك السنين الحاسمة ، وكان البابا أعطى احتكار أمريكا لأسبانيا إلا أنه لم يمنحها لأسبانيا نفسها بل لمملكة قشتالة ، وبديهى أن يكون لهذا الأمر أثره فى اعتباق كل من ألمانيا وهولندة بادى بدء عن النزول إلى ساحة المغامرات الأمريكية . وكانت مدن الهانسا شبه مستقلة ، فلم يكن من خلفهم ملك يعتمدون على مساندته ، ولم تربطهم وحدة تستطيع النهوض بالمشروعات الكبار كعملية ارتياد المحيطات مثلا . ومن سوء حظ ألمانيا ، بل لعله من سوء حظ العالم أجمع ، أن استنفدت قواها عاصفة هوجاء من الحروب ؛ كما سنبين ذلك من فورنا ، على حين كانت الدول الغربية بأجمعها تنطلق إلى المدرسة المفتوحة حديثاً وراء البحار العالمية() ، تتعلم فيها التجارة والإدارة .

وأخذ طالع قشتالة الهائل الميمون يتكشف في بطء إبان القرن السادس عشر أمام عيون أوربا المنهرة. ذلك أنها اكتشفت عالماً جديداً ثرياً بموفور ذهبه وفضته حافلا بعجيب احمالات استبطانه والمقام فيه. كان كله ملك يمينها ، لأن البايا قال بذلك. وكان بلاط روما وهو في إحدى نوبات أريحيته قد قام تحف به الفخامة والجلال ، بتقسيم عالم الأراضي العجيبة الجديد ، الذي كان يتبدى آنذاك أمام الخيال الأوربي ، بين الأسبان الذين جعل لهم كل الأراضي الواقعة غربي خط يقع على ٣٧٠ فرسخاً غربي جزائر رأس قردى ، وبين البرتغاليين الذين منحوا كل شيء يقع إلى الشرق من ذلك الخط.

وفى بادى الأمركان الناس الوحيدون الذين لقيهم الأسبان فى أمريكا متوحشين من الطراز شبه المغولي (٢). وكان الكثير من هؤلاء المتوحشين من أكلة البشر. ومن سوء حظ العلم أن كان أول من بلغ أمريكا من الأوربيين ، هم هؤلاء الأسبان القليلو الاستطلاع ، الحجردون من أية رغبة علمية والظامئون إلى الذهب ، والمشبعون بروح التعصب العمياء الراجعة إلى حرب دينية قريبة العهد. لم يصادر عنهم غير ملاحظات

⁽١) البحار العالية : ما تحاوز من البحار الثبقة الإقليميه الساحلية للدول . (المترجم)

⁽٢) شبه المغولي (Mongoloid) : انظر جا دن ١٧٥ من المعالم طر ٣ . (المترجم)

قليلة ذكية عن طرائق هذا الشعب البدائي وفكراته . وقد أعملوا فيهم السيف، وسرقوهم ثرواتهم ، واستعبدوهم وعمدوهم مسيحيين ، ولكنهم لم يدركوا إلا قليلا العرف والعادات والأفكار الأصلية التي تغيرت واختفت أمام هجمتهم . كانوا في تدميرهم وعدم مبالاتهم وقلة تقديرهم أشبه شيء بالنازلين البريطانيين الأول في تسهانيا ، الذين كانوا يطلقون الرصاص عند رويتهم رجال العصر الحجرى القديم الذين كانوا ما يزالون باقين هناك ، ويضعون لهم اللحم مسما ليأكلوه .

وكانت مساحات عظيمة من الأراضي الداخلية في أمريكا أرض بوارى ، كانت قبائلها الرحل الضاربة فيها تعتمد في معاشها على قطعان ضخمة من (البيزون) الجاموس البرى الذي انقرض الآن أو كاد . وكان هنود البرارى هوالاء على تشابه عظيم في طريقة حياتهم ، وفي ثيابهم المنقوشة وفي إسرافهم في استعال الصباغ وفي عوام خصائصهم الجثانية بوجال العصر الحجرى القديم في عهده الثاني الأخير الذين عاشوا في العصر السوليوترى بأوربا . ولكن لم تكن لديهم خيل . ويلوح أنهم لم يتقدموا تقدماً يذكّر عن تلك الحالة البدائية ، التي يرجح أن تكون هي الحالة التي وصل عليها أجدادهم إلى أمريكا . ومهما يكن من شيء فقد كانوا على علم بالمعادن . وبصفة خاصة على استخدام كبير للنحاس المحلى ، ولكنهم لم يعرفوا الحديد .

وبيناكان الأسبان يتوغلون فى القارة ، وجدوا بأمريكا حضارتين منفصلتين ومتطورتين فهاجموهما وانتهبوهما وقضوا عليهما ، ولعلهما تطورتا بمعزل تام عن المدنيات القائمة فى العالم القديم . وكانت إحداهما مدنية المكسيك الأزتيكية ، والأخرى حضارة يبرو . ولعلهما نشأتا عن مرحلة «شبه المدنية » للعصر الحجرى الحديث ، التى انتشرت عبر المحيط الهادى من جزيرة إلى جزيرة ، خطوة فخطوة ، وعصراً بعد عصر ، مبتدئة من أرض أرومها الأصلية حول البحر المتوسط وبالقرب منه . , لقد سبق أن ذكرنا بضع نقاط مشوقة فى هذين التطورين الفريدين فى نوعهما . وهما ، نأخران عن بلاد المشرق والبحر المتوسط بآلاف السنين . وقد بلغ هذان الشعبان الأمريكيان عن بلاد المشرق والبحر المتوسط بآلاف السنين . وقد بلغ هذان الشعبان الأمريكيان المتحضران دارجين فى طريقهما الحاص مرتبة توازى موازاة خشسنة ، ثقافة

مصر قبل الأسرات وثقافة المدن السومرية الباكرة . وكانت هناك قبل الأزتيك والهيروزيين (أى أهل پيرو) بدايات حضارات أقدم منهما ، إما أن خلفاءهم دمروها ، أو إما أن تكون أخفقت وذهبت من تلقاء نفسها .

ويبدو أن الأزتيك كانوا شعباً فاتحاً أقل تمدناً ، يتسلطون على مجتمع أكثر منهم مدنية ، شأن الآريين في تسلطهم على بلاد الإغريق وشهال الهند ، وكانت ديانتهم نظاماً بدائيا معقداً وقاسياً ، كانت القرابين الإنسانية وأكل لحوم البشر أثناء الطقوس تلعب فيها دوراً كبيراً . وكانت تملأ عقولهم فكرة الحطيثة والحاجة إلى استرضاء الآلهة بسفك الدماء . فكانت ديانتهم أشبه شيء بصورة كاريكاتورية فظيعة كاملة لديانات العالم القديم البدائية ذات القربان .

وقد دمرت الحضارة الأزتيكية هملة عسكرية بقيادة كورتيز. كانت لديه إحدى عشرة سفينة وقوة مكونة من أربعمئة أوربى ومثنى هندى وستة عشر حصاناً وأربعة عشر مدفعا . ولكنه التقط من يوقطان رجلا أسبانيا شارداً ، ظل أسيراً لدى الهنود بضع سنين ، فتعلم إلى حد ما عدة لغات هندية ، وعرف أن الحلم الأزتيكي كان مثار استياء عميق لدى الكثيرين من رعاياه ، وبتحالفه مع هولاء الحانقين تقدم كورتيز فوق الجبال حتى دخل وديان المكسيك (١٥١٩) .

فأما كيف دخل إلى المكسيك ، وكيف قتل مونتزوما رئيسها وقائدها في الحرب على يد مواطنيه لمالأته الأسبان ، وكيف حوصر كورتيز في المكسيك ، ثم هرب مخلفا وراءه مدافعه وخيله ، وكيف استطاع بعد تقهقر رهيب إلى الساحل أن يعود ويخضع البلاد بأكلها ، _ فقصة رومانسية جميلة لا نستطيع حتى أن نحاول أن نقصها عليك هاهنا . وما يزال الدم الهندى يغلب على سكان المكسيك إلى يومنا هذا ، ولكن اللغة الأسبانية حلت هناك محل اللغات القومية القديمة ، غير أن الثقافة الموجودة الآن ثقافة كاثوليكية وأسبانية .

فأما دولة پيرو الأعجب شأناً فقد وقعت فريسة بين براثن مغامر آخر هو پيزارو . فإنه أقلع من برزخ بنها في ١٥٣٠ ، ومعه حملة مكونة من ١٦٨ أسبانيا . فحذا حذوكورتيزيأن أفاد من الاختلافات الداخلية بين الأهالى وضمن بذلك الاستيلاء على تلك الدولة المنكودة الحظ. وعلى غرار ما فعله كورتيز أيضاً حين اتخذ مونتزوما أسيراً وألعوبة فى يده ، فإنه قبض على ﴿ إِنْكَا »(١) بيرو بالخديعة وحاول أن يحكم البلاد باسمه .

وهنا أيضاً لا نستطيع أن نوفى الأحداث المعقدة التى تلت ذلك ، حقها من الإيضاح ، أو نسهب القول فى الفتن الفاشلة السيئة التدبير التى قام بها الوطنيون ، و وصول مدد أسبانى جديد من المكسيك ، ثم تحويل الدولة إلى مقاطعة أسبانية . كذلك لسنا بمستطيعين أن نزيدك بباناً عن انتشار المغامرين الأسبانيين انتشاراً سريعاً فوق بقية أمريكا خارج منطقة البرلزيل التى كان البرتغاليون يحتفظون بها لأنفسهم . وكانت قصة كل منها تكاد تكون فى كل الحالات قصة مغامرين وقساوة ونهب واستلاب . وكان الأسبان يسيئون معاملة الأهالى ، ويتشاجرون فيا بينهم ، وذلك لأن قانون أسبانيا ونظامها ، كانا منهم بمناة تمتد شهوراً بل سنوات ، فلم ينتقل دور العنف والفتح إلى دور حكم واستقرار إلا بغاية البطء . ولكن قبل أن يستقب النظام بزمن مديد فى أمريكا ، أخذ فيض متواصل من الذهب والفضة ينهمر عبر المحيط الأطلسي إلى الأسبان حكومة وشعباً .

وبعد ما انتهى طور اصطياد الكنوز العنيف الأول ، جاء طور الزراعة وفتح المناجم وبذلك نشأت أول المشكلات العالية في العالم الجديد. فاستُعبد الهنود بادئ الأمر في شيء كثير من الوحشية والظلم ؛ ولكن مما يشرف الأسبان أنهم لم يدعوا الموضوع يمر بلا انتقاد . فوجد الوطنيون أنصاراً يعطفون عليهم ، أنصاراً عامرة أفئدتهم بالشهامة ، في هيئة الرهبان الدومينيكيين وفي شخص قسيس علماني هو ولاس كاساس بالشهامة ، في هيئة الرهبان الدومينيكيين وفي شخص قسيس علماني هو ولاس كاساس حسى وخزه ضميره . وابتدأ أيضاً استيراد العبيد الزنوج من أفريقية العربية في وقت مبكر جداً من القرن السادس عشر . وبعد فترة غير طويلة أخذت المكسيك

⁽١) إنكا : لقب ملك پيرو قبل أن فتحها الأسبان .

والبرازيل وأمريكا الجنوبية الأسبانية تتحول إلى بلاد مالكة للعبيد منتجة للروات ،

ولسنا بمستطيعين أن تحدثك هناكما نشهى : عن الجهود الحضارية الممتازة التي قام بها فى أمريكا الجنوبية ، وبوجه أحص بين الوطنيين ، الرهبان الفرنسسكيون ثم اليسوعيون (الجزويت) الذين هبطوا أمريكا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر بعد ١٥٤٩).

وهكذا سمت أسبانيا من الشئون العالمية إلى مرتبة موقوتة من القوة والتبريز في



(شكل ١٦٣) المكسيك وبيرو

شئون العالم . كان ارتفاعها فجائياً جمله البارزا ومرموقا . وكانت تلك الشبه الجزيرة القحلة الوعرة التضاريس ، منقسمة على نفسها منذ القرن الحادى عشر ،

كما أن سكانها المسيحين ظلوا فى كفاح مستمر مع العرب ؛ ثم حدث بطريقة تكاد تشبه الصدفة المحضة أنها أحرزت الوحدة فى أنسب الأوقات لجنى أول ثمار اكتشاف أمريكا. وقبل ذلك الزمان ، كانت أسبانيا على الدوام قطراً فقيراً ، وهى ما تزال حتى البوم قطراً فقيراً ، وهى ما تزال حتى البوم قطراً فقيراً ، ومهما يكن من قطراً فقيراً ، وتكاد تكون ثروتها الوحيدة منحصرة فى مناجمها . ومهما يكن من شيء فإنها ظلت قرناً من الزمان سيدة العالم بسبب احتكارها لذهب أمريكا وفضتها .

وكانت ظلال رايات الأتراك والمغول ما تزال ترفرف على شرق أوربا وجنوبها وتهددهما ؛ وكان ا كتشاف أمريكا في حد ذاته نتيجة للفتوح التركية . وإلى الاختراعين المغوليين ، البوصلة والورق ، وإلى الأثر المنبه الراجع إلى الرحلات في آسيا ، وإلى العلم المتزايد بثروة آسيا الشرقية وحضارتها - يرجع الفضل الأكبر في حدوث ذلك التضرم (التأجج) المدهش في الطاقات العقلية والجهانية والاجهاعية التي تأججت على وحافة المحيط الأطلسي » . ذلك أن فرنسا وانجلتزة دخلتا الميدان عُقبَب دخول البرتغال وأسبانيا مباشرة ، ثم تلتهما للفور هولندة ، فقامت كل واحدة من الثلاثة في حيها يدور التوسع وتكوين إمبراطورية وراء البحار .

وعندئذ ينتقل مركز الاهتمام في التاريخ الأوربي الذي كان محصوراً في بلاد المشرق Levant ، متحولا عن جبال الألب والبحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي . وانقضت بضعة قرون انحدرت فيها الإمبراطورية التركية ، والروسيا وآسيا الوسطى والصين إلى منزلة ثانوية نسبياً على المسرح حتى أهملها المؤرخ الأوربي ولم يعد يسلط عليها أنواره الوهاجة . ورغم هذا فإن مناطق العالم المركزية هذه تظل مركزية على المدوام ، وتظل رفاهيتها ومشاركتها ضروريتين لسلام البشرية الدائم .

١١ ــ رأى ماكياڤللي في العالم

الآن سنلتى نظرة إلى النتائج السياسية المترتبة على هذا التحرر الهائل ، وهذا التوسع الضخم اللذين ألما بالفكرات الأوربية إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، تتيجة للتطور الجديد للعلم ، وارتياد العالم والاتساع العظيم للمعرفة يوساطة الورق

والطباعة ؛ ولانتشار تهافت جديد على الحرية والمساواة . فكيف كان تأثير تلك الحال فى عقلية البلاطات والملوك التى كانت تدير الشئون الرسمية للبشرية ؟ لقد سبق أن أريناك كيف أخذ الضعف يدب إلى قبضة الكنيسة الكاثوليكية على ضائر الناس فى ذلك الأوان ولم يبق أحد على أى حظ كبير من الحماسة للكنيسة إلا الأسبان ، وذلك لقرب العهد بخروجهم من حرب دينية طويلة انتهت آخر الأمر بالنصر على الإسلام . وكان من آثار الفوح التركية مع زيادة واتساع القدر المعروف من العالم أن حرمت الإمير اطورية الرومانية من كرامتها التليدة التى أضفت عليها صفة الشمول العالمية ، ذلك بأن نظام أوربا العقلى والحلتي القديم كان قد شرع يتحطم . فهاذا كان يحدث لدوقات وأمراء وملوك النظام القديم إبان عصر التغير هذا ؟

في إنجلترة كما سنخبرك فيما بعد ، كانت هناك نزعات خفية وشائقة جداً تدفع بالناس صوب طريقة جديدة في الحكم ، هي طريقة الحكم البرلماني ، التي قدر لها أن تنتشر فيما بعد في كل يقاع العالم تقريباً . ولكن العالم في جملته لم يكد يحس بوجود هذه النرعات في القرن السادس عشر .

وقل من الملوك من تركوا لنا يرميات تتجلى فيها الصراحة والإخلاص ؛ فإن الملكية والصراحة أمران لا يجتمعان ؛ والملكية في ذاتها « وضّعة »(١) تتخذ . ومن ثم فالمؤرخ مضطر إلى أن يعمل فكره حدساً وتخميناً فيا تحويه الرأس التي تلبس التاج بقدر ما يستطيع . ولا مراء في أن سيكولوچيا الملوك تغيرت تغيراً كبيراً مع تقدم العصور . ومهما يكن الأمر ، فإن لدينا كتابات رجل من رجال ذلك الأوان بالغ غاية الاقتدار نصب نفسه لدراسة وبسط « أساليب الحكم الملكي » على ما كانوا يفهمونه في أواخر القرن الخامس عشر .

ذلكم الرجل هو الفلورنسي البعيد الذكر نيقولو ماكيا قللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧) ، نشأ في أسرة طيبة و ربى في بحبوحة معقولة من العيش ، و دخل الحدمة العامة للجمهورية وهو في الحامسة والعشرين . وظل يعمل في الوظائف الدبلوماسية الفلورنسية ثمانية عشر ، عاماً ؛ فأسند إليه عدد من السفارات. وفي (١٥٠٠) أرسل إلى فرنسا لينفاهم مع الملك

⁽۱) الوضعة : Pose كما فى التصوير ، وضع خاص يتملذه الناس لأنفسهم ، وكثيرا ما يكون متكلفا . (المترجم)

الفرنسي . وظل من ١٥٠٢ إلى ١٥١٢ اليد اليمني (لرئيس فلورنسا مدى الحياة) سودريني (Soderini) . وأعاد ماكيا قالى تنظيم الجيش الفلورنسي ، وكتب الحطب للرئيس مدى الحياة (gonfalonier) ، وكان في الواقع هو الذكاء المسيطر على الشنون الفلورنسية . وعند ما تغلبت أسرة ميديشي التي كان الأسپان يناصرونها على سودريني الذي كان يعتمد على معاضدة الفرنسيين ، حاول ماكيا قللي أن يحول خدماته إلى الظافرين ولكنه عند بعلى المطاطة (۱) ، ثم طرد من الخدمة . فاتخذ لنفسه مقاماً في فيلا على مقربة من سان كاستشانو ، تبعد عن فلورنسا اثني عشر ميلا تقريباً ، وهناك أخذ يروح عن نفسه من ناحية بجمع وتأليف الأقاصيص الشهوانية الداعرة لإرساطا إلى أحد أصدقائه في روما ، ومن ناحية أخرى بكتابة كتب في السياسة الإيطالية ، التي أحد أصدقائه في روما ، ومن ناحية أخرى بكتابة كتب في السياسة الإيطالية ، التي شبعنه يستطيع أن يقوم فيها بدوو . وكما أننا مدينون بكتاب رحلات ماركو يولو إلى نسجنه ، فإنا ندين لكتب ماكيا قللي في سلن كاستشانو .

وتنحصر القيمة الدائمة لهذه الكتب فى الفكرة الواضحة التى تعرضها علينا عن نوع العقول التى كانت تحكم ذلك العصر ، والتحديدات التى كانت تغلها . فإن جوها كان جوه الذى فيه يعيش . فإذا كان أدخل ذكاء حاداً مفرطاً إلى محيط أعمالهم ، فإنه لم يزد عن مجرد وضعها نحت ضياء أسطع .

وقد تأثر ذهنه الحساس تأثراً عظيا بمكر سيزار بورجيا وقساوته وجرأته وأطاعه ، وهو دوق قالنتينو الذي قضي ماكيا قللي في معسكره بضعة شهور مبعوثاً من قبل مولاه فصور ذلك الشخص الباهر في صورة مثالية في كتابه « الأمير » . وينبغي للقارئ أن يفهم أن سيزار بورجيا (١٤٧٦ – ١٥٠٧) كان ابن البابا اسكندر السادس : رو در يجو بورجيا (١٤٩٢ – ١٥٠٣) . وربما دهش القارئ من وجود بابا له ولد ، ولكن لا بد لنا من تذكر أن هـذا اليابا كان من البابوات السابقين على الإصلاح للابد لنا من تذكر أن هـذا اليابا كان من البابوات السابقين على الإصلاح الديني . وكانت البابوية في ذلك الأوان في حال تراخ خلقي ، ومع أن اسكندر ، كان بوصفه قسيساً قد نذر أن يعيش أعزب ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعيش صراحاً

⁽١) المطالمة أو العذراء . آلة للتعذيب بمط الجسم والأطراف . ﴿ المُتَرْجَمِ ﴾

مع نوع من الزوجة بلازوجية ، ومن توجيه موارد العالم المسيحي لرفع شأن عائلته . وكان سيز ار شاباً قوى الطموح والجرأة ، بدرجة تكاد تتجاوز طاقة الزمان الذي عاش فيه ؛ وقد دبر منذ وقت مبكر مقتل أخيه الأكبر ، وكذا زوج أخته لوكريشيا . والواقع أنه غدر بعدد من الناس وقتلهم . وأصبح بمساعدة والده دوقاً على شقة كبيرة من وسط إيطاليا حيث زاره ماكيا قللي . ولم يظهر إلا الشيء القليل من المقدرة العسكرية ، وإن أبدى مهارة فائقة وقدرة إدارية جسيمتين . وكانت عظمته من ذلك النوع العارض غير المستديم إلى أقصى حد . فما أن مات والده حتى اتهارت كما تنهار كرة منفوخة وخزها دبوس . ولكن ماكيا قللي لم يتبين ماكان يصم تلك العظمة من ضعف وعدم سلامة . والحق أن أعظم دواعي اهتمامنا بسيزار بور چية ينحصر في أنه حقق أعظم مثل أعلى ارتآه ماكيا قللي عن أمير فائق ناجح .

وقد كثرت الموالفات التى حاول كتابها أن يبينوا أن ماكيا فللى كان يرمى من وراء كتاباته السباسية إلى مقاصد عريضة الآفاق شريفة الأهداف ، بيد أن كل أمثال هذه المحاولات التى يقصد بها رفعه إلى موضع النبل ، تحرمه من تحمس واههام القارى المنشكك المصر على قراءة السطور ذاتها فى سفر ماكيا فللى بدل قراءة أشياء حيالية بين السطور ، ومن الجلى أن الرجل لم يكن يوثمن البتة بأى تقوى ولا صلاح ، ولا يخامره أى اعتقاد فى إله يحكم العالم ولا وجود رب قى قلوب الناس ، ولا أى فهم لقوة الضمير وسلطانه على الرجال . ولم يكن ممن يوثمنون بروثى النظام الإنسانى اليوتوبى العالمي العام ، ولا بأية محاولات لتحقيق « مدينة الرب » . فإنه لم يكن يريد مثل هاته الأشياء . وكان يلوح له أن الحصول على القوة ، وإشباع رغبات المرء وحاجاته الجسمية وأحقاده ، والنرنح بنشوة الظفر فى العالم ، يجب أن تكون التاج الذى يكلل الرغبات الإنسانية جميعها . ولا يستطيع أن يحقى مثل هذه الحياة الشخصية ، جعلته يتخلى عن مثل تلك الأحلام بالنسبة لنفسه ؛ ولكن لعله يأمل على الاقل أن يخدم أحد الأمراء ، وأن يعيش على مقربة من المجد ، وأن يسلطيع أن يجعل الكامل الأمراء ، وأن يعيش على مقربة من المجد ، وأن يسلم على المغانم والسلب واللدات الحسية والزعات الشريرة المشعة . ولعله يستطيع أن يجعل أن يجعل المغانم والسلب واللدات الحسية والزعات الشريرة المشعة . ولعله يستطيع أن يجعل المغانم والسلب واللدات الحسية والزعات الشريرة المشعة . ولعله يستطيع أن يجمل

من نفسه شخصاً لا يستغنى عنه! ومن ثم نصّب نفسه لطلب التعمق والحبرة فى فن الإمارة ، فساعد سودريني حتى أورده موارد الفشل . فلما مطه المديتشيون فى المطاطة ونبدوة ، وانقطع به ما بتى لديه من أمل حتى فى أن يكون فى البلاط طفيلياً ناجحاً ، كتب هذه الكتب الصغيرة الدائرة حول الدهاء ليظهر أى خادم ماهر فقده بعض الأمراء!! . والفكرة المتسلطة على عقله ، التى هى مدار مساهمته العظيمة فى الأدب السياسى ، تتلخص فى أن الالترامات الحلقية على الرجال العاديين ، لا يمكن أن تقيد الأمراء.

ومن الناس من يميلون إلى نسبة فضيلة الوطنية إلى ماكياڤللى ؛ لأنه فكر في أن إيطاليا بجوز أن تتحد وتتقوى، – وهى التي كانت ضعيفة منقسمة على نفسها إذ غزاها الأتراك ولم ينقسدها من فتحهم إياها إلا موت السلطان محمد الثانى ؛ كذلك اقتتلت على امتلاك أرضها الجيوش الفرنسية والأسبانية كأنما كانت شيئاً فاقد الحياة ؛ ولكنه لم ير في هذا الاحمال إلا فرصة عظيمة تتاح لأمير . ولم يطالب بوجود جيش قوى إلا لأنه رأى طريقة الإيطاليين في القيام بالحرب بوساطة استئجار رجال من المرتزقة الأجانب ، طريقة لا يرجى من ورائها خير . فإن الجند في مثل هذه الحالة قد تنتقل إلى سيد يزيد لها في أعطياتها ، أو هي قد تقرر انتهاب الدولة التي في حاها . وقد أثرت انتصارات السويسريين على أهل ميلان في نفسه تأثيراً عيقاً ، ولكنه لم يسبر قط سر الروح الحرة التي مهدت السبيل لتلك الانتصارات . وأخففت الميليشيا الفلورنسية التي أنشأها إخفاقاً تاماً . وكأنى به رجلا ولد ضريراً وعيت عيناه عن الصفات التي تجعل الشعوب حرة والأم عظيمة .

ومع هذا فإن هذا الرجل الضرير من الناحية الأخلاقية ؛ كان يعيش بين ظهر انى عالم صغير كل رجاله صم وعيان من الناحية الخلقية . وواضح أن أسلوب تفكيره ، إنما هو أسلوب تفكير كل بلاط فى أيامه ، فقد كان هتاك فى كل سكان من خلف أمراء الدول الصغيرة التى نبتت عن تحطم الإمبر اطورية وفشل الكنيسة ، مستشارون وسكر تيرون ووزراء مو تمنون من الطر از الماكيا قالمي. فإن توماس كرومويل مثلا ، وزير هبرى الثامن الإنجليزى بعد انفصاله عن كنيسة روما ، كان يعد كتاب ماكيا قالمي والأمراء أنفسهم على درجة كافية من الذكاء والأمر ، زبدة الحكمة السياسية . فإذا كان الأمراء أنفسهم على درجة كافية من الذكاء

والمهارة ، أصبحوا هم كذلك ماكياڤللى النزعة . وإذا هم يدبرون الخطط ليتفوق أحدهم على الآخر ، وليسليوا معاصريهم الأضعفين ، وليدمروا أندادهم ومنافسيم ، لكى يصعروا خدهم تها فترة قصيرة من الزمان . ولم يدر بخلدهم فى قليل ولاكثير - أية خطة لتنظيم مصائر الإنسانية ، تعظم تلك اللعبة التى كانوا يلعبونها فيا بيتهم ،

۱۲ ـ جمهورية سويسرا

من الشائق الممتع أن يلحظ المرء أن هذه و المشاة » السويسرية التي أثرت في ماكيا قالى إلى هذا الحد ، لم ثكن تنتسب إلى نظام الأسراء في أوربا . إذ نشأ في المنطقة



(شكل ١٦٤) خريطة لسويسرة توضيح أهم الطرق والممرات

المركزية نفسها من النظام الأوربى ، اتحاد كونفدرالى صغير من الدول الحرة ، هو الاتحاد الكونفدرالى السويسرى ، الذى ما لبث أن تحول صراحاً فى (١٤٩٩) إلى النظام الجمهورى بعد بضعة قرون من الاستمساك بالدولة الرومانية المقدسة أسمياً . فنى زمن

مبكر يرجع إلى الفرن الثالث عشر ، اعتزم الفلاحون الساكنون فى الوديان الثلاثة المجاورة لبحيرة لوسرن ، أن يستغنوا عن كل سيد يسودهم ، وأن يدبروا شئونهم الحاصة ، على طريقتهم الحاصة . وكان أكبر مصدر لمتاعبهم مدعيات عائلة نبيلة فى وادى الآر ، هى أسرة هابسبرح . وفى (١٧٤٥) أحرق رجال شويتز (Schwyz) قلعة « هابسبرج الجديدة » ، التي كانت أقيمت قرب لوسرن الإرهابهم ، وما تزال أطلالها باقية هناك إلى اليوم .

كانت عائلة هابسرج هذه عائلة نامية ميالة إلى زيادة ممتلكاتها ، فكانت لها الأراضي والممتلكات في كل أرجاء ألمانيا ، وفي (١٢٧٣) بعد انقراض بيت هوهنشتاوفن ، انتخب رودلف آل هابسرج إمبراطوراً على ألمانيا ، وهو امتياز أصبح آخر الأمر ورائياً في عائلته . ومع ذلك فإن رجال أورى (Uri) وشدين وأنبر قالدن (Unter Walden) صموا على ألا يحكهم أي هابسرجي ، قكونوا فيا بيهم حلفا دائماً في (١٢٩١) ، ثم صمدوا بين الجبال منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا ، فكانوا في بادي الأمر أعضاء أحراراً في الإمبراطورية ، ثم أصبحوا اتحاداً كونفدرالياً مستقلا استقلالا مطلقاً . ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر أسطورة بطولة وليم تل ، كذلك ليس لدينا متسع نتعقب فيه اتساع الاتحاد الكونفدراني تدريجياً إلى حدوده الراهنة . ولم تابث أن أضيفت للفور وديان تتكلم يالرومانشية (١) والإيطالية والفرنسية إلى هذه المجموعة الجمهورية الصغيرة الباسلة . وقد أصبح علم الصليب الأحر وهو علم چنيف رمز الإنسانية الدولية في معمعان الحروب . وصارت مدن سويسرا المشرقة الناجحة تعد على الدوام ملتجأ للرجال وملاذ الأحرار الفارين من جميع أنواع المظالم والاستبداد .

١٣ _ (١) حياة الإمبراطور شارل الخامس

إن معظم الشخصيات التي تبرز في التاريخ ، إنما يتم لها ذلك بسبب إتصافها بيعض الصفات الشخصية الاستثنائية ، سواء أكانت حستة أم سيئة ، وهي التي تجعل لهم وزناً يرجح وزن قرنائهم . ولكن ولد في غنت من أعمال بلجيكا في (١٥٠٠) رجل عادى المقدرة سوداوى المزاج ، أمه امرأة ناقصة العقلية ، تزوجت لأغراض سياسية ،

⁽١) الرومانسية هي اللهجات الموجودة في أعالى نهر الراين . (المترجم)

وقدر له - ولم يكن ذلك نتيجة خطأ منه ولا فضل له - أن يصبح محط أبصار أوربا وأن توضع على كاهله متاعبها المتكدسة . والمؤرج ملزم أن يعيره عظمة عارضة لا يستحقها بأية حال ، وأن يضعه إلى جوار أفراد نامهين مرموقين من أمثال الإسكندر وشرلمان وفردريك الثاني . ذلك هو الإمبراطور شارل الحامس . وقد ظل زماناً والجو الذي يحيط به يوحى بأنه أعظم من تولى الملك في أوربا منذ أيام شرلمان على أن الواضح أنه هو وعظمته الوهمية ثمرة سياسة الزواج التي انتهجها جده الإمبراطور مكسميليان الأول (١٤٥٩ - ١٥١٩) .

وذلك بأن بعض العائلات بلغت الحجد قتالا ، كما دبرت بعضها الأخرى المؤامرات للوصول إلى السيطرة الدنيوية ، أما أسرة هابسبرج فإنها شقت طريقها إليها زواجاً . ايتدأ مكسميليان حياته بميراث هابسبرج المكون من النمسا واستيريا وجزء من الألزاس ونواح أخرى ، فتزوج الأراضى المنخفضة وبورجنديا – إذ أن اسم السيدة لا يكاد يعنينا . ولكن أفلت منه معظم برجنديا يعد وفاة زوجته الأولى ، على أنه احتفظ بالأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج (!!) بريتانى ولكنه لم يوفق . وتولى الإمبراطورية بعد أبيه فردريك الثالث (٣٩٧) ثم تزوج دوقية ميلانو . وأخيراً وجابنه من الضعيفة العقل ابنة فرديناند وايزابلا ، وهما فرديناند وايزابلا اللذان عرفناهما مع كولمبس ، واللذان لم يحكما فقط أسبانيا الحديدة الموحدة ، وسردينيا ، ومملكة الصقليتين بل أصبحا – بحكم المنح اليابوية لأسبانيا – حاكمين على كل أمريكا غربي البرازيل . وهكذا اتفق أن حفيده شارل ورث معظم القارة الأمريكية ، وبين غربي البرازيل . وهكذا اتفق أن حفيده شارل ورث معظم القارة الأمريكية ، وبين فربدل مكسميليان قصاراه ليضمن انتخاب حفيده للعرش الإمبراطوري .

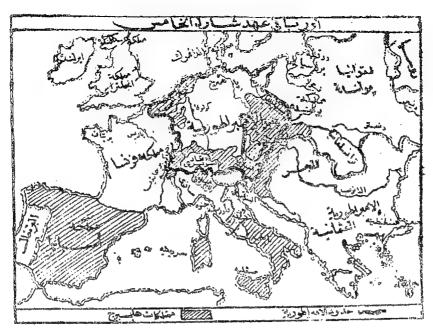
وتولى شارل حكم الأراضى المتخفضة فى (١٤٠٦) ، وأصبح بالفعل ملكاً على الممتلكات الإسبانية المترامية (لأن أمه كانت بلهاء) عند ما توفى جده فرديناند فى (١٥١٦) . فلما أن مات جده مكسميليان (١٥١٩) ، انتخب فى (١٥٢٠) إمبر اطوراً وهو ما يزال فى العشرين تلك السن الغضة نسبياً .

واعترض على انتخابه إميراطوراً الملك الفرنسي الشاب الذكي فرنسيس الأول ،

الذى تولى العرش الفزلسي في (١٥١٥) وهو في الحادية والعشرين . وكان يعضد فرنسيس في ترشيحه البابا ليو العاشر (١٥١٣) ، الذى يقتضي منا أن نلقبه بلقب الذكي هو أيضاً . كان ذلك العصر في الحق عصر ملوك أذكياء . فهو عصر بلوبر (Baber) في الهند (١٥٢٠ – ١٥٣٠) وسلمان القانوني في تركيا (١٥٢٠) ، وكان كل من ليو وفرنسيس يخشي تركز مثل هذا القدر الضخم من القوة في يد وجل واحد ، الأمر الذي ينذر به انتخاب شارل . وكان الملك الآخر الوحيد الذي يبدو فا بال في أوربا هو هنرى الثامن ملك إنجلترة ، الذي آل إليه الملك في (١٥٠٩) وهو في الثامنة عشرة . وقد رشح نفسه هو أيضاً للمنصب الإمراطوري . ويستطيع القارئ في الثامنة عشرة . وقد رشح نفسه هو أيضاً للمنصب الإمراطوري . ويستطيع القارئ ذلك الإنجليزي الناشط الحيال أن يسلى نفسه باستنتاج العواقب التي كان يحتمل ترتبها على ذلك الانتخاب .

واتسع مجال النشاط الدبلوماسي بين هذا التالوث الملكي . وقد عرّج شارل وهو في طريق عودته من أسانيا إلى ألمانيا على إنجلترة واستطاع أن ينال مساعدة هنرى ضد فرنسيس بتقديمه الرشوة لوزيره الكردينال ولزى . وكذاك قام هنرى بمظاهرة عظيمة للصداقة بينه وبين فرنسيس ، فأدبت بفرنسا المآدب ، وأقيمت ألعاب الفروسية وما إلى ذلك من ضروب الشهامات التي أكل عليها الدهر وشرب ، في نزهة ملكية يعرفها المؤرخون باسم وميدان القياش الذهبي » (١٥٢٠) . وكانت الفروسية قد أخذت تصبح تصنعاً جميلافي القرن السادس عشر . وما يزال مؤرخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسميليان الأول ياسم النسادس عشر . وما يزال مؤرخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسميليان الأول ياسم النسادس عشر . وما يزال مؤرخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسميليان الأول ياسم النسرسان » .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن انتخاب شارل إنما تم بعد بدل قدر عظيم من الرَّشَى . وكان أكبر مناصريه ودائنيه ، دار الأعمال الألمانية العظيمة التابعة لأسرة فاچار . ذلك أن المعالجة للواسعة النطاق لشئون المال والاثنمان ، وهي التي نسمها باسم « المالية » ، والتي ولت من الحياة الأوربية السياسية مع انهيار الإمبراطورية الرومانية ، قد أخذ يدب في عروقها آنذاك دبيب الفوة . ولا شك أن ظهور آل فاجار ، الذين كانت ديارهم وقصورهم تبز ما للأباطرة من ديار وقصور ، —



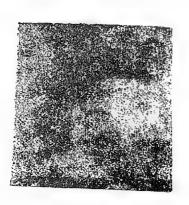
(شكل ١٩٥) أوربا في عهد شارل الخامس

يسجل حركة إلى أعلى لقوى جديدة ابتدأت قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة بكاهور في فرنسا وغلورنسا ومدن إيطالية أخرى. وتعود النقود والديون العامة ، والتقلقل الاجتماعي والتذمر ، إلى الظهور على مسرحنا الصغير و في هذه المعالم » . ولم يكن شارل الحامس إمر اطرراً هابسرجياً قدر ما كان فاجارياً

وظل هذا الشاب الأشقر الذى لا يبدو عليه سياء الذكاء الكثير ، والذى له شفة عليا غليظة وذقن طويل قبيع ، ردحاً من الزمان ألعوبة فى أيدى وزرائه إلى حد كبر . فإن رجالا مقتدرين طبعوا على غرار ماكياڤللى كانوا فى البداية رشدونه ويوجهونه فى فنون الملكية ، وأساليها ثم أنشاً يظهر ذاتيته بطريقة بطيئة ولكنها فعالة وكان أول ما واجهه بألمانيا منذ بداية حكمه الخلافات المربكة الناشة فى المسيحية . فإن الثورة على الحكم البابوى التى لم تنقطع متذ أيام هس وويكليف ، قد أجج لهيها من عهد قريب العودة من جديد إلى بيع صكوك الغفران بيعاً تتجلى فيه

الاستهانة والجرأة المفرطة ، وذلك لجمع المال لإتمام كنيسة القديس بطرس فى روما ، فإن راهباً اسمه لوثر ، تكرس قسيساً ، وعكف على الكتاب المقدس يقروه ، فلا انزعاج عند زيارته روما لبعض شئون طائفته لما رآه من خفة البابوية وبذخها الدنيوى ، فانبرى فى ويتنبرج (١٥١٧) ، ينحى باللائمة على هذه الوسائل التى ياجأ إليها البابا رافعاً ضدها علم الخصومة شارخاً بعض المباحث الدينية ، ونشبت نتيجة لذلك معركة جدلية ذات شأن .

وقد خاض لوثر فى بادى الأمر تلك الخصومة باللغة اللانينية ، ثم انقلب لوقته إلى الألمانية ، وسرعان ما دخل الشعب كله فى وطيس الحومة . وألنى شارل هذا النزاع متأججاً عندما عاد من أسبانيا إلى ألمانيا . فدعا إلى عقد (دايت Diet) أى جمعة إمبراطورية بمدينة ورمس على نهر الراين . واستدعى لوثر إلى مجلس الدايت هذا ، وكان البابا ليو العاشر طلب إليه أن يسحب آراءه فأى أن يفعل ذلك . فحضر إلى المجلس ، ولكنه « فى نفس روح هس تماماً » أبى أن يسحب أقواله ، إلا أن يقنع بخطئه بالمناقشة المنطقية أو بسلطان من الكتب المقدسة . ولكن حماته عن الأمراء كانوا أقوى من أن يصيبه ما أصاب چون هس .



(شَكُلُ ١٦٧) فرانسيس الارل (بريشة تيتيان)

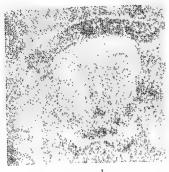


(شكل ۱۲۹) الامبراطور شادل الحامس (تصوير تيتيان)

وكان في ذلك موقف محير للإمبراطور الشاب ، وهناك أسباب تحملنا على الظن

أنه كان في بادئ الأمر ميالا إلى نصرة لوثر على البابا . ذلك أن ليو العاشر كان من المعترضين على البابا . ذلك أن ليو العاشر كان من المعترضين على انتخاب شارل ، وكان على صداقة وود مع منافسه فرنسيس الأول . ولكن شارل الخامس لم يكن ماكيا قالميا ماهراً ، كما أنه اكتسب في أسبانيا قدراً جسيا من الإخلاص للدين . لذلك وقف ضد لوثر . فانضم إلى المصلح الديني كثير من

الأمراء الألمان وبخاصة منتخب سكسونيا . واختفى لوثر



(شكل ١٦٨) منرى الثامن (تصوير هولبين)

عن الأنظار تحت حماية المنتخب السكسوني ، وألني شارل نفسه أمام بدايات الصدع الذي قد ّر له أن يشق المسيحيه إلى معسكرين متناحرين.

وجاء على أثر هذه الاضطرابات ، والراجع أنه كان ذا صلة بها عصيان واسع الانتشار بين الفلاحين فى كل أوجاء ألمانيا . على أن هذه الاضطرابات ملأت فؤاد لوثر بالخوف الشديد . إذ هاله ما رأى فيها من إسراف القتل والعنف . ومنذ ذلك الحين كف الإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه عن آن يكون إصلاحاً بوساطة الشعب وأصبح إصلاحاً بواسطة الأمراء . وذلك أنه فقد ثقته فى ذلك « الحكم الحر » الذي قام يناضل عنه رجولية تامة .

وفى الوقت ذاته أدرك شارل أن إمبر اطوريته الضخمة كان يحدق بها خطر عظيم جداً من ناحيتيها الغربية والشرقية . فكان إلى الغرب منه منافسه الناشط القوى فرنسيس الأول ، وكان الترك إلى الشرق يحتلون هنغاريا وقد تحالفوا مع فرنسيس ، وأخلوا يطالبون صاخبين بمونعرات من الجزية على الممتلكات النمسوية . وكان جيش أسبانيا وأموالها رهين إشارة شارل ، ولكن كان من أعسر الأمور عليه أن يحصل على أى عون مالى فعال من ألمانيا . وقد أنشأ جسده جيشاً من المشاة الألمان على الطراز السويسرى ، يغلب عليه الأصول التي يبسطها كتاب ما كيا قللي ه فن الحرب» ولكن كان لا بد لهذه الجنود من الأعطيات ، وكان لا يد لموارده الإمبر اطورية من أن

تستكمل بقروض بغير ضمانات ، وترتب عليها آخر الأمر أن جرَت نصراء. آل فاجار إلى وهدة الإفلاس .

وجملة القول أن شارل قد وفق بتحالفه مع هنرى الثامن ، إلى التغلب على فرنسيس الأول والأثراك . وكان معتركهما الرئيسي هو شهال إيطاليا ، واتسمت القيادة قى كل من الجانبين بالغباء ، فكان ما يقوم به الطرفان من التقدم والتقهقر متوقفاً في أعظم شأله على وصول الأمداد ، واجتاج الجيش الألماني فرنسا ، وأخفق ، دون الإستيلاء على مرسيليا ، ثم ارتد إلى إيطاليا ، وخسر ميلان ، وحوصر في پاڤيا . وضرب فرنسيس الأول على پاڤيا حصاراً طويل الأمد لم يكلل بالنجاح ، ثم قطعت السبيل عليه قوات ألملنية جديدة وهزمته وجرحته وأخذته أسيراً ، فأرسل إلى زوجته الملكة ببلغها « أنه فقد كل شيء إلا الشرف » ، وعقد صلحاً مهيناً ثم نقضه بمجرد أن أخلى مراحه — فكأن خلاص الشرف نفسه لم يكن إلا شيئاً وقتياً . ! ! . . .

وعند ذلك انضم هنرى الثامن والبابا – عملا منهما بقواعد الاستراتيجيا الماكيا لهلية الله جانب فرنسا ، لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة . أما الجيوش الألمانية في ميلان تحت إمرة كونستابل بوربون ، فإنها لما لم تتسلم أعطياتها ، قامت على روما بغارة كانت فيها أدنى إلى دفع قائدها أمامها منها إلى السير تحت إمرته . ففتحوا المدينة قسرا وأعملوا فيها انتهاباً (١٥٢٧) . واعتصم البابا بقلعة سان أنجلو بينها كان النهب والقتل يعملان عملهما في الناس . واشترى رحيل القوات الألمانية آخر الأمر بدفع أربعمئة ألف دوقية . ودامت تلك الحروب الحمقاء المربكة عشر سنوات ، فعادت على أوربا كلها بالفقر والحسران وخلفت الإمبراطور وفي يده ميلانو. وفي فعادت على أوربا كلها بالفقر والحسران وخلفت الإمبراطور وفي يده ميلانو. وفي المرء إلا أن يفكر في ذلك الوجه الأشقر الذي تبدو عليه مسحة من الغباء ، بما ركب فيه من الشفة الغليظة والذقن الطويل ، والذي يحمل التعبير الوقور تعبير من يتجلد فيه من الشفة الغليظة والذقن الطويل ، والذي يحمل التعبير الوقور تعبير من يتجلد إذاء مراسم مريبة وإن جاز أن تكون شريفة .

وفي الوقت ذاته كان الأثراك يشقون طريقهم في بلاد المجر بقوة عظيمة ،

فلهم كانوا هزموا ملك الحبر فى (١٥٢٦) وقتلوه ، واستولوا على مدينتي بوداوپست فى (١٥٢٩) ، وكما ذكرنا آنفاً أوشك سليان القانوني أن يستولى على قيينا . وقلق الإمبراطور قلقاً عظيا لهذا التقدم ، وبذل قصارى جهده لصد غائلة الأتراك ، ولكنه لتي أعظم الصعوية في حمل الأمراء الألمان على الاتحاد ، حتى وهذا العدو المرعب على أبوابهم .

وظل فرنسيس الأول ردحاً من الزمان حاقداً حانقاً ، ثم شبت حرب فرنسية أخرى ، ولكن شارل استطاع فى (١٥٣٨) أن يفوز بحمل منافسه على أن يتخذ موقفاً أقرب إلى المودة بإعماله النهب والتخريب فى جنوب فرنسا . وعند ثذ عقد قرنسيس وشارل بينهما مخالفة ضد الأتراك ، ولكن الأمراء البروتستانت ، وهم الأمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما ، كوّنوا فيا بينهم عصبة على الإمبراطور ، هى العصبة الشهالكلدية (نسبة إلى مدينة شهالكالدن الصغيرة من أعمال هيس ، التى وضع فيها دستور العصبة) ، وبدلا من أن يقوم شارل بحملة لاسترداد المجر إلى أحضان المسيحية ، اضطر أن يوجه فكره إلى الكفاح الداخلي الذي أخذت بوادره تتجمع فى ألمانيا . بيد أنه لم يشهد من ذلك الكفاج إلا حرب الافتتاح . كان كفاحاً قوامه مناوشات المانيا . بيد أنه لم يشهد من ذلك الكفاج إلا حرب الافتتاح . كان كفاحاً قوامه مناوشات دموية حمقاء بين الأمراء ، الذين كانوا يطلبون لأنفسهم الرفعة والمجد ، وكان يندلع آناً حرباً وتدميراً ، ويتدلى آونة إلى المؤامرات والديبلوماسيات الدنيثة ، وكأنى بها جراباً مليئاً بأفاعي السياسات الماكيا قالية الني قدر لما أن تواصل تلويها حتى صميم القرن التاسم عشر ، وأن تجر الدمار والحراب على أوربا الوسطى مرة بعد أخرى .

والظاهر أن الإمبراطور لم يدرك قط القوى الحقيقية التي كانت تعمل في هذه المتاعب المنجمعة . كان بالنسبة لزمانه ومرتبته رجلا طيباً طيبة استثنائية ، ويبدو أنه كان يعتقد أن الحلافات الدينية التي كانت تمزق أوربا بدد الملي معسكرات متقاتلة للما هي خلافات دينية حقا . فطفق يجمع الدايت بعد الدايت والمجلس إثر المجلس في محاولاته غير المجدية لإصلاح ذات البين . ونظرت من جديد قوانين الإيمان والاعترافات . ولا بد لدارس التاريخ الألماني من أن يكب على دراسة تفاصيل

المصلح الديني الذي عقد في نورمبرج ، والتسوية التي تمت في دايت راتسبون وصلح أوجز برج وما إليها . ولن نتجاوز هنا حد ذكرها بوصفها تفاصيل في حياة الهموم والقلق التي كان يحياها ذلك الإمهر اطور الفاخر الجليل .

والواقع أن أحداً من هذه الكثرة الكبيرة من الأمراء والحكام في أوربا لا يبدو أنه كان يعمل بنية صحيحة وإخلاص. فقد كانت الاضطرابات الدينية الفسيحة الانتشار في العالم ، ورغبة عامة الناس في الصدق والصلاح الاجتماعي ، والعلم الآخذ في الانتشار في ذلك الزمان ، كانت كل هذه الأشياء تعد في مخيلة الأمراء و دبلوماسياتهم مجرد أضداد تناصبهم العداء . وانضم هنرى الثامن ملك إنجلترة الذي ابتدأ حياته العملية بكتاب كتبه مناهضاً الهرطقة ، والذي كافأه البابا بان أنم عليه بلقب « حامي الدين » ، إلى جماعة الأمراء البروتسئانت في (١٩٣٠) ، لاهمامه بطلاق زوجته الأولى لعقمها ، وشغفاً منه بشابة مرحة اسمها آن بولين ، ولرغبته كذاك في الانقلاب على الإمبر اطور والانحياز إلى فرنسيس الأول ؛ وأن ينتهب ثروة الكنيسة الهائلة في إنجلترة . وكانت السويد والدانمارك والنرويج ، انضمت من قبل إلى الجانب البروتستاني .

ونشبت الحرب الدينية الألمانية في (١٥٤٦) بعد موت مارتن لموثر يبضعة شهور . وما نحن بحاجة إلى الاهتمام بأحداث الحملة وتفاصيلها . لقد هزم الجيش البروتستانتي السكسوني هزيمة منكرة في لوشاو . وقبض على فيليب أمير هن (Hesse) الحصم الأكبر الباقي للإمبر اطور بطريقة تقارب نكث العهد ثم سجن ، واستبعد شبح الأبراك بدفع جزية سنوية . وفي (١٥٤٧) مات فرنسيس الأول فأراح الإمبر اطور راحة عظيمة . ولذا فإن شارل وصل في (١٥٤٧) إلى نوع من التسوية ، وقام ببذل آخر جهد لديه لإنشاء سلم حيث لا سلم ولا سلام .

وف (١٥٥٢) عمت الحرب كل أرجاء ألمانيا مرة أخرى، ولم ينقذ شارل من الأسر إلا هربه سريعاً من إنسبروك، وجاءت معاهدة پاساو (Passau) فأوجدت البلاد توازناً غير مستقر. وكان التبرم بمتاعب وفخامة الإمبر اطورية، قد بلغ بنفش شارك شهايته القصوى، فإنه لم تتوفر له في أى يوم من الأيام بنية كاملة السلامة، وكان بطبعه

كسولا متراخياً ، وكان يقاسى عظيم الآلام من النقرس . فتنحى عن العرش ، ونقل كل حفوقه الملكية فى ألمانيا إلى شقيقه فرديناند ، وننازل عن أسبانيا والأراضى المنخفضة لولده فيليب . ثم تقاعد فى أحد الأديرة فى يوست وفى قلبه نوع من الحقد الدفين الفاخر ، بين غابات البلوط والقسطل فى التلال الواقعة إلى الشمال من وادى التاجه ، وهناك توفى (١٥٥٨) .

ولقد أكثر الكتاب من الكتابة في نغمة عاطفية عن هذا التقاعد ، ذلك الاعتزال للعالم الذي اتجه إليه ذلك الجبار المتعتب الفاخر ، الذي سمَّم العالم ، وأخذ يطلب سلامه مع الله في وحدة تقشف صارم . ولكن تقاعده لم يكن بالمنعزل ولا المتقشف ؛ إذ كان معه ما يقارب المئة والخمسين من الأتياع ؛ وكان مُقامه يحوى كل ملذات البلاط دون متاعبه ، وفضلا عن ذلك فإن فيليب الثانى كان ابناً باراً ، نصائح أبيه لديه أو امر واجبة الطاعة . فأما تقشفه وزهده فخير شاهد عليهما هو بريسكوت حيث يقول : « لا يكاد يوجد في المراسلات اليومية تقريبًا المتبادلة بين تابعيه كويكسادا أوجاز تلو وبين الوزير المقيم في بلد الوليد ، رسالة لا تدور قليلا أوكثيراً حول طعام الإمبراطور أو مرضه ». ويلوح طبيعياً ، أن يجيء أحد الأمرين كأتما هو تعليق مستمر على الآخر . ويندر في التاريخ أن ثكون منل هاته الموضوعات قوام مراسلات تتيادل مع إدارة الدولة . ولا بد أنه لم يكن من الهين على الوزير أن يحافظ على وقاره أثناء تلاوته الرسائل التي كانت فيها السياسة وفن الطهمي والمائدة مختلطين معا بمثل تلك الدرجة . وأمر الساعي القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أن يعدل طريقه بحيث يمر على بلدة جاراندلا ، ليحضر المؤن للمائدة الملكية . وكان عليه في أيام الحميس أن يحضر السمك لتقديمه في « يوم الصيام jourmaigre » الذي يتلوه وكان شارل يرى أن سمك النُّقط في المنطقة المجاورة صغير جداً ؛ ولذا كان من اللازم أن ترسل أسماك أخرى ذات حجم أكبر ، من بلد الوليد . وكانت الأسماك على اختلاف أنواعها تروقة وتلذه ، وكذا كل شيء يقارب السمك في طبيعته وعاداته . ومن ثمة احتلت ثعابين البحر والضفادع وأم الخلول مكاناً علياً في قوائم طعام الإمبراطور وكانت الأسماك

المحفوظة و بخاصة الأنشوجة تلتى منه قبولا كبيراً ؛ وأبدى أسفه لأله لم يحضر معه من الأراضى المنخفضة صنفاً أجود ، وكان مشغوفاً بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء(١).

وحصل شارك فى (١٥٥٤) على مرسوم من البابا يوليوس الثالث، يمنحه إعفاء من الصيام، ويسمح له بأن يفطّر فى بكرة الصباح حتى ولوكان ينوى أن يتناول القربان.

ه فأما أن شارل لم ينس مطلقاً وهو في يوست بزة ثيابه ، فأمر يمكن استنتاجه من الحقيقة الواقعة ، وهي أن دولاب ئيابه لم يكن يحتوى أقل من ستة عشر ثوباً من الحربر والقطيفة المبطنة بفرو القاقم أو زغب البط ، أو الشعر الناعم للعنز للبربري (٢) . فأما أثاث جناحه الحاص وتنجبده و كم يجب ألا نعتمد على الشائعات المتداولة عها في غير تحفظ فأمر يمكن إدراكه بنظرة واحدة إلى قائمة منقولاته التي آنشأها كويكسادا وجازتلو ، بعيد وفاة سيدهما . فنجد من يينها أبسطة وسجاجيد من بلاد النوك وألكاريز (Alcares) ومظلات من القطيفة وما ماثلها من أقمشة ، وأستاراً من القاش الأسود البديع ، الذي اختاره منذ وفاة أمه لحجرة نومه الحاصة ، بينها كانت الشقق الأخرى مفروشة بما لا يقل عن خسة وعشرين طاقا من الطنافس المعلقة من الشقق الأخرى مفروشة بما لا يقل عن خسة وعشرين طاقا من الطنافس المعلقة من الطبيعية .

« وإنّا لنجد فيا نجد من الأطباق مجموعة صنعت من الذهب الخالص ، وأخرى ملحوظة بصفة خاصة لغرابة صناعها . ولما كان عهده عصراً ارتفع فيه فن صناعة المعادن النفيسة إلى أسمى درج الكمال ، فليس لدينا خلجة شك فى أن كثيراً من أبدع الأنواع صنعاً كانت ملك يمين الإمبر اطور . ويتراوح وزن يميع الأطباق بين اثنتي عشرة ألف أوقية (٤) .

⁽١) نقلا عن تذییل پر یسکوت علی کتاب روبر تسون « تاریخ شارل الحامس » .

⁽٢) العنز البربري . أي المتربي بمراعي بلاذ البربر . (المترحم)

⁽٣) الكاريز . مدينة بأسانيا .

^(؛) نقلا عَن تدييل بريسكوت على كتاب رو برتسون« تاربخ شارل الخامس » .

⁽ plen - Y !)

ولم يكتسب شارل قط عادة القراءة ، ولكنه كان يستمع إلى قارى يقرأ عليه أثناء تناوله طعامه على طريقة شرلمان ، وكان يدلى بما يصفه أحد الرواة بأنه و تعليقات حلوة سماوية » . كذلك كان يسلى نفسه باللعب الفنية وبالاسماع إلى الموسيق أو المواعظ ، وبالالتفات إلى الشئون الإمبراطورية التي كانت ما تزال تتوارد عليه ، وجاءت وفاة الإمبراطورة ، التي كان متعلقاً بها عظيم التعلق ، فحولت ذهنه إلى الدين تحويلا تجلى فيه التدقيق الشديد والتزام الطقوس والمراسم ، فكان يتجسليد نفسه في أيام الجمعة من الصوم الكبير ومعه بقية الرهبان بعزم قوى يبلغ حد استنزال الدماء .

وكان من أثر هذه المارسات ومعها النقرس أن انطاق في نفس شارل عوامل تعصب ديني ، كانت تصده عنها حتى ذلك الحين الاعتبارات السياسية ، فاستثار حنقه إلى أقصى حد ظهور التعاليم البروتستانتية في المنطقة المجاورة لبلد الوليد . « مُر ثيس محاكم التفتيش ومجلسه نقلا عنى بأن يتولوا أعمالهم وأن يعملوا الفأس في جاور الشر قبل أن يستفحل » . . . وعبر عن شكه في أن لا يكون من المستحسن في مثل هذه المسألة القاتمة ، أن يستغنى عن محاكم العدالة العادية ، وأن يبطل استمال الشفقة « لكيلا تكون أمام الحجرم إذا عنى عنه فرصة لتكرار جرمه » . وضرب المثل مشيداً بطريقة تصرفه في الأراضي المنخفضة ، «حيث أحرق حياً كل من تمسك بخطئه عناداً ، وقطعت رأس كل من قبلت توبهم » .

واهمام شارل بالجنازات يكاد يكون رمزاً إلى مكانه ودوره فى التاريخ. وكأنى به كان يشعر بالحاجة إلى كتابة كلمة «انتهى» إلى ما لانهاية. فإنه لم يكتف فقط يحضور كل جنازة فعلية تقام فى يوست، بل كان يأمر بإقامة الصلاة على الموتى الغائبين وكان يقيم صلاة جنازة كاملة فى يوم الذكرى السنوية لزوجته، وانتهى بالأمر أن أقام حفلة جنازته.

و فجللت حوائط الكنيسة بالأستار السوداء ، ولم يكد وهج مثات الشموع . يكني لإزاحة دياجير الظلمات التي أطبقت على المكان ، واجتمع الرهبان في ثيابهم. الديرية ، وكل أتباع الإمبراطور ، يرتدون ثياب الحداد القائمة ، حول نعش ضخم ، وقد كسى هو أيضاً بالسواد ، ورفع فى وسط الكنيسة . ثم أقيمت صلاة دفن الموتى ، وارتفعت بين ولولة الرهبان الحزينة أصوات الصلوات لأجل الروح الراحلة ، ابتهالا إلى الذات الإلحية أن تنزلها منازل الأبرار . وذابت نفوس الحضور الحزانى أسى ودموعاً ، إذ طاف بهم خيال ممات سيدهم ، أو قل إن أفئدتهم ربما مستها رحمة لهذا المظهر المؤسف للضعف والوهن . وكان شارل وهو ملتف بجلباب أسود ، حاملا فى يده شمعة مضاءة ، يشارك أفراد حاشيته ، ويشهد جنازته ومأتمه ، أسود ، حاملا فى يده شمعة مضاءة ، يشارك أفراد حاشيته ، ويشهد جنازته ومأتمه ، وانتهى الاحتفال الحزين بوضعه الشمعة نى يد القسيس ، رمزاً إلى تسليمه روحه إلى قوى القادر » .

وتجعل بعض الروايات شارل يرتدى كفناً ويرقد فى التابوت ، ثم يبتى فيه وحيداً. حتى يغادر الكنيسة آخر المشيعين .

ومات شارل فى مدى شهرين من مهزلته هذه . وماتت بموته عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة . حقاً إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة واصلت بعده حياتها بعسر كبير حتى أيام ناپليون ، ولكن بوصفها شيئاً عليلا على فراش الموت . وما تزال تقاليدها غير المدفونة تسمم إلى يومنا هذا جونا السياسي .

١٣ ـ (ب) بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك

حمل فرديناند شقيق شارك الحامس لواء الوحدة الذي تخلى عنه أخوه والتنى بالأمراء الألمان في أو جزبرج (١٥٥٥) . وهنالك حدثت محاولة أخرى لإقامة سلام ديني . ولا أدل على روح تلك التسوية ، وعماية الأمراء ورجال السياسة القائمين بها عن أحداث ذلك الزمان الأكثر عمقاً رانساعاً ، من المعرفة التي الفلا بالكال التسوية . و تقرر أن يرجع الاعتراف بالحريف الدين . إلى الدول وليس إلى أفراد المواطنين . و الرهية تدين بدين الملك cujus regio ejus relinio .

١٣ _ (ح) التيار الفكرى السفلي المضاد

لقد وجهنا ما وجهنا من الالتفات الكبير إلى كتابات ماكياڤللي وإلى شخصية شارل الحامس ، لما يلقيانه من فيض الضياء على خصومات الفترة التالية من تاريخنا ، وقد تحدث هذا الفصل بقصة الاتساع الضخم في الآفاق الإنسانية ، والزيادة العظيمة والانتشار الكبير للمعرفة ؛ فرأينا ضمير عامة الناس يستيقظ وشهدنا بوادر تشير إلى ظهور عدالة اجمّاعية جديدة أشد عمقاً تنتشر بصورة عامة في كل أرجاء الحضارة الغربية . ولكن إشاعة النور والفكر هاته كانت تغادر البلاط وحياة العالم السياسية دون أن تمسهما بأى تغيير . وقل إن يوجد بين كتابات ماكياڤللي شيء لم يكن ليستطيع أن يكتبه أحد مهرة الوزراء في بلاط كسرى الأول أو شي هوالج تي أوحتى سرجون الأول أو بيبي فرعون مصر. فعلى حين كان العالم يتقدم إلى الأمام كل شيء آخر ، فإنه كان يقف جامداً لا يتحرك من حيث الفكرات الساسية ، والفكرات المتعلقة بعلاقة الدولة بالدولة وعلاقة الملك بالمواطن ، بل الواقع أنه كان رجع القهقرى ، ذلك أن الفكرة العظيمة القائلة بجعل الكنيسة الكاثوليكية مدينة الرب العلمانية ، قد دمرتها الكنيسة نفسها في أذهان الناس ، واتخذ الحلم بالسيادة الإمبر اطورية العالمية ممثلا في شخص شارل الخامس ، شكل دمية ، ومرَّ من خلال أورباكلها ثم هوى إلى مثواه الأخير. وبدا على العالم من الناحية السياسية دلائل الرجوع إلى الملكية الشخصية المستبدة ذات الطراز الأشورى أو المقدوني

وليس معنى هذا أن الطاقات الفكرية الحديثة التيقظ ق شعوب أوربا الغربية ، كانت من الإنهماك في إعادة الشئون اللاهوتية إلى نصابها ، وفي إجراء البحوث العلمية ، وفي الارتياد الاستكشافي والتطور التجارى ، بحيث جعلت القوم لا يستطيعون أن يلقوا يالا إلى مدعيات الحكام ومسئولياتهم . إذ لم يقتصر عامة الرجال فقط على أن ينتهلوا من الكتاب المقدس ، اللقى أصبح في متناول الأيدى ، أفكاراً عن نظم الحكم قلد تنكون كهنوتية (ثيوقراطية) ألو جهورية ألو شيوعية الطابع يبل ترتب على المودة الله هدر اسنة االآداب الإغريقية الكلاسيكنة ، أأن عادت روح أفلاطون الخلاقة الخصبة الله المتأثير في العقل الغريقي .

فأنتج السمير توماس مور محاكاة غريبة « لجمهورية » أفلاطون هي كتابه «اليوتوپيا » ، الذي جعل الأساس فيه نوعاً من الشبوعية الاستبدادية . وبعد ذلك بقر ن من الزمان أظهر راهب اسمه كامپانللا في ناپولي ، مثل ما أظهر مور من الحرأة بكتابه « مدينة الشمس » . ولكن لم يكن لمثل هاته الأبحاث أي تأثير مباشر في النظم السياسية الجارية : ولو قورن هذان الكتابان بضخاسة العمل المرجو منهما ، لبدت فيهما غلبة التزعات الشاعرية والنظرية والهزال . . (ومع هذا فقد قُدر « للبوتوپيا » أن تؤتي تمارها فيا بعد في « قو انن الفقر اه() » الإنجليزية) .

وظل التطور الفكرى والخلق للعقل الغربي وهذا الاتجاه صوب الملكية الماكيا ڤللية في أوربا ، يسيران ردحاً من الزمان جنباً إلى جنب في نفس العالم ، ولكنهما كانا يتسايران مستقلين تقريباً . وظل رجال السياسة يديرون الخطط ويقومون بالمداورات (المناورات) ، كأنما ليس هناك شيء ينمو إلا قوة الملوك الحذرين المحظوظين .

ولم يحدث إلا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن هذين التيارين من النزعات ــ تيارا الفكراثالعامة وحركة الديلوماسية الملكية التقليدية الأنانية ــ تداخلا بعضهما فى بعض واشتجر بينهما النزاع .

⁽١) قوانين الفقراء . القوانين الخاصة بإعالة المتشردين . (المترجم)

تم الكتاب السابع ويليه الثامن

في

التاريخ الحديث

« عصر الدول العظمى »

فهرس أبجدى للكتاب

(1) أديرة ٧٣٠ ، ٧٣٤ ، ٢٩٠ أدينجتون سيموندس (ج) ١٠١٩ أياميا ه ١٧ أذينة ٧٤١ ، ٧٨٧ أبجدية ٧٦٨ الآراميين ٥٥٩ ، ٧٨١ إبراهام (إبراهيم) ٢٩٤ إريان الفائي ٨٧٨ ، ٨٧٨ ، ٨٨١ ، ٨٨١ ، ابن رشد القرطبيي ۸۹۰۸۳۰ ، ۸۹۸ و ، ۲۰۰۰ 994 6 917 6 911 ابن سينا ٨٢٠ أبو بكر ٨٨٨ ، ٢٩٠ ، ٨٠٤ ، ٨٠٤ ، ٨٠٨ ، إربان السادس ١١٤ أرجون ٩٣٩ ATT 6 ATT 6 AT. أبو العياس ٢٢٨ أردشىر الأول ٧٤٠ ، ٧٤١ أبو الفضل ٩٥٩ أرسطو ۸۲۸ ، ۸۳۰ ، ۸۹۸ ، ۹۹۸ ، ۹۹۸ ، الأبيقورية ٧٦٠ 1 994 أتحاد مدن الهارسا ١٠١٦. الأرشكية ٧٢٧ الأتراك ٢٤٢ ، ٧٧٨ ، ١٨٨ ، ٢٤٢ ، ٥٥٠ الآرشكيين البارثية ٢٤٠ الأتراك السلجوقيون ٨٧٦ ، ٩٤١ أرض اليبودية ٢٩١،٦٨٩ ، ٢٢٩،٦٩٢ ، ٩٠٣ الأتراك المثانيين ٧٣٩ ، ١٩١ الأرغن ٩٢١ أتيلا ٥٥٥ ، ٨٣٨ آرلس ۷۲۰ ، ۷۲۰ الأثر النسطوري ٧٦٣ اثناسیوس ۷۱۱ ، ۷۲۰ ، ۷۸۰ آريوس ٧١٢ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٨٢٠ ، ٨٧٠ أثينا ٧٧٧ الآريوسية ٧١١ أجانتا ٧٧٧ الآريوسيين ٧١٢ أجرت ١٥٠ آریستو ۱۰۱۹ ر. اجزرسیس ۹۶۱ الأزتيك ١٠٣٤ أجنهارد ۲۰۸ ، ۸۰۸، الأزتيكية ١٠٣٣ ١٠ أچينكورت ١٠١١ الاستحالة ١٠٠٢ الأحباش ٧٨٢ أستويا ٩٦١ أحد ۲۹۷ أستيفن ٥٧٨ إحياء العلوم ٢٠٢١ ، ٢٠٢٢ الأسر ٦٨٨ الأدب ١٠١٩ أسرة تشو ۲۷۷ · الأدب اللاتيني ٢٣٤ أسرة صنيج ٩٢٤. الأدباء ٢٧٣ أسرة المانشو ٩٤٨ الأدرية ٧١٠ الإسكندر الأكبر ٥٠٥ ، ١١٧، ٧٣٨ ، ٧٤٠ الأدريين ٧٢٢

آل هابسبرج ۹۱۲ إسكندر الثالث ٩١١ آل هوهتشتاوفن ۹۱۲ إسكندر السادس ١٠٣٩ ألب أرسلان ٨٧٧ الاسكندرية ٢٧٤٠ ألبرتوس ١٠٠٢ الإسكيذيون ٥٥٥ ، ٨٧٠ ألىر خت دورر ١٠٢٣ الإسلام ٢٥٧ ، ١٠٨ ، ٣٠٨ ، ١١٨ ، ١٨٨ الألبيجتسيين ٤٠١ ، ٩٠٧ ATT . A14 . A1A . A1V ألفريد الأكبر ٢٥٧ ، ٥٧٥ 40Y 4 4Y0 6 4YE ألكسيوس كومنينوس ٧٧٨ الإسميون ٢٠٠٠ ، ١٠٠٢ آلکوین ۹ه۸ إسوس ۱۰۸۰۰ المانيا ۲۲۲ آسوکا ه ۲۰۵ م ۸۷۸ م ۹۲۹ تا ۹۲۹ الألمانية الدنيا والعليا (اللغة) ٨٤٣ آسيا ٨١٩ آلهة نينوى ويابل الأقدمين ٥٥٠ آسيا الوسطى ١١٨ أليزابيث ١٠٢٠ ، ١٠٢٤ أسيسي (دير) ۹۰۷ أليكسيوس ٧٧٪ ، ٨٨٠ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨١ الأسينيين ٧٣٠ الأليماني ٨٤٦ آشور ۲۸۷ الإصلاح الديني ٩٨٠ ، ٩٩٠ ، ٩٩٢ ، ٩٩٧ أمريكا ١٠٣٣ أم قسطنطين (هيلينا) ٧٤٢ 1 . 44 . الإصلاح الديني المضاد ١٠٠٩ أماديس دي جول ٩٩٥ ، ٩٩٣ الاعتقاد الحتمى ٩٠٢ إمارات لاتينية ٨٨٥ الاعتقادى ٧١٢ الإمبر اطورية البيزنطية ٨٠٩ ، ٨١٢ ، ٨٣٢ ، إغناطيوس ليولا ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ 6 ATA 6 ATA 6 AOY 6 AOY 6 ATY الأغلسطيين ٧٢٢ A4 . AYY . AY. الأفار ١٤٠ الإمير اطورية الخوارزمية ٢٣ ه ، ٩٢٧ الإنشاليين ٥٥٠ ، ٧٧٨ إمبراطورية خيوه ٩٢٥ افریقیا ۸۱۹ أفلاطون ۲۶۷ ، ۹۹۹ ، ۲۰۱۳ ، ۱۰۵۴ لإمبر اطورية الرومانية ٧٢٧ ، ٧٣٧ ، ٧٤٠ . الأفلاطونية الحديثة ٧١٠ ، ٩٩٩ 6 AV+ 6 ANA 6 A08 6 A08 6 VET أفنيون ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٩٤٧ ، ٩٧٥ 1 . 4 0 4 1 . 7 7 4 4 1 إفيسوس ٧٢١ الإمبر اطورية الرومانية اللاتينية ٧٣٩ الإقطاع ٨٣٩ المقدسة ٧٥٧ ، ٥٥٠١ الإقطاعي ٨٣٨ الشرقية ٧٢٣ ، ٥٧٧، ٨٣٨، ١٠١٦ إقطاى ٩٣١ المبينية ٧٤٣ آکام ۱۰۰۲ ، ۲۰۰۳ ، ۱۰۰۰ الغربية ٢٤٤ ، ٥٧٧، ٨٣٨ ، ٣٢٩ ي اکتر ۲۵۹ ، ۹۵۷ ، ۹۵۹ ، ۹۲۰ 144 أكسير ١٠٠٦ إمبر اطورية القسطنطينية ٩٤٢ آل کومنین ۸۷۳ آ ل ميمون ۸۲۹ الكن ٤ ٢٠ ، ٩٢٩

أسريكا ١٠٣٧ أوغسطوس ۷۱۷ ، ۸۵۸ إمىر اطورية الهسيا ٩٢٤ ، ٩٢٨ قیصر ۸۸۱ الأمبريائيين ١٠٧٣ أوغسطين ٧١١ ، ٢٧٤ ، ١٥٤ ، ٨٧٨ آمون ۷۲۱ أوليبج ٧٧٨ الأمير الأسود ١٠١١ إيراسموس ١٠١٩ أفاكومنينا ١٨٧ إير لندة ٧٢٢ الأنبار ٩٦٠ إيزابلا ١٠٤٤ الأنجل ه٧٧ إيسوس ٨٨٤ إيطاليا ٧٣٦ أنجلو ه۸۸ إيقان الرابع ٢٥٢ ألأنجلوسكسون ٧٣٣ الإيلخائية ٩٥٣ ، ٩٣٧ ، ٩٤٨ ، ٩٥٣ الأناجيل الأربعة ٩٠، ٢٩٠ ، ٧٢٠ الإين (الإيسن) معركة ه ٨٤ أندرونيكوس ٤٣ ٩ إينيجو لموبيز دى ريكالدى ١٩٤ الانسجام ٩٢٠ **(ب)** أنطاكية ٢٧٤ ، ١٨٨٠ ١٨٨٠ ١٨٨٠ أنطيوخوس ٦٨٨ البايا ۷۲۶ ، ۸۲۵ ، ۹۹۰ الانكشارية ٩٤٢ ، ١٥٤ البابوية ٥٨٥ ، ٩١٢ ، ٩١٤ أنوسنت الثالث ٨٩١ ، ٨٩١ ، ٨٩٧ ، ٩٠١ ، بایر ه ۹ ۹ ۲ ۹ ۹ 4 4 4 6 4 . A . A . V 6 4 . T 6 4 . E بابل ٥٩٧ 444 6 41Y البارثيين ٤٠٧ أنوستت الرابع ۸۹۰ ، ۸۹۹ ، ۹۳۳ اليارسيون ٥٥٠ ، ٩٦١ انکا ۱۰۳۰ البارود ٥٦٥ ، ٩٢٨ ، ١٠١٢ أمريمان ٥٠٠ ١ ٢٥٧ باریس ۱۰۱۳ أمل الشمال ٨٧١ ياساو ١٠٥١ أوتو ۸۹۸ ياثيا ١٠٤٩ الأول ٧٢٨ ، ٥٧٨ ، ١٠٠ الباقارين ه ٥٨ الثاني ١٨٨٧ باكتريا ٩٥٣ « , الفالث ٨٦٧ بالمراه ٤٧ أرجز برج ١٠٥١ بالاديو ١٠٢٥ أرجداي ۹۲۹ بامبيكي ٥٤٧ أودن ١٤٧ بانوكبرن (ممركة) ۱۰۱۱ أودواكر ∨ه∧ يانونيا ٧٢٦ يانبيات هه ٩ أورانغزيب ٢٥٦ بايزيد الثانى ٩٤٦ أورسيني ٩١٣ بين الأرل ٤٧٨ آورشلیم ۱۹۸ ، ۱۹۲ ، ۲۹۲ ، ۲۹۷ ، پین القصیر ۲۶۸ ، ۹۶۸ ، ۲۵۸ V + Y يترارك ١٠١٨ أورليان ٧٤١ ، ٧٤١ اليتشنج ٥٧٨ ، ٧٧٨ أوستراسيا هدم

بلدوين الفلاندري ٨٩٠ البحر المتوسط ٨١٨ ، ١٩٨ بليساريوس ٧٣٢ يحبرة الحليل ٧٠٧ بليني ١٣١ بدر ۷۹۲ ، ۸۱۷ البنادقة ٥ ٢٩ بربرية ٧٢٧ البندقية ٩٣٩ ، ١٠١٣ ، ١٠١٦ ، ١٠٠١ ، **برتولومیودیاز ۱۰۲۸** بند کت ۷۳۱ ، ۷۳۲ ، ۷۳۲ ، ۷۳۲ برج جيوتو ١٠١٧ 41. 4 444 يرقنديا ١٠١٢ البندكي ٧٣٣ الرغندين ٧٢٦ بني أمية ٨١٧ ، ٨١٤ ، ٨١٣ ، ٨٢٨ **پر**قار الأخ الفرنسسكى ٩٠٧ يرنجل باتيسون ١٠٠٣ بواتييه ١٠١١ البراهمة ۷۷۷ ، ۷۸۰ يوثيثيوس ٨٣٠ يويي ۲۸۹ ، ۲۵۷ الر عمانية ٥٥٥ ، ٧٧٨ بوتيشللي ١٠٢٣ البروتستانتية ٧٧٩ ، ٩٨٩ ، ٩٩٢ يروڤانس ۱۰۱۷ يوذا ۲۹۰ ، ۲۳۰ ، ۲۳۰ ، ۲۰۰ ، ۲۰۰ يروكوب العظيم ٩٨٠ YAA البرونز ۲۷۲ البوذية ٥٥٧ ، ٨٧٨ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٢٥٨ برونیلسکو ۱۰۱۷ بوربون (كونستابل) ١٠٤٩ بريستر جون ٩٣٨ ألبورسلان ٥٥٠ بریسکون ۲۰۵۲ اليوصلة ١٠٢٧ بريسكوس ۸۳۸ بوریس ۷۴ ۸ بريطانيا ٥٧٧ البوصله ١٠٣٧ يريكليس ٩٤٩ ، ١٠١٧ ، ١٠٢٦ البوشمن ٢٦٤ الريطون • ٧٧ يولس ٧٠١ ، ٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٢١٩ ، البسفور ۱۹۹ ، ۲۲۸ YYY البطالة لا٨٢ يول ١٠٧٤ وبطرس أبيلارد ١٠٠٢ يولو ٩٣٨ « الناسك ٨٨١ ، ٨٨١ » پولین (آل) ۱۰۵۱ بطوطة (ابن) ۹۸۱ بونيقاس ألثامن ٩١٣ بعل ماردوخ ۷۲۱ بوطند ۱۸۸۷ بعلبك ٧٨٧ بوياردو ١٠١٩ بغداد ۲۲۳ ، ۲۷۸ بیاسنز ۱ ۸۸۰ بلاد العرب ٧٨٧ پیسی ۲۰۵۱ يلاد البودية ه ۲۸ ، ۹۸۰ ، ۹۰۰ ، ۸۱۸ بيت المقدس ٨١٠ البلغار ۷۲۷ ، ۸۵۸ بيجو ٩٣٩ بلوتارك ٧١٧ بیثینیا ۱۸۷۸ البلوتوقراطية ٧٧٨ بيد ۷۲۹ ، ۸۸۸

بىزنظة ٢٢٨ تنتوريتو ۲۰۲۴ پيرو ١٠٣٤ توتيلا ٧٣٢ بير وچينو ۲۰.۲۳ توماس أكويناس ٢٠٠٢ پىزارو ١٠٣٤ توماس مور ۱۰۵۷ پیکین ۹۵۷ تيبريوس جراكوس ٥٥٧ بيلاطس البنطي ٧٠٢ ، ٧٠٣ تيتوس ۸۸۸ تيخوبراهي ١٠٠٧ (0) تيمور هه ۹ تيمورلنك ١٥٤، ٩٦٢، ٩٦٢، ٩٨٢ تاج محل ۹۶۲ التيوتون ٥٢٧ تاخوف ۹۷۹ تيودور الطرسوسي ٨٤٨ تاكسيلا ٧٧٧ تانج ۷۹۷ ، ۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۳۷ ، ۲۲۷ ، () 177 6 VVT تانكريد ١٨٨٧ الثالوث ۲۹۲ تای تسنیج ۷۲۱، ۷۲۲، ۷۷۷ ، ۹۲۳، ۹۲۳، الثالوثية ٧١١ الثالوثين ١١٧ تايلور ٢٠٠٣ الثقافة العربية ٨٢٨ تتيان ١٠٢٤ الثورة الفرنسية ه٨٨ التجريب ٢٠٠٦ ، ١٠٠٨ ثورة الفلاحين ه ٨٨ التجريد ه٠٠٠ ثيودورا ٧٣٩ تدمر ۱ ۱ ۷ ، ۵ ۲ ، ۸ ۲۷ ، ۲۸۷ ثيودوريك الأول ٧٢٦ ، ٨٣٠ تراجان ۷۸۷ ، ۷۸۷ ، ۷۸۷ ثيودوسيوس الأكبر ٧٣٩ الترحل ۲۲۲ ، ۹۲۷ ، ۹۲۹ ثيودوسيوس الأول ٧٢٢ الترك ۲۷۷ ، ۲۲۸ ، ۲۳۸ ، ۳۲۴ ، ۵۲۶ الثيوقرازيا ۸۰۸ ، ۵۱۱ التركستان ٧٢٢ ، ٢٥٧ (ج) التركوفنلندية (اللغة) ٥٧٨ التروبادور ۹۲۰ ، ۱۰۱۷ الحاكرى ٩٨٤ تسانيا ١٠٣٣ جالير يوس ١١٥ تسى إن ٧٧١ جاليلو جاليل ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠١٠ التشكيل التمثيل ٩١٨ جامعات ۷۳٤ ، ۲۲۹ تشو (أسرة) ٧٧٧ جامعة سالرند ٨٩٨ التصوير ٢٠٢٥ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٥ چان دارك ۱۰۱۱ ، ۱۰۱۲ « الحداري ۹۱۸ » چان قان إيك ١٠٢٢ التعميديين ١٨٤ ، ١٩٩١ حبال البرانس ٨١٩ التميينات ٧٩٨

حمال طه روس ۱۱۸

تمثيل الطبيعة (فن) ٩١٩

جشيماني ٧٠٣

جون ۸۹۰ ۱۰۲۸ جون أدينجتون سيموندس ١٠١٨ جون بال ۹۸۳ ، ۹۸۴ جون الفورنسيتي ٩٢٠ جون الليدنى ٥٨٥ جون هس ۱۹، ۹۷۸ ، ۹۷۹ جویسکارد ۷۸۸ جيبون ١١٥ ، ١١٨ ، ٢٢٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٧ 17A 2 77A 2 3VA 2 0 AA 2 1 PA جيروم البراجي ٩٧٩ جيمس الأول ١٠٠٨ جيش الحلامن ٩٩٦ جيهان (شاه) ۹۳۲ جيهان جير ٥٥٦ جيوتو ١٠٢٢ (5) ألحبر العظيم ٢٤٧ الميشة ٧٢٢ حرب صليبية (الغلر حملة) ٨٨٣ ، ٩٧٩ الحرب الصليبية الأول ٨٨٩ العالفة ٢٨٨ « السابعة ٩٩٨ الحروب العبليبية ٨٨١ ، ٨٩٣ ، ١٠١٢ حروب الفلاحين ٩٨٣ حرب الورديين ١٠١٢ ، ١٠٢٠ المركة الاشتراكية ٩٨٦ الحسن بن على ٨١٦ الحسن ٨١٦ الحشد الذهبي ٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٧ الحضارة (انظر مدنية) ٧٦٦ حضارة پيرور ۱۰۳۳ حكومة دينية ٨٧٨ « عالمية ٢٠١ ، ١٠٩

الحكم البرلماني ١٠٣٨

جراكوس ٩٧٤ جراندی ۱۰۲۵ جر محوری ۷۳۳ ، ۷۳۵ ، ۷۷۷ ، ۸۹۸ جریجوری (ر . 1) ۱۰۰۸ ، ۲۳۲ جريجورى الأول العظيم ٩١٠ جریجوری التاسع ۸۹۲ ، ۸۹۸ ، ۸۹۹ ، ۹۷۰ « الحادي عشر ۹۱۶ ، ۹۶۸ السابع ۷۷۸ ، ۸۷۸ ، ۹۸۸ ، ۸۹۸ ، 994 6 91 . الخزويت ٩٤٨ ، ٩٩٦ جستنیان ۷۲۷ ، ۷۳۷ ، ۷۳۷ ، ۷۳۸ ، ۸۳۹ · 107 · 100 · 114 · 714 · 744 9 2 2 جفری شوسر ۱۰۲۰ جلرت ۱۰۰۸ جلجثة ٧٠٣ الحليل ٧٠٤ ، ٧٠٩ الحمعية الملكية ١٠٠٩ جمعية يسوع (اليسوميون) ٩٩٤ الحمهورية الرومانية ٥٥٧ ، ٩٠١ ، ٩١٦ ، چنر ی ۱۰۲۶ جندهارا ۲۲۹ چنکیز خان ۹۲۹ ، ۹۲۸ ، ۹۲۸ ، ۹۲۹ ، 974 . 404 . 408 1.54 6 1.17 6 1.18 جوثرام ۲۵۸ اللويتا ٥٥٧ ، ٩٩٢ الحوت ٧٢٥ جوتامابوذا ۲۹۱ ، ۷۰۷ ، ۲۰۹ جوتنبرج ۹۸۷ جودقري البويوني ۸۸؛ الحولياردي ١٠١٩

الدولة التعليمية العصرية ٤٧٤ الدولة الرومانية ٢٤٧ الدولة الرومانية المقدسة ٢٠٤٢ الدولة السلجوقية ٣٣٨ الدولة المصرية ٧٦٦ ، ١٤٧٤ دومازلیك (معركة) ۹۸۰ دومينيك الأسياني ٧٠٧ ، ٨٠٨ ، ٥٠٩ الدرمينيكيين ٩٠٨ ، ٩٠٩ درن کیشوت ه۹۹ ، ۱۰۲۹ ديكيوس ٧١٣ د بموقر اطية ٧٣ (3) ذبح العبيد ٧٧٣ الذكاء الطليق ٩٩٨ ()) رابیلیه ۱۰۲۱ رافايبل ١٠٢٠ راميزاندت ۲۰۲۱ ، ۲۰۲۵ راتسبون ۱۰۵۱ رب ۲۸۸ ربوبية قيصر ٧١٣ رستم ۸۰۷ ، ۸۰۹ رستنشانو ۹۳۵ ، ۹۳۸ ألرق ۲۰۷ الرهبان الدومينيكيين ١٠٣٥ الرهبان السود ٩٩٣ الرهبان الفرنسكيون ١٠٣٦ الرهبنة ٧٣٠ روبرت بروس ۱۰۱۱ رو برت جویسکارد ۹۹۱ ، ۹۹۱ روبنز ١٠٢٤ روجر الأول ٨٩٧ روجر باکون ۵۰۰، ۲۱۰۲۱، ۱۰۱۰، ۱۰۲۱ روح القدس ٧٣٣

حص ه ١٧ حملة صليبية ٨٨٨ الحملة الصليبية الأولى ١٨٨، ٥ ٨٨ الرابعة • ♦ ∧ « الخامسة ٨٩١ « السادسة ٨٩١ « لشعبية ٨٨٣ حملة صليبية للأطفال ٨٩٠ () خالد ۸۰۷ ، ۸۰۷ خديجة ٧٩٨ الخزر ٥٧٨ الخزف ۷۷۳ ، ۵۰ الخلافة الفاطمية ٨٦٩ خلقدون ۲۲۱ الحيتان ٩٢٤ ، ٩٢٧ (2) دار ۱ ۸۰۷ ، ۲۶۴ دالماشيا ٢٢٦ دانتي الليجيري ١٠١٧

دالماشيا ۲۷۷ دانتي الليجيري ۱۰۱۷ درتموند ۱۰۱۳ الدردنيل ۱۶۰ دقلديانوس ۷۱۳ ، ۱۷۷ ، ۷۱۷ ، ۸۱۸ ، دقلديانوس ۷۱۳ ، ۱۷۷ ، ۷۱۷ ، ۸۱۸ ، دمشق ۱۰۸ دمياط ۱۸۸ دورانوس ۲۰۰۲ ، ۳۰۰۴ دورانو ۷۷۸

السكسونية (الأسرة ٨٦٧ سكسونيون ٨٤٦ السلجوقية (العشيرة) ٨٧٦ السلاجقة _ سليوق ٢٦٨ ، ٨٨٨ ، 4EL & AAE السلاف (انظر صقالبة) ٧٤٠ السلق (المذهب) ٧١٢ المتلوقيين ١٨٧ سليم ٩٤٧ ، ٩٤٩ سليمان (ابن عبد الملك) ٨١٢ سليمام بن الوليد ٨١٩ سليمان القافوني ٧٤٧ ، ٥١٠٤ . ١٠٥٠ سمرقند ۱۹۶۱ ه ۹۵۸ سنيوالي ١٠٢٣ السنيون ٥٨٨ سواسون ۸٤٥ سو بوقای ۳۰ سوتونيوس ۱۱۷ سودريني ۱۰۲۹ ، ۱۰۶۱ سوریا ۱۸۷ السولتري ١٠٣٣ سومر ۹۲۳ ، ۲۵۴ السومرية (الثقافة) ٢٠٠٤ سوي (أسرة) ٧٦٠ سويسرا ١٠٤٣ السويسرى (الاتحاد) ١٠٤٢ السويق ٢٢٧ سیان فو ۷۷۹ سير ايپس ۷۰۸ ، ۷۰۹ ، ۷۲۱ ، ۲۲ سیزار بورجیا ۱۰۴۹ ، ۲۰۹۰ سيمابيو ١٠٢٢ (m)

شاءول العلرسوسي ٧٠٥

رودولف الحابسبر جي ۹۱۲ ، ۱۰۶۳ روديك ۸۷۲ دولف ۲۵۸ دولف العداء ۷۷۸ دولف العداء ۷۷۸ الرومان ۸۸۲ الرومانس ۴۶۰ الرومانشية (الفت) ۸۲۱ ديتشارد ۸۸۹ ريتشارد ۱لفانی ۶۸۶

(;)

زرادشت ۷۶۱ ، ۷۰۱ ، ۲۰۱ ، ۲۰۱ الزرادشتیة ۷۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۰۱ ، ۸۲۰ ، ۸۲۰ ، ۸۲۰ ، ۸۲۰ ، ۸۲۰ ، ۸۲۰ ، ۸۲۰ ، ۸۲۰ ، ۲۰۰ زرواستر (انظر زرادشت) ۷۰۰ الزند أنستا ۷۰۰ زوسیموس ۷۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ وزیکا ۲۷۹

(w)

سابور الأول ۲۶۱ ، ۱۰۸ الساسانية ۲۶۰ ، ۲۷۸ الساسانيين ۲۶۰ سالرنو ۲۰۰ سالرنو ۲۰۰ الأسرة) ۲۸۸ السامية ۲۸۱ الأسرة) ۲۸۸ الساميون ۲۰۳ سبنسر ۲۰۱۰ السبيلية ۲۱۷ سرجون الأول ۲۷۱ ، ۲۰۰۱ سرخانييز ۲۲۲ ، ۲۰۱۱ السكسون ۲۲۲ ، ۲۰۱ ،

صور ۱۸۸ صوفيا ٤٤٤ الصين ٥١٨ ، ١٥٩ ٨٩٩٨ الضفيرة ٩٤٩ طاعون ۹۸۱ الطب ۸۳۱ الطباعة ٣٨٨ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٨ ، ٨٣٨ الظراز البنزنطي ٥٣٥ الطراز القوطى ٩١٦ ، ١٠١٤ الطوائف ٧٧٧ الطورانيين ۲۰۸ طيبر يوس الثانى ٧٠٢ طييريوس قيصر ٦٨٩

(8)

(ض)

(b)

عائشة ۱۱۶ ، ۱۱۸ العالم المسيحي ٥٢٥ ، ٩١١ عالم المسيحية ٧٢٧ ، ٩٠٩ عالم المسيحية الغربية ١٧٠ العاهل ٩٦٩ العباس ۸۲۱ العباسيون ٨٢٢ ، ٨٨٩ عبد الملك ١١٩ العبر انيون ٧٨١ ۸۱۰ ، ۱۱۸ ، ۱۱۸ ناره العرب ٧٦٣ ، ٨٢٠ ، ٨٧٠ العصر الحجرى الحديث ٩١٩ ، ٣٣ العصر الحجر القديم ٢٠٣٣ العصر الرومانسي ٩١٦ عصر الولايات العشر ٢٤٠ العقيدة النيقية ٧٢٠ العسل ٩٩٧ علم الطب ۸۲۸

شارل الثاني ١٠٠٩ شارل الخامس ه ۹۹ ، ۹۹۶ ، ۱۰۱۲ ؛ ۱۰۶۴ ، 6 1 + 2 X 6 1 + 2 Y 6 1 + 2 X 6 1 + 20 1 + 0 7 6 1 + 0 0 6 1 + 0 6 6 1 0 7 6 + 1 شارل دیکنز ۱۰۱۶ شارل السابع ١٠١٢ شارل مارتل ۸4.۸ شامانیه ۹۳۳ ، ۹۵۱ شانج (أسرة) ۷۷۲ شاه جهان ۲۵۹ الشرقيعن ٧٢٦ شر لمان ۲۰۷ ، ۲۲۷ ، ۲۹۸ ، ۸۵۰ ، ۲۵۸ ، 4 AOV & AOT 4 AOO 6 AOE 6 AOT . 40A . 488 . 418 . 41. . ATE 1 . 0 & 6 1 . 2 £ 6 9 YO 6 9 1 . الشعوب التركية ٨٦٩ الشعوب الهمجية ٢٧٤ شکسبیر ۱۰۲۰ ، ۱۰۲۱ شمالكالدن ١٠٥٠ الشهب ٩٩٣ شورتز ۸۰۲ شوسر ۱۰۲۱ الشيعة ١٥٥ ، ٢٢٨ شی هوئیج تی ۲۰۵۳

(ص)

الصدع الكبير ١٤٤، ٨٤٨، ٩٧٨ الضدوقيون ٦٨٩ الصندية ٥٥٧ السقالية ١٤٠، ٢٤٨، ٥٥٥ ، ٨٧٥ الصقليتين ١٠٤٤ صكوك الغفران ٥٠٥ ، ٢٠٤٦ صلاخ الدين ٨٨٩ ، ٩٢٣ الصليب ٧٤٣ ، ٧٤٣ ، ١٩٨ الصليبين ٨٢٧ 4 £ 4 6 4 7 1 6 4 7 4 6 V 7 E mino

£ 417 F-411 £ 4-4 £ 411 £ 4.. 6 484 6 440 6 440 6 444 6 414 1.26 6 1.14 فردريك الثالث ١٠٤٤ فردريك مارجريث براندترج ٩٧٩ فرديناند الأرجواني ١٠٢٩ و ١٠٤٤ ، ١٠٥٧ ، الفرنجة ٧٢٦ ، ٨٣٩ ، ٠٨٨ الفرنجة البورغنديين ٨٤٦ فرنسيس ٩٠٧ ، ٩٠٩ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ فرنسيس الأول ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٠٠ ، فرنسيس الأسيسي ٩٩٠، ٩٩٠ فرنسيس باكون ١٠٠٨ الفر نسيسكانية ٩٠٦ الفرنسيسكانيون (الفرنسيسكيون) ٩٠٩،٩٠٨ ، ٩٧٥ فريدريجو العظيم ٩٠٠ ألفريسيون ۸۸۸ فرييا (الربة) ٨٤٧ فسبازيان ۸۸۸ نسيفساء ٧٣٥ الفطنة الحرة ٩٦٩ الفلاسفة ٢٤٧ فلاڤيوس يوسي الفلك ٨٣١ فلمنج ٩١٠ فلورنسا ١٠١٧ ، ١٠١٧ الفن (فنون) ه٧٧، ١٥٨، ١٥٨، ١٧٧٠ 1.44 . 1.41 . 414 . 441 . 444 الفن البوذي ٩٦٢ فن التشكيل ٩١٩ الفن التمثيل ١٠٢٢ الفن الرومانسكي. ٨٦٣ ، ١٠٢١ الفن الصيني ٩٤٩

على ٨٨٧ ، ١٩٨ ، ١٩٨ ، ٢٨٨ المارة ٢٨٨ المارة ٢٨١ ، ١٠٩٥ عبر ٥٠٨ ، ١٠٨ ، ١٠٨ ، ١٩٨ عبر ٥٠٨ ، ١٠٨ ، ١٩٨ ، ١٩٨ ، ١٩٨ المسودي ١٩٧ ، ١٩٨ المسودي ١٩٨ عبرية ١٩٨ عبرية ١٩٨ عبرية ١٩٨ عبرية ١٩٨ عبرية ١٩٠٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ المسيلاميين ١٩٠٣ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٨ المسيلاميين ١٩٠٣ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٠ المسيلاميين ١٩٠٣ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٠ المسيلاميين ١٩٠٣ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ، ١٩٠ المسيلاميين ١٩٠٣ .

(غ)

الغال ۷۲۲ الفجر ۹۱۳ ۱۰۳۹ الفجر ۹۲۲ ۱۰۲۷ غرناطة ۱۰۲۹ غرناطة ۱۰۲۹ غليوم الثانی ۸۰۸ غليوم دی نوجاريه ۹۱۳ نمالائيل ۲۰۷

(4)

قاتيبو سيكرى ٩٥٩ قاحار ١٠٤٥ ، ١٠٤٠ قاحار ٢٢٧ قارنجيين ٢٧٨ قاطعة ١٠٣١ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣١ قاطعة ١٠٨١ قاطيون ٢٨٨ ، ٨٨٨ قاليريان ٢٤٧ قرر وقيوس ٢٠١١ قرر المنجليكو دافيسولى ٢٠٢٠ قردريك الأول ١٨٨ ، ٠٠٠ ، ١١١٠ قردريك الثانى ٢٠٠ ، ٨٩٠ ، ١٨١٠

قسطنطين الأكبر ۲۱۳ ه ۷۱۷ ، ۷۱۷ ، ۷۱۸ ، الفن العربي ٨٣٣ 47 . 4 40 Y 6 VA . 4 VY4 4 VTA 4 VY1 فن العارة ١٠١٣ القسطنطينية ٧١٩ ، ٧٢١ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، فن المارة الإسلامي ٨٦٢ الفن القوطي ٩١٧ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ * A O Y (A O T (A) A (A) Y الفن الهليق ٨٣٤ 6 1 - 14 6 4 21 5 4 2 + 6 4 44 6 4 7 A الفن الهندي ٩٦١ 1.79 6 1.77 فن لائد ١٥٨ فشتالة ١٠٣٢ الفنون ٧٦١ قصر اللاتيران ٨٩٨ ، ٨٧٨ ، ٨٩٤ ، ٩٠٤ فنون اليونان ٧٤٦ القطالونيين ١٠٢٨ قو ۲۹۱ ، ۷۹۱ قطب ٩٢٥ قطبغا ۹۳۲ ، ع ٥ فوستا ۷۱۷ القلموق ٥٥٠ فيروشيو ١٠٢٥ قو دلای خان ۹۳۱ ، ۳۲ : 444 . 444 فيريولام ٩٩٦ . 48V . 444 > 44V . 447 . 4'0 فيضي ٥٥٩ 44. 6 484 القيك أنجز ١٥٨ ، ٧٧٧ قورش ۹۱۷ ، ۹۵۰ فیلا سکویز ۱۰۲۱ القوزاق ٥٥١ الما ١٠٥٢ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ فيليب القوط ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٣٩ ، ١٧٨ فيليبو ليبسى ١٠٢٣ القوط الغربيين ٢٧ ، ٨٣ فيون ١٠١٩ القومية ٢٦٨ قبافا ۲۰۳ (3) القيصر الرب ٧١٣ (4) القانون الدانيمركي ٥٢ ٨ قاليقوط ١٠٣٠ الكماتدرائيات ٩١٦ قياد ۷۲۹ ، ۷۸۱ م الكاثاريين ٩٠٤ القبحاق ۷۳۲ ، ۱۹۹ ، ۹۵۴ کاٹای ۷۳۷ ، ۹۴۰ قبدوقية ١٩٨ الكاثوليكية ٩٧٧ ، ٩٧٧ القدس ٢٢٤ کار ای ۲۴۰ القديس بطرس ٩١٣ الكارلوفنجيين ١٦٨ القديس لويس ٨٩٣ كاريا ه٧٤ القرآن ۸۲۱ ، ۸۲۱ کاسیودوراس ۷۳۲ ، ۸۲۸ ، ۸۳۰ طاحنة ١٠٢٧،٩٨٨

کاکستن ۹۸۷

كاميانللا ١٠٥٧

كاميالوك ١٩٢٧ ، ٩٤٠

(o Y m aslh)

قرطبة ٨٢٩ ، ٨٣٠

قره قورم ۱۵۷

قریش ۷۸۹ ہ

کورتیز ۲۰۳۴ ، ۱۰۳۰

كامونس ١٠٢١ کوستر ۹۸۷ کانتربری ۱۹۸۸ کوشان ه ۷۰ كانوسا ٩١٠ کوکای تشیه ۷۷۲ كانوت الأكبر ٨٧١ الكولوزيوم ٧٣٠ کانیشکا ۵۰۰ ، ۸۷۸ کولمبس (خرستوف) ۱۰۲۸ ، ۱۰۳۰ ، ۲۰۹۶ کوماجين ه پر الكاهن ٩٦٨ كونراد النالث ٨٨٨ کیلر ۱۰۰۷ كوثراد الثانى ٨٦٧ الكتابة ۲۲۷ ، ۲۲۹ ، ۷۷۷ کونستانس ۹۱۰ ، ۹۱۰ كراسوس ٤٠٠ ، ٨٠٧ کونفوشیوس ۲۹۹ ، ۷٤۲ ، ۵۰۰ کروم ۱۵۸ ، ۱۷۸ الكيماويون ٢٠٠٦ کیپف ۹۲۸ ، ۹۲۹ كرومويل ١٠٤١ N.11 2 (1) کریسپوس ۷۱۷ اللاتيران ٥٠١، ٥٧٩، ١٠٩، ١١٩، ١١٩، كسرى الأول ۷٤٢ ، ٥٥٠١ كبسرى الثاني ۷۶۲ ، ۸۸۸ ، ۸۰۰ ، ۸۹۱ لاس كاساس ١٠٣٥ لاهورتسي ۲۹۹ ، ۲۷۰ ، ۷۸۰ ، ۲۲۹ الكعية ٧٨٣ اللغات الألمانية ٨٤٣ الكلت ٢٤٦ اللغات الصقلية ٧٧٦ الكلدانيون ٧٨٢ التركونسندية ٥٧٨ كلمنت الخامس ١٤ كلمنت السابع ١١٤ لندن ۱۰۱۳ ، ۱۰۱۳ کلیر مونت ۸۸۰ لوتزو ۸۸۰ الكمان ٢١ لوثر ۲۰۲۰ ، ۱۰۴۷ ، ۱۰۲۰ الكن ٢٦٩ ، ٩٢٨ اللوحة المصورة ١١٨ الكنيسة ۲۲۲ ، ۹۰۸ ، ۹۸۸ ، ۲۰۲ ، ۲۰۲ ، اللوسيادة ١٠٢١ c 414 c 414 c 411 c 41 + c 4 + 4 " لوشاو ۱۰۵۱ . 444 . 447 . 44. . 484 . 4YO اللومبارد ۷۲۷ ، ۷۳۳ ، ۲۳۷ 1.44 . 447 لويس ۲۸، ۱۲۸، ۸۸۸ ، ۱۳۴ الكنيسة الأرثوذكسية ٧٢٣ لویس الحادی عشر ۲۰۱۱ الإنجليزية ٩٩١ ليبانتو (معركة) ٩٩٦ ، ١٠٢٧ الغربية ٧٢٣ ليجآز (معركة) ٩٢٩ ، ٩٣١ الكاثوليكية ٨٥٣ ، ٢٠٥٦ ليكيا ٨١٨ كهنوتية ٧٢٠ ليو الإيسوري ١١٨ كوپرٹيكوس ١٠٠٧ ليد الثالث ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٩١٠

ليو العاشر ه ي ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٨

ليوفنهوك ١٥٠٩ المحلس الامبر اطوري ٣٩ ليوناردو دا ڤنشي ۲۰۰۷ ، ۲۰۲۳ مجلس بال ۹۸۰ ليويو ٧٦١ م ترنت ۹۹۷ « شيوخ (سناتو) ٧١٨ (4) « (کنسی عالمی) ۷۲۰ « کوئستانس ۸۷۸ ماجلان ۱۰۳۱ مجسم بازل ۱۱۵ ماجئوس ۲۰۰۲ مجسم نيقيا ٧٢١ مارتن الخامس ۹۱۰ ، ۹۱۵ ، ۹۷۸ ، ۹۷۹ الحجوس ۸۰۱ ، ۸۰۳ مارتن لوثر ۹۹۲ ، ۱۰۵۱ محاكاة الطبيعة (التشكيل النمثيلي) ١٩١٩ مارك سايكس ٧٤٣ ، ٢٤٨ محاكم التفتيش ٩٠٩ ، ٩٣٥ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ مارکو پولو ه ۹۳ ، ۹۳۸ ، ۹۳۸ ، ۹۶۰ ، محكمة التفتيش البابوية ١٠٨ 1.44 6 1.44 محمد (صلی اللہ علیہ وسلم) ۲۹۰ ، ۷۰۰ ، ماکیاڤللی ۱۰۳۷ ، ۱۰۳۸ ، ۱۰۳۷ ، و ۱۰۹۰ E VA 4 6 VA 7: 6 VA 1 6 V7 7 6 Y44 1 . 07 6 1 . 27 6 1 . 27 6 1 . 21 6 A10 6 A17 6 A 6 6 A 1 6 V1. مانتنيا ١٠٢٢ 4 A 1 4 A 7 7 4 A 7 7 6 A 7 4 6 A 1 7 مانکو خان ۹۳۱ ، ۹۳۶ AAA الماندرين ۲۸۸ ، ۷۲۹ ، ۱۷۷ محمد (الفاتح) ه ۴ ، ۱۰ ۱۱ مانزی ۹۳۷ مائزیکرت (معرکة) ۸۷۷ محمد بن موسى ٨٣٠ المانشو (أسرة) ١٤٨ محمد الثاني ١٠٤١ مانی ۲۰۱ ، ۲۰۲ ، ۲۰۱ المخالفون ٩٩٣ المانوية ١٥١ ، ٨٢٠ المحطوطات ٢٦٨ المانويين ٢٢٢ المدائن ۲۱۲ ۷۲۲ ، ۲۲۷ المبعوثون المانويون ٥٥٣ المدرسانيون (العلماء) ٩٩٩ ، ١٠٠٧ المترحلة (الشعوب) ۹۲۷ ، ۹۲۹ 1+14 0441 متي ۹۹۰ المديشيون ١٠٤١ مثراس ۹۹۳ المدنية المبينية ٧٧١ المثراثية ٢٠٦ ، ٧٠٨ ، ١٥٧ مالية ، ۷۷ ، ۹۸۴ ، ۹۸۹ ، ۹۷۰ غلله ألجحالدون ۲۰۷ ، ۲۱۳ المدنة ٢٧١ ، ٨١٧ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٨ ، 1 . 10 4 1 . 17 4 77 . مجمع العزيمة والإرادة ٩٦٧ w العقيدة والطاعة ٩٦٧ ، ٤٧٨ مدينة الرب ٩١١ ، ١٠٥٦ ٠ مدينة الشمس ٧٥٥٠ مجسمات الإرادة ٩٦٩ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ مدينة الله ٩٠١ مجتمعات الطاعة ٩٦٩ مذهب الإسميين ١٠٠٥ المجريون ٧٢٧

میدیتشی ۱۰۱۷ ، ۱۰۳۹ المير وڤنجيين ٨٤٦ المنزوزو ٢٧٧ ميشيل أنجلو ١٠٢٠ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ میکلا جارد ۸۵۲ ميهير اجولا ه ه٧ (U) نابليون الأول ٩٠٠ ، ٥٥٥٠ الناصريون (الناصري) ٧٠٦ טעטו עעע النبط ٧٤٦ النحت (انظر فن) ١٠٢٥ تخاو ۲۰۲۷ النساطرة ٨٢٨ ، ٤٣٤ اللسطورية ٧٤١ ، ٩٢٤ النسطورين ٧٦٢ ، ٩٣٨ نظام الإقطاع ٨٣٩ نظام الاستحان ٧٦٩ نظام تعليمي ٩٦١ نظام العلوائف ٢١٩ نقنرر ۹۵۸ النقود ٥٩٧ نوجاريه ١٣ ٩ التورمان ١٠٢٨ النورمانديين ۲۷۸ ، ۷۷۸ ، ۲۸۸ تورمبريج ١٠٥١ النهضة ١٠٢١ نوستريا ٢٤٨ ، ٥٤٨ توقیمورود الکیری ۸۷۰ ، ۸۷۲ ، ۲۰۱۳ ، 1.17 نيرون ۷۰۷ ، ۱۳۲ نيقولاس الميري ٧١٩ ئيوميديا ١١٤ ، ٧١٨ ، ٧١٩ نيقية (أنظر مجسم). نينوي ۲٤٠ ، ۲٤٣

المذهب الاعتقادي (الحتمي) ۸۳۰ ، ۹۰۲ ، ميخانيل سكوت ۸۹۹ 1 المذهب الواقعي ه٠٠٠ مراد ۹٤٢ مرقص ۹۹۰ مریم ۲۰۹ المزدكية ٧٥٢ ، ٨٠٣ مسيا ه٧٠ المسيم ٥٠٥ * المسيحية ٧١٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، 944 6 940 6 404 6 40+ المسيحيين ٢٠٨ مصبر ۲۸۷ معاوية ١١٨ معركة الإيسن ه ٨٨ المغول ۹۲۳ ، ۹۲۳ المقنع ٨٢٣ مكابين ٦٨٨ ٨٢٠ ١ ١٤ ١ ٧٨٣ تح مكسميليان ١٠٤٤ ملتون ٢٠٢٠ 971 LSL الماليك ١٥٤ مملكة السهاء ٢٩٤ ، ٢٩٤ منبر (أسرة) ۷۲٤ ، ۷۲۹ ، ۹۳۵ ، ۹٤٨ ، 40. 6 484 المنصور ١٢٣ موالی اُرشن ۲۱۹ ، ۴۳۱ ، ۹۸۳ ، ۵۸۸ الموت الأسود ٩٨١ موست (مدينة) ١٧٩ الموسيق ٧٣٦ ، ٩١٩ مونتزوما ۲۰۴۴ مونتين ١٠١٩ مونتي كاسينو ٧٣١ سوهاكس ١٤٧ ميخائيل ۾اليولوجوس ٩١٤ « السابح ۸۷۷

نيوتن ١٠٠٨ (A) هابسبریج ۸۹۸ ، ۱۰۶۳ ، ۱۰۶۶ هادریان ۲۳۰ هارقی ۹۰۰۹ هارون الرشيد ۲۲۳ ، ۸۲۱ ، ۸۲۱ هاری چونستون ۲۰۲۷ مان ۷۵۷ ، ۸۵۷ ، ۲۷۷ هانز هولين ٢٠٢٤ الهانسا ۱۰۲۷ ، ۱۰۳۱ ، ۱۰۲۷ ا مانو ۱۰۲۷ الهجرة ٧٩٠ ، ٧٩١ الهراطقة ٩٠٣ المرطقة ٧١٢ هرقل ۲۹۹ ، ۷۶۷ ، ۷۶۷ ، ۱۸۱۷ ، ۸۰۷ A41 6 A1 * هرمز ۵۰۰ ، ۱۵۷ ، ۱۳۷۷ 1+57 6 1+57 000 الحسيين ٩٩١ هشام (این) ۷٤۹ الهكسوس ٧٨١ ملدبران ۲۷۹ ، ۹۹۰ الملينية ٧٨٧ الممجية ٥٢٧ المند ٧٢٢ الهندو إسكيديين ٧٤٠ ، ٥٥٧ الحندوس ٥٥٩ الهندركية ه ه ٧ هنری الثامن ۱۰۲۰، ۲۰۱۱، ۲۰ م ۲۰۶۵، ۲۰۹۹، 1 . . . عنری الخامس ۱۰۱۱ هتری الرابع ۹۱۰ هرى السادس ٨٨٧

هر السابع ١٠٢٩

هنرى المسيأد ١٩٧٧ ، ٨٧٤

هوبارت ۱۰۲۲ مولاکو ۹۳۱ ، ۹۲۲ ، ۹۳۹ ، ۹۳۹ ، ۹۵۴ ۵ . 947 6 908 فومايون ۲۵۹ ألحون ٩٢٣ هون أتيلا ه ٥٧ هونوريوس الثالث ٨٩٨ هوهنشتاوفن۸۹۸ ، ۱۰۱۲ ، ۳۶،۱ هير و دوت ۷۳۸ ، ۷۷٤ ، ۸۰۸ الهيرودين ۸۸۸ ، ۲۹۷ الهيروديين المهلنين ٩٩٧ هیلاس ۱۸۸ هیلانه ۷۱۷ ، ۸۹۱ هیلینا ۲۶۲ هیوکابیت ۱۰۱۱ (0) وات تیلر ۸۸۶ الواقميون ٢٠٠٠ ٢٠٠٢ والنو ١٠٤ ، ٧٠٨ الوالدونيون ٤٠٤ وباء ٧٢٩ الوثنيين ٨٢٠ الورق ۸۳۲ ، ۹۸۷ ، ۸۸۸ ، ۲۰۳۲ وستمنستر ١٠١٦ ولزی ه ۲۰۴ ألولميد ٨١٩ ، ٨٢١ وليم ۸۷۱ وليمْ تل ١٠٤٣ وليم والاس ٢٠١١ الولد ۸۸۸ ویسهم ۱۰۱۳ ویکلف ۹۰۹ ، ۹۱۶ ، ۹۱۶ ، ۹۷۷ ، ۹۷۸

1 . 27 6 9 8 1

يهود التشتت ١٨٨

اليهودى ٢٨٨ اليهودية (في أرض أو بلاد اليهودية) يوان ٣٩٦ ، ٩٣٥ ، ٩٤٩ ، ٩٤٩ يوان تشوانج ٢٧٤ ، ٩٧٧ ، ٧٧٧ ، ٢٨١ ٢٨٦ يوان شوانج ٢٧٤ ، ٧٧٧ ، ٧٧١ ، ٢٨١ ٢٨٦ يوحنا الثاني عشر ٢٦٨ ، ٨٧٨ ، ١٩٠ يوحنا العائر ٥٦٨ ، ٨١٠ يوسبيوس ٩١٧ يوسبيوس ٩١٧ يوغوسلاف ١٤٠

يوليوس الثالث ١٠٨٣

يوليوس قيصر ٨٤٩

(ی)

یانج تشر ۹۳۹

یانج تشر ۹۳۹

یثر ب ۹۸۷ ، ۷۸۷

البر مول ۷۰۷

یسوع (عیسی) الناصری ۱۸۵ ، ۱۸۹ ، ۱۹۹۶ ، ۱۹۹۶ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۰۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۹۲ ، ۱۹۷۲ ، ۱۹۲۲ ، ۱۹۷۲ ، ۱۹۷۲ ، ۱۹۷۲ ، ۱۹۷۲ ، ۱۹۷۲ ، ۱۹۷۲ ، ۱۹۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۱۲ ، ۱۲ ، ۱۲ ، ۱۲ ، ۱۲ ، ۱۲

التعريف بالمترجم

هو عبد العزيز محمد توفيق عزيز جاويد .

ولد بالقاهرة سنة ١٩٠٧ : وحصل على ليسانس في التربية والآداب من المعلمين العليا (١٩٢٩) ، واشتغل بالتدريس ، حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥٩) ، فديراً للمركز الرئيسي للتدريب بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣) . وشغف منذ حداثته بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية . واهم بنوع خاص بالترجمة ، فنقل الكتب التالية إلى العربية :

(أولا) في التاريخ وفلسفة التاريخ :

- ١ د معالم تاريخ الإنسانية » ه . ج . ولز (بلحنة التأليف)
- ٢ • موجز تاريخ العالم » [الألف كتاب] ه . ج . واز ـ (مكتبة النهضة)
- ٣ « أعلام وأفكار » للمؤرخ الهولندي هويزنجا (الهيئة المصرية العامية)
- ٤ « التاريخ وكيف يفسرونه » ألبان ويدچرى (الهيئة المصرية العامية)

(ثانياً) في تاريخ الحضارات :

- ٥ ١ حضارة الإسلام» [الألف كتاب] لجوستاف فون جرونيباوم.
 (مكتبة مصر)
- ٢ « الحضارة البيرنطية » [الألف كناب] رنسيان . (مكتبة الهضة)
- ٧ « الحضارة الهلينستية » [الألف كتاب] تارن . . . ر مكتبة الأنجلو)
- ۸ « ميلاد العصور الوسطى» [الألف كتاب] موص . . (عالم الكتب)
- ٩ ـ « اضمحلال العصور الوسطى » هويزنجا (المجلس الأعلى)

(ثَالثاً) في علم النفس والتربية :

- ١٠ « مدخل إلى علم النفس الحديث » [الألف كتاب] زانجويل (مكتبة الآداب)
- ١١ « الحضين والطفل في ثقافة اليوم » : [الألف كتاب] جزل (الكرنك)
- ١٢ « الطفل من الحامسة إلى العاشرة » : « جزل (لحنة التأليف)

١٣ ـ « الشـباب» : [الألف كتاب] جزل (الأنجلو) وهي [ثلاثية أرنولد جزل في ربية الأطفال وسيكولوجيهم

12 ــ « الطفولة وما بعدها » : تحت الطبع سوزان إيزاكس

١ - « سلوك الأطفال » : تحت الطبع الدكتوة فرنسيس إيلج .

(رابعاً) كتب في السياسة والثقافة العامة والفنون :

17 - « آسيا والسيطرة الغربية » : السردار بانيكار الهندى (الهيئة المصرية العامة) ١٧ - « حول منع الحرب » . . . چون استراتشى (الهيئة المصرية العامة) ١٨ - « التطور في الفنون » توماس مونرو (الهيئة المصرية العامة) ١٩ - « التربية عن طريق الفن » : [الألف كتاب] هربرت ريد (لجنة العلمية) الأجهزة العلمية)

 $\gamma = 1$ أليس في أرض العجائب γ لويس كارول (لجنة الروّاد) $\gamma = 1$ $\gamma = 1$ أحلى كنوز الأقدمين $\gamma = 1$. (قصص للأطفال تحت الطبع) $\gamma = 1$. (قصص عالمية) أرنولد بينيت

وذلك عدا ترجمة مقالات في كتاب « تاريخ العالم لهمرتون » « مكتبة النهضة » ونشر أبحاث في بعض المجلات الأدبية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٥٠٦ I.S.B.N 977-01-3993-9



هذا الكتاب هي يدل عليه اسمه موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروه قصتها الأحيب الإنجليزه الشهير ج.ه ويلز. والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصدر في أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الكوق والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره ثم ظهور الإنساق والأجناس القديمة المندثرة. ويعرض لفكر الإنساق البحائي ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم لأقحم الحضارات في مصر والعراق والهنج. أما الجزء الثاني فيعرض للحضارة الإغريقية والهلينستية والرومانية، ولمحة عي تاريخ العبرانيين، أما الجزء الثالث فيعني بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.

